منشورات ضفاف
Editions Difaf

منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef

حيدر موسى

ملوك الباطن

رواية

واقعية صوفية

ملوك الباطن

طبع في لبنان

ملوك الباطن
رواية

واقعية صوفية

حيدر موسى

منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef

منشورات ضفاف
Editions Difaf
editions.difaf@gmail.com

الطبعة الأولى

1440 هـ - 2019 م

ردمك 978-614-02-4284-5

جميع الحقوق محفوظة

منشورات ضفاف
Editions Difaf
editions.difaf@gmail.com

هاتف بيروت: 9613223227+

منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef

9 شارع محمد دوزي برج الكيفان

الجزائر العاصمة

هاتف 0776616609

e-mail: editions.elikhtilef@gmail.com

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأيَّة وسيلة تصويرية أو الكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أيَّة وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ

المعلومات، واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

لوحة الغلاف من تصميم الفنان سهيل الجابري

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الناشرين

إننا لا نرى الأشياء كما هي.. بل نراها كما نحن

أنايس نن

لا أنصح القارئ أن يتخذ من هذا الكتاب مصدراً للكثير من المعلومات التي ترد فيه

ح٠م٠

THE MASTERS OF MYSTICISM

Sufi realism

NOVEL

HAIDER MUSSA

We Don’t See
Things as They
Are, We See
Them as We Are

Anaïs Nin

الفصل الأول
هِبش

(1)

1898

فجر يوم غائم، أوائل شباط، قرية الگاظر...

سَلَك حجّي جْعاز، فلاح عجوز، طريقه مع حماره بين حقول الأرُز، نزولاً مع نهر الويساوية، كعادته كل صباح. ومع بلوغه هور عْوَيدة، المستنقع

الضحل الذي ينتهي إليه النهر، لمح من على ظهر حماره هيئة إنسان مغمور في الطين، ملقى هناك، دون حركة. نزل من حماره ليدقق في الأمر، اقترب منه، فإذا به صبي في حوالي العاشرة من عمره، مستلق على جنبه، عاري الجسد تماماً، تكور على نفسه بوضع جنين، وقد إزرقّ جلده من البرد. يبدو كما لو أنه تُرك هناك لساعات، فاقداً الوعي، في منطقة ما بين حياة وموت. ورغم ذلك ترى ملامح وجهه وقد استقرت باسترخاء، ليس ثمة أثر لذرة إجهاد أو تألّم، ملاك صغير استغرق في غفوة.

لفت انتباه العجوز في الصبي أمران: شعره، ناعم، ناصع البياض يبهر الناظر، قد طال إلى ما دون كتفيه، وأظافره التي نمت كمخالب. بسمل حجي

جعاز وحوقل. تلفت حواليه، لم يكن في المكان سواه. توكّل واستجمع قواه ليرفع الجسد من الوحل، لفه بعباءته، ألقاه على ظهر حماره، ثم توجه به مباشرة الى رئيس عشيرته، الشيخ زغيّر البهدل، وكان هذا حينها يبيت في بيت امرأته الثانية زينب.

الكاظر، قرية صغيرة تابعة لغمّاس، إحدى نواحي قضاء الحميدية، (الشامية لاحقاً)، تقع على مسافة حوالي مائتين وأربعين كيلومتراً جنوب-ي بغداد. تضم القرية نحو خمسين بيتاً يسكنها آل صبراوي، فخذ من قبيلة خفاجة، يمتهنون زراعة الشلب، وبالتحديد العنبر. وتعود أغلب حقولها لشيخهم زغيّر البهدل. والتي تمتد على ضفتي نهر الويساوية قبل أن يتلاشى في الهور. النهر هو في الحقيقة جدول صغير يخرج

من شط غمّاس المتفرع بدوره من الفرات. كلما توغل الجدول جنوباً ازدادت ضحالته ونضب ماؤه بسبب سواقي السيح التي تُفتح على حقول الأرُز من جانبيه، حتى ينتهي تماماً في مستنقعات صغيرة ضحلة، أطلق الأجداد عليها اسم هور عْوَيدة، إلا أنها الآن لم تعد هوراً، لم يبق منها سوى راسب غريني أحمر وأسود، قوامه متماسك أقرب للّزوجة. المكان ذاته الذي عُثر فيه على الصبـي ذي الشعر الأبيض.

تطلّع الشيخ زغير في هيئته الغريبة بعد أن استمع الى رواية الحجّي وكيف عثر عليه. تعجب كثيراً. لم يكن لدى الاثنين أية فكرة عمّن يكون ذلك الصبـي او لأي بيت يعود. أبقاه في بيته وطلب من امرأته زينب أن تعتني به لحين ظهور من يسأل عنه.

أدخلت زينب الصبـي في الحال إلى الحمام، مسحت جسمه بماء دافئ، قلمت أظافره ووضعت عليه ملابس لابن لها كان بعمره. لم تجرؤ ان تحلق له شعره الأبيض الطويل، خشيت أن يخالف ذلك رغبة أهله، فقد يأتون لأخذه في أية ساعة.

بعد الحمام، مدته على فراش نظيف ودثّرته بثلاثة لحف. مرت ساعات، بدأ جلد الصبـي يستعيد لونه بالتدريج، الا انه بقي فاقداً الوعي، هيّن النفس، حتى يظنه المرء جثة هامدة.

لاحظت زينب فيه، بعد أن حممته، أشياء غريبة لفتت انتباهها. فبالاضافة الى شعره الأبيض، كان له حاجبان أبيضان مرسومان بعناية، رموش سود طويلة وكثيفة، وبشرة سمراء أقرب للزيتوني، لا تمت

للون مناطق أهل الجنوب بصلة، ولم يكن مختوناً. تتوسط جبهته دمغة غريبة، لا هي بالوحمة ولا هي بالوشم، عبارة عن رسم أشبه بتمرة كبيرة منتصبة، مقسومة من منتصفها بالتساوي، أحد نصفيها غامق والآخر فارغ. سألت لاحقاً زوجها الشيخ عن ذلك، فحار جواباً.

بقي الصبـي على تلك الحال، هزيلاً بشكل لافت. لعل معدته ظلت فارغة لفترة طويلة. حرصت زينب أن تقطر في فمه ماء محلى بسكر. وجربت معه عدة أمور لإفاقته، أعادت قراءة المعوذتين في أذنيه عشرات المرات، ملأت الحجرة بالبخور الهندي، قشّرت تحت أنفه بصلاً، هزته بقوة، دقت بالهاون قرب رأسه.. لا فائدة.

مرت عليه ثلاثة أيام وهو أقرب للموت منه الى الحياة. نصحها بعض أهل القرية ان تجرب السعوط النجراني، على أن تمزجه بفلفل أسود، جربته. غرفت بكفها حفنة كبيرة من المزيج وقربتها إلى منخري الصبـي. لم يستجب في البداية، الا ان تنفسه شابَته بعض ربكة، وتخللته اختلاجات صغيرة، كالسادر في كابوسه، ثم توقف شهيقه وزفيره تماماً، وبقي هكذا للحظات... انقطع النبض، هوى قلب زينب هلعاَ، توقف الزمن من حولها تماماً، بدا الصبـي لها في تلك البرهة وحيداً نائياً، ألفت نفسها حائرة أمام ذلك الوضع الميئوس منه، لا حول ولا قوة، جذاذة رماد تطوّحها الريح.... لكن فجأة انقلبت الأمور... انطلقت من الجثة عطسة مدوية ارتجّت لها أركان المكان، ردة فعلها جعلت الصبـي ينتصب بنصف جذعه جالساً.

جفلت زينب وارتدّت الى الوراء.

ظل الصبـي جالساً في مكانه للحظات، ساكناً، كفرس النبـي، عيناه ما زالتا مغمضتين. رفّت رموش جفنيه بالكاد، انفرجتا شيئاً فشيئاً حتى المنتصف، بقي هكذا شاخصاً الى الأمام دون أي انطباع يُقرأ على وجهه. دمية في واجهة. ثم أخذ يجول ببصره في المكان ببطء. مرّ بنظره على زينب، الواقفة قربه بلا حراك، دون أن يبدو عليه أنه لاحظها. وحينما تحركت باتجاهه، شعر بوجودها، وتطلع اليها بعينين سوداوين فارغتين.

همس لسانها بأدعية وصلوات، حرصت أن لا تفزعه، جلست قربه، مسّدت رأسه، أنسَ الصبـي لدفئ كفيها، أمالَ رأسه ناحية صدرها، فلم تقاوم

رغبتها في احتضانه، ضمت ذراعيها حوله. استكان هناك مثل قط اليف، وندّت عنه أصوات خفيضة لشخير، كأنها نزيب ظبـي، ثم لف بدوره ذراعيه الضعيفتين حولها، وسحب جسمه ناحيتها، فأحست بحرارة أنفاسه على رقبتها... فإذا بسورة مشاعر قوية اخذتها بكُليّتها نحو ذلك الكائن. تنهدت تنهيدة طويلة، كأنها إعلان عن انتهاء مرحلة وبدء مرحلة جديدة. فاضت عيناها بالدموع. شعرت فجأة بانتماء جارف لذلك الجسد النحيل لم تشعره من قبل مع أي من أولادها. منذ تلك اللحظة أرادت زينب أن تُبقي الصبـي في بيتها، كرهت أن يأتي اليوم الذي يطرق فيه أحد من ذويه بابها يسأل عنه.

كان للشيخ زغير من زوجته الأولى أربعة

أولاد جميعهم ذكور، أعمارهم بين العشرين والسابعة والعشرين. ومن زوجته الثانية زينب، أربعة ايضاً، ثلاث بنات ما بين الثانية عشرة والرابعة عشرة، وصبـي واحد في الحادية عشرة، اسمه راقب. هذا الأخير يعاني قصوراً ذهنياً منذ الولادة، فهو عنيف وخطر في أغلب الأحيان مع كل من يدخل حجرته، باستثناء أمه.

سألت زينب الصبـي عن اسمه وعما إذا كان جائعاً. بقي يتطلع الى حركة شفتيها بلا أدنى استجابة. كررت، لكن دون جدوى. عجيب، أيعقل أن تكون حاله شبيهةً بحال ابنها؟ ظنت ان الله بعثه إليها ليختبر صبرها، كانت امرأة طيبة شديدة الورع، وقد تقبلت ذلك الابتلاء. فكّرت:

"لعل الله أراد أن يرحم هذا الصبـي، فأرسله إليّ لأعتني به، فسبحانه؛ سبق وأن ألهمني كيف أرعى من هو في حاله".

نهضت، خطَت ناحية الباب بنيّة إحضار طعام، زحف الصبـي خلفها حبواً على الأرض. التقطته من الأرض وأرجعته الى فراشه، ربتت على رأسه تطمئنه، ظلت قربه، نادت على أصغر بناتها لتحضر إليه ماء وطعاماً.

جاءت ابنتها بعد حين تحمل صينيه فيها ماء وخبز وحساء فروج. انزلت الصينية أمامه، ظلت تحدّق في ذلك الكائن الغريب بفضول. لفت وجود الفتاة في الحجرة انتباهه، تطلع اليها وأشار بإصبعه ناحية وجهها. ابتسمت، سألت أمها أن تلمس شعره، فسمحت

لها. مسدت الفتاة شعره الناعم ناصع البياض، فتسرب دفؤه عبر نسغها كموجة مدّ صاعد، انتهت مستقرة في زغب ساعديها وأسفل رأسها، فانتفضت حبوراً وشهقت بفرح كمن أصابه رشق ماء بارد، رمقتها أمها بشزر، فانسحبت هذه، وانزوت جالسة في ركن تتطلع في الصبـي مبهورة، ليس لديها رغبة في مغادرة الحجرة.

بقيت الصينية هناك، نظر إليها الصبـي للحظة دون أن يمدّ يده إليها. أعانته زينب على الشرب من الطاس، تلقاه بلهفة كأنه لم ير الماء في حياته من قبل، شربه بجرعات صغيرة متتالية، رافعاً رأسه الى الاعلى بعد كل جرعة، كما تفعل الديَكة، لعق آخر قطراته. كادت زينب أن تقسم، أنها رأت وجهه بعد

شرب الماء أخذ يشع ألقاً غريباً، كياقوتة مُسح عنها الغبار. تشجعت وقربت إليه قطعة خبز، لم يفتح فمه، أشارت بكفها إليه أن يأكل، ثم غيرت رأيها، تذكرت أن الخبز لا يصلح لمعدة بقيت فارغة لأيام. رفعت وعاء الحساء إلى فمه، جعلته يحتسيه بدفعات صغيرة، اختنق وسعل بعد أول حسوة، تركته دقيقة ليستقر، ثم واصلت حتى أتم الوعاء. إلا أنه سرعان ما استفرغ جميع ما في معدته دفعة واحدة.

ظل الصبي على هذا الحال بضعة أيام لا شيء يدخل معدته سوى الماء. جرّبت معه عصيدة البصل، خبز منقوع بالعسل، شوربة عدس، لبن خاثر.. جميعها لم تنفع، حتى خشيت عليه ان يهلك جوعاً. ثم حاولت أن تجرب الحليب، فلم يرجّعه من فمه، حمدت

الله. وداومت معه من بعد ذلك على الحليب فقط.

لاحظت زينب منذ الأيام الأولى أن للصبـي قدرة عجيبة على جذب اهتمام من هم قريبون من عمره، جميع بناتها كنّ يفرحن بالبقاء قربه والتطلع فيه، يلهجن بذكره ويتسابقن في خدمته. الأمر كذلك مع صبيان وصبايا الجيران، فمر في خاطرها سؤال هو أقرب للتمني: "ترى هل سيحبه ابني راقب أيضا إن رآه؟".

لم تنتظر طويلاً، تجرأت وفعلتها في اليوم التالي. حملت الصبـي الجديد الى حجرة ابنها، لم تكن لتعرف، على وجه التحديد، المدى الذي ستذهب إليه في اندفاعتها، أو لعله مجرد استطلاع عن بُعد فحسب.

كان راقب غافياً في الحجرة المخصصة له، والتي لا يدخلها أحد سوى أمه. عملاق صغير يستلقي على سرير خشبي غُرست قوائمه في الأرض. إحدى قدميه مربوطة بسلسلة غليظة مثبتة بإحدى قوائم السرير، وضُبِّرت كل من كفيه بقماش سميك لتقييد حركة الأصابع. جدران الحجرة غُلفت بجوخ مبطن بلبد، كما وغُلف كل ما هو صلب أو ذو زاوية حادّة في الحجرة، بالقماش واللبد. وأُخلي المكان من جميع الأدوات، باستثناء حوض صغير لاستحمامه، ومرحاض نحاسي متنقل لقضاء حاجته، رُكنا في زاوية بعيدة.

حرصت الأم مسبقاً أن تُبقي الصبي بعيداً عن متناول ذراعي ابنها راقب، فجلست قرب الباب

دون ان تحدث جلبة، وأبقت الصبـي الجديد في حضنها. لبثت تنتظر ابنها من هناك ان يفيق من غفوته. فكرت مع نفسها متمنية:

"لم لا؟ كل شيء جائز بجاه الزهرة أم الحسين".

انتظرت على ذلك الحال نحو ساعة، والصبـي الأبيض الشعر باق في حضنها، هادئ، يشير بإصبعه بين الحين والحين إلى راقب بفرح.

إخيرًا، تململ راقب في فراشه، اختفى صفير تنفسه فجأة، انتبهت زينب، تلك علامة تسبق استفاقته، أوثقت ذراعيها على الصبـي بحركة لا إرادية تحسباً لما هو آت. وانتقلت بجميع حواسها الى حالة تأهب

قصوى... قبل أن يفتح عينيه، انعقصت جبهته وتقوس فمه الى الأسفل، منزعجًا، وكأنه حدس حضوراً غريباً غير مرغوب فيه في الجوار.

انفتحت أجفانه ببطء شديد، أدار رأسه من مكانه وبدأ يتطلع في ذلك الغريب من هناك. أبطأ إيقاع تنفسه وأحكم ناظريه صوب الرأس الأبيض، لا يرمش ولا يحيد عنه قيد أنملة، باشقٌ يتفحص طريدته عن بعد قبيل الانقضاض عليها. شرع قلب زينب يدق بسرعة هائلة. لكن... ومع كل ذلك، أول علامة وجدتها مشجعة، لم يستفز الغريب، للوهلة الأولى، حفيظة راقب، كما هو الأمر مع أي شخص يدخل حجرته، ورغم ذلك ظلت نبضات قلبها تتسارع باضطراد، حبست أنفاسها وهي تراقب.

لكن الذي حدث بعد ذلك لم يكن حتى ضمن أقصى مديات تمنيها.. فجأة، انفرج فم راقب، الخالي تقريباً من الأسنان، عن ابتسامة، بوابة حصن صخري تنفرج للفاتحين، هو الذي لم يعرف الابتسام في حياته قط، عهدته أمه إما غاضب أو مقطب في أحسن أحواله.

نهض راقب من فراشه، حاول الاقتراب بما تتيحه السلسلة المربوطة بقدمه، انتعش وجهه، اتسعت ابتسامته، وبدأ يقهقه ويصدر أصواتا فرحة، كرضيع يرى ملائكة ترفرف من حوله، لم تره أمه قط على هذا الحال منذ ولادته. هزت بدنها سورة قشعريرة خاطفة، وصارت تضحك لضحكه بينما دموعها تجري. بدأ راقب يشير الى الصبـي وينظر الى أمه. فهمت منه انه يريد أن يلمسه... هل تفعلها؟ لو علم زوجها بكل هذا

الذي يجري من وراء ظهره، لنهرها أو ضربها أو هجرها دهراً في المضاجع. الا ان قلبها كان يدفعها خلاف ذلك. أدنت الصبـي من ابنها رويداً رويداً، حتى صار في متناول طرف كفه المضبّرة. مررها ببطء على شعره الأبيض وعيناه تلمعان دهشة، كأعمى انفتحت عيناه على جلال الشروق. جاهدَ بعدها أن يحلّ القماط عن كفيه فلم يفلح، نظر الى أمه باستياء وتوسل، فهمت ما يرنو إليه، هل تذهب أبعد من ذلك؟ كانت مسحوبة بعاطفة غامضة. وقبل أن تحسب الأمر جيداً مع نفسها، حلت عن ابنها رباط كفيه فتحررت أصابعه، سوداً متقرنة متيبسة من أثر الرزم، وبقايا أظافر مهشمة. أرسل أصابعه ببطء ناحية الصبـي الشاخص إليه، ديدان الخرطون تختبر طريقها بعيداً عن جحورها. ظلت زينب مستفزة من أي انقلاب محتمل.

وفي غفلة منها أفلت الصبـي الغريب نفسه من قبضتها، واحتضن راقب. شهقت هلعاً... لكن سرعان ما وجدت أن الأمر لم يكن كما ظنته. بدأ راقب يمسدّ على شعر الصبـي بحرص وتؤدة، ثم دنا إليه يلثم رأسه، جبهته، وجنتيه، كتوأم لقي توأمه الذي لم يره منذ سنين. راقبت الأم كل ذلك بذهول، وبقيت مشدودة، كفها على قلبها طيلة فترة جلوسهم قرب بعض، ظننت للحظة انها تحلم. وحينما همت بمغادرة الحجرة مع الصبـي، بكى راقب بصمت، دون أن تبدر منه أية إشارة عنف. "قادر يا كريم".

في مساء ذلك اليوم أخبرت زوجها بتفاصيل ما حدث، ففرح كثيراً لتلك المعجزة. وقال لها مادام للصبـي الجديد ذلك التأثير العجيب على ابنهما، فلم لا

تجرب أن تضعهما معا في حجرة واحدة. وفي اليوم التالي فكر أن يدخل هو نفسه على ابنه وهو صاح.

منذ أن جاوز راقب الست سنوات، لم يجرؤ الشيخ زغير الدخول إلى حجرته أو الاقتراب منه إلا وهو نائم. كان يرى في أبيه منافساً له في أمه. يستعر جنونه كلما رآه، وينتفض بشدة، يريد الإفلات من سلسلته والهجوم عليه ككلب مسعور. وحينما يعجز عن النيل منه، يمعن في إيذاء نفسه بالضرب على رأسه ورطمه بالأرض بقوة.

تردد الشيخ زغير كثيراً قبل ان يفعلها، شجعته زينب، أخذت بيده الى داخل الحجرة. وقف هناك متسمراً عند إطار الباب. أراد أن يختبر ردة فعله من بعيد قبل أن يقترب منه. انتبه راقب لوجود أبيه،

رمقه بعينين زائغتين، "يارب سترك"، ضاق صدره، ثم عصر نفسه، احتقن وجهه، يريد أن يطلق كلمات انحشرت في أوتار رقبته. فخرج منه صوت صدئ أقرب لـ "بوووو". التفت زغير الى امرأته مذهولاً مستفهماً، فقالت بصوت متهدج:

"لقد عرفك.. انه يناديك بويه".

تخضلُّ عيناه وتخنقه العبرة. كره الشيخ أن تشهد زينب لحظات ضعفه، فضيّع وجهه بعيداً عن وجهها، وجاهد ان يموّه عبراته بتنحنح وسعال. دفعته زينب بتؤدة ناحية ابنه. خطى مقترباً منه. الصبي ينظر اليه ويردد "بووو"... صار عنده... حضنه بحذر.. "بووو".. قبّل رأسه.. "بووي".. "بوووي".. "بووووي"...

قبل أن ينتهي ذلك النهار، ذبح الشيخ زغير خمسة خراف هرفية أولمَ بها لجميع أهالي قرية الكاظر ليشاركوه فرحته بـ "شفاء" صبيه. وقد أعاد عليهم في مجلسه تلك الليلة سردَ قصة الصبـي ذي الشعر الأبيض مع ابنه مراراً، وهم ينذهلون من تفاصيلها في كل مرة يرويها لهم.

نقلت زينب في اليوم التالي فراش الصبـي الجديد الى حجرة راقب، لكن فرشت لنفسها هناك ايضا لتبقيهما تحت نظرها وتراقب عن كثب، خشيت أن يؤذي راقب ذلك الصبـي المسكين. لكن مرت الأيام ولم يحدث أي شيء مما كانت تخافه. بل أَلِفَ الصبيان بعضهما البعض، وصارا يتفاهمان ويبتكران العابهما الخاصة. لاحظت زينب أن ابنها بدأ يضع على رأسه

قماشة بيضاء تشبها بشعر الصبـي. ولاحظت ايضا أن الصبـي الجديد كان قليل النوم بشكل ملفت. إن نام فمستلقٍ على الأرض مباشرة، دون حصيرة أو فراش.

ظل الشيخ زغير يتابع ما يدور في بيته بشأن الصبـي الجديد، وقد بدأ قلبه ينفتح له منذ ان شهد أثره الحسن على صبيه. تمنى في قرارة نفسه، هو ايضاً، أن لا يأتي أحد إلى بيته في يوم من الأيام يطالب به.

بدأ أهالي قرية الكاظر والقرى المجاورة يتسقطون أخبار ذاك الوافد الغريب منذ اليوم الأول لحلوله في بيت الشيخ زغير، وقد اشتعل فضولهم اكثر بعد ان سمعوا ما حصل لابن شيخهم مع ذلك الصبـي بمجرد لمسه له. كانت النساء يتحججن بشتى الذرائع لزيارة بيت الشيخ والتقاط أية معلومة او خبر عن

الصبـي. ولكون قدرته على النطق في البداية لم تتعد أصواتاً عجماً وغمغمات، كمن لم يعاشر بشراً من قبل، درج الجيران وأهل القرية على الإشارة له بـ "الهِبش" من باب المزاح والتحبب، ومعناه بالعامية الأبله بالفطرة، الذي يغمغم أو يدغم كلامه فلا يُفهم منه شيء. الا ان احداً لم يجرؤ على مناداته بهذا الإسم أمام زينب، ذلك أنه يغضبها كثيراً. ورغم تغير نظرة الناس إليه فيما بعد، خاصة بعد أن عرفوا بشأن كراماته. بقي الاسم دارجاً ولم يفكر أحد أن يشير إليه بأي اسم آخر. بل العكس، صار لكلمة الهبش بعد هذا الصبـي دلالة أخرى في تلك المناطق.

مر شهر كامل، ثم شهران وثلاثة دون أن يظهر أي شخص من ذوي الهبش يسأل عنه، رغم ان

أخباره انتشرت في جميع قرى الناحية بل وامتدت الى النواحي المجاورة.

تحسنت صحته خلال تلك الشهور، وشيئاً فشيء استساغت معدته أنواعاً أخرى من الطعام رغم أنها لم تكن كثيرة. فتعود أكل الخس والملفوف والريحان. ومن الفواكه، التمر والزيتون والكمثرى والسفرجل. ومن المطبوخ لا يتناول إلا ما يُحتسى، وبقيت نفسه تعاف البيض والجبن وكل انواع اللحوم. تعلم الفتى خلال بضعة شهور كيف يقف على قدميه ثم صار يمشي، ويتكلم، وينادي الشيخ "بوية" وزينب "يمّة". ثم سرعان ما طاوع الكلام لسانه وبدأ ينطق كلمات كاملة، ليتكلم بعدها بلغة سليمة، وإذا هو فتى سليمٌ خال من أي عيب او عوق، بل وجدوه ألمعياً شديد

الذكاء وسريع التعلم. كذلك كان كريم النفس يحب الجميع ويجدّ في مساعدتهم وإرضائهم.

بدأت زينب تضع لراقب والهبش مقعدين عند عتبة الدار، يجلسان عليهما أغلب نهارهما. لم تعد هناك حاجة لربط قدم ابنها بسلسلة او لفّ كفيه برباط، ترك راقب نوبات العنف والتكسير والصراخ ومحاولات إيذاء نفسه دون رجعة منذ ذلك اليوم الذي لمسه فيه الهبش.

صار الناس يجلبون مرضاهم الى الصبـي في مكان جلوسه عند عتبة البيت ليلمسهم بكفه. وفي المساءات يصطحبه الشيخ زغير معه الى حقوله ومن ثم مجلسه تيمناً به. في ذلك الموسم درت أرضه من الأرُز ثلاثة أضعاف ما تدره عادة، وحملت أشجار

البرتقال والليمون والنارنج من الثمر ما تنوء بحمله، وأثقلت عراجين النخل الزهدي بتمر ثماره كبيرة الحجم لم ير الناس مثلها من قبل، عُرف هذا النوع فيما بعد بإسم "زَينبة".

كل ذلك لفت انتباه أهل القرية والقرى المجاورة، عقدوا عموم الخير بحلول الصبـي فيهم، وزاد الطلب على فسائل "زهدي زينبة" يأخذونها من الكاظر ويزرعونها في مناطقهم. صاروا يتبركون بالصبـي ويصحبونه معهم لحقولهم، يطأ بقدميه ترابها، يلمس زرعها، يتبول تحت أشجارها، او يبصق على عتبات المنازل لفتح أبواب الرزق.

لم يكن الصبـي بدوره يتوانى عن مساعدة الناس في حقولهم وبيوتهم ومشاويرهم، كان ينجز لهم

أي شيء يُطلب منه دون مقابل. كان محباً للناس حسن الظن بهم، عطوفاً على الحيوانات بكافة أنواعها. حرص الناس أن لا يضربوا دابة أو يذبحوا حيواناً، او يقطعوا شجرة أمامه، عرفوا أن ذلك يحزنه كثيراً.

بقي الهبش في القرية، نسي أهلها أنه غريب، أحبه الجميع وتعودوا عليه بل صار واحداً منهم، يفتخرون به بين باقي القرى.

مرت سنوات، أخذ الشيخ يصحبه معه في جولاته خارج القرية. لكن حرصت زينب أن تغطي شعر الهبش وأعلى جبهته بغترة وعقال حتى لا يستثير منظره فضول المارة.

لوحظ في سلوك الهبش عدة أشياء ملفتة،

هوسه بحب الأرض والماء والخضرة، كان ما ينفك يندهش من جمال الموجودات من حوله كل يوم ويتوقف عندها كما لو كان يراها أول مرة. حتى ظنه الناس مشدوهاً ساهياً.

يستلقي في أيام الصحو في ظل شجرة توت، يرسل نظره في السماء، يسبرها، بدءاً بعينيه ثم بجميع حواسه ثم بكُليّته، يدع نفسه تتسرب الى زرقتها، حتى يكون هو نفسه تلك الزرقة، يلبث هناك صافياً ساكناً، إلى ان تسترعيه غيمة هائمة تنتشله من تماهيه قُبيل لحظة استحالته إلى محض ذرات مشتعلة، تهبط به درجات لتلحق بسرب أوزات مهاجرة، صيحاتها تنبري الواناً وأشكالاً شفافة تخترق جلده بنعومة. يطير السرب منخفضاً مع سطح الهور، يتسابق مع صورة انعكاسه

على وجه الماء، فيكون هو هو، هنا وهناك، الأصل والصورة معاً. يستحيل بذلك الوجد الى سديم دخان، يندمج برائحة التراب، فتتيه به ويتيه بها، ينقطعان عن العالم، يغوصان في بعضهما حتى يشفق أحدهما على الآخر من التلاشي، فيندفعان من قاعيهما إلى الأعلى، مستدلين بهسيس أكوان غاية في الصغر، تتشكل وتنطفئ على السطح، ينفصلان من هناك، ليكون وحده من جديد، لكن دون وزن، غير مُصور في هيئة، يستوي على السطح ويمتد ما امتد، لا تُعرف له حافة أو نهاية... فيهيم بذاته.. جذلاً، خالصاً... هو الجزء.. والكل.

(2)

1903

في يوم نيساني حار، قدم إلى القرية جماعة من الهنود يسألون الناس أن يدلّوهم على بيت الشيخ زغيّر البهدل. كانوا ثمانية رجال وقورين، لحى بيضٌ طويلة، وعمائم كبيرة صفرٌ فاقعة تنتهي بذيول طويلة،

يصطحبون معهم امرأة مقعدة طاعنة في السن، يحملونها في هودج مبهرج، على جمل. ومعهم دليل من البصرة.

اقتادهم بعض أهل القرية لبيت الشيخ، فرحب هذا بالرجال الثمانية ودليلهم بحفاوة واستضافهم في ديوانه. بينما بقيت المرأة العجوز في الهودج وقد أُرخيت حجبه دونها. خلع الضيوف نعالهم عند باب الديوان وتقدموا ليجلسوا على مقاعد متجاورة مقابل مكان جلوس الشيخ زغير، وقد أثنوا سيقانهم تحتهم، وأبقوا ظهورهم منتصبة باستقامة وانظارهم موجهة ناحية الأرض. ظلوا هكذا صامتين. بقي جميع أعيان قرية الكاظر من الحاضرين يرنون إليهم، يتحرقون شوقاً لمعرفة سبب قدومهم الى هذه القرية النائية

وسؤالهم عن شيخهم بالاسم. بينما التزم الشيخ زغير حلمه، وسلك بما توجبه أصول الضيافة، فلم يسألهم عن الغرض من قدومهم.

بعد ارتشافهم فناجين القهوة، نطق دليلهم. تبين لاحقاً انه الوحيد فيهم الذي يتحدث العربية، قال إن الجماعة جاؤوا على وعد بين تجار هنود من قومهم والشيخ زغير، قطع قبل عام، على الاتجار معه بما عنده.

قبل حوالي السنة اصطحب الشيخ زغير بعضاً من أهله في زيارة الى ضريح الحسين في كربلاء، وكان الهبش ضمنهم. استغرقت الرحلة، ذهاباً وإياباً، تسعة عشر يوماً. كلما قطعوا نحو خمسة وعشرين كيلومتراً على البغال توقفت قافلتهم

للاستراحة والمبيت في أحد الخانات الموجودة على الدرب. في طريق العودة، وحينما حلوا في خان شافي في طويريج قبل دخولهم الحلة، بقي الهبش عند فسقية تتوسط باحة الخان يمر فيها ماء جار، بينما توجه جميع من كانوا معه من أهله الى حجراتهم. قعد الغلام هناك على دوار حجري وغسل رجليه ثم رفع غطاء رأسه ليبلل وجهه وشعره، فاذا بحفنة نزلاء من الخان يبدو من هيئاتهم أنهم تجار هنود، اقتربوا منه واخذو يشيرون اليه والى العلامة الموجودة على جبهته ويرطنون فيما بينهم بانفعال. استرعى ذلك انتباه الشيخ زغير، تطلع من شباك حجرته الى المنظر فلم يرتح له، رغم انها لم تكن تلك أول مرة يثير فيها شكل الغلام وبياض شعره فضول الناس. فسارع إليه يسحبه من وسطهم. قابله الهنود بتودد وانحناءات مبالغ فيها

فتجاهلهم وأراد أن يمضي في طريقه، إلا أنهم استوقفوه بلطف ليسألوه عبر دليلهم العراقي ان كان ذلك ابنه فقال "نعم ابني، ولم السؤال؟". طمأنوه وقالوا له انهم أناس مسالمون لم يقصدوا إزعاجه، إنما استرعت انتباههم أخلاق الصبـي ونظافته، ثم هنأوه على حسن تربيته ودعوا له بالبركة.

في صباح اليوم التالي، وحينما كان الشيخ زغير وأهله يغادرون الخان، صادفه أولئك الهنود مرة أخرى، حيّوه بحرارة، لاحظ أنهم يعاملونه باحترام فائق. الزوار الهنود أناس مسالمون مؤتمنون لا يتوقع المرء منهم ضرراً، تذكر الشيخ ذلك فلعن الشيطان وتخلى عن جفائه غير المبرر لهم، تبادل وإياهم الحديث، عرف انهم تجار من مقاطعة بيهار، يجلبون

البخور والبهارات والحرير ويرجعون بالخيل والغنم. سألوه عن عمله وإن كان عنده ثمة ما يتاجرون به معه. قال انه يزرع الأرُز العنبر ولديه خمسة آلاف نخلة زهدية، قالوا انهم يشترون الغلة من المزارعين مباشرة قبل أن تصل مخازن السوق. فإن رغب فسيأتون إليه الموسم القادم يشترون منه أرُزه وتمره بسعر يرتضيه. وعدهم خيراً، إلا انه، بينه وبين نفسه، لم يأخذ كلامهم على محمل الجد. حسبه حديث عابري سبيل. الجميع يعرف ان الهند تبيع الأرُز ولا تشتريه. اما الزهدي فما هو الا بضاعة بائرة ينتهي أغلبها الى مخازن العلف. مع ذلك نزل عند رغبتهم فذكر لهم اسم قريته والناحية.

لم يخبر الشيخ امرأته زينب كيف كان الهنود يرمقون الهبش بنظرات غريبة بعد أن رأوه حاسراً،

النساء مهووسات بأثر العين على الصبيان.

مرت الأيام ونسي الشيخ أمر أولئك الهنود. وها هم يأتون اليوم حتى باب بيته ويفون بعهودهم قبل مرور عام على لقائه بجماعة من قومهم في طويريج. فكر الشيخ:

"عجيب، ما السر وراء تحملهم كل ذلك العناء لأجل شراء بضاعة كاسدة"...

"ام أنهم ظنوا أن بإمكانهم شراء الغلة بنصف قيمتها قبل أن تصل مخازن السوق...".. "او.. من يدري، لعله رزق من الله اتاه حتى عتبة داره، الله يرزق من يشاء دون حساب..".

"ليس ببعيد ان تكون تلك واحدة من كرامات

الهبش في فتح ابواب الرزق...".

"وقد لا يكون هذا ولا ذاك بل لعلهم جاءوا لأمر آخر..".

ظل شيخ زغير يقلّب الأمر في صدره وقد استغرقته حيرة عظيمة. لكن، إن حدث وكانوا جادين في أمر شراء كامل غلته فذلك حظ ما بعده حظ، سيجنبونه تقلبات السوق وجشع تجار المدينة.

طلب الشيخ منهم أن يبيتوا ليلتهم تلك في بيت الضيوف الملحق بالديوان وغداً صباحاً سيتكلمون بتفاصيل البيع والشراء بإذن الله.

***

في صباح اليوم التالي حرص الشيخ أن لا يحضر مجلس البيع والشراء مع الهنود أحداً من أهل القرية باستثناء أولاده، ولم يكن الهبش حينها ضمنهم، درج في تلك الأيام على مغادرة البيت فجراً ليهيم جنوباً ماشياً في الأراضي الجرداء ولا يعود إلا بعد انتصاف النهار.

اتخذ الهنود ودليلهم أماكنهم في المجلس، لكن هذه المرة حضرت معهم المرأة العجوز. اجلسوها وسطهم وكانوا يعاملونها بتبجيل واضح. ظهرت المرأة حاسرة الرأس، شعرها أبيض كثيف، مشدود من الخلف كذيل حصان، ترتدي جلباباً أسمر خشناً نسج من خيوط الخيش. في البدء نقّلت نظرها بين الشيخ وأولاده كأنها تبحث بينهم عن وجه محدد، ثم بادرت ونطقت بلغتها

الأصلية. صوت خفيض وكلمات بطيئة، فترجم لها دليلهم البصري:

"تقول الخالة، طال عمرك، ان الجماعة الذين التقوك قبل عام أخبرونا إن لك صبياً أبيض الشعر في جبهته وسم، وقد أعجبوا كثيراً بأدبه، إلا أنها لا تراه معكم الآن".

"نعم، ذاك كان ابني، وهو الآن في الجوار لقضاء حاجة".

"بارك الرب لك فيه. لكن اسمح لي ان أسأل ياشيخ، دون مؤاخذة، ان كان هو حقاً ابنك أم متبنى؟".

بدا الضيق واضحاً على وجه الشيخ من هذه البداية، استثيرت حفيظته. اختفت ابتسامة الترحيب عن

وجهه وأجاب بصوت جهد أن يهدئ نبرته:

"هذا سؤال غريب يا أمنا، لا يُسأل الرجل في عرفنا عن ابنه، إلا انكم مع ذلك معذورون، كونكم غرباء على تقاليدنا".

"لا تغضب من امرأة عاجزة ياشيخ، تقول ما تقول وقد خلا قلبها الا من نية خيرة، أعرف أن في نفسك بعض توجس من فضولنا بشأن صبيك، أو حتى سبب قدومنا اليك، ولا ألومك في ذلك، وعليه سأكون من الآن صريحة معك، لعلي اقطع مافي رأسك من ريبة، وليكن كلامنا بعدها على بياض".

"لا بأس عليك يا أمنا، قولي ما بدا لك فأنت اليوم ضيفتي".

"سَلِمت وسلم لسانك. إعلم يا محفوظ أننا سألنا كثيراً عنك قبل حلولنا في ديارك، وقد قيل لنا كلام طيب بشأن صدقك ومروءتك وحسن ضيافتك، وها نحن هنا في ديوانك العامر نبغي عونك ولن ترى منا الا الخير. أقول: نحن أناس مسالمون محبون للخير الا أننا وكما تعرف لنا دين غير دينكم. وتخبرنا كتبنا أن أناساً مباركين يظهرون على الأرض بين الحين والحين، فيهم علامات، وقد صادف قوم منا قبل عام صبيك وظنوا أنهم رأوا فيه من تلك العلامات. وها نحن نتكبد عناء الطريق من بيهار الى الحميدية لنرى ان كان هذا الصبـي واحداً منهم. هذا كل ما في الأمر".

اعتدل الشيخ بجلسته، بدا شديد الاهتمام مع بعض توجس:

"أعجبتني صراحتك يا أماه، وانني احترم ضيوفي مهما كان دينهم ومهما كانت بغيتهم، افهم من ذلك أن الغرض من مجيئكم هو الصبـي وليس التجارة؟".

"هذا وذاك ياطويل العمر، إن كان صبيك منهم اشترينا جميع بضاعتك بضعف قيمتها ثم غادرنا بسلام. وان كان ليس هو من نظن، شكرناك على كرمك وحسن ضيافتك ودعينا لك بالبركة ما بقينا أحياء نرزق".

كان الإغواء شديداً على الشيخ حين سمع أنهم لن يشتروا جميع محصوله فحسب بل وسيدفعون الضعف. حسب مع نفسه انه ان سايرهم فيما أتوا لأجله فلن يكون هناك ثمة ما يخسره.

"حسنا قد قبلت شرطكم، لكن ما دمنا صريحين مع بعضنا، هلا اخبرتني يا أماه ما حاجة قومكم لأرُزنا وهم خير من يزرع الأرُز. كما ان التمر لا يساوي عناء تحميله ونقله الى دياركم البعيدة".

"من حقك أن تسأل هذا. إعلم يا محفوظ ان بضاعتك ان أُخذت سوف لن تؤكل أو تطبخ، بل سيتناهبها قومنا، وهم كُثر، حال وصولنا إليهم، كُلٌ حفنة، يباركون بها حقولهم وزرعهم".

"الآن فهمنا بغيتكم والسر وراء تجشمكم كل ذلك العناء، ولا أرى ما يمنعني من أن أمضي معكم في مبتغاكم، ان جعل الله زرعنا بركة على قومكم، فذلك خير لنا ولكم".

"ونعم الرد، طابت أنفاسك، طويل العمر".

"على بركة الله إذن، لم يبق الا رؤيتكم للصبـي حتى تنجزوا بعدها ما جئتم لأجله. أليس كذلك؟".

"أحسنت يا محفوظ، يسلم لسانك، هذا هو شرطنا، ببساطة".

"على الرحب والسعة".

التفت الشيخ إلى أكبر اولاده وطلب منه ان يجد له الهبش ويأتي به الى الديوان في الحال، وأكد عليه هامساً في أذنه أن لا يخبر في طريقه أحداً من أهل القرية بأي شيء مما قاله الهنود، ولا حتى الهبش نفسه.

في أثناء الانتظار، واصلت العجوز:

"لم تتكرم وتجبني على سؤالي الأول، جنابك، إسمح لي ان أجور عليك واسألك ثانية، هل هو ابنك أم إنه متبنى؟".

"ولم كل هذا الاصرار لمعرفة أمر تبنيه من عدمه؟".

"يعنينا معرفة ذلك كثيراً، فإن قلت لنا إنه من صُلبك، فهذا سيقطع فينا دابر الشك في الحال، ولا داعي بعدها أن نهدر وقت جنابكم، فالذي في كتبنا صبـي متبنى".

الشيخ متحمساً:

"... الشهادة لله، وجدناه في أحد حقولنا مغشياً عليه قبل حوالي خمس سنين، فابقيته في بيتي أعتني به، ثم مرت الأيام والشهور ولم يظهر من أهله من يدّعيه، فتوكلت على الله وتبنيته".

صدر عن الهنود جميعاً ومرة واحدة صوت عال: "أوميييييييين"، واستوفزوا في جلساتهم مائلين بجذوعهم للأمام يتسقطون المزيد.

العجوز أسدلت جفنيها على بياض العينين المطفيتين، وتنشقت نفساً عميقاً، ثم فتحتهما وسألت بصيغة حرصت أن تكون كلماتها واضحة ومحددة:

"وأين، طال عمرك، تم العثور عليه؟".

"عثر عليه واحد من فلاحينا فجراً، ملقى في

الطين عند نهاية جدول في مكان ندعوه عْوَيدة".

ردد الهنود وبصوت اعلى:

"أوووميييين، هووا هووا".

فتحوا عيونهم على آخرها واشرأبو برقابهم نحو كل كلمة يقولها الشيخ بشأن الهبش كما لو انه يبثّ في مصائرهم، انهار أحدهم باكياً دونما سبب واضح. المرأة العجوز اغمضت عينيها بقوة واخذت تنود بجذعها، عصرت نفسها تكبح نوبة هيجان حسي تفور من بطنها:

"إمممممممممم...".

ثم تنفست بعمق وواصلت، تحاول احتواء

رجفة بدأت تشوب نبرتها:

"سلمت يا محفوظ، والآن هلا اخبرتنا اسمه؟".

قالتها بتوسل ونبرة متهدجة كأنها تستجدي منه رصاصة الرحمة.

تردد الشيخ قبل ان ينطق بالرد، أحس ان الحوار صار أكثر جدية. تنحنح ثم أجاب:

"الصبـي لم يتذكر اسمه بعد أن أفاق من غيبوبته، ونحن بدورنا لم نُسمه، كنا نتوقع أن يظهر أحد من أهله في أي ساعة".

صمتت للحظة. الهواء من حولها صار

شحيحاً:

"حسنا، بماذا يناديه الناس هنا؟".

ازداد الأمر حرجاً على الشيخ، هو يكره ما درج الناس على مناداته به، لكن لم يكن لديه ثمة جواب آخر يناور به، فرد على مضض:

"ينادونه... هبش".

اندفع الهنود واقفين بعد سماعهم الأسم، استلمت آذانهم الكلمة مباشرة من فم الشيخ دون أن ينتظروا سماعها من ترجمانهم، وفعلت فعلها فيهم، كأنها لاقت اسم شيء موضع تقديس لهم. حصل لغط وصدرت عن بعضهم صرخات قصيرة منفرة لا هي بنباح ولا هي بعواء.

والعجوز تنود بجذعها الى الأمام والخلف بسرعة لا تناسب عمرها حتى بدا الإنهاك واضحاً عليها. ثم انتبهت للّغط الذي أحدثه ربعها، رفعت ذراعها بحركة ناهرة تجلسهم. صمتوا في الحال وصاروا يعتذرون الى الحاضرين على الطريقة الهندية، ضامين أكفهم تحت ذقونهم منحنين انحناءات قصيرة.

جلسوا كل في مكانه ومرت فترة صمت.

لم يستهجن شيخ زغير بينه وبين نفسه ما كان يصدر عن الهنود في مجلسه، فقد سبق وأن رأى في حياته طوائف من الهنود في الأضرحة والمزارات يتعبدون بشتى الطرق واغرب الطقوس، كل الذي كان يراه في ردود أفعال ضيوفه له تفسير واحد بالنسبة

اليه: انهم مهتمون بكلامه، ما يعني اقترابه من إتمام الصفقة معهم. لم ير في ردود فعلهم الغريبة الا شكل المال الذي سيقبضه منهم.

أخيراً، وبعد أقل الساعة من الانتظار، حظر الهبش الى الديوان..

هو الآن شاب في الخامسة عشرة، نحيف طويل، في وجهه إشراقة وان لم يتبسم، عيناه واسعتان ذكيتان فيها الكثير من السواد، تورثانك شعوراً حزيناً راقياً بالانتماء، كأن لك حصة فيه كنت قد أضعتها يوماً، او له حصة فيك عليك تسديدها. حضوره حادّ من الصعوبة الالتفات عنه، يستدعي صمتاً واصغاء. يتلفع بالنظافة والبياض، وتحف به رائحة زكية مطمئنة.

في البداية وقف عند الباب يستطلع الوجوه الجديدة. أشار إليه الشيخ أن يتقدم ويتخذ مجلساً قربه. وحين خطا الهبش ناحيته، راقب الشيخ وجوه ضيوفه لحظة وقوع أبصارهم على الغلام ليرى وقع أثره فيهم. للوهلة الأولى، ظلوا مشلولين في أماكنهم كأنّ على رؤوسهم الطير، عيونهم شاخصة نحو الغلام. مدّ الهبش يده ليزيح غترته عن رأسه من أثر الحر، فإذا بهم يزيحون عن رؤوسهم العمائم بحركة واحدة ويضعونها أمامهم.

بعد أن حل الهبش كامل لفات غترته من حول رأسه، بانت الدمغة في أعلى جبهته، ناصعة محددة أكثر من أي وقت مضى، اندلق شعره الأبيض الذي كان ملموماً تحت الغترة، الى الأسفل، كتلة واحدة

تتلوى بنسق رشيق كقنديل بحر في ماء صاف، يشع ضياءً مبهراً كأنه يصدر من ثناياه... فغرت الأفواه، لمعت العيون، تسارعت الأنفاس، ابيضت وجوههم الغامقة فجأة خوفاً او خشوعاً. سرعان ما غطوها بأكف ترتجف كأنهم يتجنبون وهجاً محرقاً، أخذوا يرددون ترانيم أشبه بالتضرع، كأنهم واقعين تحت وطأة عذاب شديد، عيونهم احمرت وغامت وبللت أيديهم.

أما المرأة فظلت ذاهلة منقطعة عن العالم للحظات بعد أن وقع بصرها على الهبش، ثم أخذت وتيرة تنفسها تتصاعد بشكل مقلق، بعدها وفجأة أجفلت الجميع بعويل مفزع ليس له علاقة بنبرتها الهادئة المتروية حين الكلام، أشبه بمواء هرّ سقط في قدر ماء ساخن، ثم خرت على وجهها مغشياً عليها.

لو أن احداً من الحاضرين التفت في تلك اللحظات عن أولئك المصروعين وركز نظره على وجه الهبش، فلأفزعه ذاك الثبات والهدوء اللذان استقرا على محياه أكثر مما أفزعته صرخات الهنود.

وقبل أن يسوء الأمر أكثر على هؤلاء، تدارك الشيخ الأمر وأشار الى الهبش أن يغادر الديوان في الحال رأفة بهم، فانسحب هذا بهدوء.

ظل أفراد الوفد بعد خروج الهبش يئنون لدقائق وقد استلقى بعضهم على ظهره من الإرهاق، ينظر أحدهم في وجه الآخر بذهول وعدم تصديق، كأن لسان حالهم يقول: هل رأيت ما رأيت!! احتضن بعضهم البعض كالمنتصرين او كالناجين من كارثة، وتحادثوا بفرح وانفعال. كل ذلك كان يحدث والمرأة

العجوز ملقاة على الأرض كالجثة. تَحَرك أحدهم وجسّ نبضها ثم ابتسم للشيخ وهز رأسه مطمئناً كأنه يعتذر. رجعوا يتشاورون فيما بينهم لبرهة، ثم همسوا لدليلهم بشيء. التفت هذا إلى الشيخ وقال:

"أولا، الجماعة، طويل العمر، يستسمحونك عذرا على ما بدى منهم في مجلسكم من لغط وصراخ. وثانيا، يريدون أن يبلغوك قرارهم الآن بعد أن حسموا أمرهم فيما بينهم، إذ وكما وعدوا، سيشترون ما تدره أراضيك مدة عام وبضعف ثمنه".

حاول الشيخ أن يبدو طبيعياً:

"على بركة الله، لكن ما حال عجوزهم؟".

"أظنها ستكون بخير.. وقد أبلغني الجماعة

انهم سيتوجهون الآن الى بيت الضيوف، يحزمون امتعتهم ويعدون عدتهم للرحيل، سيغادرون قريتكم قبل حلول الظلام. لكن قبل ذلك يطلبون منك شيئاً أخيرا".

"أبلغهم ان طلبهم مستجاب بإذن الله".

"يريدون منك ان تبعث معهم من يأخذهم الى المكان الذي عُثر فيه على الصبـي أول مرة".

"طلبٌ يسير، سآخذهم انا بنفسي في الوقت الذي يحبون".

وقبل حلول المساء، صاحبهم الشيخ وأولاده الى ذلك المكان الموحل الذي عُثر فيه على الصبـي أول مرة، وقد استفاقت المرأة العجوز من غشيتها وكانت مبتسمة ونشطة، تشع امتناناً. حين وصولهم الى

المكان سجدوا هناك وطافوا ثم عبأوا خروج جمالهم من ذلك الطين حتى امتلأت. وقبل أن يغادروا نفحوا الشيخ روبية ذهبية عربوناً للصفقة وقالوا له انهم سيبعثون كل شهرين من يحمل ما تجمع عنده من غلة، وسيتمم له ثمنها أولا بأول. سأل الشيخ الدليل:

"هل نتوقع قدومهم قريباً لرؤية الصبـي مرة أخرى؟".

ترجم لهم الدليل، فتبادل الرجال الهنود النظرات فيما بينهم، كأنهم يفكرون بأنسب رد، بعدما شعروا أن ترددهم طال، رد أحد الرجال، بلع ريقه وأجاب:

"يكفينا ما أبصرنا يا شيخ، ولو أمعنّا...

لاحترقنا".

"حقا، بشأن ذلك... الذي يحيرني أن الجماعة من قومكم الذين صادفناهم قبل عام لم يبدر منهم حين رؤيته ما بدر منكم اليوم".

ردت العجوز وبتفهم:

"وان كانوا من قومنا، الا ان اغلب الناس يرون ولا يبصرون. في الآخر، هم تجار ونحن رهبان".

لم يفهم شيخ زغير من اجابتها شيء، كل ما كان يشغل باله في تلك اللحظة معرفة إن كانوا سيستمرون في شراء محصوله كل سنة أم أنها شروة يتيمة. حسم أمره وسأل بصراحة:

"بقي ان أعرف هل أحسب حسابـي بشأنكم على السنة القادمة".

جاء الرد سريعاً من أحدهم:

"لا يا شيخ، هذه السنة فقط".

خاب امله بعد أن بنى في خياله الكثير بشأن الرزق السهل غير المنقطع الذي منّى نفسه به. شعرت العجوز بخيبته فتطوعت بالاجابة:

"نأخذ غلتك ما دام الصبـي مقيم فيكم. لكن..." تمهلت قليلاً قبل ان تكمل جملتها:

"... يؤسفني أن أبلغ جنابكم أن صبيكم لن يكون بينكم قبل انتهاء العام".

أقلقته النبرة الواثقة لجوابها وخفق قلبه كمن أُخذ بغتة:

"وكيف عرفتم ذلك؟".

أجابت بحزم وصبر الطبيب وهو يمهد مريضه لتلقي الحقيقة:

"لا نود أن نخبرك أموراً لعلها ستحزنك".

غادره حلمه المعهود للحظة، واعترض بنبرة فيها خيط حدة:

"جوابك يؤكد يا أمنا كأنكم تعرفون أموراً بشأننا لا نعرفها، هل جانبني الصواب؟".

"على رسلك يا محفوظ، الأمر ومافيه اننا

نصدق ما جاء في كتبنا".

"أقسم عليك ان تخبريني بما سيكون ولا تقلقي بشأني، فديننا يخبرنا أن كل شيء مكتوب وأن نرضى بما هو مقدر لنا".

ظلت العجوز صامتة للحظات كأنها تفكر فيما ستقوله. تبادل رجالها فيما بينهم نظرات حائرة، ثم هزوا رؤوسهم مستسلمين. اقترب أحدهم منها ووضع كفه على كتفها علامة التفويض.

تنفست بعمق مرتين، استغرقت في حالة خشوع، ورتلت بصوت عميق منغّم، فترجم صاحبهم:

"هيباش- القمر.. في آخر تجلياته، ينبثق من رحم الأرض..

يصحو نوره من جديد بعد أن يدركه اتباعه..

يغادر حقول ألأرُز..

يتّبع النهر عكس مجراه...

يهيم على وجهه سنيناً، بحثاً عن العائدة من الموت، سيدة النماء، تشاغيا..

النازلة في الأرض المحرمة، جفرانا..

مكبلة بهيئتها الميتة.. توأمها..

ليعتقها

تنتظره هناك"

الفصل الثاني
شايع

(3)

1857-1869

لم يكن حظ حمود في العيال كما هو في المال، فلم يرزق من امرأته الأولى خلفاً فتزوج عليها ثانية، لم تنجب هي الأخرى، تزوج الثالثة، فحملت لكن مات حملها الأول في بطنها، صبر لتحمل مرة أخرى،

فحملت وأنجبت له ولداً خديجاً لم يعش سوى شهور. ثم حملت بعد ذلك فأنجبت بنتا اسماها فضلية، جاءت ضامرة مشلولة الأطراف، ماتت قبل أن تتم عامها الثاني. وفي رابع حمل جاءهم صبـي... ذكر جميل صحيح معافى. اسموه شايع.

فرح الأب بالمولود الجديد، بكى وشكر الله كثيراً، وعقّ عنه في سابعه خمسة جِمال، أولم بها لفقراء الزهدية ثلاثة أيام بلياليها. ماتت الأم بحمّى النِفاس ولم ينته شهر بعد الولادة. من حينها أحاط حمود ولده الوحيد بعناية استثنائية. وكان ذلك آخر عهده بالإنجاب.

حمود بن مسند الطرفاوي، من الزهدية، بلدة صغيرة جنوب راوة. رجل ميسور الحال، أدرك سر

الإثراء في حياته مبكراً، خالف اهتمام الناس بالإبل والغنم، واقصر اهتمامه على نوع واحد من الماعز: الزرايبيـي النوبـي، هي أقل تكلفة من الإبل، وأكثر بركة من الغنم. فرقها عن باقي انواع الماعز، انها تتكاثر طوال العام، وإذا ما أُعلفت جيداً درّت له أكثر من خمسمائة لتر من اللبن في الموسم.

نشأ شايع محفوفاً بالرعاية من قبل الجميع، لم يحمّله أباه حمود أية اعباء، لم يطلب منه أن يعينه في تجارته أو رعي دوابه. تركه يفعل ما يشاء.

منذ بداية حبوه، سحره شكل العنزات الزرابيات المطهمات، اكتظت بها حظائر شاسعة امتدت خلف بيتهم. مخلوقات مسالمة، سعيدة، ترعرع الطفل بينها واستمتع بدفئ ونعومة شعرها، شاركها

حبها للّعب والقفز، أحب ثغاءها المفعم بنبرة مرح. أفرد له أبوه حظيرة صغيرة اُلحقت بالبيت، فيها بضعة جداء يلعب معها، تشاركه اللعب فتاة من الجيران، من سنّه، اسمها عيشة.

عيشه فتاة متوحدة، مشردة، نسيت الكلام. شعرها أحمر متموج وعينانها دعجوان، تحرص على نظافتها ما استطاعت. يتيمة الأبوين، تقضي جل يومها في حظائر الماعز، ابوها مزاحم كان راعياً عند حمود، لكنه مات، اكلت أحشاءه شيبة (كرطة)، تسللت الى حجرة نومه في ليلة شتوية بينما كانت امرأته، زايدة، نائمة في السرداب الى جنب ابنتها عيشة المصابة بالحمى. صحا الجيران فجر اليوم التالي على جثته ممزقة في الفراش، اتهموا امرأته، ليس بقتله لكن

بالتسبب بقتله، كانت منحوسة، حسب اعتقادهم. من يومها جنّت زايدة، تركت البيت وابنتها وهامت في الدروب تبحث عن الشيبة. لم تمر سوى أشهر حتى عُثر على زايدة مُتيبسة من البرد في أحدى السواقي. وبذلك أضحت عيشة يتيمة الأبوين قبل أن تتم عامها الثاني. تربت بعد ذلك بين الأكواخ المتاخمة لحظائر الماعز، جحور رطبة من الطين والجذوع والحصر، تتكوم فيها عوائل الرعيان. الجميع يضربها ويقسو عليها باستثناء شايع. أحبت شايع دون باقي الأطفال واطمأنت إليه، انفكت عقدة لسانها معه فقط دون غيره، لكن كلامها معه اقتصر على الهمس في اذنه. علمته الكثير من طبائع الماعز، نبرات ثغائها، متى تكون جائعة، متألمة، غاضبة، ومتى تكون طيبة المزاج. وتهمس ايضا للماعز، فتصغي هذه لها، والأعجب..

تستجيب.

تُعزل صغار الماعز عن أمهاتها ليلا في حظيرة منفصلة حتى الصباح، فرصة للضروع تسترد نشاطها. صغار الماعز في شهرها الأول مصاصات شرهة لا تعرف الشبع، لو تُركت مع أمهاتها ليلا لأعطبت ضروعها. كان لعيشة سرّ صغير، ان تتسلل ليلا الى حظيرة الأمهات وترضع الحليب مباشرة من ضرع "ليلو"، اسم أطلقته على أضخم العنزات في الزريبة، حجمها يضاهي عجل بقر. أحب شايع ذلك السر وداوم على مشاركتها إياه كل يوم.

بعد أن يُفصل الصغار عن امهاتهم وينام الجميع، ينبطحان معا على الأرض يرضعان من ضرع ليلو، حليباً ثقيلاً دافئاً حلو المذاق، يسري في

عروقهما فيبعث طمأنينة تملأ فراغاً خلّفته دنيا خلت من الأمهات. وطالما عُثر عليهما في الصباحات، غافيين في حضن ليلو.

فجر كل يوم، يجري الحدث الكبير في الباحة التي تفصل حظيرتي الصغار والأمهات. يتصاعد ضجيج الثغاء من خلف الحواجز من كلا الجانبين، يكون على أشده في الدقائق التي تسبق لحظة اللقاء. ثغاء رفيع للصغار، زعيق رُضّع، ومن الطرف الآخر نحيب امهات رؤومات. رقاب تشرئب من بين فتحات الحواجز الخشبية، كل ينادي على الآخر، ثم تحين اللحظة وترفع الحواجز.. تجري عشرات الصغار الجائعة كجيش غير مدرب يستعجل الاشتباك، تدافع بعضها، ترتبك القوائم الصغيرة البضة، تتصاعد نبرة

الشكوى أكثر فأكثر. الامهات تجري بثبات ناحية صغارها بلهفة مشبوبة، يلتقون في المنتصف، كل يميز صاحبه من بين الجمع، يتعانقون وثباً بعضاً إلى بعض.

المشهد بالنسبة للطفلين أجمل من أية لعبة عرفاها، لم ينقطعا عن لعبها كل يوم، يركضان مع القطيع منذ لحظة رفع الحواجز، كل في جهة، ليلتقيا في المنتصف ويقفزان نحو بعضهما كما تقفز الماعز.

بعد بلوغ شايع الخامسة من عمره أبلغته عيشة سراً آخرَ، سراً حزيناً لم يتحمله قلبه الصغير آنذاك. مرة تسلل كالمعتاد الى الحظيرة بعد أن هجع الجميع، فاذا بليلو اختفت من مكانها، وجد عيشة جالسة هناك تجهش بمرارة، أخبرته في تلك الليلة ان ليلو بيعت لقصاب، لم يفهم في البداية، فأوضحت له حقيقة

أن الأمهات يقل حليبها ويصعب حملها بعد بلوغها الثامنة من عمرها، فيتم التخلص منها، يذبحها الناس ويأكلون لحمها. جنّ جنونه حينما عرف، صار يصرخ ويرفس غضباً، ومن يومها ترك اكل أي نوع من اللحم.

لم يكن كباقي الأطفال بنظر أبيه، يحب العزلة، لا يخيفه شيء على الإطلاق، يسأل أسئلة كبيرة، ويجادل كثيراً، واكثر ما حيره فيه انه يتخيل أحيانا اموراً غير موجودة لكنها تتحقق لاحقاً. قبل أن يتم السابعة من عمره جادل شايع أباه في ترك الماعز والبحث عن تجارة أخرى. لم يأخذ أباه كلامه على محمل الجد. من حينها نشأت فجوة خلاف حاد ما بين الولد وأبيه، كانت بداية لأمور أخرى خالف الصبي فيها أباه فيما بعد. تحول الى ولد عنيد، صعب القياد،

شديد الاعتداد بنفسه. بذل حمود محاولات إثر أخرى لاحتوائه وإرضائه لكن دون جدوى. لم يبق له إلا أن يمنّي نفسه بالسنين، عسى أن تتكفل بتغييره.

ابتلى الصبـي كذلك بأحاسيس مرهفة ووسامة ملفتة للنظر. كُرهه للعنف ووسامته جعلتاه ناشزاً بين أترابه، وجد ذاته مع عيشة، بدأ الناس حينها يتهامسون بشأن فحولة الصبـي، وظن آخرون ما هو أسوأ، خاصة أنه سبق وقيل عنه أنه غلام مخنث أفسده الدلال.. صار شايع نقطة ضعف أبيه. لم يشفع له تفوقه في الكتاتيب ونبوغه بين أقرانه، وإتمامه حفظ القرآن قبل بلوغه العاشرة من عمره.

كبر شايع وكبر معه حزنه من الناس وعليهم. استحال استياؤه المزمن إلى فراغ يتمدد داخله مع

مرور الأيام ويسلب من سنين طفولته ألوانها فيحيلها علامات باهتة خالية من المرح.

كبرت عيشة، نضجت علامات الأنوثة عليها مبكراً. ومع بلوغ الطفلين الثانية عشرة، استحكم التفاهم بينهما وتجذر وتعتق في كليهما، إنغرز كل منهما في وعي الآخر بقوة، جزءاً ثابتاً لا يُساوم عليه، ذلك الهوس الطفولي، الذي يحتار أمامه الكبار، تجاه شيء محدد من الحاجات يستحيل ملء حيزه بغيره، لم يستسغ أحدهما نهاره خالياً من الآخر. راقب حمود نمو تلك العلاقة بقلق بالغ، إلا أنه كان يحرص مع نفسه على إرجاء المواجهة المحتمة مع ابنه بشأنها إلى يوم آخر.

(4)

1869

ضمن حملته التنموية الواسعة للنهوض بالولاية، أمر الوالي الجديد مدحت باشا البدء بإنشاء مدارس في بغداد، كان منها المدرسة الرشيدية العسكرية، تعادل المتوسطة، بدأت باستقبال الصبيان

من خريجي الكتاتيب من كافة أنحاء الولاية.

لحمود، أبو شايع، أخ يسكن بغداد اسمه حجي نعمة، تاجر جلود، كان له علم بمعاناة حمود في تنشئة وحيده غريب الأطوار، فنصحه بادخاله الى المدرسة العسكرية لتقوية عوده.

لم يكن الالتحاق بتلك المدرسة أمراً متاحاً للجميع، كانت حصراً على أولاد الأعيان والبيوتات والمناصب العليا وكبار الضباط. استثمر الحاج نعمة علاقته بمحتسب الوالي ريسان خسرو بيك. عباءة حرير وليرة فضية، فسلكت الأمور.

ودّع شايع عيشة، كان متحمساً، ممتلئاً بفكرة العيش في بغداد. أخبرها انه مسموح له قضاء

الإجازات الصيفية في البلدة، وسيجلب لها معه من بغداد، في كل إجازة، صوغات وشكَرات. أجهشت هذه بالبكاء طوال ذلك اليوم، كان شايع الوحيد الذي تنفك عقدة لسانها معه. نهاراتها بعده خابية، ونهاراته ايضا، الا انه لا يرتاح للزهدية، والزهدية لا ترتاح له. تمنى مع نفسه: "آه لو شاءت الظروف وتسنى لعيشة الانتقال الى بغداد"، لكن ابن الزهدية يعرف جيداً ان ذلك لن يتحقق إلا في عالم مثالي. عرف مبكراً انه لا ينتمي لذلك المكان، وأن شيئاً ذا قيمة ينتظره هناك في العالم، خارج نطاق تلك البقعة المنسية.

قدِم حجي نعمة إلى الزهدية بنفسه ليصطحب الصبـي معه إلى بغداد في رحلة على الجمال تدوم ثمانية أيام.

***

وصلت قافلتهم المدينة من ناحية باب المعظم، أواخر تموز. جحظت عينا شاير لما شاهدتا. تلك كانت أول مرة في حياته يدخل فيها مدينة بذلك الحجم والتنوع.

مرت القافلة اولا عبر الطاق الكبير، يرتفع إلى أكثر من عشرة امتار، وفيه البوابة الحديدية العظيمة لمدخل بغداد من هذه الجهة، والبابان الصغيران المرصّعان بزخارف نحاسية على الجانبين لمرور السابلة. أول ما لفت انتباه شاير، الصف الطويل لدزدبانية الضرائب والمكوس عند الجانب الأيسر من البوابة بعمائمهم الضخام التي يبلغ حجم الواحدة منها خمسة أضعاف حجم رؤوسهم، يقتعدون وسائد من

كتان مطرزة أمام صناديق خشبية منخفضة، أو اسطوانات من جذوع النخيل يستخدمونها طبليات تحمل أوراقهم واحبارهم. وعلى الجهة المقابلة يمتد صف الجرّاخين الاوزبكستانيين، بقفاطينهم المزركشة المفتوحة الصدر وذيول أردانها تسحل بالأرض، أمام حائط جامع الازبكية، مع دواليبهم يحدون السكاكين، شرر يتطاير في جميع الاتجاهات من أقراص حجرية ملساء تدور بسرعة. ساحة القلعة وطوب ابو خزّامة الشهير، المسربل بالخرق وحوله الشموع والبخور. وعلى جهة النهر رأى السجن القديم يشمخ عالياً وحراسه المرابطون في أبراجه كالتماثيل يحملون بنادق عثمانية سبطاناتها أطول من سيقانهم.

بعد ساحة القلعة تمتد مدابغ ومصابغ باب

المعظم مع البصر، حُفر بالمئات اختنقت بسوائل ملونة مغموس فيها رجال نصف عراة، حمر وزرق وصفر، تلال ملح بارتفاع طابقين، جلود منشورة على حبال غليظة تقطر ماء أصفر زنخاً. ثم ساحة الميدان وعربات نقل لاحصر لها بشتى الأشكال تنوء بأقفاص البصل وأكياس الطحين وشلفان الصوف، تتقاطع اتجاهاتها ويزاحم بعضها البعض، كأنه يوم الحشر، بعضها تجره خيول عجف او حمير ببطون منتفخة، والبعض الآخر يدفعه عماليق غاضبون يزخّون عرقاً، والمارّة يتطافرون أمامهم. صرخات مدغمة تتداخل مع بعضها تنطلق من سوق الهرج تروج لبضائع مستعملة لا تصلح إلا للتنور. ثيران رُبطت اطرافها بحبال تذبح على الرصيف، دماؤها تفور حتى منتصف الشارع. عزف طاسات باعة العرك سوس، أباريقهم النحاسية

تلمع بشدة تحت وهج الشمس، طرابيشهم حمر تآكلت حافاتها، وأحذيتهم معقوصة من الأمام. كانت وجوههم الوحيدة القادرة على التبسم للسابلة تحت لهب تموز.

انفصل الحاج نعمة وابن أخيه شايع عن القافلة في ساحة الميدان، وهي آخر محطاتها. استأجروا من هناك عربة بحصان لتوصلهم الى محلة باب الشيخ، حيث بيت الحاج نعمة، سالكة الجادة العمومية (شارع الرشيد لاحقاً) باتجاه الباب الشرقي.

بقي على موعد التحاقه بالمدرسة الرشيدية شهر واحد، قضاه شايع في بيت عمه في باب الشيخ. لكنّ حدثاً جسيماً وقع في ذلك الشهر، سيكون له بالغ الأثر في حياته فيما بعد. فبعد ثلاثة أيام من وصوله، نشبت ثورة شعبية في بغداد، إثر عزم الوالي مدحت

باشا على فرض نظام التجنيد الإجباري على سكانها لأول مرة.

منذ شهوره الأولى في الولاية عزم الوالي الجديد على تحويل العراق من مجموعة عشائر وكتل وطوائف غير متجانسة، وولاءات متفرقة، إلى وحدة إدارية تنتظم ضمن ادارة الدولة الكبرى، فشرع في تنفيذ مشروعه الطموح بادئاً بإنشاء مدارس نظامية بعد أن كانت الدراسة منحصرة في الكتاتيب، وبنى أول مستشفى عام في العراق "مستشفى الغرباء". ثم جلب مطبعة، وأطلق اسم "الزوراء" على أول جريدة في بغداد، وشيد أول مصنع للحديد. التفت بعدها للشؤون الداخلية وإصلاح إدارة الحكومة ونظم المحاكم وتنظيم الضرائب والكمارك. وعزز النقل النهري بإضافة

الباخرة "رصافة"، وفي نطاق جهوده التنموية، بدأ أيضاً بشراء البواخر البحرية لربط العراق بالعالم الخارجي مبتدئاً بالباخرتين "بابل" و"آثور". مضى بعدها في إتمام مشروعه العسكري في البلاد والذي كان يعتبره العمود الفقري لبناء الدولة، فبعد زيادة عدد القوات المسلحة وتحديث تجهيزاتهم وتسليحهم، أمر بإنشاء المدرسة الرشيدية العسكرية، ووضع الحجر الأساس لبناء الاعدادية العسكرية. ثم أمر بتشكيل لجان للتجنيد الإجباري قوامها ضباط عسكريون على أن يعاونهم مخاتير المحلات. وكانت تلك البادرة محاولة لتأسيس حس وطني عند الأهالي يثبتون من خلالها انتمائهم للوطن والدفاع عنه بدل ولائهم المطلق للعشيرة والطائفة.

أول قرعة أصابت ثلاثمائة مكلف، لكن هؤلاء رفضوا الانصياع عندما استدعوا إلى الخدمة، كان ذلك أول فعل مقاومة من السكان المحليين للاندراج في العهد الجديد والخضوع للأوامر الحكومية. أخذت بوادر النقمة والتمرد تظهر هنا وهناك في بعض محلات بغداد. على رأس المناطق الثائرة كانت محلة باب الشيخ حيث بيت عم شايع. كان الحاج نعمة حينها في تيلتاوة ينجز أمور بيع وشراء تتعلق بتجارته.

للحاج خمسة صبيان أكبرهم في السابعة عشر اسمه موحان، يليه ضمد، خمسة عشر عاما، والباقي أطفال دون العاشرة. حينما شبت بوادر الانتفاضة اخذت موحان وضمد الحمية، كما جميع شباب المحلة،

وخرجا مع من خرج مصطحبين معهما شايع.

اندفع اهالي باب الشيخ الى الجادة العمومية، تلاهم أهالي محلة قنبر علي، ثم أبو سيفين والصابونجية وإمام طه، باب الأغا، البارودية، بني سعيد، تبة الكرد، الخالدية، خان لاوند، الدهانة، صبابيغ الآل، الطاطران... واصلت الشرارة سريانها في باقي المحلات حتى بلغت علاوي الحلة. صاروا بالآلاف تقدمتهم الطبول والصنوج، حمل قسم منهم أسلحتهم ما بين قامات وسيوف وغدارات وبنادق، وطفقوا يصرخون بعبارات التمرد تحدياً للحكومة.

كان مدحت باشا حينها جالساً في مقره في السرايا الحكومية قبيل غروب الشمس متحللاً من زيه الرسمي يدخن غليونه الكهرمان الأزرق الطويل. سمع

إطلاق رصاص، ولم يكد يتبين جلية الخبر حتى أسرع إلى ثكنات الجيش يوزع السلاح على الجنود. لم يمض على مدحت باشا في منصبه الجديد حينها سوى بضعة أشهر، وجد التمرد فرصة مواتية ليستعرض مدى حزمه وقوته لأهالي بغداد بأوسع ما يكون، وايضا لإلفات نظر الإستانة اليه... يا أهلا بالعصيان.

تقدم بنفسه لقيادة القوات التي ستتولى مواجهة التمرد. أرسل في البداية قوة من مائتي عسكري مسلح إلى محلات اليهود والمسيحيين وبيوت الأجانب لحمايتها خشية حدوث المذابح بعد أن استغل قسم من الرعاع المسلحين الوضع وكسروا ونهبوا بيوتهم ومحلاتهم. ثم أمر بقطع الجسر ومنع عبور النهر بأية وسيلة، وأرسل قوة من الخيالة لكي تحيط ببغداد وتلقي

القبض على كل هارب منها وتمنع الداخلين اليها لأي سبب كان.

بعدها ركز اهتمامه على المناطق التي انطلقت منها الانتفاضة: باب الشيخ وقنبر علي، فوجّه الى الأولى أربع سرايا من الجنود مع مدفع تحت قيادة اللواء سامح باشا، والى الثانية مثل ذلك تحت قيادة اللواء فيضي باشا. والظاهر أن الأهالي أدركوا مبكراً وخامة العاقبة وأن هذا الوالي لحمه مرّ، ليس كسابقيه، فتفرقوا وانهوا التمرد قبل أن يضطر الجنود إلى إطلاق رصاصة واحدة.

لم يدع الوالي الأمور تمر عليهم بسلام، وإن سلموا وانسحبوا. أراد ان يلقن الأهالي درساً في معنى الوقوف في وجه السلطة. بحلول الظلام ألقي القبض

على مائة وثمانين رجلاً اتهموا بأن لهم ضلعاً في إثارة الشغب وتأجيج الناس، وكان موحان وضمد وشايع من بينهم.

تم تجميع المعتقلين في ساحة "زويّر القاضي" أمام بناية السرايا الحكومية، محاطين بعشرات الجنود المسلحين، تُركوا هناك لساعات دون ماء أو طعام. حضر مدحت باشا في ساعة متأخرة من الليل، ببدلته العسكرية وعليها جميع نياشينه، يحمل بيده غليونه الأزرق. نُصب له كرسي أمام البناية، في مكان يرتفع بضع درجات عن الساحة، وقف على يمينه ويساره اكبر مساعديه، اللواء سامح باشا واللواء فيضي باشا، ووراؤهم كوكبة اخرى من كبار الضباط. أمر الوالي بزيادة مصابيح الكحول في الساحة ليرى وجوه

المعتقلين. جال نظره في الحضور من على كرسيه فلفت انتباهه شايع وكان أصغر المعتقلين، أشار له ان يقترب اليه. قبل أن يتقدم همس ابن عمه موحان في أذنه ان لا يذكر أمام الباشا أنه طالب مقبول في المدرسة العسكرية.

خطى شايع ناحية الوالي دون تردد، وقف أمامه يحدق في عينيه مباشرة، لم ير ما يدعوه للخوف من ذلك الرجل الصارم رغم جميع مظاهر العسكرة والترهيب التي انتشرت في أنحاء المكان. حفت به فجأة طمأنينة هائلة لم تصدر من داخله، بل أُسبغت عليه من قوة خارجية غامضة، كتلك التي حفّت بإبراهيم في النار.

كان الباشا حينها في نهاية عقده الخامس،

حضور لا تنكره عين، هيبة يفرضها طول فارع، بُنية قوية، لحية طويلة وكثيفة، شوارب مبرومة، وجه عريض، جبهة عالية ونظرات نافذة.

تلقى شايع ضربة عصا من سامح باشا لسعت ساقيه من الخلف وصرخة آمرة:

"اركع، ولد، وقبل يد مولاك"

لم يركع شايع، لم يحس بالضربة. تقدم اليه فيضي باشا وأركعه بالقوة. ظل شايع محدقاً في الباشا بوجه متحد، صرخ فيه سامح باشا:

"نكّس رأسك، ولا تضع عينك في عين مولاك، ادبسيز"

لفت انتباه الوالي هدوء وتوازن الصبي في حضرته، تضايق قليلاً من وقع نظراته الثابتة عليه، لا يشبه باقي الأطفال من سنه، وجه مليح ناعم مبطن بسخرية لئيمة وعينان ذكيتان ثاقبتان، سأله بلطف:

"ما اسمك، ولد؟"

بقي شايع صامتاً للحظة قبل أن يرد، وجهه منبسط وعيناه واثقتان. ليس هذا حال من ينعقد لسانه في حضرة طاغية. الذي لم يعرفه الواقفون ولن يعرفونه، ان حضوره كان يتهيأ لأول حالة "كشف" في حياته، خلال تلك اللحظة لم يكن شايع الذي نعرفه، أو ذاك الذي يعرف هو نفسه، بل واسطة اختارتها قوى خفية لتوصيل رسالة محددة إلى مشروع عتبة من عتبات التاريخ، مدحت باشا.... تمددت اللحظة

وانتفخت تلافيفها كزهرة تتفتح. انحنت خطوط الزمن، والتقت نهاياتها لتشكل دوائر متوازية.

صحت في شايع حاسة كامنة، سادسة او سابعة، مكّنته من ادراك تلك الخطوط بعد التجرد منها، باتت في متناول يديه، يحركها ويقلبها كما يشاء، تجربة جديدة تماما عليه. المعلومة تبرق كومضة، وتضرب في عصب معطل، فتوقظه بمقدار من الزمن متناه في الصغر. استغرقته لعبة التجرد والتحكم، ابتسم فظهرت غمازتاه، سيتذكر الباشا تلكما الغمازتين جيداً بعد سنين، نطق الصبـي بكلمات بطيئة واضحة وصادقة لم يحضّر لها من قبل:

"بعيدا تصعد بك الدرجات، فلا يعود بإمكانك تبيُن الأخضر من الأسود"

مرت لحظة صمت غيمت على جميع الضباط، شلّهم الكلام وانسحروا للحظة. ثم تداركوا أنفسهم، نفضوا رؤوسهم. همّ اللواءان بتولي أمر هذا الصبـي النمرود. رفع الوالي ذراعه يمنعهم. قال له "اكمل". اكمل شايع على الوتيرة نفسها دون أدنى اعتبار للنظرات الملتهبة للضباط المحيقين به:

"... تسقط بأسرع مما صعدت، وتموت وحيداً ذليلاً في قلعة الطائف"

لم يكن مدحت باشا من المؤمنين بالغيبيات، إلا أن الطريقة التي تكلم بها الصبـي معه، بابتسامة وغمازات، انطبعت بقوة في ذهنه، أحس بالاهانة من جسارته أكثر مما أقلقته نبوءة الطالع، لكن هل سيمنعه كبرياؤه العسكري من أن ينزل إلى مستوى طفل في

الثانية عشرة؟ ظل الباشا يحدق فيه للحظات، محاولا تشتيت الأثر غير المتوقع لتلك الكلمات المبهمة في نفسه، واحتواء ذلك العجز الذي شلّ تفكيره تماماً من الإتيان برد فعل مناسب، باقي الضباط مستوفزون، يتطلعون إليه بانتظار أوامره. ارتجفت عضلة صغيرة في نصفه الأيسر بين جفنه والخد، علامة إجهاد يعرفها المقربون حين تخرج الأمور عن نطاق سيطرته. لكن الباشا يعرف متى يشكُم اندفاعه ومتى يطلقه، أدرك بحسه السياسي أن اي تصرف غير محسوب العواقب مع ذلك الصبـي سيحيل الأمر الى قصة الموسم، يطغى صيتها بين الناس على أخبار انتصاراته في قمع التمرد، بل ومن الممكن أن تطير لاسطنبول... تنهد ليشتت هدير المرجل الذي كان يتميز في صدره. ثم مال بنصف جذعه ناحية شايع وقال كازّاً على أسنانه:

"لو كنت اكبر بسنتين، ولد، لشنقتك الآن وعلقتك على أحد أعمدة الميدان"

التفت إلى سامح باشا:

"يضرب هذا الولد الوقح خمسين فلقة ويغرم ولي أمره ليرة فضية"

كانت تلك أول حالة "كشف" في حياة شايع، هو نفسه لم يعرف كيف ولماذا نطق بتلك العبارات، لكن قوى كلية لعبت بغموض، غمزت بعينها وانصرفت مقهقهة على الطرفين.

بالنسبة لباقي المحتجزين أمر الباشا بتجنيد ثلاثين منهم وصفهم بالقبضايات، أما الذين كسروا ونهبوا فأحالهم إلى التحقيق والمحاكمة.

تم بعدئذٍ مباشرة استدعاء المكلفين الثلاثمائة الذين كانت القرعة قد أصابتهم أصلاً، دون أي استثناء، فلبوا الدعوة صاغرين. وكان ذلك ايذاناً ببدء تطبيق التجنيد الإجباري واحترام سلطة الدولة في جميع أنحاء العراق، صارت الحكومة من بعد ذلك تستدعي المكلفين من جميع الألوية كل عام، ولم يستثن منه سوى ألوية المنتفق والدليم والعمارة باعتبار أن أكثر السكان فيها من العشائر الرحالة.

جاء الحاج نعمة من سفره صباح اليوم التالي، سمع بالخطب، توجه مباشرة الى صاحبه ريسان خسرو بيك محتسب الوالي، أخذ هذا منه ليرتين فضيتين ومثرد قيمر فسلمه ابن أخيه وأحد أبنائه بأقدام منتفخة مقلمة بالقرمزي والأخضر. أما ابنه الآخر فتم

إدراجه مع المجندين رغم عدم بلوغه السن القانوني بعد. قال المحتسب للحاج هامساً قبل أن يغادر:

"حسنا فعل ابن أخيك، لم يخبر أحداً انه طالب في المدرسة العسكرية"

استلم الحاج نعمة الولدين وحمد الله على انتهاء الأمور عند ذلك الحد، عاقب ولديه لاحقاً بفلقة اخرى على أخذ الصبي معهم إلى الشارع الهائج:

"هو أمانة عندنا، ما الذي سأقوله لأبيه؟"

اتفق مع شايع ان ينسوا الأمر وأن لا يخبروا أباه بالذي حصل.

(5)

1869-1872

قضى شايع السنوات الثلاث للدراسة في بناية المدرسة في جانب الرصافة قرب السرايا الحكومية وأبنية القنصليات، بإقامة داخلية، يكون التركيز في السنة الأولى فيها على تعلم التركية، وفي السنة الثانية

والثالثة تحل مكانها دروس أولية في الحساب والعربية والتاريخ والدين. شكّل وقوع مكان المدرسة قرب السرايا الحكومية مشكلة كبيرة لشايع، فبعد ذلك اللقاء الحرج، ان حدث ولمحه الوالي يوماً او عرف انه أحد طلبة المدرسة العسكرية فبالتأكيد سيستشيط غضباً ويطرده في الحال، لذا داوم شايع على التواري والتمويه طيلة فترة الدراسة إذا ما استشعر مرور موكب الوالي أو أحد من كبار حاشيته قريباً منه.

الاستيقاظ الصباحي عند الخامسة فجراً، يرتّب كل تلميذ فراشه وينظف مكانه، ثم تعداد وتفتيش، صلاة الفجر، فطور أول، قدح حليب وخمس تمرات، ثم ساعتان من الرياضة الصباحية، تمارين قاسية لاختبار القدرة على التحمل، خمسون شناو وركض

مسافة خمسة كيلومترات، ثم سباحة في دجلة من شريعة القشلة من أمام السرايا الحكومية إلى شريعة السلطان علي، يعقبها فطور ثان، بيضة مسلوقة وحبة فاكهة حسب الموسم، وصمونة جيش تأتيهم من فرن صمون العسكر في جادة الأكمكخانة القريبة من المدرسة (شارع المتنبـي حالياً)، راحة. تبدأ بعدها تدريبات عسكرية على الوقوف بالاستراحة والاستعداد، والمسير والتحية وفتح وغلق النظام يضاف إليها في السنة الثالثة تدريب على حمل السلاح وتفكيكه وربطه وإدامته. غداء، أرُز ومرق مع رأس بصل وفجل، ثم دروس نظرية. فرياضة مسائية، غالباً ما تكون مبارزة بالعصي او مصارعة او رياضات الجفرة، قفز عريض، عالي او بالزانة. ثم عشاء، ذرة او برغل، وحبة بطاطا وقطعة صغيرة من لحم الغنم

جميعها مسلوق، كان شايع يتنازل عن قطعة الغنم لمن يجلس قربه، تعداد مسائي ونوم بعد صلاة العشاء مباشرة.

كان المنهاج صارماً بانضباطه، والسهو أو ارتكاب الأخطاء لا تسامح فيها. يتضمن أيضا عقوبات، تكون أكثر تشدداً مع المستجدين. لم يسلم شايع منها رغم انتباهه وتركيزه الشديدين، لم يعرف حينها أن عمه كان يبعث بمثارد القيمر ورؤوس الغنم والكراعين إلى معلميه مقابل التشدد معه لأجل تقوية عوده. فلم يمر أسبوع دون أن يعاقب لأسباب واهية، كأن يتأخر دقيقة عن التعداد، او يشرد ذهنه للحظة اثناء الدرس. الضرب بالعصي والفلقة مسموح بهما ضمن قائمة العقوبات، أضف الى ذلك الزحف على البطن،

التمرغ بالوحل، حشو الفم بالطين، الغطس في المياه الثقيلة حد العنق لساعات، الحشر في زنزانة صخرية تحت الأرض. الإيهام بالغرق، التجويع...

"الهوجة" كانت أم العقوبات، تُنفذ بحق من يخطئ ثلاث مرات متتالية خلال الأسبوع، مجموعة من نواب العرفاء المهذبين يشكلون بأجسادهم حلقة داخل حلبة رملية، يحمل كل واحد منهم عصا خيزران، يوضع التلميذ المعاقب في الوسط، حافي القدمين نصف عار، يتناوبون عليه بالضرب على الأماكن اللينة، ولا يتركونه الا وهو عالق مابين الحياة والموت. وقد أصاب شايع واحدة من تلك "الهوجات" في النصف الأول من العام الدراسي.

كانت صرامة المنهاج والمجالدة والاعتماد

على النفس ونظام العقوبات أموراً جديدة عليه. اشتاق للدلال والحياة السهلة. فكر أكثر من مرة بترك المدرسة والعودة الى البيت، لكن إقراره بفشله في إتمام الدراسة العسكرية معناه تعزيز نظرة الناس تجاه رجولته. قرر أن يصبر ويتحمل مهما كلفه الأمر.

في أوج تلك الأيام الصعبة، مر شايع بأول تجربة "تحرر" في حياته، الأمر حدث خلال تنفيذه عقوبة تلقاها جراء مجادلته معلم الدين حول ان كانت البسملة آية من الفاتحة.

تُرك واقفاً بحالة الاستراحة من صلاة العشاء حتى صلاة الفجر تحت عمود خشبـي يحمل قنديلاً في أعلاه، نُصب على ضفة النهر. جُرد شايع من ملابسه العلوية وتُرك نصف عار وحافي القدمين تحت رحمة

أسراب البعوض والبرغش والحرمس وحشرات أخرى لم يرها في حياته، على أن لا يتحرك أو يغير في وقفته، يتناوب على مراقبته نواب عرفاء، واحد كل ساعتين.

انتهت الساعة الأولى بخدر بدأ يدب في اقدامه ويمتد صعوداً الى ساقيه، أعقبه ألم لا يطاق اشتد في مفاصله. ناهيك عن الهوام تحوم حوله وتحرث في جلده، دون السماح له بهرشه. بعد الساعة الثانية تخشبت ساقاه وتورم أعلى جسمه. مع بداية الساعة الثالثة، انتابته دوخة شديدة وحمى. الأنكى من كل ذلك، كان عليه أن يبقى ساكناً، وعلى مستوى عال من التركيز، لأجل أن لا يخل بتوازنه أو يسقط أرضاً.

كانت الليلة أيلولية، حرارة خانقة والهواء

تشبع برطوبة عفنة تصاعدت من سطح النهر. الريح ساكنة. الأشجار هامدة، بدت أوراقها دون روح، كما لو انها صورة. ليس ثمة أدنى حركة في الجوار...

في تلك الأثناء سلك دجلة بطريقة غريبة يندر حدوثها، ارتفع منسوب المياه خلال دقائق، وبدأ يزحف على الضفة حتى اجتاز قدمي شايع بمتر واحد، بقي لدقائق ثم سرعان ما انحسر راجعاً الى مستواه الأصلي، تاركاً خلفه أرضاً رطبة شبه موحلة. لم يكن أحد ليعرف أن العمود الذي وقف عنده شايع قد أُنبت وسط حقل عقارب، كانت فتحات بيوتها مغطات بطبقة أعشاب ما جعلها صعبة التمييز. الا ان موجة الماء التي بلغتها، تغلغلت داخل فتحات كأنها انصاف فلاسين، واستفزت تلك المخلوقات النائمة، فنفرت

جميعها في وقت واحد إلى الخارج منزعجة. عشرات، مئات العقارب، سود بحجم القبضة، بدأت الأسراب تبحث عن اي شيء يرفعها عن الأرض الموحلة، ولم يكن هناك سوى ذلك التمثال الشاخص، تسلقت مجموعة منها ساقيه، لم يحس بها الا وهي تدب على نصفه العاري، حرك رأسه قليلاً فرأى ستاً منها تجتاز منطقة حزامه إلى الأعلى، جحظت عيناه واحتقن وجهه، يعرف جيداً أن أية حركة مفاجئة ستستفزها فتأتي ردة فعلها ممتية. تطلّع ناحية العريف المناوب، كان بعيداً، غاطاً في نومه لا أمل يرتجى منه. استمرت العقارب بالصعود، تضاعفت أعدادها، صارت بالعشرات حتى غطت كامل منطقة البطن والصدر، ثم استولت بعدها على الوجه والرأس. واصلت أعداد أخرى الصعود فازدحمت وتراصّت حتى لم يعد هناك

مكان شاغر على جسده، فصارت تدب فوق بعضها البعض.

في مثل تلك المواقف، حيث الخيارات معدومة، الجسد في أشد حالات ضعفه، العقل شبه مشلول، النفس مهزومة، والموت بات أمراً حتمياً لا مفر منه، يتمحك بوجهك، يستمتع باللحظات التي تسبق تنفيذ حكمه فيك... تبرق.. ومضات شاردة.. تكاد تكون غير محسوسة، تلمع بسرعة خاطفة هنا وهناك، قليل من الناس يدركون أنها ثقوب تفضي الى المصدر، الطاقة الكلية المجردة، خطرة، تنحو خلاف القوانين. تتوهج الثقوب ثم تخبو لتتوهج من مكان آخر.. وهكذا. كل ذلك يتم في أجزاء من الألف من الثانية.

الذهن والفطرة والحواس، ثلاثة حجب

حديدية تُغلف الجذوة، لكن في حالة شايع، والذي كان واعياً في إغماءته، ذاب الخيال بالواقع، فتصدعت الحجب الثلاثة، وتشققت كما الشرنقة حين تنضج، تساقطت كالقشور، فتحرر العقل من الإرادة، ثور من اللهب، قوة مجردة لا نهائية. شايع اليائس تشبث بالجذوة، غريق تشبث بزعنفة قرش هائج. كان في القاع، لم يكن لديه ثمة ما يخسره، أحكم تشبثه به وانغرس فيه حتى صار جزءاً منه، توحد وإياه في نسق واحد، كفارس استمكن من حصان جامح، يعتليه متى شاء ويترجل عنه متى شاء. حينما وصل تلك النقطة، صار في حالة أنا- لست - جسدي، اندمج بعالم الرموز وصار منه، فإذا بالألم والخوف والخطر والموت؛ حالات تستحيل إلى أفكار مجردة يمكن ليّها والتنصّل عنها والتحكم فيها.

مرّت تلك الليلة على شايع دون أن يصيبه شيء، نام في مكانه وصحا فجراً، وقد استذكر ما حصل معه جملة، لكن دون تفاصيل..

(هل كان حلما!؟)

(6)

يقضي شايع عطل نهاية الأسبوع في بيت عمه في باب الشيخ. يأتيه عمه الى المدرسة كل خميس، حيث ينتهي الدوام عند الثانية بعد الظهر، ليأخذه الى بيته بربل يجره حصانان. الرحلة تستغرق حوالي الساعة، يقطع خلالها الجادة العمومية، جنوباً، ثم ينعطف يساراً باتجاه جامع الخلاني قبل بلوغ الباب

الشرقي. بعدها يواصل طريقه حتى محلة باب الشيخ. الطريق نفسه الذي قطعه في أول يوم له في بغداد. كان شايع ينتظر تلك الرحلة الأسبوعية بفارغ الصبر. فُسحةٌ من الحياة تُتاح له مرة في الأسبوع، تعقبها ستة أيام من التعذيب، يقضيها محبوساً داخل المدرسة ومناهجها الصارمة.

يسترخي جالساً الى جوار عمه على مقعد الربل، يهتز مع خبب الأحصنة على الجادة، يتمايل وإياه عند كل حفرة أو عطفة أو مطب. يرسل نظره يميناً وشمالاً، لا يريد أن يفوته شيء، يدهشه كل منظر وزاوية. يسمّي المناطق في ذهنه حسب روائحها. ستبقى من بغداد في ذاكرة شايع، بعد أن يشيخ، روائحها؛ بخور حجي رفُش، كباب خلف حسنو،

كزبرة حنّا أبو العَرَق، ثوم علوة عوّارة، روث ساحة زكية خاتون، ماء ورد حسينية السنبكسي، حِنّة باب مقام الخضر، قدّاح تكية بير داوود.... بينما سيبقى للزهدية في وجدانه رائحة واحدة، لا تخبو ولا تتغير مهما أتت عليها السنين: رائحة الرماد المبلول.

طالما تمنى شايع مع نفسه أن يُترك لوحده في شوارع بغداد، يسير في جاداتها، يستكشف زواياها، ويلج أزقتها، إلا أنه، ويا للأسف، كان محكوماً بحرص عمه المبالغ به عليه منذ يوم الانتفاضة.

الجادة العمومية متربة، غير مستوية، باستثناء بضعة أمتار مرصوفة بالطابوق في منطقة الميدان والتي تنخفض من هناك أمام سوق الصفافير وجامع مرجان وراس القرية، إذ يغمرها الماء في الأيام

الممطرة، وتلك كانت الفرصة الوحيدة التي يتسنى فيها لشايع ترك الربل والمشي مع عمه عبر الأزقة الخلفية، إن لم يكن محمولاً على ظهور الحمالين حيث يكون عملهم رائجاً حين يشتد المطر. أما أصعب الأيام لاجتياز الجادة هي في مواسم الفيضانات.

لم يكن في الجادة العمومية شوارع فرعية تمتص الازدحامات الا بعض الطرق المؤدية الى نهر دجلة، مثل طريق الصابونجية في الميدان وطريق العبخانة في سيد سلطان علي وطريق باب الشيخ، وكانت المشكلة الرئيسية اليومية أيام الفيضانات في الشارع هي عبور العربات على الجسر الوحيد، فهو أعلى من مستوى الشارع ولا يستطيع سواق العربات إيقاف الخيل على مثل هذا المنحدر. وكانت المنطقة

المحصورة بين باب الأغا وراس القرية أكثر المناطق ازدحاما بالناس والعربات والجمال والحمير المحملة بالبضائع من ناحية شريعة المحكمة أو شريعة الجسر، كونها قلب المنطقة التجارية في بغداد. كل تلك التفاصيل كانت لشايع مصدر فرجة وإثارة وقصص يكومها في رأسه ليرويها فيما بعد لعيشة في إجازته الصيفية.

تعود شايع أن يقضي معظم ما يتبقى له من يوم الخميس، بعد مغادرة المدرسة، في الفراش، بينما في أيام الجُمع، يصطحبه عمه صباحاً مع باقي أولاده الى حمام كجّو في باب الأغا، يبقون هناك ساعتين، يعقبه في الغالب استراحة في ديواخانة الجادرجي، يتناولون مشاريب باردة، كان طقسا أسبوعياً، عمه

يفضل عادة العرك سوس بينما يشرب أولاد عمه البلنغو فيما كان شايع مهووساً بالبرمبوز المعمول من شربت اللوز، جميعها تُوصل إليهم من دكان حجي خيرو الحلبـي، أشهر من حضر الشرابت في بغداد في ذلك الحين. ثم يصلّون الجماعة في جامع الحيدرخانة، وعند خروجهم، يتناولون الغداء في خان جغان المجاور للتكية الرفاعية، والتي يحيط بها سور عال، يُسمع من خلفه هدير أناشيد الدراويش مصحوب بإيقاعات الدفوف والطارات، يحضّرون لأذكار المساء. كان شايع مسحوراً بأنغام تلك الأناشيد، وكلما مر في ذلك المكان، شده فضول جارف لمجرد إلقاء ولو نظرة واحدة على ذلك العالم الغامض، وما يفعله الدراويش هناك خلف السور.

حل عاشوراء تلك السنة في عطلة المدرسة الربيعية، حدثٌ كبير، تُغلق، خلال أيامه العشرة، المتاجر، ويتّشح الناس بالسواد، تُنصب القدور العملاقة على قوارع الطرقات، تقام مجالس قراءة القصائد في المقاتل الحسينية واللطميات والقرايات.

يأخذ الحاج نعمة جميع أولاده وشايع كل يوم، طيلة الأيام العشرة، الى ساحة العرباين أمام دربونة الدشتي، حيث تلتقي جميع مواكب السبايات المنطلقة من محلات بغداد ومدنها القريبة، تتقدمها الهوادج العملاقة والمشاعل والبيارق الطويلة من كل لون، المشاركون يضربون ظهورهم العارية بالسلاسل حتى نهاية المسير. من ساحة العرباين تكمل المواكب مسيرها داخل دربونة الدشتي متوجهة ناحية مدخل

سوق الصفافير، تدور بعدها عبر أزقة محلة الامام طه لتعود من جديد الى دربونة الدشتي، ومن هناك تتفرق وينتهي العرض.

يتكرر هذا السياق كل يوم، لتسعة أيام تتخللها التشابيه، وعروس القاسم، ووصول موكب الكاظمية، أكبر المواكب، ثم يأتي طقس إقامة الحجة، ويكون في ليلة اليوم التاسع من محرم، حيث لا نوم حتى الصباح. وفجر اليوم العاشر يكون التطبير.. مئات الرجال من جميع الأعمار ينتظمون في موكب واحد، حليقي الرؤوس، يرتدون أكفاناً بيضاً، كل يحمل قامة أو سيف قصير في يمناه، يضربون بها أعلى رؤوسهم بإيقاع موحد على صوت البوق وهدير ترديد "حيدر".

سمع شايع ابن عمه موحان يسأل أباه:

"أبـي، انظر كيف يشجّون رؤوسهم، كيف لهم البقاء أحياء بعد كل هذا الضرب!؟".

رد الحاج نعمة: "قادر يا كريم".

نقاط دم تضرب الأسفلت بألوان حمر متفاوتة الدرجات. لم يتمكن شايع أن يشيح بنظره بعيداً عنها، وجد فيها شيئاً ملفتاً استثاره بشدة. أفلت من يد عمه في غفلة منه، تسلل بين سيقان الجموع ليكون في المقدمة، صار هناك، تقدم أكثر، دخل بين صفوف المطبرين، رفع رأسه الى الأعلى، لمح بريق السكاكين الطويلة وهي ترتفع معاً على إيقاع الطبول، تلمع بشدة، تعكس أول خيوط الفجر، وتضرب على الرؤوس الغائبة في طقسها.

خيط دم قان يندفع كالسوط، يضرب وجه شايع، يقسمه الى نصفين بخطّ مائل، لم يجفل، او يتراجع، أحس بدفئه على أنفه وشفتيه، تحسسه بأصابعه، لم يقاوم رغبته في أن يجرب طعمه بطرف لسانه، جربه، لم يكن سيئاً... الملمس اللزج للدم بين أصابعه صار سره الخاص، سيستذكره بعد ذلك اليوم كلما خلا إلى نفسه... ويبتسم.

يتبرع الحاج نعمة كل عام بعشر ليرات مجيدية للتكية البكداشية الواقعة في جانب الكرخ في محلة خضر الياس، ومقابل ذلك يلقى تقديراً كبيراً من شيخ ودراويش التكية كلما زارها، وفي الثاني عشر من ربيع الأول من كل عام يتلقى دعوة خاصة من التكية لحضور إحياء المولد النبوي الكبير، والذي يقام في

ساحة المولى خانة قرب المدرسة المستنصرية، خلف جامع الآصفية، يحضره عادة جمع من دراويش تكايا بغداد: تكية الهندي وتكية جامع الأزبك، وتكية مسجد بير داوود، وتكية الشيخ معروف والبدوي والقادرية والطالبانية والرفاعية والشيخ كمر وآل الراري والشيخ مصطفى.. يشكل دراويش كل تكية حلقة يتوسطها شيخهم، يبدأ القرع على الطبول، يصاحبها إنشاد أدعية وأذكار، ثم تتطور الى استعراض ضرب الدرباشة أمام الناس، يضرب الدراويش أنفسهم بالسيوف في أماكن مميتة من أجسامهم، يدقون القضبان في جماجمهم، يلوكون الزجاج وشظايا الحديد، يفقأون عيونهم بالقضبان، ويقبّلون أفاعي سامة. يُفرد للحاج نعمة مكاناً في الصدارة كالعادة، وكان أولاده وابن اخيه شايع يجلسون حواليه، منبهرين بما يرونه أمامهم.

عيون الحاضرين جميعها تتجه ناحية منظر ملفت، درويش عار إلا من شروال، ثقيل الوزن، كرش عظيم يتدلى من فوق حزامه الجلدي العريض، زنود ضخمة، حاسر الرأس، كث الشعر، لحيته سوداء غزيرة تصل إلى ما دون سرّته، يتباهى ماشياً الى الصفوف الأولى من الحضور، وقد غرز قضيباً حديدياً في عينه اليسرى، قطرهُ بقطر اصبع السبابة، مقبضه ملفوف بالجلد، وأربعة مثله أُنبتوا في جمجمته من اربع جهات فلم يتبق منها في الخارج غير مقابضها. اقترب من الجالسين حتى كاد أن يتعثّر بهم، يصرخ في وجوههم بصوته الأجش:

"حيّ، حيّ، يا قيّوم.. حيييييييييّ ياقيوم.. حييييييّ..."

مبالغاً في فتح فمه حين الصراخ، فتتكشف ما تبقى من أسنانه الكبيرة الصفر. المشهد ككل، لا يمكن توقع رؤيته إلا في كوابيس ليلة الختان.

يشير إليهم ان يمسكوا بمقابض القضبان ليتأكدوا من حقيقة ما يروه، إلا أن الجميع تراجع الى الخلف. أولاد الحاج نعمة غطوا وجوههم بطرف عباءة والدهم... بينما شايع لم يتزحزح من مكانه، بقي مفتوناً بالمنظر، يحدق فيه كما لو كان يحدق في أيقونة محكمة الصنع. مد ذراعه وتحسس على وجه الدرويش بأنامله، فهدأ هذا في الحال وبرك على ركبتيه مسلماً، صار بين يديه ككلب أليف. واصل شايع، وبالهدوء ذاته، تمرير أنامله على العين السليمة، ثم المسمولة، ثم مد ذراعه الأخرى وبدأ يختبر المقابض واحداً تلو الآخر.. أمالَ

أحدها ببطء ناحية اليمين ثم اليسار، فتحرك معه رأس الدرويش بإذعان.. وجد شايع الأمر برمته شيئاً مدهشاً..

في تلك اللحظة لمعت في باله، فجأة، فكرة غير مريحة؛ استنتاج غريب لا يتناسب وسنّه، كما لو كان حلاً سهلاً لمسألة شديدة التعقيد، وقد تجلى أمامه بوضوح مقلق: "نحن على الأرجح.. كائنات مُتخيَلة".

***

لم يكن شايع ليحنّ كثيراً الى بلدته الزهدية لولا وجود عيشة فيها. منذ حلوله في بغداد اكتشف أن روحه ميالة للسفر وحياة المدن الكبيرة. لم يكن بحاجة لمصروفه الذي خصصه له أبوه خلال الدراسة في

بغداد، قَمري كل أسبوع، كان عمه يتكفل بجميع احتياجاته، فصار يجمع القمريات في حصّالة لحين قدوم العطلة الصيفية، فيأخذ ما تجمع لديه من مال ليشتري هدايا لعيشة، يعرف انها ستُفرحها كثيراً، أشياء لم تكن متاحة في الزهدية، مرآة بيضوية صغيرة في إطار من حجر اليشب، مشط من الزان له أسنان من الجهتين، ناعمة وخشنة، معاضد نحاسية محفور عليها هيئات غزلان، مناديل قطنية حوافها مطرزة بخيوط الفضة، عطر ماء الورد في قنينة زجاجية. ولا ينسى في كل اجازة أخذ كيس كبير مملوء بخليط من الحلقوم ومَنّ السما والمصقول والجوز والفستق الأخضر والخرّيط.

أصبحت لقاءات شايع بعيشة أثناء الإجازات

أكثر حرارة، كذلك أكثر حذراً من عيون الآخرين، لم يعودا طفلين يلتقيان حين اللعب، داخَل الأمرَ شوق ولهفة وارتفاع حرارة وابتسامات خجولة ونظر في العيون. باتت انوثتها ظاهرة وبقوة. اما هو، فحياته العسكرية منحته ثقة كبيرة بنفسه، خشن عوده واسمرّت بشرته وزاد طوله، كان أول شخص في الزهدية يدخل مدرسة، وقريباً سيحمل رتبة. نسي الناس نظرتهم القديمة إليه وصاروا يفخرون به. كان أبوه أسعد الناس بما وصل إليه وحيده من مكانة.

انقضت سنوات الدراسة الثلاث وتخرج شايع منها بتفوق، كان ضمن العشرة الأوائل. احتفى أبوه بإتمام وحيده المدرسة، أقام له في الزهدية وليمة كبيرة، دعا إليها جميع الناس فقراءهم وأعيانهم.

وأخيراً حل اليوم الذي لا يمكن بعدة إرجاء الصدام. قبل ان يمضي شهر على تخرجه، جاء شايع إلى ابيه، كان حينها قد اتم الخامسة عشرة، وطلب منه أن يزوجه عيشة بنت مزاحم. لم يتوقع الأب أن يباغته شايع بطلبه هكذا وبذلك الوقت المبكر، لم يجبه في الحال، حرص أن لايقطع آخر ما تبقى بينه وبين وحيده. تروى في الرد وقال له:

"ما زلت صغيراً على الزواج، أكمل دراستك العسكرية في بغداد أولاً، وسيكون بعدها خير إن شاء الله".

(7)

1872-1876

بعد أن أتمّ مدحت باشا فرض سلطة الدولة العثمانية في جميع أنحاء العراق، شن حملة عسكرية قادها نافذ باشا، شملت أغلب مشيخات الخليج حتى وصل منطقة الأحساء وهناك تفاهم مع حاكم قطر قاسم

بن ثاني على أن يسمح الأخير برفع العلم العثماني على جميع أراضي المشيخة مقابل أن يتلقى الدعم من الجيش العثماني لأجل التخلص من النفوذ البريطاني على أراضيه. رحب مدحت باشا بالنتيجة التي وصل إليها ذلك التفاهم. وبذلك ضرب عصفورين بحجر: عرقلة خطط البريطانيين لتعزيز وجودهم في الخليج. وتأمين موضع قدم قريب من مناطق المد السلفي الذي بات خطره حينذاك يقلق الاستانة.

الصعود السريع لنجم مدحت باشا في العراق وما بعده بدأ يقلق الإستانة، وبالأخص الصدر الأعظم، حينها، رشدي باشا، عمل هذا الأخير المستحيل لإقناع السلطان عبد العزيز بنقل مدحت باشا من العراق، خوفاً من طموحه السياسي الذي قد ينتهي به الى التمرد على

الاستانة، كما فعلها من قبل محمد على باشا في مصر. رضخ السلطان عبد العزيز في النهاية لإلحاح صدره الأعظم.

تم نقل مدحت باشا من بغداد، ليُعين والياً على أدرنة، ونصب محله عبد الرحمن باشا والياً على بغداد.

واصل الوالي الجديد إتمام ما بدأه سلفه مدحت باشا بخصوص المدارس العسكرية، فأكمل مشروع الاعدادية العسكرية، والتي يستمر خريجو المدرسة الرشيدية اكمال دراستهم فيها، ليُبتعثوا من بعد تخرجهم الى الاستانة وليكملوا في المدرسة الحربية هناك، والتي سيتخرجون منها ضباط برتبة ملازم ثان.

أخذ شايع وعداً من أبيه بأن زواجه من عيشة

سيكون بعد الاعدادية مباشرة، على أن يبقى في الزهدية بعد الزواج ولا يسافر الى الاستانة لإتمام الدراسة.

كانت سنيّ الاعدادية أقل وطأة على شايع من سابقاتها، خفّت الصرامة ونظام العقوبات على الطلاب بشكل واضح، وسُمح لهم الخروج من المدرسة بعد التعداد المسائي. لم يتغير منهاج التدريبات كثيراً سوى إضافة تمارين ركوب الخيل والرماية. أما بالنسبة للدروس النظرية فقد أضيفت الفرنسية والفارسية والجبر والمثلثات والفلك والجغرافيا. اكتشف شايع في تلك الفترة شغفه بالقراءة، بدأ يقرأ بنهم كل ما يقع بين يديه. سمع بمكتبة المخطوطات الكبيرة في التكية الرفاعية، فصار يتردد عليها. أخيراً صار بإمكانه

الدخول الى التكية، بل وايضاً الاختلاط بدراويش الرفاعية وحضور بعض أذكارهم.

حينما رأى مكتبتها أول مرة، أذهلته كمية المراجع والكتب التراثية فيها، لم يعرف من أين يبدأ، طلب عون خادم المكتبة، فاقترح عليه ان يبدأ بديوان الحلاج.

والله ما طلعت شمسٌ وما
غربت

إلا وحبك مقرون بأنفاسي

أتمه في ليلة واحدة وحفظ منه الكثير. خفق قلبه في تلك الليلة بشدة، مرت على باله عيشه، اندلق شوقه إليها فجأة ودمعت عيناه، ظل ساهداً حتى الصباح، يستعجل يوم تخرجه من الاعدادية، ليعود الى بلدته، يتزوج منها، ويعيشان في بيت واحد يضمهما معا حتى آخر العمر. صار يحنّ إلى الزهدية، لم يكن ليتخيلها وطناً له دون وجود عيشة فيها.

أُعجب بالحلاج وأحب ان يعرف عنه اكثر، نصحه الخادم أن يقرأ كتابه (الطواسين) مع كامل شروحه. صدمته طريقته في التأليف والعبادة وطروحاته المخالفة في الدين. ودعوته في وحدة الوجود. وأن التصوف، كما يعرفه الحلاج، غير مقتصر على العلاقة بين العابد ومعبوده، بل يتضمن

أيضاً الكفاح ضد الظلم والجهل والفساد. انبهر شايع أيضا بطريقته في اللعب بالكلمات من اجل إيصال أفكار معقدة:

أنا من أهوى ومن أهوى
انا

نحن روحان حللنا بدنا

فإذا أبصرتني أبصرته

وإذا أبصرته أبصرتنا

لكن كاد ذلك الكتاب أن يتسبب في فصله من المدرسة في تلك السنة بعد أن عثر عليه العريف المشرف مُخبئاً تحت فراشه. استدعى المدير ولي أمره، الحاج نعمة، وأبلغه ان سياسة المدرسة تحظر حيازة مثل هذه الكتب. لكن، نظراً الى تفوقه في الدراسة وحسن سيرته وسلوكه، ارتأت الإدارة أن تعفو عنه تلك المرة، على ان يتعهد بعدم تكرار الخطأ. تعهد شايع أمامهم وأمام عمه بذلك. إلا أنه وبعد مرور فترة وجيزة لم يتمكن من حفظ عهده معهم بذلك الخصوص، بل حدث العكس، تضاعف فضوله لمعرفة المزيد عن أعلام التصوف، فقرأ في السر لابن عربي ورابعة العدوية وأبي يزيد البسطامي والجنيد البغدادي والسري السقطي وابن الفارض وفريد الدين العطار... وآخرين.

عرف شايع في تلك الفترة عن بغداد ومحلاتها وأسواقها أكثر بكثير مما كان عليه الأمر أيام الرشيدية. صار له أصدقاء بغادّة من المدرسة، يكشفون له بين حين وحين وجوهاً أخرى للمدينة، يطلعونه على مناطقها السرية، المبغى العام في دربونة الكلجية، ملهى صبيحة، دكاكين بيع المسروقات في سوق الهرج، حفلات مصارعة الديكة في خان علوّ، وبوابة القفصلية في حديقة الميدان أمام قهوة خليفة حيث ملتقى مثلية بغداد.

كان حمود قد راهن على ان السنين الطويلة التي قضاها ابنه بعيداً عن البلدة، وسط مدينة كبيرة متنوعة كبغداد، ستنسيه فكرة الزواج بعيشة. لكنه أقر بخطئه مع نفسه في الآخر، حينما قاربت الدراسة في

الاعدادية على الانتهاء. لم يلمس أية إشارة فتور من وحيده رغم مرور السنين، فيما يخص وعد الزواج الذي قطعه معه، بل العكس، صار تعلقه بذلك الوعد أشد مما كان.

شعر أن الوقت يسرقه وأن عليه أن يتصرف بسرعة. عزم حمود على ترتيب زيجة سريعة لعيشة قبل رجوع شايع. لم يكن من السهولة العثور على رجل يرتضي الزواج من عيشة بنت زايدة، المشردة، المنحوسة، يتيمة الأبوين. رغم صباها وجمالها، الا أن حمود، بعلاقاته الواسعة، وجد لها رجلاً عليلاً، يكبرها كثيراً في السن اسمه عبد الله شونذر، يعمل حارساً في حقول آل الأغا في الحامضية، بلدة تبعد حوالي مائة وخمسين كيلومتراً شرقي الزهدية.

بعد أن رجع شايع وعرف بالذي جرى مع عيشة، انفجر في وجه أبيه سائلاً عن الوعد الذي قطعه له، الا ان حمود كذب عليه وأغلظ الأيمان على أن لعيشة أقرباء في الحامضية، قد طرقت أسماعهم أخبار علاقة تربطها بشايع، فحضروا الى البلدة وأخذوها معهم، ثم زوجوها هناك لابن عم لها يكبرها كثيراً في السن لأجل سترها.

غامت الدنيا في وجه شايع، لبث في حجرته أياماً لا يغادرها، تبدد في نفسه آخر سبب يربطه ببلدته. مرت عليه ثلاثة أسابيع وهو على تلك الحال، لا يكلم أحداً، يأكل القليل وينام معظم ساعات النهار. نحف كثيراً حتى لم يعد بإمكانه الوقوف على قدميه. وذات يوم واجهَ أباه وفي عينيه إصرار غريب كما لو كان

تهديداً، أخبره بكلمات محسوبة، أنه لم يعد يطيق البقاء في الزهدية بعد الذي حصل، وما دام ليس ثمة زواج، فليس هناك ما يمنعه من إكمال دراسته في المدرسة الحربية في العاصمة اسطنبول. استمع حمود إليه، استلم الرسالة كاملة من عيني ابنه المحتقنتين قبل لسانه، هو خير من يعرف ابنه ان عزم على أمر..

وافق في الحال.

الفصل الثالث
جرادتان

(8)

1919

في أواخر السنة الرابعة لموجة الجفاف، نشب خلاف بين "الجواهل" و"بطينة"، أقوى قبيلتين في "حلف الجباويين" واللتين يربطهما تاريخ طويل من الحروب والمهادنات. الخلاف كان على مرعى صغير

اسمه "بغجة غزوان"، يقع على الطرف الشرقي لـ "صليجة"، واحة صغيرة غربـي جزيرة الفرات تتوسط ربوع الطرفين.

سرعان ما تداعت الأمور بعدها إلى مواجهة بالجنابـي بين بيتين من كلا الطرفين، قُتل على إثرها شاب من الجواهل اسمه فيّاض، وكادت تلك الحادثة أن تقود إلى حرب قبلية طاحنة، كما حدث قبل حوالي قرنين من ذلك التاريخ بين القبيلتين ذاتهما، جراء حادث مشابه، قاد حينها إلى حرب واسعة، انضمت اليها عشائر وأحلاف كثيرة، فُني بعضها فيها عن بكرة أبيه، جَمحت بالناس في غمارها رغبات بدائية شريرة، فغالوا في الذبح والنهب والحرق والاغتصاب والتهديم والتمثيل بالجثث، سميت بـ "حرب وجران". وكانت

ستمتد الى ما شاء الله لولا وساطة الشيخ صايم عبيّس الجريان، زعيم قبائل رباح حينذاك، والذي اقترح اتفاقاً محكماً لإنهاء إقتتال دام لأكثر من ثمانية عشر شهراً، ارتضته القبيلتان.

هذه المرة، وبعد مائتي عام، سعى حفيد الشيخ صايم من تاسع ظهر، الشيخ عودة الجريان، والمكنى بالقعيد، وهو ايضا وريث زعامة عشائر رباح، أن يلعب الدور نفسه الذي لعبه جده في المصالحة بين القبيلتين، قبل أن تعلنا الحرب بينهما، وقبل ان تُسفك قطرة دم واحدة. فبادر إلى دعوة مشايخ الجواهل وبطينة لبيته في حصيبة للفصل في النزاع وتحديد دية المقتول حسب ما توجبه الأعراف.

لُبيت دعوة الجريان من قبل الطرفين دون

شروط مسبقة. أيام الجوع والمرض تذل الناس وتجعلهم أميَل للتفاهم. كما لعبت ولائم آل الجريان على مدى ثلاثة أيام، وسط ظروف القحط، دوراً كبيراً في تبريد الخواطر.

أصغى عودة الجريان لكلا الطرفين على مدى الأيام الثلاثة، والتي انتهت دون صعوبات تذكر، إلى صيغة ارتضاها الاثنان، تتضمن اولاً: حل النزاع على المرعى، أساس الخلاف، بأن يكون يوماً للجواهل ويوماً لبطينة. اما بالنسبة للقتيل، فتودي بطينة، عشيرة القاتل، امرأة وثلاث نياق مجاهيم كتعويض للجواهل، عشيرة المقتول، على أن يتم تسليم المرأة في الحال، أما النوق الثلاث فبعد جلاء موجة القحط، وإن طالت، فبعد تمام العام.

***

توالت خمس سنوات عجاف على مناطق العراق والشام خلال فترة الحرب العالمية الأولى وما بعدها، عرفت بـ "سني البِسْر"، حبست خلالها السماء أمطارها، وغار الماء في الأنهار والعيون والآبار إلى درجة غير مسبوقة. والذي زاد الأمر سوءاً، ضغوط الاستانة على جمال باشا السفّاح حاكم سوريا العسكري، وخليل باشا والي بغداد لمصادرة المحاصيل والأملاك لخدمة المجهود الحربـي، في الوقت الذي شفط التجنيد الإجباري كل من كان قادراً على حمل السلاح من المزارعين.

أعوام كانت الأكثر حلكة وقسوة، لبثت في ذاكرة الناس بأدق تفاصيلها على مدى أجيال، طبعها

القحط والجراد والقمل والطاعون والتوفيس. شهد فيها الآباء موت أطفالهم أمام عيونهم جوعاً، بيعت أراض بأبخس الأثمان، أو حتى مقابل قليل من الطعام، واضطر الناس خلالها إلى أكل الحمير والكلاب والثعالب والجرذان والقطط والخنازير.. والميتة.

الكثيرون تركوا بيوتهم ورحلوا إلى أماكن بعيدة، أما الذين ظلوا، فيئسوا وانزووا في انتظار الموت بعد أن تعبوا من التضرع والاستسقاء بالصلاة دونما جدوى. فطفق الجوع يقتل منهم الآلاف. بلغت تلك الأيام من القسوة درجة أُجبرَ فيها الناس على تغيير بعض من عاداتهم في صداق الزواج ودية المقتول وكفارة الصيام وتحليل ما هو محرم، كما لجأوا إلى اجترار ما لا يستساغ، فصاروا يمضغون خوص

النخيل ويأكلون الحشائش وأوراق وجذور الشجر. وفي البوادي احتسى الناس نقيع أغصان "ابو عردان" التي يكثر في الشعاب، إذ تنضح بعد سلقها صمغاً أسود حلو المذاق. وابتكروا عصيدة من عظام الإبل بعد طحنها وعجنها بماء ورق نوع شائع من الصبار اسمه ابو حلبة. وفي موسم الجراد، والتي كانت أسرابها تغطي الشمس، تؤمّن تلك الحشرات للناس وجبة أساسية، بضعة أيام إضافية للبقاء على قيد الحياة.

المؤرخ الألماني باتريك هاوزن مر شخصياً بالمنطقة خلال سني البسر تلك حينما كان ضابطاً صغيراً في الملحقية العسكرية الألمانية في القاهرة، وتطرق إليها لاحقاً بشيء من التفصيل بتسع صفحات ضمن كتابه (بوادر سقوط الإمبراطورية العثمانية).

اجتمع شيوخ قبيلة بطينة فيما بينهم لاختيار فتاة من أحد بيوتهم تكون هي الفصلية التي سيودونها لخصومهم الجواهل لإيفاء الشرط الأول من التعويض لأهل القتيل حسب الاتفاق. وبعد طول تداول ومشاورة، وقع الاختيار على صبية من بيوت "آل جردل"، أفقر أفخاذهم على الاطلاق، وبالتحديد واحدة من فتاتين توأم يتيمتين، أبوهما هو المرحوم محمد بن خليفان المصموط، والذي مات مقتولاً، تاركاً وراءه عائلة صغيرة من ثلاث نساء فقط، ابنتاه التوأم، شاغيّة وجراكة، هما الآن في الرابعة عشرة من العمر، وأمهما نهوة.

كان يطلق على الفتاتين تسمية: "جرادتي بطينة". والجرادة كنية غير محمودة عند العرب. كانتا،

وحسب اعتقاد العامة، "مكزوعتين"، وال- "مكزوعة" هي التي "تكزع" بعلها، فلا يعيش طويلاً بعد اقترانه بها، شيء أشبه بالأرملة السوداء، أو أباها فلا يعيش طويلاً بعد ولادتها. اعتقد الناس أنه ومنذ مصاهرة قبيلتي الجواهل وبطينة لهيباش، الجد الأول لعشيرة البوطرف، وهو شخصية تاريخية شبه أسطورية، بالزواج من ابنتيه التوأم، شاع ظهور التوائم الإناث في نسل القبيلتين، وأغلبهن "مكزوعات".

توائم تتميز بتشابه تام إلى درجة محيرة، عدّه الناس نوعاً من اللعنة. شاغية وجراكة كانتا من ذلك الصنف. وبعد مقتل أبيهما، محمد المصموط، توطدت عقيدة الناس بكونهما وأمهما مبعث نحس وتشاؤم، خاصة وقد اجتمعت في كل منهن صفات بعينها،

صفات يندر أن تجتمع في أنثى، طلاقة لسان ورشاقة قدّ وسعة مفرطة في العيون وبياض الاسنان واكتمالها. وفوق هذا كله، آمن الناس، أن فيهن سحراً، ينفثُ في الناس ذرور شهوات مُزيّغة، يقال انها تتوغل تحت الجلد ومنابت الشعر، وتتفشى في الدم كما الخميرة في العجين، فتورث من يستطيبها أحوالاً لا يحمد عقباها. اعتقد الناس أنها عطية شيطان، لا محال.

كانت آخر مهنة لمحمد المصموط، والد التوأم، قبل وفاته، الخروج مع آل محمود للإغارة على قوافل "طريق الحج الشامي" في مواسم الحج والعمرة، أو للغزو في أطراف النجف والسماوة خلال مواسم حصاد الحنطة، مقابل وجبتي طعام يومياً، حفنة خستاوي مكبوس وغَرفة خاثر في كل وجبة، على أن

يحصل على جزّة صوف عن كل رجل يقتله في الغزو، وشاة عن كل أثنين. استمر على تلك الحال حتى قضى في واقعة "شرك البزاير"، دارت بين آل محمود وآل مخلف من جهة، وبين جنود والي بغداد حينذاك، داوود باشا، في واحدة من حملاته التي كان يحب أن يطلق عليها اسم "حملات تأديب البدو". فيها تم أسر محمد مع من أُسر على يد قائد الحملة عوّاد أبو صرْاج، ثم سرعان ما سمطه بماء حار، كما تسمط الذبيحة، وعشرة معه في قدور ضخمة نُصبت على جسر الفلوجة. وصار الناس يتذكرونه بـ "المصموط"، ثم درجت الكنية من بعد ذلك لأهله لقباً. وبمقتله ترملت امرأته نهوة وهي في الثالثة والعشرين، وعندها التوأم، وكانتا في الخامسة من العمر.

عند انقضاء أربعينية القتيل، رب العائلة، أجْلَوا أرملته وابنتيه من ديارهم، وأفردوا لهن سكناً لا يجاوره سكن، في وهدة مقفرة ونائية، يطلق عليها "صرّة غمّاد".

شهدت تلك السنوات أيضا تلاشي، ثم نهاية، "حلف الجباويين"، أكبر تحالف عشائري شهده الشرق الأوسط في تاريخه المعاصر، كان قد أُنشأ على يد الشيخ صايم عبيس الجريان زعيم عشائر رباح في ثمانينيات القرن السابع عشر، بأمر مباشر من السلطان محمد الرابع، لتأمين الخط التجاري الاستراتيجي "طريق الحج الشامي" الذي كان يربط شمال الإمبراطورية العثمانية بجنوبها، وهو ثاني أهم خط تجاري لها بعد "طريق الحرير". اجتمعت عدة اسباب

لإنهيار الحلف حينذاك، منها ظروف الحرب التي أجبرت الكثير من الناس على قطع الطريق والسطو على القوافل بسبب الجوع وتفشي اليأس، بالتزامن مع ضمور سلطة بغداد ودخول الإمبراطورية العثمانية نزعاتها الاخيرة قبل الانهيار التام. سبق كل ذلك انقطاع شبه تام بين الاستانة والحلف، ما عدم أسباب الشراكة. وشيئاً فشيئاً، ارتخت قبضة الحلف على طريق الحج الشامي حتى صار أثراً بعد عين، ما اضطر حركة التجارة، والتي كانت تسلكه لعقود طويلة، أن تغير سُبلها لتتكيف مع خيار النقل البحري الذي شهد حينذاك ثورة كانت قد بدأت مع فتح قناة السويس عام 1869 ثم ازدهرت أكثر بشيوع استخدام المحرك البخاري... أسباب ساهمت في ولادة عهد جديد لقطاع السفر والتجارة في عموم المنطقة تماشياً مع

الثورة الصناعية التي تعززت مع بدايات القرن العشرين.

اقتران نهوة، أم الجرادتين، بمحمد لم يكن زواجها الأول، كانت من قبله على ذمة أخيه الأكبر جاسم الطواس، وكان هذا رجلاً عفيفاً مراعياً، إلا أنه قضى مخنوقاً بسعاله إثر احتسائه جرعة كبيرة من خل "البربن" شديد التركيز. حدث ذلك بعد ستة أيام فقط من دخلته عليها.

أما محمد، زوجها الثاني، ابو الجرادتين، والذي لُقب لاحقاً بالمصموط، فكان عربيداً، غير مؤتمن، سيء السمعة، لا يجتمع
عنده مال أو حلال، من شذاذ الآفاق، لا يراه الناس في بيته إلا لماماً. وقد امتهن الغزو مع من يغزو بأجر

معلوم أو مقابل حصة في الغنائم. كان أبعد ما يكون عن عيالة بيت أو عهدة صغار. وقبل تزويجه بنهوة، أرملة أخيه الأكبر، لم يخطر في بال أبيه خليفان أن يفاتح أعمامه أو اخواله بأمر تزويجه بإحدى بناتهم، ناهيك عن الأباعد.

سيقَت نهوة لمحمد بنصف صداق ودون عرس، مباشرة بعد إتمامها العدة. ارتضى عمها مظلوم، ولي أمرها بعد موت أبيها، أن يبيعها، للمرة الثانية، باثني عشر زبيل جريش حساوي وشاة حامل. أما حصتها من المهر كانت قلادة رشرش وخلخال نحاسي، ومشط خشبـي سليمي وكحل وحجر حمام وليفة وديرم شفايف. وأعُفي الزوج الجديد من كسوتها والفراش، فعقدة صرّة جهازها من مهرها الأول لم تكن

قد حُلت بعد، فيها ثوب كرتة مقصّب بكلبدون ولثام مغمّد وسروال قندريسي وحزامان ورثتهما عن امها أحدهما جديل مشغول بالودع، والآخر منثور مشغول بالرصاص، وهدية عرس من ناز خاتون، حرم الشيخ عودة الجريان؛ عصابة بُخنُق وشملة كريشة وستة معاضد. أما الفراش، فحشيتا الوبر ولحاف الصوف والوسائد الزرابية من عرسها الأول وفت بالغرض.

وجاء بِكر نهوة من محمد المسموط، تلكما التوأم، شاغيّة وجراكة، الأولى على اسم جدتها لأمها، والثانية على جدتها لأبيها. ولم تنجب له من بعدهنّ ولد أو تلد.

لم يكن في كوخها حين الولادة سوى حبوبة رجوة، ولاّدة البلدة، وهي تسعينية صماء، تُمنح فرّوجة

إن جاء المولود على يديها ذكراً، وبيضة أن جاءت أنثى. لكن لم يتسنّ لها أن تجني شيئاً عن التوأم، فقد ماتت بعد ولادتهن بدقائق.

فزعت نهوة وتعوذت من الشيطان حالما ألقت نظرة على التوأم، رأت "كزعة" باهتة على جبهة إحداهن، تلك التي سيكون اسمها "شاغية"، فهبّت من فرشتها في الحال، وقبل أن يشيع الخبر بين الناس. أشعلت ناراً، حمت عليها سكيناً، وكوت بها مكان الكزعة لتموهها وتجعلها كما لو كانت وحمة، ولم يفتها أن تكوي جبهة التوأمة الأخرى في المكان نفسه على الجبهة زيادة في التمويه. تحسرت مع نفسها على بختها الأعوج، فلو جاءت الكزعة على مولود ذكَر، عدّوه الناس حكيما من أهل الكشف وباركوا لأهله، ولو

جاءت على أنثى عدوها شؤماً، قد بصم الشيطان على جبهتها، ونبذوا أهلها. مع أن العلامة هي هي. لا أحد يعرف على أي أساس سُنّت تلك الأعراف ومن الذي سنّها.

التوأم ورثتا عنها سوء الطالع مضاعفاً في ثلاث، أهونها انهما اثنتان من الإناث حلتا بكراً. ثم إن ولادتهما صادفت في ليلة وترية من آخر عشرة في رجب، أشأم أيام العرب. وثالثها؛ اللقب البائس الذي التصق بهما منذ الولادة: "الجرادتان".

قصة هذه التسمية، ان نهوة، وبُعيد تعافيها من مخاض الوضع، حملت توأمها، بعد أن حرصت على شد رأس كل منهن بعصابة تنزل على حاجبيها لتغطي أثر الكي، وتوجهت مباشرة إلى إمام جامع القائم، الشيخ

عبد الباري الراوي، لأجل أن يحنكهما ويؤذن ويقيم في آذانهما. لم تنتظر رجوع رجلها من سفره ليتم المهمة كما هو مفروض، فلم يكن أوان رجوعه معلوماً، ولم يكن ليكترث على أية حال.

حالما دخلت نهوة على الشيخ عبد الباري في جامعه، وجدته وحيداً يصلي التراويح. خلوته تعكّرت بجُلبة رِبكتها، وإستهول مزاجه فكرة انفراده في جامع بامرأة حسناء يافعة، دون ثمة محرم يصحبها.

بعد أن لمح الرضيعتين على ذراعيها، حدس الغرض. نهض من مجلسه فجأة كمن ينفض عن حضنه فتات خبز. سألها بنبرة يابسة، انتهى تاريخ صلاحيتها، إن كانت ثمة حاجة يقضيها لها. أخبرته أنها جاءت تطلب بركته لتوأمها. سألها: "وأين الوالد؟" أجابت

باقتضاب: "على سفر"..

يعرف الشيخ عبد الباري أن الأعراب لا يألفون التحفظ في سلوكهم، ويكره جرأة وفصاحة نسائهم، "الأَعرابُ أشد كفراً ونفاقاً وأَجدر أَلا يعلَموا حدود ما أَنزل الله علَى رسوله والله عليم حكيم" استحضر الآية في قلبه فهدأت سريرته، وهمس لنفسه مصادقاً على بلاغتها: "سبحان الله".

أراد أن ينهي الأمور على وجه السرعة. وبكبسة زر، شحن جلد وجهه بوعورة لا تخطؤها عين، وتلبّس حضوراً نكِداً مُعنفاً، كما لو كان مِرجلاً فُصل عنه منظم حرارته، تكتيكه المعتاد تنفير الزبائن غير المرغوب فيهم.

استفسر منها، بنفاد صبر أمعن في أدائه، عن اسم الطفلتين، وقرر مع نفسه، أن يستمتع من وراء ترسه بعدم الإصغاء لجوابها. أخبرته باسميهما، إلا أن ذكرها إسم "جراكة"، والذي وصل إلى أذنيه "جرادة"، خرق في جدار لا مبالاته شرخاً عظيماً، جعله ينتفض غضباً ويشوّح بذراعيه كالمجنون، زاعقاً:

"أعوذ بالله، أعوذ بالله، أبعدي عني جرادتي بني عاد".

وعزا الأمر برمته، في ذهنه المنفصل عن اللحظة، الى قينتي قوم عاد المذكورتين عرضاً في السيرة الحلبية، واللتين كانتا تنشدان شعراً ماجناً تسحران به عقول الرجال، ما تسبب بحلول اللعنة على بني قومهما، حسب الرواية، ليُفنوا لاحقاً، ويدرجوا في

خانة العرب البائدة.

كان الشيخ عبد الباري حينها شاباً في مقتبل العمر لم تكن إمامة الجامع خياره الأول، بل ورث المهنة كرها عن أبيه، الا انه تمسك بها لاحقاً بعد فشله في إتمام مدرسة الصنايع في بغداد. ولسوء حظ نهوه، كان عبد الباري مفتوناً بالشيء الوحيد الذي علق في دماغه من تلك المدرسة؛ السيرة النبوية التي كتبها برهان الدين الحلبـي، وبكل ما جاء فيها، حد الهوس.

منذ ذلك اليوم التصقت التسمية بالطفلتين، صار الناس يشيرون إليهما بـ "الجرادتين" و"جرادتي بطينة"، حتى اعتادتا بدورهما على التسمية. كما لم يفت الناس مسألة إخفاء الكزعة بالكي، شكّوا منذ البداية بالوحمة المزعومة، إلا أنهم لم يعرفوا أي التوأم بصمها

الشيطان بابهامه، فوصفوا الاثنتين بـ "المكزوعتين"، دون تحديد.

حينما تسرب إلى سمع الجواهل خبر إن ديتهم، المرأة الفصلية المنتظرة مقابل فقيدهم، تكون احدى جرادتي بني بطينة، شعروا أن في الأمر مماذقة وزغل، فخصمهم، عشيرة بطينة، ستوديهم صبية من أسوأ ما حوت بيوتهم، مجلب تطير، كما لو كانوا يريدون ان يزرعوا فيهم، ومن ثم في نسلهم، بذرة شيطان. لكن هل يتأتى لهم الاعتراض على من غمط حقهم؟ هل بوسعهم طلب رد الدية أو حتى إبدالها بغيرها؟ هم يعرفون جيداً أن مثل هذا الخيار لا ينبغي لطرف مهما عظمت مكانته، بل إن مجرد الكلام في هذا المعنى ضرب من العبث. بدعة لا تمت لأعراف

العرب ولا العشائر بصلة، وليس بوسعهم تحمل تبعاتها. إلا أنهم، في الوقت ذاته، لن يهون عليهم بلع الإهانة الآتية من خصومهم، أو أن يناموا على الضيم، هكذا، كأن شيئا لم يكن.

اجتمع أعيان الجواهل وجلسوا يتداولون في الأمر من بعد صلاة العشاء حتى صلاة الفجر. في الآخر، توصلوا لحل يحفظ لهم هيبتهم، ماء وجوههم، ويرد الصاع صاعين الى خصومهم. قررت العشيرة ان تجعل الصبية التي ستأتيهم من خصومهم، جرادة بنت محمد البطيناوية، من نصيب أرذل أراذلهم، بل انه فرد غير محسوب فعلياً على القبيلة: صدّاح بن رابحة، واحد من أخطر المطاريد، أنكرته عشيرته هو واخاه يعسوب قبل أن يبلغا الرشد، بعد أن قتلا أباهما وهو

نائم، بقطران حام صُب في أذنه، انتقاماً من بطشه بهما وأمهما نصف المشلولة رابحة، ليفرا منذ ذلك الحين ويهيما على وجهيهما في صحراء "الزرد" ما بين وادي "السوابح" و"حرّات عصملّي". يقطعان الطريق، ويسلبان الحجاج، ويفرضان الأتاوات على القوافل. كانا في تلك الفترة لا يتوانيان عن إتيان كل ما هو دوني. وحسب شهود عيان، كانا لا يتورعان عن نكاح جثث الموتى او الحيوانات؛ مرة أتان، وأخرى نعجة او حتى كلبة. وقيل بشأنهما ايضا حكايات عن استعدادهما للقتل مقابل أبخس الأشياء، نعل يماني، يشماغ، وأحيانا شليل من التمر البرحي.

بقيا على هذه الحال بضع سنين حتى التحقا بجماعة "العرابيد" وهم عصابة شديدة التنظيم، منيعة

الجانب، ترهبها القبائل والسلطة، وزعيمهم شايع بن حمود (هو الآن شيخ ملثم تجاوز الستين من عمره، لا يُعرف له مكان ثابت).

حينما تم إبلاغ نهوة بما اتفقت عليه العشيرة، وعن صداح بن رابحة، وقع الخبر عليها كما لو ضُربت بحجر رحّى على أم رأسها... ظلمٌ سافر، كبار قومها يستغلون ضعفها دون مواربة أو خجل، يسترضون خصومهم بفلذة كبدها، وليس بواحدة من بناتهم، ليحقنوا دم أحد جرائهم الخُرق، وهي لا ناقة لها ولا جمل في كل هذا.

استغرقها شعور عظيم بالغبن، غمرت جلدها ارتعاشة غضب ضربت عصباً تحت لسانها لتشله على مدى ساعات، وبقيت طيلة ذلك النهار خائرة القوى،

مشتتة، يرشح الى ريقها طعم حامض حريف لم تخبره من قبل، حرمها تناول الطعام على مدى يومين متتالين. شعرت كما لو كانت غريبة وسط قومها. لكن لم يخطر في بالها حتى أن تجادل في الأمر، وهي من هي؛ الحرمة الوحيدة الفقيرة المنحوسة... إلى آخر القائمة. كيف لها الاعتراض وابنتاها الآن في سن الزواج؟. وبعد هذا وذاك فإن الصفقة قد تمت وخُتم عليها من الكبار. الحياة غير عادلة معها، وما الجديد في ذلك؟!

وجّهت غيضها ناحية مكب كبير في مكان سحيق في صدرها. وحسبت الأمر مع نفسها جيداً. قررت نهوة أن تصبر وتهادن ولا تظهر أية إشارة تذمر. بيد انها، في قرارة نفسها، آمنت أن هناك ما يمكن عمله تجاه كل ذلك الجور.

كان عليها ان تعد ابنتها في ظرف ثلاثة أيام، ليتم ايصالها الى بيت الجريان، ومن هناك يتم نقلها الى الجواهل لتكون من حصة ذلك المتهتك. ستفعل نهوة كل ما هو مطلوب منها بالضبط، لكن العبرة بالعواقب.

(9)

الجرادتان... جمال غير واقعي، لا يمت إلى طبيعة تلك البادية ولا إلى ذلك الزمان بأي صلة. سوء تقدير محض. كان الأجدر لهما أن تولدا قبل ألف عام، في واحدة من حواضر بني العباس، حيث القصور والمؤامرات، وأمراء ماجنون يقرضون الشعر. أو حتى بعد ألف عام، في مستوطنة بشرية على المريخ، وأناس

نحاف يحدقون إلى رموز هولوغرام تطوف حولهم.

أكثر ما يلفت النظر في وجهيهما: العيون؛ ان حدث وحدقت مباشرة إليها لأكثر من ثانيتين سيتخلخل، على الأغلب، توازنك وينسيانك ماكنت تريد قوله. بنفسجية واسعة بإفراط، تتشرب قزحياتها حين الحزن بألوان معتمة من الصعوبة تسميتها. وحين الغضب تُستقطب فيها جميع الخطوط نحو حدقات كثيفة غير مستقرة. حيوانات صغيرة مفترسة تعيش في قعر محيط غير صالح للغوص.

لكن، في لحظات المرح، تنثال من تلك العيون رسائل مضللة، خليط عابث وغير متجانس؛ ملائكة فاسقون.... حلاوة علقم... نيران صديقة...

وربما بسبب كل تلك البلبلة التي تورثها نظرة واحدة منهما، صار الناس يتطيرون من مجرد التحديق في وجهيهما.

كما ان للجرادتين رقبتان طويلتان تظهرانهما كما لو كانتا مترفعتين، لا تنتميان للمكان الذي يحللن فيه. وبشرة بلون الصاج البورمي المخدوم بيد حريفة، نعومة مترعة لا شائبة فيها، لا تنسجم وبيئة تتنازعها الندرة والجفاف. ومشية مغناج غير متصنعة، تتكفئ إلى الأمام. وخطوة قصيرة خفيفة تدفع بطرف مشط القدم وحسب.

الأمر برمته ينذر بأنوثة طاغية مبكرة. فرغم صباهما المنسلخ بالكاد من سني الطفولة، بإمكان عين خبيرة في قراءة الطالع، أن ترى وبلمحة واحدة أن ذلك

الجمال ينطوي على خطورة.

اما الشبه التام بينهما فذلك أمر قل نظيره، وبغض النظر عن التناظر المحير في الملامح والصوت وعموم المظهر، تراهما تكملان جمال بعضهما البعض، وبامكان إحداهما ان تروي تفاصيل ما يحدث للأخرى وإن لم تكن معها هناك، ان تروي حلم الأخرى. تتألمان معا اذا ما مرضت او جرحت إحداهما. أو أن تحس إحداهما طعم ما تتذوقه الأخرى. تتشابهان ايضاً في الحركة، حتى في تقلبهما أثناء النوم، ناهيك عن طريقة الأكل والملبس، وتوقيت الحيض. كان من المستحيل على أحد أن يميز إحداهما عن الأخرى، باستثناء إثنين: أمهما نهوه، والهبش فيما بعد. لكن مع كل ذلك التماثل، هما في الحقيقة مختلفتان تماما

في المزاج، فشاغية هادئة حالمة متسامحة كما لو أنها صُنعت من قطن غيمة هائمة، بينما جراكة؛ غضوبة هجومية متوترة، مجبولة من جمر وطين.

كان على نهوة أن تحدد، اي من طفلتيها ستكون الضحية، فاختارت شاغية دون جراكة، لتبعثها إلى أهلها الجدد الجواهل، كونها الأكبر عمراً، فقد خرجت من بطنها قبل أختها بفارق ثمان دقائق.

انتظرت حتى المساء لتفاتحها بالموضوع وبحضور اختها جراكة. أعلمتها بجمل قصيرة ومباشرة عن جلية الأمر، وأن حياتها مع الرجل الذي سيكون بعلاً لها لن تكون سهلة، وهو من هو: صداح بن رابحة، فضلاً أنها ستعيش باقي حياتها كونها فصلية، غريبة وسط بيوت خصوم قبيلتها، وعلى

الأكثر لن يسمحوا لها مواصلة أهلها ما بقيت حية، لكن تلك هي قسمتها، وذلك ما كتبه الله لها، ولا راد لمشيئته.

"اسمعيني بنيتي، تريني اليوم عاجزة عن رد القسمة، فإننا اولا واخيراً نساء ضعيفات منكرات ليس لنا معيل..".

وقبل أن تواصل، أمسكتها من كتفيها بقوة ونظرت مباشرة إلى عينيها، ثم استأنفت بصوت خفيض واثق مفعم بالوعيد، شادة على مخارج الحروف:

"... الا انهم لا يعرفون ما الذي في وسع نهوة بنت سالم صفوك فعله فيهم. اقسم بالواحد القهار، وإن تركتك تذهبين الآن، الا ان امك لن تتخلى عنك، ولن

تدعك تعيشين بقية حياتك مع ذلك الناقص، ولا وسط بيوت خصومنا الجواهل".

شاغية بقيت مصغية للكلام دون مقاطعة، ظل وجهها فارغاً طيلة الوقت، إناء مغسول قُلب على وجهه، كما لو أنها تصغي لقصة فتاة من كوكب آخر. هكذا كانت استجابتها الأولى تجاه القسمة التي، كما هو واضح، ستغتال صباها، وتجرها نحو مصير مهلك. كان المتوقع منها أن تدمع على الأقل، لكن وبعد ان أتمت نهوة كل ما أرادت قوله، لم تتعد استجابة شاغية سوى هزة رأس واهنة، على أنها فهمت. لم تعلّق بشئ وهي، كما جراكة، المعتدة بنفسها، التي سبقت فصاحتها سنها. ثم التفتت الى اختها، حدقت إحداهما في وجه الأخرى لبضع ثوان، ثم؛ شبح ابتسامة مشتركة لا

محل لها من الإعراب، هي أقرب لتبادل سر منها للقبول.

نهوة راقبت الوضع عن كثب، لم تفهم ما كان يجري أمامها بتاتاً، حروف وطلاسم غشاها الماء، لم تألف من قبل مثل هذا الأداء من بناتها. إلا أنها لم تجد في بالها قولاً تضيفه. كانت عاجزة حتى النخاع، كخنفساء قلبت على ظهرها. تركتهما هناك ونهضت تعد لهما شيئا تأكلانه، رغبة عميقة فرضتها لحظة فارقة، أن تُثبت لنفسها أنهما طفلتان ما زالتا بحاجة لرعايتها. إلا أن الأمر برمته طبع في صدرها، ما تبقى من النهار، توقع لخطر وشيك لم تعرف كنهه حينها. كأنها تسير في نومها على شفا هاوية.

لم يتأثر وضع نهوة المعيشي وبناتها كثيراً

بموجة القحط التي جثمت على صدر المنطقة آنذاك. فالإملاق لبس حالهم لبساً منذ وفاة زوجها الثاني وأقصائهم إلى هذا المكان المقفر. كان مصدر عيشها الرئيسي هو الجومة التي منحتها اياها ناز خاتون، تعلمت نسج البسط وعلمت بنتيها الصنعة وقد برعتا فيها اكثر منها. تعودت نهوة منذ ان دارت الدنيا إليها ظهرها أن تتدبر أمورها بنفسها، نبغت ومنذ فترة مبكرة بقراءة الطالع وفك السحر والتطبيب بالأعشاب. بلغت مهارتها في قراءة الطالع حداً أرعب زبائنها في أحيان كثيرة، فليس ثمة في طريقتها حيل، كالتعميم وتكتيك الاحتمالات الثلاث، والكلام المسجوع الذي يحمل أكثر من تفسير، بل كانت واضحة كما لو أنها ترى الأمور أمامها على شاشة بيضاء. الا ان كل من عرف نسبها، لم تفاجئه تلك البراعة، ففي نهوة رس

متفوق ورثته عن هيباش، الجد الأسطورة، من ناحيتين، الأولى من طرف الأعمام من خلال المصاهرة التي تمت بين هيباش وقبيلتها بطينة قبل مائتي عام من ذلك التاريخ، والثانية من طرف اخوالها البو طرف، والذين ينحدر نسبهم مباشرة من هيباش. تعوّد الناس ان ينسبوا كل من حسنت هيئته وتميزت قدراته، إلى هيباش، وإن كانت امرأة فينظر لها كونها "مگزوعة".

على الرغم من أن زبائنها صاروا يمسكون عليها أيديهم مع استمرار توطن الجفاف، إلا أن حالة اليأس من انفراج الأحوال جلبت إليها الكثير من الزبائن الجدد. كما أن أخوالها البوطرف لم ينقطعوا عنها، مثلما فعل الآخرون، منذ وفاة بعلها.

وايضا القلب الكبير، ناز خاتون، حرم الشيخ عودة الجريان، والتي ظلت تواصلها بانتظام وفي كل عيد او مناسبة بسلال البصل والعدس والزبيب واللحم المقدد، وبعض من ملابسها القديمة.

في الليلة التي أعقبت مفاتحتها لشاغية بالمصيبة، ظلت نهوة تتقلب في فراشها إلى ما بعد منتصف الليل. تناهت إلى سمعها قرقعة مكتومة آتية من السقيفة الخلفية الملحقة بالبيت الطيني والتي تضم الجومة والبسط، تبعها نباح كلب، التفتت من مكانها إلى الركن الذي ينام فيه التوأم، كل شيء بدا لها على ما يرام. لمحت طاسي حساء ورق الخُبّاز مركونين عند الزاوية، دون أن يمسهما أحد. هزت نهوة رأسها أسفاً وحوقلت. ثم عادت للنوم.

بعد برهة من الزمن، فزت من فراشها من جديد، يقودها حدسٌ ما، كمن يتدارك خطباً قبل فوات الأوان، توجهت ناحية السقيفة بخفر، تطلعت في المكان، لا شئ يثير الريبة. خطت نحو صندوق العيبة، مصدر الضجة، فتحت الغطاء، تفقدت محتوياته بنظرة سريعة، كانت كل حاجة في مكانها باستثناء الجرة الشيرازية ذات المقابض الأربعة، جرة تحضير الدواء. أطرقت قليلاً، عادت الى حجرة النوم علّها تجدها ملقاة في أحد أركانها. ليس ثمة أماكن كثيرة للبحث عن شيء ما في بيت أرملة معوزة. دارت حوالي البيت. وقبل أن تعود لمكانها، تسللت الى أنفها رائحة كريهة نفاذة تعافها النفس، كما لو كانت عطن سمك متحلل مخلوط بثوم. تتبعت مصدرها إلى حيث الركن الذي نُضّدت عنده البسط، رفعتها واحدة تلو الأخرى بحذر، حتى

وصلت الى حصيرة الخوص الممدودة تحتها، ازاحتها لترى ما تحتها... ها... الجرة مدفونة هناك، ظهر منها فوهتها التركوازية، مغطاة بإحكام بليف نخيل، أزاحت حشوة الليف بحركة محسوبة، فإذا بدفقة هواء نتن هاجم خياشيمها، جعلها تختنق بسعالها وتنزّ سوائل من منخريها وعينيها، أوشكت أن ترجّع من فمها. سارعت نهوة إلى إحكام غلق الجرة، أرجعت الحصير ثم البسط فوقها دون ترتيب، وركضت نحو الخارج تنشق هواء نظيفاً.

أول ما استعادت أنفاسها، رددت مع حالها بنبرة العارف: "قنطين". عرفته بالحال، دواء فتاك يركب من خل علقم يماني مخلوط بغبار طلع زهرة الحوذان. ما زال الخليط بحاجة لثلاثة ايام لأجل ان

يختمر ويصبح صالحاً للقتل.

ها قد وجدت نهوة مفتاحاً يفسر سرّ المخاوف التي ركبتها منذ ذلك الصباح. الصبيتان تخططان من وراء ظهرها لأمر فيه قتل، رفضت مع نفسها تصديق الفكرة، ما زالتا مجرد طفلتين، إلا أنها لم تمسك بعد بمغزى ما كان يجري، ومن كان الهدف. لم تفاجئها براعتهن في تحضير السموم لدرجة فاقت خبرتها التي ورثتها بدورها عن أبيها سالم صفوك بمراحل، وهو أمهر من حضر الدواء في عموم بادية العراق والشام.

سارعت نهوه نحو ركن ابنتيها يستبدّ بها الغضب، تزاحم حول صدغيها لغط وتشوش، عزمت على أن يكون ردها قاسياً دون أن تحدد ما الذي عليها فعله بالضبط، أزاحت الغطاء عن فراشهما بجرة

خاطفة.. لم تكونا هناك. أحست بقلبها يهبط إلى مهوى ليس له قرار، باغتها دوار، شعور مخيف، أن تصحوَ من نومك فلا تجد أولادك، هكذا دون تفسير، نوعية الحياة التي خبرتها نهوة فيها الكثير من المفاجآت غير السارة، لكن تمنت مع نفسها في تلك اللحظة أن لا تكون تلك واحدة منها. بذلت قصارى جهدها ان تهدّأ من روعها لتعرف وجهة خطوتها التالية. تنفست عميقاً، استعادت بعضَ رشدها....

... حسنا، تعرف الآن أين تجدهما بالتحديد. حملت فانوساً وتوجهت جنوباً نحو "غوطة ناعوس"، فسحة من الأرض منبسطة، جدباء، تبعد حوالي ألفي ذراع عن البيت، هناك حيث "عوادة"، نخلة زينبية برأسين، تنفرد وحدها وسط خلاء لا نبت فيه ولا ماء،

تقصدها الفتاتان وتجلسان عندها كلما حردت روحاهما.

مشت نهوة دون عجلة، لتتيح لنفسها زمناً تتفكر فيه بما سيكون عليه الأمر، أو ربما رغبة خفية لإرجاء مشهد لا تود رؤيته.

منذ أن تلقت الخبر المشؤوم صباح ذلك النهار، وهي تتعمد تشتيت ذهنها بوسائل شتى، بعيدا عن حقيقة خسارتها إحدى بناتها. شغلت نفسها طيلة الوقت بأعمال مجهدة لا طائل منها.

والآن، في ذلك السكون، وبرودة خفيفة تحملها نسائم غُفل لا تدري أنها ستموت مع أول خيوط الصباح، فإذا بحقيقة أخرى أشد عتمة، صارت تتكاثف في وعي نهوة وتتشكل ببطء وثبات، لتتجلى أمام عينيها

بالتدريج مع كل خطوة تخطوها تجاه المكان الذي ستلاقي فيه طفلتيها:... انتحار....

شاغية عزمت على الانتحار، ذلك هو السر وراء تحضير ذاك السم الفتاك. كيف فاتها الأمر؟ استولى عليها إحساس عارم بالتيه وعدم التوازن، وسؤال خبيث يجوس في رأسها دون رحمة: هل ستشهد موت إحدى ابنتيها أمام عينيها دون أن يكون بمقدورها فعل شئ؟ هل فات الأوان حقا!؟

صارت نهوة على بعد عشرين خطوة عن مكان جلوس الصبيتين تحت النخلة. انزاحت غيمة كبيرة كانت تحجب ضوء القمر، وصار الليل يتكشف عن نهار أبلق غشيم. تسمرت نهوة عند مكانها خلف أجمّة عليق، نفخت على ذبالة فانوسها وركنته جانباً.

الفتاتان هناك كما توقعت، تحت النخلة العملاقة عوادة، ذات الرأسين المتعجرفين، والجذع الرشيق المائل ناحية الأرض بزاوية حادة. تمددت عوادة بهيئتها تلك على أقصى حيز من الفراغ، تعلن ألوهيتها على الملأ.

القمر باهت، ألوانه مائية، يتطلع من علوّ، رائحة عجين مختمر تتسامى من حبات رمل تندت للتو، أجنّة رياح تائهة لم تحدد اتجاهها بعد... والفتاتان هناك، جالستان تحت الجذع المتمرد، هزيلتان، ساهيتان، تحدق إحداهما في وجه الأخرى برضى. جمال فج، تجلى بخلقته الأولى دون اعتبار لما حوله.. أناني، غير مبال، يغلفُّ نفسه بورق شفاف عازل.

عن بعد، شاهدت نهوة طفلتيها من مكانها كما

لو لم ترهما من قبل.... هكذا هي اللحظات الفارقة... فجأة، الأشياء تبدو واضحة وضوح الشمس... فجأة، ندرك أننا نحن من اختار التعامي عن رؤيتها... تذكرت نهوة حقيقة طالما عرفتها: استحالة الفصل بين هاتين الصبيتين. فتزويج واحدة منهما، معناه فصل إحداهما عن الأخرى، وهاتان وجدتا أصلاً لتبقيا معا، كما لو كانتا جناحي فراشة... ببساطة؛ الأمر يعني موتهما. وها قد اتخذتا معا قراراً لا رجعة فيه، اختارتا الموت قرب بعضهما البعض قبل أن يتم الفصل بينهما. كانتا تنتظران نضوج الدواء لتتجرعاه معا.

فزّت داخل نهوة فجأة ملَكة حيوانية سابتة، طُورت عبر ملايين السنين لحفظ النوع، يعرفها كل من خبر اقتراب لحظة موت وشيك. أدخلتها في حالة وعي

حاد بالأشياء وبما حولها، ألهبت حواسها لتنقلها من موجة قنوط مستبد، ذلك الذي يفيض من المعدة وينتهي بروؤس الأصابع، الى درجة توازن مثالي، توازن بلغ ذروته، لن يكون بعده إلا قرقعة تحطّم. صارت نهوة كما لو كانت طبقاً صينياً يدور حول نفسه بسرعة هائلة على رأس سكين حادة. استمدت طاقة هائلة من جَبلتها الأولى ملأتها عزماً لا نهائياً، ونطقت كلمات غير مفهومة بُعثت من ذاكرتها الأخرى:

"وَحْ، ما تموتن، فِداجَن جَلغة صْلام عَفرة".

يعتقد قسم من اللغويين ان عربية البادية نقية، بقيت بمنأى عن أي تأثيرات أجنبية، وأن المفردات الغريبة التي قد تجدها فيها ما هي إلا بقايا لغات سامية قديمة جاءت منها العربية، وهنا على أغلب الظن يغلب

جرس "الرها" الآرامية/السريانية.

على أية حال، الكلمات التي خرجت من فم نهوة بدت كما لو أنها قسَمٌ عظيم.

وبعد أن نطقتها، لم تضيّع لحظة واحدة، نوعية الحياة التي خبرتها علمتها كيف عليها التصرف في الأوقات الحرجة بدل أن تجلس في مكانها تندب حظها. كما لم تضيّع وقتها بالكلام مع الصبيتين. الكلام بات غير ذي نفع. عليها أن تبحث عن الحل في مكان آخر. كان لديها من الوقت ثلاثة أيام فقط، الزمن الذي يحتاجه دواء القنطين ليختمر ويصبح صالحاً للاستعمال. استبعدت، اولا، الاستنجاد بأي من الرجال، تلك أمور لا يتسنى للرجال فهمها. وهل هذا الذي هي فيه الآن إلا من صنع الرجال. الامر يحتاج الى امرأة

تفعل فعل الرجال، ومن يكون غيرها: ناز خاتون، المرأة المقتدرة الجبارة، صاحبة الحظوة والنفوذ، حرم الشيخ عودة الجريان، الوحيدة التي يمكن لنهوة اللجوء إليها في مثل هذه الظروف.

هرولت من مكانها ناحية الزهدية حيث ديار أخوالها ألبوطرف، حوالي أربعة أميال، لتستعير منهم فرسهم "نجمة". الطاقة التي كانت قد غمرتها جعلتها تقطع المسافة على نفس واحد ودون تعب، وصلت قصبات الديار، وجدت خالتها فطم في الخارج، مقرفصة قرب شاة ميتة، تحلبها وتبكي بصمت. لم تصّبح نهوة عليها، توجهت في الحال إلى الحظيرة الطينية التي تأوي الفرس، اعتلتها دون سرج أو لجام، وطلبت من فطم، وهي تمرق من أمامها، أن تعتني

بالبنات في الأيام الثلاثة التي ستغيبها، دون ان تفصح لها عن وجهتها.

الفصل الرابع
السندي

(10)

1876

حين وصل الاستانة، كان شايع قد أتمّ الثامنة عشرة من عمره.

هي عاصمة الإمبراطورية العثمانية، مدينة مترامية تبزّ بغداد بعشرات المرات، شوارع عريضة

مرصوفة بالحجر، جوامع عظيمة، قصور متعددة الطوابق، جسور طويلة تنفتح لمرور السفن، ومِلل من جميع الطوائف. لكن لم يكن كل ذلك ليثيرَ اهتمام شايع، تحول الى شخص منطو، انعزالي، يقضي معظم أوقاته في القراءة. كان لديه شهران قبل بدء الدراسة، وكان الطلاب الجدد الوافدون من الولايات يُمنحون سكناً مؤقتاً في ثكنات تقسيم المدفعية (تاكسيم توبكو كسلاسي)، وهي مشيدة في منطقة شبه معزولة عن مركز المدينة.

يستيقض متأخراً، يتناول غداءه في بهو المراتب، ثم يمشي مسافة طويلة حتى جامع "أورطاكوي"، يصلّي الظهر، ويقضي فترة ما بعد الظهر في مكتبة الجامع حتى صلاة العصر، ثم يرجع

إلى حجرته ويستلقي على فراشه محدقاً الى السقف حتى يغلبه النوم.

هناك عبارة كتبت على لوح كبير بالخط الفارسي علق في أحد زوايا مكتبة الجامع تقول: "بالأمس كنت ذكياً فأردت أن أغيّر العالم.. اليوم أنا أذكى ولذلك سأغيّر نفسي".

العبارة بهرت شايع الى حد ما، وحين استفسر عن قائلها قيل له إنه الشيخ الكبير جلال الدين الرومي (1207- 1273م)، كانت تلك العبارة بداية اكتشاف شايع لفلسفة الرومي، والتي ستكون منذ ذلك اليوم أحب مادة إلى نفسه من جميع ما قرأه من قبل. أراد حينها أن يعرف أكثر بشأن الرومي، فبدأ يقرأ له وبشراهة كل ما يقع بين يديه من كتبه أو ما كتب عنه.

وجد في فكر الرومي بعداً كونياً أرحب بكثير من جميع الذين قرأ لهم من شيوخ الصوفية من قبل. أحب كذلك فيه إيمانه بالانسان كونه غاية، لا مجرد عابد مرهون بقوى كلية. انجذب شايع بكليته الى الرومي، وصار في ذلك الحين هوسه الجديد. أتمّ قراءة أغلب كتبه، بالتركية، قبل بدء العام الدراسي: ديوان مثنوية المعاني في ستة مجلدات، شمس التبريزي، الرباعيات، المجالس السبعة ورسائل المنبر...

قبل بدء الدوام بأيام عرف من زملائه المستجدين بوجود تكية كبيرة ملحقة بالجامع، تابعة لـ "لطريقة السندية"، فصار يتردد عليها. لم يكن في نيته أخذ العهد منهم أو الانضمام للطريقة، كان كل همه تزجية أوقات فراغه لحين بدء الدراسة. بدأ يغشاها كل

يوم، وجد في الحركة التي يتبعونها في أذكارهم، الدوران الكامل والمتواصل حول أحد العقبين، راحة نفسية انتشله من بؤسه ووحدته، منحته شعوراً بالتحرر، وقد فضلها على أسلوب الرفاعية في بغداد بتطويح الرأس والجذع يميناً ويساراً.

"السندية" طريقة صوفية حديثة العهد في ذلك الحين، سميت على اسم شيخها "عز الدين السندي"، وكان هذا حينها شيخاً مثيراً للجدل الى أبعد حد، يتداول الناس اسمه واخباره كثيراً في المجالس، انشق عن نهج "المولوية"، الطريقة الرسمية للسلطنة، وكان يتهمها بالانحراف عن نهج جلال الدين الرومي الذي يدّعون إتّباعه. وأسس طريقته الخاصة به، خالفَ فيها الطريقة الأم في الكثير من أساسيات العبادة والتصوف. فقد غير

في الصلاة وضمّنها مناجاة وأشعاراً، وأسقط عنها المواقيت، بل وأسقط الفرائض عن مريديه الذين تقدموا في الدرجات، كان يقول في "وحدة الوجود" و"وحدة الشهود" و"التناسخ" و"الحلول" و"الاتحاد"، سواء مع المخلوقات فيما بينها، أو مع الخالق، ويرى أن جميع المخلوقات والأسماء ما هي إلا جزيئات من تكوينة "الخالق"... وأمور كثيرة اخرى أجّجت ضده جميع شيوخ الفقه والتصوف حينها، واتهموه بارتكاب ما يؤدي إلى التهلكة، فمن قال إن السندي يدعو مريديه الى تأليهه، وانه يدعو لعبادة الشيطان، وانه يهدم أركان الإسلام ويدعو لدين جديد. وأشد ما قيل بشأنه أنه ترهبن في المسيحية في شبابه، ثم سلك في الديانات الهندية لأكثر من عشرين عاماً قبل أن يتصوف، إلا أن ولاءه ظل، حسب مقربين، معقوداً حتى بعد تصوفه،

لشيخ هندي غير مسلم يقدسه أتباعه حدّ التأليه، لا يدعو الى دين محدد، اختلفوا على اسمه... هذا الأخير كان، هو الآخر، موضع تقوّل، وقد نُسبت إليه صفات تفوق المعقول بدءاً من التحكم بالأنواء وانتهاءً بالخلود.

تم تكفير السندي وإصدار فتاوى بهدر دمه من قبل الكثيرين، سنّة وشيعة، كما بُعثت مئات الرسائل، التي كانت تؤلب شيوخ التصوف ضده في شتى أنحاء البلاد، ما جعل بلاغات الرفض والتكفير تنهمر بشأنه الى الباب العالي آتية من شتى الطرق الصوفية المعروفة سواء في ولايات السلطنة أو من خارجها، كالرفاعية في العراق، والقادرية في الجزائر، الأحمدية والأكبرية البرهانية الدسوقية في مصر، الشاذلية في المغرب، البكتاشية في البانيا، النقشبندية في

سورية، السنوسيةـ ليبيا، الادريسية ـ السودان، العروسية ـ تونس والباعلوية ـ اندونيسيا...

أما في الاستانة، فانقسم الناس بشأن طروحاته و(بدعه) واختلفوا فيما بينهم بشأنه، حتى امتد ذلك الخلاف الى عقر الباب العالي. إلا أن السر وراء صمود الشيخ السندي أمام كل تلك الخصومات والهجمات، هو أن السلطان عبد العزيز نفسه، كان من أشد المؤيدين والراعين له، حتى اشيع أنه اخذ البيعة على يده، بل انه كان من أخلص مريديه.

بعد انتقال مدحت باشا من بغداد الى أدرنة في عام 1872 اشتدت الخصومة ما بينه وبين "الصدر الأعظم" حينها محمود نديم باشا، لم يكن مدحت باشا رجلاً سهلاً، ظل يجمع المؤيدين له من داخل الباب

العالي، من جماعة الاصلاحيين، ويؤجج الرأي العام ضد الوزير الأول.

انقسمت البلاد حينها إلى معسكرين: معسكر الليبراليين دعاة التجديد، ميول فرنسية، يرأسه مدحت باشا، ومن حوله أحرار الفكر وأرباب الحرف والصناعات وفريق من العمال الواعين. ومعسكر المحافظين، ميول روسية، حرس قديم، أنصار نظام الخلافة في الحكم، ويرأسهم محمود نديم باشا، ومن ورائه طبعا السلطان والحاشية والمقربون.

ظلّت الأحوال الداخلية والخارجية في الدولة العثمانية في تلك الفترة تسير من سيئ إلى أسوأ، إذ زاد الفقر والفساد. وكان رجال الحكم يراقبون بوادر التذمر تسري بين جماهير الشعب دون السعي لإيجاد حلول،

سوى قمعهم من خلال الإمعان في الظلم والاضطهاد. إلى أن ثار مدحت باشا نفسه، على رأس الناقمين من أفراد الشعب الذين احتشدوا في جامع السلطان محمد الفاتح، ثم ساروا في تظاهرة صاخبة إلى الباب العالي، وهم ينادون بسقوط الصدر الأعظم محمود نديم. فما كاد الأخير يشاهد تلك الجموع الغفيرة حتى لاذ بالفرار. فلم ير السلطان مخرجاً من الأزمة وتهدئة غضب الجموع إلا بتعيين مدحت باشا "صدراً أعظم" على عموم السلطنة وكان ذلك في نهاية تموز 1872، بيد انه عزل بعد أن هدأت الأمور، وكان ذلك قبل إتمامه ثلاثة أشهر في منصبه الجديد. ليحل محله رجل الدولة المخضرم محمد رشدي باشا.

كان مدحت باشا من أشد الكارهين للشيخ

السندي. وغالباً ما كان يصفه في الصحف بأنه رمزٌ من رموز الرجعية والتخلف. الغريب إنه قد أشيع حينها أن خصومة الباشا مع السندي لها جذور تمتد الى ماض بعيد، منذ أن كانا صبيين في الكتاتيب في محلة ايليجان، إحدى الضواحي الشرقية لاسطنبول. كثيرون حذروا مدحت باشا، بعد أن صار صدراً أعظم، من المغالاة في عداوته للسندي، لأنه ولي من أولياء الله، وله كرامات وصاحب شارة، وان كثيرين من أعدائه ومناوئيه إما جنّوا أو تكسّحوا أو لقوا حتفهم في ظروف غامضة. إلا أن ليبرالية مدحت باشا وثقافته الغربية جعلتاه غير مبال بكل ما يقال بهذا الشأن. كان يسخر علناً من كل تلك التحذيرات.

***

في الوقت الذي قدم فيه شايع الى الاستانة، كان مدحت باشا يعد الرجل القوي والرقم الأصعب في المشهد السياسي في العاصمة، على أعلى المستويات، بسبب شعبيته الواسعة وميوله الإصلاحية التقدمية، وسعيه لتثبيت دستور منصف للبلاد. وقد فرض نفسه خلال تلك الفترة على صناع القرار وتحول الى ما يمكن أن نطلق عليه لقب "صانع الملوك".

حين جاءه خبر وصول دفعة العراق للالتحاق بالمدرسة الحربية. حرص مدحت باشا على أن يلتقي بهم رغم مشاغله الجمة، أراد أن يفخر أمام حاشيته ومساعديه بأولى ثمرات مشروعه العسكري الذي أسسه في بغداد حينما كان والياً عليها.

قدم الى مكان اقامتهم بعد صلاة العشاء

بزيارة مفاجئة، أحدثت ربكة ولغطاً، لم يكن المسؤولون مستعدين لمثل هذه الزيارة. تم تجميع الطلاب الآتين من بغداد على عجل في الباحة الخارجية، وكانوا ستة وثمانين طالباً. نُصب للباشا كرسي في مكان مرتفع. طلب إشعال جميع مصابيح الكحول لرؤية الوجوه جيداً. استقر على الكرسي ومن حوله أنصاره من الضباط الكبار، خاصة أولئك الذين خدموا تحت إمرته في بغداد، وخلفهم كوكبة من كبار الموظفين والمراتب العسكرية.

سحب غليونه الكهرمان الأزرق، اشعله، فإذا بإشارات عدم ارتياح تباغته فجأة، دي جا فو، الأجواء انشدّت فجأة دون سبب واضح. تلفت حوله، سامح باشا على يمينه وفيضي باشا على شماله، فزّ من مكانه

واقفاً، عجيب أيعقل ذلك!!، هما ذاتهما كانا واقفين الى يمينه ويساره، يوم تجميع المتمردين في ساحة زوير القاضي أمام السرايا الحكومي، حينما كان والياً على بغداد. صدفة غريبة، ليس هذا فحسب، الكرسي يكاد يكون نفسه، جو الليل ومصابيح الكحول والعساكر، كأن الزمن عاد به الى بغداد قبل سبع سنوات.

احتقن وجهه، تحول مزاجه تماماً، وبدأ نبضه في تسارع، تشابه المشهد عليه، هاجمته ذكرى مزعجة كان قد نسيها. انتبه الجميع الى تغير مزاجه المفاجئ، ظنوا انه رصد شيئاً في أمور الضبط ليست على ما يرام، لم يجرؤ أحد على سؤاله.

اندفع الباشا بخطوات واسعة ناحية الطلاب الواقفين بثلاثة صفوف، كان شايع قد حشر نفسه في

الصف الخلفي، مرّ أمامهم واحداً واحد، يتمعن في الوجوه عن قرب شديد وعيناه تتطايران شرراً. وصل الى حيث يقف شايع، توقف فجأة، عرفه في الحال رغم مرور سبع سنوات. أمره بالعربية:

"أنظر في وجهي، ولد".

رفع شايع وجهه اليه. قال له "ابتسم"، تردد شايع وارتبك. أعاد مشدداً:

"ابتسم، ولد".

فرج شايع فمه مكشراً، فبانت غمازتاه. عاط الباشا:

"انه هو، هو".

دار ناحية الضباط وصرخ بالتركية:

"من هو الآمر على هذه الدفعة؟".

فتقدم ضابط برتبة نقيب وأدى التحية: "أفندم".

أمره وهو يتميز غضباً ورذاذ بصاقه يرشق في الهواء:

"لا نريد مثل هذه الزبالة في مدارسنا الحربية. ان وصل الى علمي انه بات ليلته هنا، سأحملك المسؤولية".

"أمركم افندم، يطرد في الحال".

طُرد شايع من البناية في تلك الليلة بما كان

عليه من ملابس، ليس في جيبه قرش واحد. لم يسمحوا له بأخذ حقيبته أو جزدان نقوده الذي فيه كل ما يملك. كانت ليلة خميس صيفية. مشى في الشوارع على غير هدى، مشدوهاً، يائساً، حائراً. حدثت الامور بسرعة خاطفة، من طالب متفوق ومستقبل واعد، إلى مطرود منبوذ ومشروع متشرد، غريب في هذه المدينة الصاخبة، أين سيبيت؟ كيف سيرجع إلى أهله؟ ما الذي سيقوله لأبيه؟... عشرات الأسئلة ازدحمت في باله، فكر مع نفسه:

"حتى وإن توفرت لدي أجرة الرجوع، لن أعود، أفضّل الموت هنا جوعاً على العودة إلى أهلي ذليلاً خائباً".

شلته الصدمة، مشى حتى خارت مفاصله،

فكرة ان يُنهي حياته في مياه مرمرة استحكمت فيه تلك اللحظة، لم يعد لديه ما يستحق العيش من أجله، الا ان ضفة مرمرة بعيدة، لم تتبق فيه طاقة لأن يمشي خطوة واحدة، كان جائعاً، واهناً، مهدوداً، وحائراً كفرخ طير هوى من عشه. تلفت حوله، وجد نفسه عند باب جامع أورطكواي، تكيته تبقى مفتوحة للناس أيام الخميس حتى الصباح، دخل ليرتاح، وربما سيصيب وجبة مجانية، وفي الغد.. مرمرة.

اعتاد الشيخ السندي الحضور بنفسه الى تكية اورطاكوي كل خميس بعد صلاة العشاء ليكون وسط مريديه، يشرف على حلقات الذكر ويحاضر فيهم.

حينما وضع شايع قدمه على عتبة الجامع كانت الأعداد بالمئات، لم يكن السندي هناك بعد.

المريدون بدأوا يتقاطرون على الباحة الخارجية منذ صلاة الظهر لإحراز موضع قدم قبل اكتظاظ المكان. جَهد شايع ان يجد له ركناً يجلس فيه وسط تلك الزحمة، لم يكن شاعراً بما حوله من لغط وتدافع، ضاع وسطهم. دارت به موجات الجموع حتى وجد نفسه محصوراً في زاوية ضيقة عند جدار المراحيض، جلس هناك، مستنفداً تماماً، فغفا في الحال. فاتت ساعتان على صلاة العشاء ولم يحضر السندي بعد، المجاميع لم تنقطع تتوافد الى باحة الجامع ففاضت بهم حتى وصلوا حافة الطريق العام.

أُفرغت دائرة في الوسط تجّمع فيها دراويش ذوو شعور طويلة، يتقدمهم واحد من خواصهم اسمه خليفة جنكيز، يدورون حول أنفسهم على ايقاع دفوف

وطارات، ينشدون:

سونسوز بر كارانليغن
إجيندر دوغدم

إشكي غوردوم، كوركتم
أغلادم

جنكيز هو الثاني بعد حضرة الشيخ السندي واقرب خاصته، عادة ما يؤم المريدين في غيابه، شاب ثلاثيني فارع الطول، كثيف اللحية والشعر، مشرق الوجه وابتسامة دائمة تكشف عن أسنان بيض.

فجأة طغت على ضجيج الذكر أصوات جلبة

آتية من ناحية باب الجامع. تطاول الجميع بقاماتهم لرؤية مصدر الضجة، فإذا بالشيخ السندي قادم وسط حلقة من خاصته، والناس يتدافعون تجاهه للحصول على فرصة للثم يديه او قدميه او أطراف ثيابه. بلغ التدافع ذروته، ومن لم تسنح له فرصة مواتية للمسه، سجد على مواقع أقدامه على الأرض، يقبلها ويعفّر وجهه بترابها. تصاعد الهتاف والصراخ من كل ناحية بالدعاء والتقرب. كل هذا وشايع منزو بعيداً في ركنه، غير واع لما يدور حوله.

استوى الشيخ على مقعده الذي نُصب لأجله في صدر الباحة، كرسي عريض من الخيزران، عليه وسائد من الصوف. جلس هناك ثم من بعده خاصته من حوله على ركبهم. جلس الآلاف، ساد صمت مطبق.

خفّ إليه الخليفة جنكيز، قبّل يده، ثم جلس راكعاً على يمينه. كان السندي في منتصف خمسينياته حاسر الرأس طويل القامة، لحيته سوداء غزيرة مقلمة بخطوط بيض من الجانبين، نظراته ثاقبة وسحنته ودودة مسترخية. أسد وديع.

بقي حضرة الشيخ ساكناً في مكانه، منكس الرأس مغمض العينين، كأنه مستغرق في حالة (اتصال)، لم تكن تلك عادته حين يكون وسط مريديه. تلفت الجميع الى بعضهم مستفهمين. فاتت دقائق على تلك الحال، سكون تام، تتخلله أصوات مكتومة تخرج من هنا وهناك تحيل الصمت الى ما هو اكثر وطأة. قطع الشيخ استغراقه، ودون أن يرفع رأسه أشار بإصبعه للخليفة جنكيز أن يقترب إليه. نهض هذا

وهرول مقترباً إليه، انحنى ليسمع منه. همس الشيخ في أذنه بضع كلمات، أصغى جنكيز بانتباه شديد ثم اعتدل بقامته وأجال نظره في الحضور. ثم انحنى مرة أخرى وتبادل مع الشيخ جملاً أخرى، رفع قامته من جديد، حدد بصره باتجاه معين، ثم أشار للجمع أن يوسعوا له طريقاً، استجابوا له وعيونهم ترنو للجهة المقصودة. تقدم وتوغل وسط الجموع حتى وصل جدار المراحيض، حيث شايع متكوم على نفسه مستغرق في النوم. تمعن في هيئته للحظة ثم هزه من كتفه برفق، فز شايع وتلفت حوله، طلب منه جنكيز أن ينهض ويتبعه. لم يفهم ما يجري، آلاف العيون محدقة إليه بذهول، نهض دون أن يعترض، للوهلة الأولى ظن أنه دنّس، دون قصد، شيئاً ما في التكية، وها إنهم جاءوا ليطردوه إلى الخارج. انقاد شايع خلف جنكيز وجلاً كما لو كان

في كابوس، أخذه هذا لمكان حضرة الشيخ، وقف أمامه مباشرة وكله حرج وارتباك، تنحى جنكيز جانباً ورجع يجلس في مكانه.

مشايخ الصوفية يرون في الناس هالات، تختلف شدتها وألوانها من شخص لآخر، وبإمكانهم تصنيف الناس من أول نظرة كل حسب هالته. الشيخ لم يخرج من استغراقته بعد، مغمض العينين، ركع شايع أمامه، قبّل يمناه المسترخية على مسند الكرسي. رفع الشيخ وجهه تأمل الرأس المنحني دونه، خاطبه بالعربية أن ينظر في وجهه، رفع شايع رأسه، بقي الشيخ محدقاً في وجه الفتى للحظات بدا كما لو كان يقرأ في كتاب. سأله عن اسمه ومحل سكناه، كان يجيد بالإضافة إلى التركية والعربية، الفارسية والأردية

والبشتوية والسواحيلية. قال له بصوت خفيض عمد أن لا يسمعه من كان قريباً منهما:

"سأحمّلك رسالة لرجل ليس كباقي الرجال، ستعرفه حين تلقاه".

هز شايع رأسه موافقاً دون أن يفهم أي شيء. واصل الشيخ كلامه:

"لكن عليك أن تأخذ العهد اولا وتنضم الى الطريقة".

أجاب شايع كالمسحور:

"نعم حضرة الشيخ، سآخذ العهد".

قال له "ضع يدك بيدي" ففعل.

قال: "إنوِ المبايعة في قلبك وأنت تنظر مباشرة في عيني".

كانت تلك طريقة السندي في أخذ البيعة، بينما تكون المبايعة عند باقي الطرق بالمصافحة وترديد المريد الجديد شروط العهد بعد خليفته (مرشده). فعل شايع ما أمر به، وقد احس حال ملامسة كف الشيخ لكفه، رجفة كهربية تتسرب عبر ذراعه الى باقي أجزاء جسمه، تتصاعد قوتها باطراد. وقبل ان يسحب كفه منه، انحنى الشيخ على اذنه وهمس:

"... ني... دا.... أ.. ية.........................."

لم يتسن لشايع سماع جمل الرسالة، ولا حتى

كلمة واحدة من كلماتها. كان غائباً تحت تأثير موجات قشعريرة متفاوتة في شدتها، تخترقه من رأسه الى قدميه، ومن قدميه الى رأسه، جعلته يبرد، يتعرق، يرتجف، يتلوى، ويحتضن نفسه بقوة.

الفصل الخامس
ناز

(11)

ناز (نازلي) خاتون الأورفلي، تركية، الزوجة الأولى للشيخ عودة الجريان، تبعتها واحدة شركسية ثم اثنتان عربيتان. عمياء بالولادة، وعاقر لم تنجب للجريان أي خلف، جميع أولاده الثمانية عشر جاؤوا من زوجاته الأخريات. اقترن الجريان بها وهو في السابعة عشرة، بينما كانت هي في الخامسة

والثلاثين من عمرها، حينها كان أبواهما، صادك الجريان وعلي جان آغا، شريكان في تجارة النحاس، يسيّران شبكة واسعة من القوافل عبر الأراضي الممتدة من أضنة شمالاً وحتى صنعاء جنوباً.

ناز هي الابنة الوحيدة لعلي جان آغا. وبعد مماته ورثت عنه جميع ما يملك، آلاف الدونمات من الأطيان تمتد على ضفتي سيحان، قطعان إبل بالآلاف، عشرون قصراً، ستة عشر ألف ليرة مجيدية ذهبية، ووديعة باسمها في بنك لويدز تقدر بحوالي سبعين ألف باون. كما ورثت عنه تركة من نوع آخر، ولاءات شبكة واسعة من المتنفذين والأعيان، فيهم رؤساء عشائر وقادة جندرمة وعسكر، وكذلك زعماء صعاليك وقتلة وقطاع طرق. كان علي جان آغا يحرص على

مواصلتهم بانتظام بالأموال والعطايا لأجل تيسير شؤون تجارته ومنع التعرض لقوافله أو أملاكه، وبالمقابل كان كل من هؤلاء بدوره يحسب له الف حساب، الجميع كان يعرف جيداً سعة نفوذه وقدرته على البطش بأي منهم في أي وقت يشاء، فإن حدث وغضب على طرف سلط عليه طرفاً آخر.

استمر ولاء كل هؤلاء لناز خاتون بعد وفاة والدها، بل انها أثبتت، بمرور الأيام، أنها أشد بأساً من أبيها. كان الجميع يتجنب غضبها أكثر مما كانوا تجاه أبيها، فهي لا ترحم من يقف في طريقها، ولا تغفر بتاتاً لمن يمس لها طرفاً. لها نَفَس طويل في التعامل مع خصومها، لا تنسى اعداءها مهما طال الزمن. ومن جانب آخر، كانت تواصل أصدقاءها وكل من قدم لها

خدمة. كان لديها ذاكرة فيل، فبإمكانها أن تعدد أسماء جميع القبائل الممتدة على ضفتي سيحان وجيهان ثم الفرات ودجلة ونجد والحجاز واليمن والأحواز وسيناء، بل وأسماء شيوخها وأبنائهم، ونزاعاتهم وحروبهم وأحلافهم. وفي الوقت ذاته تحرص على مناداة خدمها ووصيفاتها وعبيدها باسمائهم، مع معرفتها بأسماء زوجاتهم واولادهم وأحوال كل منهم. أما سلاحها الآخر والذي هو الأشد فتكا؛ كرمها، ان تعطي لمن ترضى عنه بجزالة تفوق كل توقع.

كان خشونة عظمها وضخامة وزنها، والقفطان العثماني الذي ترتديه، المعمول غالباً من الحرير والمخمل، واحياناً من الديباج الذي تفضله بالألوان المتوهجة، ما بين أحمر وأزرق وفيروزي.

والعمامة الدستار المرصعة بالياقوت، والحلي الكشميرية المطعمة بقطع كبيرة من العقيق والجزع اليماني. ورخامة صوتها ذي اللكنة التركية الجنوبية، وجمجمتها المستطيلة ذات الملامح النيادرتالية الخشنة، وعماها الذي يمنع الآخرين من قراءة وجهها. كل تلك الأمور وغيرها جعلتها أهلاً لأن تطاع. طينتها متماسكة لم تجبل بالتأكيد من رمل الصحراء. كانت تحكم وتتصرف كما لو أنها سلطانة من الليالي العربية، او ملكة بابلية، حيث لا ينبغي طاعة الحاكم مالم يلبس ويأكل كنصف إله. آمنت ناز خاتون إن أول شروط الحكم أن تقنع من تحكمهم، ان الذي يجري في عروقك، دماء زرقاء.

الشائع أن قصر فروان الذى تشغله ناز

خاتون هو أكبر قصور الشيخ عودة الجريان، وقد خصها به دون باقي زوجاته. لكن في الحقيقة ان الخاتون هي التي أنفقت على بناء القصر من مالها الخاص، وأشرفت على جميع مراحل إنشائه، بدءاً من اختيار موقعه على ضفة الفرات في حصيبة، ومن ثم جميع تفاصيل تشييده. فبعد زواجها من الشيخ وانتقالها من بيت أبيها في أورفة إلى مدينة زوجها الجديد في حصيبة، أرادت أن تشيد لنفسها قصراً فريداً يضاهي "قصر أهلامور" في الاستانة، فاستقدمت بنائين من بورصة ومصممين من روما ونقاشين من القاهرة، ووفرت لهم كل ما يحتاجون من المرمر الايطالي والحلان الموصلي وأجود أنواع الصاج والزان والمهاغوني، وبعد اكتماله جلبت فريقاً من فيّنا لتصميم حدائق القصر وتنويعها بنباتات نادرة. واخيراً فرشته

بسجاد من كاشان وتبريز وأخشاب من لندن وثريات من اسطنبول، وأوان فخارية وفضيات من بكين. أطلقت عليه اسم "اهلامولا سرايا"، إلا أنه ومع مرور الوقت صار الناس يشيرون إليه باسم "قصر فروان"، على اسم الأسطة الأردبيلي الذي بناه. كانت أفضل نصيحة اخذتها ناز خاتون عن أبيها: بيتك هو عنوان هيبتك.

استضاف قصر فروان عبر تاريخه شخصيات مهمة بعضها كان لها أثر بارز في تاريخ الشرق الأوسط الحديث، وتطرق العديد منهم في مذكراته الشخصية لذلك القصر. لكن من الغريب ان لانجد لقصر فروان ذكراً في مذكرات كل من "تي إي لورانس" و"مس غرترود بيل"، رغم ترددهما عليه

لأكثر من مرة، حسب شهود عاصروا تلك الفترة. يفسر "سندرسن باشا" طبيب العائلة العراقية المالكة في مذكراته أن تجاهل هاتين الشخصيتين لذكر قصر فروان والخاتون، كان مقصوداً، مرده محاولة إبعاد فكرة تعاونهم مع الأتراك خلال تلك الفترة.

خدمت نهوة في فروان، منذ أن كان عمرها ثلاث عشرة سنة، وتركت القصر وهي في السابعة عشرة.

كان أبوها كثير الترحال يتنقل بين العشائر والقرى والقصبات والمدن، يجمع الأعشاب ويبيعها، يحضّر الدواء ويطبب الناس، ما بين حجامة بالعلق، قلع اسنان، تجبير عظام، كي جروح، فصد وختان. وكان يعود الخاتون في قصرها بانتظام، يجلب لها

أعشاباً يجمعها بنفسه من مصادرها، يدلك ويطقطق لها ظهرها الذي عانت منه على الدوام، ويزودها بأجود انواع الحناء البنجابية، والخشخاش النورستاني والقنب الهندي.

المرة الأولى التي التقت فيها نهوة بناز خاتون، كانت حينما قدمت إلى قصر فروان بصحبة والدها في واحدة من زياراته وكانت في الثالثة عشرة من عمرها كما ذكرنا. كانت الخاتون يومها جالسة لوحدها على مرتبة خيزران في الباحة الشرقية وسط شجيرات الجاردينيا والمنثور، تدخن غليونها البورسلين، يوم كانوني والجو صحو والشمس تورث كسلاً لذيذاً، يدغدغ وجنتيها وبشرة زنديها العاريين. كسر سالم صفوك عليها خلوتها، وهو من القلائل

المرخص لهم بذلك، فيما طلب من ابنته أن تتقدم ناحية مولاتها الخاتون وتقبل يدها. ففعلت.. الا ان الخاتون احسّت، حال اقتراب الصبية منها، ان مجالاً عارماً من قوى الجذب اقتحم حيزها، استوفزت بجلستها ثم مدت ذراعها وسحبت الصبية ناحيتها برفق، صارت الصغيرة محصورة ما بين الركبتين العظيمتين، اقفل المنخران المتيقظان على سمت الفتاة. تنشقت الخاتون من هناك شذى لذات عوالم أخرى، يتسامى من أعلى الرأس الأسيل، أيقظ في داخلها نزوات ماجنة مكبوتة.

أصابها فضول غامض. فمدت كفا مترددة. خنوص يجرب العالم بعيداً عن ثدي أمه، تحسست اولاً على وجه الفتاة، ثم كتفيها فبطنها فردفيها... فإذا برعشة كدبيب نمل وحشي هائج بدأت تنمو أسفل

ظهرها، ثم انطلقت تفور إلى الأعلى.. ثم بووووم... صعقت، في آن واحد، كل خلية من خلايا كهولتها. جعلتها تنفث زفير قطار على وشك الانطلاق، وصرخة موجزة، كتلك التي تفلت من فم امرأة قُرصت من مكان حساس.

اختل توازنها. مرت لحظات من الزمن، تمالكت نفسها، تنفست بعمق، ثم تماسكت ونطقت بنبرة آمرة:

"فتاتك هذه.. تبقى عندي في القصر.. تخدمني".

وما كان من الوالد إلا أن يبتهج لهذا الحظ وهذا الشرف اللذين نزلا عليه من السماء. قبّل بدوره يد

الخاتون وقدميها تعبيراً عن امتنانه. وقد أكرمته، في ذلك اليوم، قبل أن يغادر، بفرس دهمانية من اصطبل القصر وليرة فضية حميدية، شئ لم يقبض عليه كفه طيلة حياته.

أحبت نهوة مكانها الجديد منذ البداية. حياة ناعمة ومستقرة، عناية خاصة، نظافة، ووجبات طعام فاخر لا تنقطع، أناس من جميع الأطياف يدخلون ويخرجون، يعتمرون عمائم وطرابيش وسدارات ودساتير وعقالات وغتر. اشكال لم ترها في حياتها من قبل.

جمال الصبية الصحراوي الوحشي، وانوثتها التي كانت متوارية إثر الإهمال، صارا يتفتحان بسرعة وسط حياة الانفتاح والدعة. بدأت جميع أنظار من في

القصر ورواده تلتفت إليها. وسرعان ما اكتشفت الخاتون في هذه الفتاة اللوذعية ملَكات أخرى، فصاحة لسان وملاحة قول وإنشاد شعر. وايضا مهارة خاصة برعت بها دون غيرها، نبوغها في قراءة الطالع. سواء بالكف، الودع او الفنجان، وبالكفاءة ذاتها.

في البدء كانت الخاتون تطلب منها قراءة طالعها لغرض التسلية وتزجية الوقت، لكن، ومع الأيام، صارت الأمور أكثر إثارة للاهتمام، أثبتت لها السنين أن أغلب ما تقوله تلك الصبية يتحقق. فصارت تحرص على دعوتها لقراءة الطالع كل صباح قبل أن تترك فراشها، وطالما باهت بها كبار ضيوفها.

على العموم، نالت نهوة معاملة خاصة من الخاتون طيلة فترة اقامتها في القصر، ومنذ البداية

وجدت الخاتون شيئاً مشتركاً بينها وبين تلك الصبية، كانت كل منهما وحيدة أبيها، ذلك الشيء قربهما أكثر لبعضهما. وحينما بلغت نهوة الرابعة عشرة، جعلتها الخاتون في مكانة أرقى، واكرمتها لتكون ضمن حلقتها المقربة وواحدة من وصيفاتها.

بعد مرور خمس سنوات على نهوة في القصر، مات أبوها بعظة ورل سام وهو يجمع عشبة راس البرص في جبال عسير. كان هو كل عائلتها، ماتت أمها عند ولادتها، ولم يقدم أبوها على الزواج مرة أخرى بسبب طبيعة مهنته التي تتطلب سفراً متواصلاً. وبعد موت والد نهوة بأيام، قدم أعمامها إلى حصيبة وأخذوها من قصر فروان ليردوها إلى الديار ويزوجوها. حزنت الخاتون كثيراً على فراقها وحاولت

ان تسترضي أعمامها بالمال لكي يتركوها عندها لكن دون فائدة، كانوا يرون أن بقاءها تخدم في قصر الخاتون عار عليهم. بكت الخاتون في يوم مغادرتها كثيراً وعرضت عليها أن تحمل معها ما تشاء من القصر، الا ان نهوة لم تختر من كل ما يحتويه القصر إلا شيء واحد، جومة نسج البسط، كانت متروكة لسنين بعد أن مات من كان يعمل عليها، وهو مخصي استقدمته الخاتون من كاشان لينسج ما يحتاجه القصر من بسط والباقي تتصدق به على الناس. كذلك منحتها الخاتون ستة معاضد ذهب عيار أربعة وعشرين هدية عرسها، فضلت نهوة أن تبقيها عند الخاتون لحين العازة.

(12)

استغرقت رحلة نهوة الى حصيبة يوماً ونصف، في العادة تقطع المسافة ذاتها بثلاثة أيام، غير أن الفرس نجمة التي استعارتها من بيت أخوالها، صكلاوية لا تعرف التعب.

الوقت أول المساء، قصدت في الحال الباب

الخلفي لفروان، تركت فرسها في اسطبل الضيوف، توجهت إلى المقصورة الشرقية حيث حجرة مشرفة القصر نعمين/نعمو خانم، لم تجدها هناك، وجدت وجدي أفندي، حكيم الخاتون الخاص، وهو في طريقه للخروج، عرفها في الحال ورحب بها ببشاشة واحترام مخاطباً اياها بـ "نهوة خانم". طلبت منه بنبرة إلتماس أن يأخذها لنعمين. فقادها ناحية جناح الضيوف.

كانت نعمين/نعمو، الحلبية، الأربعينية النحيفة المتفجرة نشاط، منشغلة حتى قمة رأسها بتوجيه الخدم والطباخين والسفرجية، صوتها الملعلع ولسانها لاذع، شتم وسباب يتطافر من فمها دون توقف وبتقسيمات حلبية لا تخطر على بال، قارصة كل من تراه متلكأ في عمله من أليته، فترى العمال متلفتين خلفهم يتجنبونها.

من الواضح أن هناك دعوة هامة في القصر، وان التحضيرات قائمة على قدم وساق لإعداد وليمة كبيرة.

تسمرت نهوة عند الباب تراقب من بعيد، وللحظة، غابت عنها مصيبتها واحست كم هي مشتاقة لتلك الأجواء، تذكرت الحركة النابضة والعز، وبالأخص صديقتها طيبة القلب نعمو ولسانها السليط. كان من الممكن ان تقضي باقي حياتها في القصر لو بقي أبوها حياً. وتتزوج من، من يدري؟ ضابطاً شركسياً.

لمحت نعمو من مكانها نهوة فبشّ وجهها في الحال، وقدمت تهرول ناحيتها:

"لك وين كنتي كل هذه المدة يا بنت الزانية،

صار زمان ولله، كم غبتي عنا هذه المرة، سنة؟ لا والله حتى أكثر من سنة".

تبادلتا قبلا على الخدود، ثم احتضنتا بعضهما بقوة، وذرفتا دموعاً حارة.

"أراك استطيبتي البقاء في البادية يا مضروبة، يكون ع**** زلامها أكبر من ع***** زلام فروان؟".

لم تجاريها نهوة مزاج المناكدة، ظلت تعاينها بشوق وتكفكف دموعها.

"مالك نهوة خيتي؟ أراك تعبانة ووجهك ذبلان مثل النومية الممصوصة، خير ان شالله؟".

"... سأخبرك لاحقاً، الآن خذيني الى الخاتون دخيل عرضك لاوقت عندي، اريدها في حاجة ضرورية".

نعمين تعلم الكثير عن أسباب قدوم نهوة. هزت برأسها موافقة دون أن تلح في السؤال:

"لكْ على عيني، نهّاوي، تعالي معي".

اخذتها الى سُفرة النساء، قاعة مجاورة لصالة الضيوف، وطلبت منها الانتظار هناك. سارعت نعمو الى صالة الضيوف وكانت ضاجة بعشرات النساء من عشائر الدليم، جئن تلبية لدعوة الخاتون لإقامة مولد نبوي.

تصدرت القاعة مداحة تنشد بصوتها الجهوري الرجولي قصيدة نبطية في مدح النبـي،

على إيقاع الدفوف والطارات لجوقة من اثنتي عشرة رادودة يجلسن خلفها:

صلاة الله مني والسلامَ

على من فيه بالغفران فازِ

عفيف الجيب ما داس
الملامَ

ولا وقّف على طرك
المخازي

حشد من النساء متلفعات بهاشميات سود،

وعمائم حَبَر سود ايضا، يجلسن متلاصقات على الأرض دون انتظام، على طنافس تبريزية، يتمايلن على ايقاعات الدفوف.

في وسط بحر السواد، أخليت جزيرة صغيرة لأريكة أرابسك تعتليها الخاتون بألوانها المتوهجة وهيأتها الفيلية، تقتعد حشية وثيرة، ساندة ظهرها بوسائد حمر مطرزة بخيوط ذهبية، ترنّح رأسها يميناً وشمالاً مع صوت الإنشاد كما يفعل دراويش الرفاعية، لكن دون محاولة بذل الجهد المطلوب.

قصّت نعمين حشد النساء، جاءت مباشرة حيث مكان جلوس الخاتون، انحنت ناحية اذنها وهمست كلمتين.

لم يبدر من الخاتون في البداية أية استجابة، استمرت تتمايل لبضع ثوان أخرى، ثم مدت ذراعها إلى الأمام، إشارة لنعمين كي تعينها على النهوض. انشجّ جمع النساء من أمامها محدثات جلبة ولغط. غادرت الخاتون الصالة متوكأة على عصاها. بينما استمرت المداحة:

بفقدي له ووجدي والهيامَ

تعلمْت النياحة والتعازي

وصرت بوحشةٍ من ريم
رامَ

ومن فركَاه مثل الخاز بازِ

دخلت الخاتون قاعة سُفرة النساء. حالما لمحت نهوة قدومها خفّت ناحيتها تهرول وركعت على ركبتيها تقبل طرف ردائها ثم كفها.

"عذرا تيزة إن اقلقنا جنابكم".

فرجت الخاتون ذراعيها على الآخِر:

"نهويش حياتم، كَال، كَال، اعطي تيزة حزن- حظن - كبير، حزرتنا كثير مشتاق".

نهضت نهوة في الحال، متوقعة ذلك السياق كما في كل مرة تلتقيها. حضنتها بتؤدة، الا ان الخاتون أحكمت ذراعيها حولها وهصرتها ناحيتها بقوة كما لو

أنها تريد افتراسها، وصارت تتشممها من رقبتها:

قالت نهوة بصوت اختنق بوطأة العضدين الثقيلتين وطيات الشحم التي تحاصرها من جميع الجهات:

"سامحينا خاتون، انا متسخة بعفر الطريق، وعركَانة".

"آي نهويش حياتم، آي.. تعرفين أن تيزة يحب ريح عرقكم اكثر من مسك آزربيجان".

وايضا، كانت نعمو ونهوة تتوقعان الجمل تباعاً، كما كل مرة.

فكت الخاتون أخيراً عن نهوة ذراعيها، لكن

شبكت أصابعها العظيمة بكفها لتقودها ناحية مجلسها المطل على المشربية. أعانتها نعمو على الجلوس، جلست الخاتون ساحبة نهوة معها لتجلسها على فخذها.

"نهويش جانم، لماذا ذهب وتركتيني وحيد؟".

قالتها بنبرة تدليل أكثر مما هي تقريع، فهي بالتأكيد ليست (وحيدة)، وتلك لازمة تفتتح بها الخاتون حوارها مع نهوة كلما زارتها منذ ان تركت القصر. كانت نهوة تعرف جملها في ذلك الحوار:

"انا احبك تيزة كما تعرفين، انتي في بالي طول الوقت، وحياة الرسول".

"آي آي حياتم.. انا يصدقكم كثير، انت يحبني، صوت جوك شَكَر يغرد، قولي كمان،

قولي...".

من بعد زواجها، صارت نهوة تتحرج من مثل هذه الحركات وهذا الحوار. وهي الآن ثلاثينية وأم لابنتين على وجه زواج.

لبثت نعمين تراقب كل ذلك دون أن يظهر على وجهها أي انطباع. تعوّد أهل القصر أن يمنعوا أنفسهم من تأويل أي من تصرفات الخاتون وفق قواعد الاحتشام. فالخاتون لها أن تفعل ما تشاء، وكل هذا يبدو، بصيغة ما، مقبولاً في أعينهم. هم يؤمنون ان الخاتون منظومة خاصة قائمة بذاتها، لا تجري عليها المقاييس الدارجة.

صارت علامات الاحراج بادية بوضوح على

وجه نهوة وهي تسترق النظر إلى وجه نعمين بين الفينة والأخرى كأنها تستنجد بها. التقطت نعمين الموقف، فأشارت بنظرها لنهوة أن تتحرك وتجلس على المقعد الملقى على الأرض مقابل طابورية الخاتون.

"اجلسي هنا نهوة، لا تثقلي على الخاتون. جنابها كثير تعبانة اليوم".

جاء المقترح إنقاذاً لنهوة. انسحبت بخفة من فوق فخذ الخاتون نحو المقعد المشار إليه.

"هههههة، لا تصدقي نعمو، هو يبالغ كثير بقلقه على صحتنا".

بعد ان استقرت بجلستها، صار بإمكان نهوة

التطلع مباشرة ناحية وجه الخاتون، فألفته أصفر كالكركم. محجران أثريان، تحتهما انصاف أرغفة متعفنة، وجبهة خضراء سريعة التعرق، تمسحها الخاتون باستمرار بمنديل كبير. كانت تتنفس من تحت أنقاض رغم أنها لم تكن تبذل جهداً يذكر.

التفتت نهوة ناحية نعمين بجبين مقطب وفم تقوس الى الأسفل، تستفهم منها مرعوبة. فما كان من نعمين إلا أن رفعت سبابتها والوسطى بحركة ناهرة، على أن الكلام في هذا الموضوع محظور. نقطة.

"آي نهويش، سبحان الله، كنا أمس في سيرتك انا وحسكيل بيك".

"خير عساه يكون ان شالله خاتون!؟".

"قال، ان حزرتنا ونهوة ونعمو اسماء يبدأ بحرف نون. قلنا، اي والله لم ننتبه لهذا من قبل. ثم سألنا بيك كيف يفسر هذا؟ قال، النون حرف مبارك أقسم الله به في قرآنه، نون والقلم، هذا معناه انكم الثلاثة ستجتمعون في الجنة...".

هللت نعمو وهتفت:

"الف الصلاة والسلام على محمد وآل محمد. بعد عمر طويل ينعمه الله المنان الكريم على جناب الخاتون. والله نمّل كل جلدي. هذا اليهودي يحفظ القرآن كما لو إنو واحد من جماعتنا".

حسقيل بيك هو المستشار المالي للخاتون وموضع ثقتها، وكان حينها يشغل أيضا منصب

مستشار في وزارة التجارة والزراعة للوزير العثماني سليمان البستاني، وهو نفسه حسقيل ساسون الذي سيشغل فيما بعد منصب وزير المالية في اول حكومة عراقية.

حرصت نهوة أن لا تبادر الكلام بطلبها ما لم تسألها الخاتون عن سبب مجيئها. لكن يبدو أن الخاتون لم تكن في تلك الساعة بمزاج يسمح بالإصغاء لمشاكل الآخرين. كانت في الحقيقة تحب أن تسمع من نهوة عبارات اشتياقها لها وللفروان، وكم هي ندمانة، وكيف تحولت حياتها الى جحيم لا يطاق منذ تركها للنعيم الذي كانت فيه أثناء سنين خدمتها في القصر.

جثمت بعد نهاية الجملة الأخيرة لحظة صمت خرقاء بعض الشيء. وكان على نعمين ان تباشر

واجبها في ردم الثغرات وتسليك الأجواء. وكانت فرصة للغمز الى موضوع نهوة التي جاءت بسببه:

"والله قد احزننا ما صار إليه الصلح بين عشيرتكِ والجواهل، هؤلاء ناس ظلاّم وكفرة، انتي لم تحلّفيني خيتي، لكن اقسم بالواحد القهار، سمعت حضرة الشيخ عودة، الله يطوّل لنا في عمره، بأذني هذه التي سيأكلها الدود، يقول، لو كنت أعرف ان آلبوبطينة سيختارون واحدة من بناتك، لما سعيت لهم في الصلح. ولو عرفت ان الجواهل سيختارون لها هذا المعفن ابن رابحة، لما سمحت لهم وطء عتبة بابـي الى يوم الدين".

ويبدو أن القدحة قد سلكت طريقها الى المحرك:

"انا قلت لزوجنا، هذا حرام، تقاليد مقاليد، رجل يقتل رجل ثم يتصالح بفرج امرأة مسكين".

عقبت نعمو:

"اي والله يسلم تمك، جناب الخاتون، كلامك ذهب إبريز. لكن لا تجزعي خيتي نهوة، تلك هي اعرافكم، كل شيء مكتوب. جناب الخاتون، كما تعرفين، قلبها، يا عيني، يسع الدنيا، وقد حزَنَت، الله يشهد، كثيرا على حالك، وصارت تدعو لك ليل نهار في صلاتها عسى الله أن يجد لك فرجاً، انتي يا عيني حبّوبة ما تستحقين هذا اللي يجري لك...".

قاطعتها نهوة بجزع:

"انا راضية بالقسمة وماكلة خرا، لكن الذي لا

تعرفانه أنني تركت الصبيتين تحضران لقتل نفسيهما".

"آمان آمان ربـي، انتحار يوك، هذا أيزاً حرام، انتحار غير مقبول".

"انا دخيلك خاتون، جئت إليك على وجهي، شوفيلي حل، هؤلاء الكلاب ما يخافون الا من جنابكم".

"همممممم، حل، حل، انت عزيز علينا نهويش، نحن لا يحب يشوفك حزين..".

اطرقت الخاتون تفكر، ثم رفعت رأسها كأنها تذكرت شيء أكثر اهمية:

"نهويش، تعرفين؟ صار زمان لم تقرأي لنا ودع".

تبلبلت نهوة، كان ذلك خارج الموضوع تماماً، لكن تذكرت في الحال، من الصعب إبقاء الخاتون في المزاج ذاته لوقت طويل بسبب الخشخاش الذي تدخنه.

"جنابكم، أتيت مسرعة ولم اجلب معي أحجاري".

نعمين تعرف أن تلك لم تكن رغبة من الخاتون إنما أمر:

"ما في مشكلة خيتي نهوة، هل نسيتي أن صرة أحجارك عندنا على حالها منذ تركك للسرايا، هيا هيا يا كسلانة، صار زمان لم نسمع لسانك الحلو يقول في أخبار السعد والمعد وكيد الأعادي".

***

اخذت نهوة قرشاً نحاسياً من الخاتون ووضعته بين حبات الودع، ثم قبضت بكفها على مجموعة من الأصداف وأفرغتها على صينية مفروشة بالرمل. فتراكمت في الوسط ثلاث صدفات ذوات خطوط زرق على قطعة العملة النحاسية، بينما نفرت الأخريات ناحية الأطراف. بقيت نهوة للحظات تحدق في الصدفات الثلاث، تغير لون وجهها فجأة، ليس ثمة ما يقرأ سوى الهلاك، كأنه موت قريب الحدوث.

ذلك الطارئ خرّب عليها كل ما نوت نظمه من طيب القول لأجل أن تضع الخاتون في المزاج المناسب. لكن يبدو ان الامور سارت على عكس ما اشتهت نفسها. رفعت رأسها الى وجه الخاتون حائرة.

إستحثت قريحتها أن تسعفها بأنسب جملة توصل بها أخباراً سيئة.

نعمين لمحت ظلاً ارجوانياً غمر وجه نهوة. حدست أن في الأمر ما لا يسر، فشنّفت اذنيها وأرهفت جميع حواسها نحو ما سيقال.

لجأت نهوة الى القراءة بأسلوب طالما كرهته، التمويه بالسجع:

"العمر ما ينقاس بلشبار ولا ينكال بلرطال، الدنيا فانية والنفس غانية ولا يدوم الا وجهه الكريم".

احتدت الخاتون وانقلب مزاجها:

"هذا كلام صجما صبان، نهوة، قولي كلام

مفهوم".

ادارت نهوة الصينية بضع مرات كسباً للوقت، ثم أكملت:

"سفر أطول، وطريق أقلّ، وقصر أجلّ... لا هم ولا غم، لا مرض ولا تعب وروحكم خَضار دايم، وما يدوم الا وجهه الكريم".

انتفضت الخاتون وضاق خلقها أكثر:

"شو هذا قصر، طريق، كلام جوك صجما، ما زال غير مفهوم تماماً".

تداركت نعمين الأمر وهتفت:

"سلام من رب رحيم، سبحان الله، هذا يؤكد

حلمي البارحة، شفت جنابكم مكسوّة بياض في بياض، وتفوجين بالفرات مثل الكوسج، لكن النهر ليس هذا الذي نعرفه، صار، ياعيني، مليان بالحليب بدل الماء، والجرفين، ياعيني ياعيني، كلها كرستال يضوي. ومن صحيت الفجر اخذت حمامة مشوية وخبزتين ورحت للشيخ عبد اللطيف اسأله عن تفسير الرؤيا، بعد ان اكل المقسوم، صُفَن وقال، هذا معناه واضح: رضى من الله وعمر طويل للخاتون، اي والحبيب محمد، قال هذا بالحرف".

بقيت الخاتون ساكنة، ساندة حنكها على ظاهر كفيها القابضين على رأس العكاز. صار ايقاع تنفسها كما لو كان لهاثاً. بادرت نعمين صوبها، وأمسكتها من أحدى ذراعيها تُنهضها دون أن تسألها

موافقتها:

"سآخذ جنابكم للفراش، لقد أتعبَ جنابكم دوشة الضيوف طوال اليوم".

استجابت الخاتون لنعمو بتسليم تام، كما تستجيب طفلة مطيعة لأمها. طوقتها نعمين من تحت ابطها بحركة خبيرة، ثم وازنت ثقلها على كاهلها رغم نحافة بنيتها، كما لو كانت مروضة متمرسة في سيرك.

"نهويش، كم ستبقين عندنا هذه المرة؟".

"جنابكم، لازم أغادر قبل الفجر لأدرك البنات بعد غد، بإذن الله".

سكتت للحظة قبل ان تجيب بصوت واهن:

"أُزَمان... لن نراك غدا، وددنا لو تبقين أطول" ثم صمتت وتنهدت:

"خذيني لفراشي نعمو، أنا حقا اليوم تعبان".

التفتت نهوة الى نعمين بعيون مفتوحة على آخرها، مستفهمة بحيرة، هل نسيت الخاتون سبب قدومها!؟

أرخت نعمو جفنيها علامة الثقة وأومأت برأسها لنهوة ان تصبر قليلاً، ثم وقبل ان تغادر اشارت لها ان لا تبرح مكانها وأنها راجعة إليها، ما زال للكلام بقية.

(13)

في عام 1954 انتج أنور وجدي فلماً متواضعاً من بطولته كان اسمه "أربع بنات وضابط"، شاركته البطولة فيه كل من نعيمة عاكف وزينات صدقي ووداد حمدي، ثلاث سيدات يُعتبرن مدرسة في ذلاقة اللسان وخفة الدم، وشيء آخر تميزن به عن غيرهن، قدرة الواحدة منهن على شحن الأجواء، مهما

كانت، بطاقة إيجابية هائلة، تضع الطاقم، ناهيك المتفرج، في مزاج نشط ومرح. وكان ذلك الفلم أول وآخر عمل يجمع الثلاثة معاً.

نعمين خانم لم تعش حتى الخمسينات، لكن لو صحّت نظرية التناسخ بعد الموت، لقلت إن روح نعمين، بالطاقة التي تحملها، انشطرت إلى ثلاثة أثلاث توزعت بين تلكن النساء بالتساوي.

لم تكن نعمين مجرد مشرفة على القصر، فمع مرور الأيام صارت الخاتون لا تتخيل حياتها بدونها، كانت تستشيرها في كل صغيرة وكبيرة، تشاركها همومها ومخاوفها وأسرارها الصغيرة القذرة. كانت نعمين تعرف بالضبط ما الذي تريدة الخاتون دون أن تقوله. وما الذي تحب سماعه قبل أن تأمر به.

وهي كذلك المستشارة الأولى للخاتون في جميع شؤونها، تزودها بكل ما يستجد من أخبار الباب العالي، وولاية بغداد، والعشائر وحركة التجارة وما يدور بالقصر. وكان الجميع يتزلفون اليها بشتى الوسائل أملاً في التقرب عبرها للخاتون.

أول قدومها الى القصر، كانت حينها في الثامنة من عمرها، بعثها الشريف علي حيدر من قصره في الحجاز بعد أن سمع ابا ناز خاتون يشكو في مجلسه معاناة ابنته، حديثة الزواج، في بيتها الجديد بحصيبة من صعوبة إيجاد مشرفة بيت متمرسة وتجيد العربية.

تزوجت نعمو في مقتبل عمرها من ضابط حلبـي صغير في الجيش العثماني. أنجبت منه ولدين،

ثم مات مقتولاً في اليونان بعد اربع سنين من الزواج وهو يقاتل ضمن القوات العثمانية في معركة دومقوص. انكبت الأرملة الشابة من بعده على تربية الولدين، بالإضافة إلى مسؤولياتها الشاقة في قصر فروان.

في عام 1899 اجتاحت موجة كاسحة من وباء الكوليرا مناطق شاسعة في جنوب تركيا وسوريا والعراق، عرفت محلياً حينها باسم (حمى طيفون)، لم يسلم منها قصر حمدين رغم جميع الاحتياطات الصارمة. فقضت على الكثير من نزلائه وكان ضمنهم طفلا نعمين.

لم تتزوج نعمين من بعد ذلك، بل فضلت تكريس كل وقتها للخاتون والقصر.

***

لبثت نهوة تنتظر في الحجرة الخاصة بنعمين في الجناح الشرقي للقصر، بعد أن اغتسلت وأقامت أودها بلقمتين من ثريد لحم ضأن ارسلته لها نعمين مع إحدى الخادمات، ثم غشاها النوم.

بعد انتهاء المولد ومغادرة جميع المدعوات للقصر، والإشراف على تنظيف ومعالجة الفوضى التي خلفتها الدعوة، تفرغت نعمين لها.

"قومي يامفجوعة، يكفيك نوم، عندي الكثير لنغتاب وننمّ به على الأعادي، بل وحتى على الحبايب، يلله، يلله".

تحررت نعمين من قفطانها المخملي المنشى

وارتدت سارياً حريرياً فضفاضاً، ثم عمّرت شيشة القنب وسماور شاي الزهورات وصحني شكرات ومكسرات.

ارتشفتا الشاي وتناوبتا على مص مبسم الشيشة، واسترجعتا الكثير من ذكرياتهما الجميلة في القصر. لكن ظلت نهوة في داخلها، محبطة طيلة الوقت، ينغّص على لحظات مرحها شعور ثقيل بالذنب.

دخلت نعمين في الموضوع دون مقدمات. بدت أكثر جدية وهدوءاً بما لا يتناسب مع طبيعتها المتهكمة الصاخبة.

"نهوة خيتي، دعيني اسألكِ هذا السؤال، وأريد منكِ أن تجيبيني بصراحة: إن كان ثمة حل

لمشكلة بناتك، فما يكون برأيك؟".

تفاجأت نهوة بالسؤال وكيفية طرحه. في الحقيقة لم تفكر في ذلك من قبل:

".. لا اعرف بالتحديد، خيتي.. اعرف ان في وسع الخاتون ان تقول للشيء كن فيكون".

"استغفر الله... بيني وبينك؟ لا.. ليس في كل الأحوال، هنالك أشياء تتجنب الخاتون حتى الاقتراب منها... كأعراف العشائر وعاداتهم. المشكلة إن وجهاء القبيلتين اتفقوا وانتهى الأمر، ثم وقع الاختيار على احدى بناتك، ولا يوجد قوة على الأرض ستغير ذلك".

جفلت نهوة وهي تنشق من الشيشة فغصت، لتستغرقها موجة سعال. نظرت الى نعمين بوجه مبهور

كأنها سمعت منها تواً خبر نعي بناتها:

"ما الذي تقولينه!؟ أتريدين أن تخبريني، أن الأمر في حكم المقضي، ولا فائدة من الكلام فيه؟".

أخذت نعمين المبسم من يدها وجرت منه نفساً عميقاً، حبسته في صدرها لثوان ثم اطلقته بتروّ من فمها ومنخريها مرة واحدة:

"لا، لم أقصد ذلك..... هناك حل.... لكن ربما لن يكون على مرامك".

"هات حلك دخيل ربك".

يبدو ان نعمين فكرت كثيراً بقضية ما حصل للفتاتين، وتوصلت مع نفسها لحلول تناسب صعوبة

المشكلة. لكن أرادت بدءاً أن تتثبت من الأمر مع نهوة قبل أن تطلب من الخاتون إصدار الأوامر، لتأخذ من بعد ذلك مجراها وتفرض على جميع الأطراف كما لو كانت أوامر همايونية.

نفثت نفساً كثيفاً، ولبثت لبضع ثوان مسدولة الجفنين تتلمض منتشية بصعوده واعتماله في رأسها:

"اسمعيني نهاوي... اسألك اولا، لماذا تريد الصبيتان قتل نفسيهما؟".

"كما تعرفين، ستموتان إن عاشتا بعيداً عن بعض".

"حسنا، وماذا لو ابقيناهما معا في بيت واحد بعد الزواج؟".

"لا افهم كلامكِ، كأنك تقولين ألغازاً".

"تعرفين ان لهذا السافل، صدّاح، اخ اسمه يعسوب.... حسناً، الأمر سيكون كالآتي، سنزوج أخاه يعسوب من بنتك الأخرى، فيعيش الأخوان مع زوجتيهما معاً في مكان واحد، فلن يكون هناك بعد ذلك داع للفصل بين الصبيتين".

صحت نهوة فجأة، فتحت عينيها وارهفت انتباهها. فكرت في الأمر، هذا الحل يبدو عملياً رغم كآبته... ولِمَ لا؟.. لكن..

"حسنا، وستعيشان بقيه حياتيهما مع لصين مطرودين، قُرّت عينك نهّاوي".

"إسمعي وليك، لا تقلبيها مناحة.. سأسُرك

بشيء لايعرفه حتى الجن الأزرق.. تعرفين شايع بن حمود، زعيم العرابيد... هو يريد خاطري".

غمزت بعينها وصارت تهمس "له مصالح مع الخاتون، أتفهمين؟ لا استطيع البوح بأكثر من ذلك".

"وما دخل هذا بذاك؟!".

"ياغبية، صداح ويعسوب صبيان عنده، إن حدث ومسّا شعرة لأي من البنتين، سيمسحهم بن حمود من على وجه الأرض بإشارة مني".

ثم تغمز "أعني من الخاتون".

بدأت نهوة تأخذ الاقتراح مأخذ الجد، فاجأها

أن لنعمين كل ذلك النفوذ داخل القصر، وتلك القدرة في توجيه الأمور من خلف الكواليس.

"أفهم من ذلك أن بإمكانك تدبير كل شئ بشأن تلك الزيجة؟".

أرخت نعمو جفنيها بثقة، نفثت دخاناً إلى السقف، وهزت رأسها بنعم، اضافت:

"لكن أريدك أن تعديني بشيء".

"ما هو؟".

"انا أعرفك نهوة، دنغوزة، لن يهون عليك ترك بناتك مع هؤلاء، وأعرف انك ربما تخططين لعمل مجنون".

"عمل مجنون؟ لم افهم!".

"لا بل تفهمين جيداً، لا تتغابـي مع نعمو، نهويش، أقول لك قولاً واحداً واحذرك، ان حدث لأي من هذين السافلين ضرر، لن يكون بامكان أحد حمايتك، لا أنا ولا الخاتون ولا حتى ام إبليس، فوراؤهم ناس مجرمون، لا انت ولا الذين خلّفوك تعرفون مدى شرهم، سوف لن يدعونكم أحياء أينما كنتم".

"تخسئين، ما هذا الكلام نعمو، عيب، وهل عهدتِني أقتل الأوادم؟".

نظرت في عينيها مباشرة، رافعة أحد حاجبيها، إشارة الى انها تعرفها أكثر مما تظن:

"أريد ان أضعك على بينة، فحسب.. شيء أخير".

"حسبت أننا انتهينا. قولي خيتي".

"هل فكرت أين سيقيمان بعد زواجهما؟ أولئك مطاريد، ليس لهم بيت يؤويهم أو عشيرة تلمهم".

ردت باهتة: "لا أعرف ما أقول.. لم أفكر بذلك أيضاً...".

أخذت نعمين نفساً عميقاً ثم نفثته ببطء، وبدأت تمسّد حاجبيها بالسبابة والإبهام، غير مستعجلة الجواب، ليس كمن يفكر بما سيقوله بل كيف سيقوله. توجست نهوة من ذلك الأداء خيفة، رائحة شر قادم، سألتها بصوت مرتعش:

"أراك حضّرت لهذا ايضا".

"... سيقيمون في الجفرانة".

شهقت نهوة وهبت من مكانها غير مصدقة لما سمعته، ثم جثمت على ركبتيها لتكون وجهاً لوجه مع نعمو، لعل ترديد الكلمات عن قرب، يستجلب منها معاني مغايرة:

"هل قلتي الجفرانة؟ الجفرانة! الأرض الحرام؟ أهذي ما قصدتِ؟".

ألقت نعمو رأسها الى الوراء مسترخية، غير مكترثة. أفرغت وجهها من اي رغبة للترويج لما صدر عنها تواً، كتاجر يناور زبوناً يائساً. ثم أعادت جملتها بشكل قطعي:

"نعم، الجفرانه، هي بعينها".

انهارت نهوة، تجلّى أمام عينيها، لأول مرة، حجم مصيبتها، بشكلها الفج وتفاصيلها الخشنة، أدركت تواً وعورة الطريق الذي وضعت فيه، عرفت مدى ضعفها، وهشاشة الفرج - الوهم الذي عزّت نفسها به طيلة اليومين المنصرمين.

"لا نعمو دخيلك، أبوس رجلك، أرض الله واسعة، لماذا الجفرانة بالذات؟".

أمسكتها نعمو من ياقتها، قربتها لوجهها الذي استحالت عيناه حمراوين، مجنونتين من أثر الدخان، نطقت بكلمات بطيئة، ثقيلة، مدببة الحروف، زرقتها في أذنيها زرقاً:

"هوش، هoooوش.. اصحي نهاوي، اصحيييييي... وهل ثمة مكان آخر على الأرض، يقبل إيواء هذين السافلين وجراداتك المكزوعات؟".

الفصل السادس
إريلي

(14)

أحضر الخليفة جنكيز مريده الجديد شايع فجراً الى ساحة كاردشلي، خلف جامع "أهي جلبـي"، حيث مكان انطلاق قافلة كومور (الفحم) الميممة شرقاً جهة البحر الأسود صوب ولاية زونغولداك. القافلة تخرج من اسطنبول كل شهرين مرة، تذهب محملة بعُدد البناء والزراعة والنجارة والحدادة والسراجة

والصيد، تتاجر بها مع المدن الممتدة على الطريق، وتكون بلدة إريلي آخر محطاتها شرقاً، يحمّلون منها الفحم ثم يتوجهون جنوباً حتى إسكشهير، يبيعون الفحم هناك ويشترون السجاد والقلانس الصوفية ثم يعودون الى اسطنبول عبر طريق بورصة.

مع هذه القافلة سيبدأ شايع رحلته الى مناجم الفحم في إريلي. المفروض إنها آخر مرحلة من رياضاته كمستجد في جهاد النفس، شرط أن يخرج بالملابس التي عليه، لا جزدان نقود ولا زوادة طعام. لن يكون معه غير عزم الدرويش، حسب تعاليم الطريقة السندية. الفكرة ببساطة هي أن يجرب أن لا يكون عبداً لاحتياجاته، أن يعيش يومه دون التفكير بالغد، وبتعبير أدق، أن لا يحصر علاقاته بالعالم

الخارجي في نطاق الاحتياجات ومتطلبات العيش والبقاء. المفروض أن العالم هو شيء آخر، شيء أكبر من ذلك بكثير، ومن أجل فهمه واستيعابه، عليه أولا ان يتحرر من مخاوفه تجاهه، ومن فكرة أن الحياة هي مجرد كفاح من أجل البقاء.

كانت قافلة الفحم تتحضر للمغادرة، أزيحت المعالف من أمام الدواب، أُختبرت حبال الرزم، مُلئت القرب بالماء، أحصيت الرواحل، الحمولات، والمسافرون. أناس يتحاضنون يبكون، ويقبلون بعضهم البعض... دعوات العودة بالسلامة...

أشار جنكيز بإصبعه ناحية رجل يعتلي فرسه، وقال لشايع:

"أترى ذلك الرجل الجسيم؟ هو قومندان القافلة، إذهب إليه واسأله بغيتك".

اقترب شايع من قومندان القافلة وكان رجلاً جهماً غليظ الملامح.

"حضرت القومندان، هلا تكرمت وسمحت لي برفقتكم حتى إريلي؟".

وزنه القومندان بنظرة سريعة:

"معك مال؟".

".. لا ليس معي مال، لكن...".

"إذن انصرف من أمامي".

وقف متردداً. رجع الى مرشده يجر خطاه، فوجده جالساً على صخرة واطئة يتشمس:

"سألني إن كان عندي مال".

ربت على كتفه:

"لا تحزن، ما دام حضرت الشيخ شاء لك أن تغادر مع هذه القافلة بالذات.. فستغادر معها".

"حسنا، وماذا الآن؟ هل أقف هنا وانتظر؟" قالها بحيرة.

"بل عد إليه وجدّ في الطلب، واثبت هذه المرة. إن أريته عزماً فسيستجيب لا محالة".

رجع شايع الى مكان القومندان، كان هذا يصغي بنفاد صبر الى كبير حراس القافلة يتلو عليه أرقاماً. انتبه الى شايع الشاخص بالانتظار، تذكره فقطب حاجبيه:

"ما وراءك الآن، ولد؟".

تلعثم شايع:

"كنت أحاول أن أخبرك أنني.. سأكون مفيداً لكم، بإمكاني التحميل والطبخ وضرب الخيام وجلب الماء وإدامة السلاح...".

بقي القومندان ينظر إليه بعينين ذابلتين غير معنيتين، غمغم:

"غلام لجوج".

تدخل رئيس الحرس بغطرسة:

"أسمعت ما قاله حضرته، ها؟ هيا انصرف من هنا وإلا جعلت حصاني يعتلي عجيزتك".

نط شايع من مكانه الى الخلف، استهول الشتيمة. رجع خائباً الى مرشده، مهزوماً، لا يعرف ما يقول. ابتسم الأخير اليه متفهماً، تفرس في وجهه للحظة:

"كأني أرى في عينيك يأساً وتسليماً... ولد! ما الذي يخبرك به قلبك؟ أما زلت مؤمناً إنك ذاهب مع هذه القافلة؟".

فكر شايع قليلاً، ثم هز رأسه موافقاً.

رد جنكيز: "إذن ستذهب".

"هل... أعود إليه وأسأله.. مرة أخرى؟".

"لا، هذه المرة اجلس إلى جنبـي فقط، تشمس وانتظر".

تنفس شايع الصعداء وجلس على الفسحة الضيقة للصخرة التي انزاح عنها مرشده. كانت الثقة الطاغية لجليسه تحف به فتنتشر ظلالاً وارفة من حواليه تبقيه في دائرة الأمان. شعر لحظتها كما لو كان طفلاً يتمسك في ثوب أبيه، لو انفصل عنه بمقدار خطوة فسيتيه إلى الأبد في زحمة الكبار.

باشرت القافلة بالانطلاق، مرت من أمامهما؟ شايع منكمش، على حافة القنوط، وجنكيز منبسط يدعو لهم بالسلامة. يتقدّمَ القافلة فرسا القومندان ورئيس حرسه، وفي إثرهما كوكبة من خمسة فرسان مع بنادقهم. لاحظ شايع طريقة حمل البعض منهم للبنادق على ظهورهم، فوهاتها منكسة، فلم يتمكن من مسك لسانه، هتف مخاطباً رئيس الحرس:

"كيف لك حماية قافلتك ببنادق فارغة!؟".

تجاهله الجميع، أو لربما لم تطرق أسماعهم كلماته. استمروا في المسير بعيداً عنه حتى كادوا أن يختفوا عن مرمى البصر.

ظل جنكيز مسترخياً، غير معني بتراتب

الأحداث، كأنه قرأ القصة مسبقاً وعرف مجراها. نظر شايع الى مرشده منتظراً تعليقاً، فوجد الوجه نفسه ليس فيه ذرة حرج.

"قد غادرت القافلة، هل نبقى ننتظر، خليفتي؟".

"ومن قال اننا سننتظر، أنظر هناك من القادم" أشار جنكيز بذراعه تجاه ذيل القافلة.

إلتفت شايع فإذا القومندان ورئيس حرسه يخبّان راجعين ناحيتيهما. توقفا بفرسيهما أمامهما تماماً. نظر القومندان لبرهة إلى شايع يحاول وزنه من جديد:

"قلت إنك تجيد إدامة السلاح، ولد؟".

"نعم، يا حضرت".

دون أن يلتفت عن شايع، مد القومندان ذراعه الى رئيس الحرس فاتحاً له كفه، فناوله هذا بندقيته، رفعها أمامه واستجوب شايع:

"اتعرف ما هذه؟" مشيراً الى السلاح.

"نعم، بندقية هندية".

رماها اليه بقوة فتلقفها شايع بيد واحدة وامسكها كما ينبغي.

"أخبرني الآن، كيف عرفت أن سلاحنا خال من العتاد؟".

"الأمر لا يحتاج الى كثير فطنة، تلك بندقية

مارتين، تلقم من فوهتها باروداً فرطاً، والبارود الفرط، كما هو معروف، سرعان ما يتلف بالرطوبة ما لم يُحرق في الحال".

رمى القومندان رئيس حرسه بنظرة استفهام عكّرت على الأخير منطقة خيلائه. أضاف شايع:

"ذلك سلاح لا يصلح لحراسة قافلة محترمة بهذا الحجم".

رد قائد الحرس محرجاً حانقاً كمن صفع على قفاه في صلاة الجماعة:

"عشرون عاماً أخدم في جند السلاحدار أغا، ولم أر أحسن من الهندية، من تكون، ولد، لتقول لي ما يصلح وما لا يصلح لقافلتي؟".

"عذراً أفندم، لا تغضب مني أستحلفك الله، ما عنيته بقولي هو أن المارتين الهندية سلاح قديم عفا عليه الزمن، أُسقط من الخدمة منذ زمن طويل..".

"لم يسقط عندي بعد، وإن تفوهت بكلمة واحدة بعد الآن، جربتها على رأسك علّها تفحمك" بدا جاداً.

تدخّل القومندان بنبرة فضول:

"وماذا إذن، ولد، ان لم تكن الهندية؟".

"حسنا، هلاّ جربتم الشوزن الانكليزية، عتادها محفوظ في ظروف من البرونز، يحمي البارود من التلف، وتلقم من عقبها فتبقى ملغومة، حاضرة للإطلاق ليل نهار، فيحترز منك عدوك ولا يأخذك

بغتة...".

تبسمت عينا القومندان يشجعه أن يستمر. إسترسل شايع:

"... كما أنها تتيح الرمي بوضع الانبطاح، عكس الهندية، فلن يكون رجالك معها حين الاشتباك أهدافاً سهلة".

"كيف عرفت كل هذا، ولد؟".

"انا خريج مدارس عسكرية، أفندم".

تدورت عينا القومندان ولمعت كمن لامست رؤوس أصابعه لؤلؤة كبيرة في مخاط محارة. تشاور مع صاحبه همساً ثم التفت الى شايع وسأله:

"اين قلت وجهتك، ولد؟".

"إريلي، أفندم".

تنحنح القومندان:

"سترافقنا حارساً حتى إريلي مقابل وجبتي طعام في اليوم، ولا تتوقع منّا أجراً".

(15)

بعد تلك الليلة التي التقى فيها شايع حضرة الشيخ السندي أول مرة، وأخذ العهد على يديه شخصياً، الليلة التي همس في أذنه تلك العبارات الغامضة، أوكل حضرته مهمة تكريس شايع وتلقينه أوليات الطريقة ومن ثم إدخاله بالرياضات، إلى أقرب مساعديه، الخليفة جنكيز.

في الأيام السبعة الأولى أمره مرشده جنكيز أن لا يغادر بناية التكية، يواصل الليل بالنهار منقطعاً عن أربعة: الطعام، النوم، الكلام، والناس. إلا ما سُمح له به منها. لم يكن سراً أن جميع دراويش السندية بدأوا ينظرون إليه بخليط من فضول وتقدير وحسد. تُرى لماذا اختاره شيخهم بالذات ليودعه سره! حتى هو نفسه لم يجد جواباً على هذا السؤال، لماذا هو بالذات! دون جميع الخلفاء والاتباع! علماً أن فيهم الخاصة، وخاصة الخاصة، وفيهم من نبذ المال واستوطن في الأحوال، وفيهم من عبر الحدود وشهد الشهود. شايع كان بنظر الكثير منهم محض مريد غر، حتى أنه لما يسمى درويشاً بعد.

بعد انتهاء السبعة، التقاه مرشده في أول درس

إرشاد له معه، انحنى جنكيز وقبل يد شايع، انحرج هذا ولم يعرف ما يفعل، فأوضح له مرشده:

"أولاً، هذه هي تحيتنا، نقبّل كف من نلقاه قبل أن يقبل كفنا، أكره ان أسميه تواضعاً، فالتواضع سمة المتكبر حين يتنازل عن مكانته، وما ذاك الا تكبر آخر لكن في لبوس مراءاة، بينما الدرويش لا يختص لنفسه مرتبة أصلاً لينزل منها، فما كان له أن يكون درويشاً من الأساس ما لم يوغل في تهوين ذاته، حتى تكون خدمة الآخرين بالنسبة له، بغض النظر عن درجاتهم، متعة وعبادة".

جعله في ذلك اليوم يجلس عند باب التكية مع طست وليفة يغسل أقدام كل من اجتاز عتبتها.

بعد أن صافح يد الشيخ السندي حين أخذ العهد أول مرة، انطبعت في باطن كفه رائحة زكية، لا تشبه ما عرفه طيلة حياته من عطور، شيء أقرب لرازقي مخلوط بخزامى مع لمسة زعفران. حينما تنشقها شايع أول مرة خلّفت في نفسه شعوراً بأمان تام لم يعهده من قبل، وضعه في حالة توازن كلي كما لو أن كل شيء على ما يرام. حرص بعدها أن لا يغسل كفه على مدى أيام بعد تلك المصافحة، خشي على الرائحة من الزوال، إلا أنه اكتشف لاحقاً أنها بصمة لا تزول، خصه بها الشيخ، لا يتسنى لأحد أن يشمها سواه، وجد نفسه من بعدها أسيراً لرابط غريب، سيرافقه ما دام حياً، انتماء جواني متفان لحضرته. سأل خليفته جنكيز عن ذلك الأمر فأجابه:

"ذلك أمر لا يتاح لأي مريد، يُكرم الشيخ خاصته بعلامات قبول يتواصلون عبرها مع حضرته، روائح زكية في أغلب الأحيان، يختلف عطرها من مريد الى مريد، تلك ستغدو من الآن فصاعداً دليل رضاه عليك، وبالتالي مصدر همتك وصعودك. واعلم، من الآن فصاعداً، لن تُترك وحيداً دون مدد، حتى وإن كنت في بطن حوت، المحبة بين المريد وشيخه هي الوسط الذي يأتيه منه المدد متى ما احتاج اليه".

"أينما كان وحيثما كان؟!".

"نعم، لكن ليس متى ما شاء وكيفما شاء، الفرق كبير بين الحالتين، تلك أمور ستفهمها مع الأيام. ضع في بالك أنه، كل يوم سيمر عليك قد يكون اختباراً، منها أيام شديدة لا يتحملها بشر، تصعد بك

الدرجات، أو تودي بك الى الدركات، لكن كل شيء بحساب، تبقى على تلك الحال حتى تكون أهلاً لإتمام ما أوكل به إليك".

الجملة الأخيرة عكرت على شايع حماسه:

".... عذراً خليفتي، لا أعرف حتى الآن ما الذي أوكل به اليّ بالضبط؟".

"هي الرسالة التي خصك بها حضرته!".

"أية رسالة؟!" قالها كمن قُبض عليه متلبساً

"تلك التي همس بها في أذنك أول لقائك بحضرته، هل نسيت؟!".

احمرّ وجه شايع:

"لا، لم أنس... في الحقيقة، حينما همس حضرته في أذني كنت حينها في حال مزرية لم يتسنّ لي فهم أي من كلماتها".

ابتسم المرشد:

"لا تقلق بهذا الشأن، فهي هناك في قلبك، كامنة ما بقيت حياً، وإن كنت لا تتذكرها الآن فذلك لأنها سرٌ كبير قد عمد حضرته ان يختم عليه دونك، انت الآن كحامل بريد ائتُمن على إيصال رسالة لا يعرف فحواها".

زال شعوره بالذنب، لكن بقي التشوش. لبث شايع حائراً لا يعرف ما يقول.

".. ولمن سأبلّغ تلك الرسالة؟".

"ألم يخبرك حضرته من يكون؟".

"كل ما قاله لي: إنه الـ "هوَ" الذي ستعرفه حين تراه".

انتفض بدن جنكيز وتقعر ظهره كمن لُسع من تحت ثيابه، وفلتت من فمه صيحة "هووووا"، أغمض عينيه، تنفس بعمق، وتنحنح يعيد موازنة نبراته، ثم نظر متفرساً في وجه شايع مضيقاً حدقتيه، واستجوبه هامساً:

"حضرته قال لك ستعرفه حين تراه!؟".

"نعم خليفتي، هذا ماقاله لي بالنص".

ظل جنكيز مركزاً في وجهه، كمن نسي

جملته في الحوار. التبس الوضع على شايع:

"هل عليّ أن.. أقلق بهذا الشأن، خليفتي؟".

صحا جنكيز، نفض رأسه بشدة ككلب مبلول، راجعاً إلى طبيعته الأولى:

"لا، لا ليس ثمة ما يقلق، ما دام حضرته أخبرك إنك ستعرفه حين تراه، فستعرفه حين تراه، إنّ قول حضرته وعد"

صمت شايع للحظة، زم شفتيه، بدا عليه انه غير مقتنع تماماً:

"حسناً، الأمر كما أفهمه صار كالآتي: أن أوصل رسالة شفوية لا أعرف فحواها، الى شخص لا

أعرف من يكون، يقيم في بلد لا أعرف وجهته!".

عقد جنكيز حاجبيه يفكر في كلمات مريده، ثم انطلق مقهقها:

"نعم بالضبط، أهلا بك في عالم الباطن، ولد.. لعلك ستجد منطقاً ما في كل هذا قريباً، ليس المنطق الذي عهدته على أية حال".

تبسم شايع، شعر حينها أنه في حضرة صديق قديم يمكن أن يشاركه بكل ما يدور في خلده دون حرج.

"استميحك عذراً خليفتي، ترى لماذا اختارني حضرته أنا بالذات لتلك المهمة دون غيري؟".

"بصراحة؟ لا أعرف جواباً محدداً لهذا

السؤال، الا انني لا استغربه في الوقت ذاته، المشايخ يعرفون ما لا نعرفه، ويرون في الناس ما لا نراه. أحياناً تراهم يودعون سرهم في أبسط خلق الله، كالذي يخبئ ماله في مكان لا يخطر على بال. ومع ذلك لا بأس عليك ان تسأله حين تراه. إلا أن الأهم من كل هذا: هل ترى أنت نفسك أهلاً لمثل هذا الحِمل؟".

"سأفعل ما في وسعي لأكون عند حسن ظنكم، انت وحضرته" قالها مخلصاً.

"نِعم الجواب، لكن ضع في بالك، أن للأسرار كرامات، تقرّ في قلبك وبصرك وكفيك، قد تتيح لك قدرات، وتقشع دونك حجباً وتمكّنك من كل ما تتمناه في خاطرك، لكن حذار حذار من سوء تصريفها، وخاصة في حالتين: الأولى، إذا ما أسكرتك نشوة

غرورك بنفسك، والثانية إن ركبك الغضب واستحكم زمامك، فحينها ستجد نفسك مقطوعاً في فراغ، تُغلق دونك الأبواب، وتُرد خلف حجبك الأولى، تبقى فترة على تلك الحال، تقصر أو تطول، حتى يُنظر في أمرك، فإما صفحاً، أو تعزيراً، أو، والعياذ بالله، قطيعة لا رجعة فيها".

بعد انقضاء أسبوعه الثاني في التكية سمح له مرشده الشروع في الرياضات الأولية للطريقة، سلسلة اختبارات قاسية، يتبعها كل مستجد، تستهدف معالجة ثلاثة أعداء (عقبات): الغريزة والذهن والنفس (الأنا). الغريزة تروض بالصوم والسهر. أما الذهن فبترديد الأوراد، وهنا اعتاد مريدو باقي الطرق ترديد تسبيحات أو صلوات معينة عشرات آلاف المرات. الا أن السندي

استعاض عنها بترديد أرقام مجردة، وتلك مسألة أخرى أثارت حفيظة باقي مشايخ الصوفية ضده، إذ عدوها بدعة وتجديفاً سافراً.

أبلى شايع، وفي وقت قياسي، بلاءً حسناً فيما يخص ترويض غرائزه وتطهير عقله (ذهنه). بقيت العقبة الثالثة: (الأنا)، وحسب السندية، هي أصعب وأخطر العقبات، عادة ما يفشل في اجتيازها الكثيرون. قال له مرشده:

"إسمعني جيداً شايع، أنت الآن مهيأ تماماً لبدء آخر مرحلة من رياضاتك والتي ستكون أصعبها على الإطلاق: جهاد النفس، إختار حضرته لك مكانا بعيداً لن أكون فيه معك، بل ستسعى إليه بمفردك، بلدة على البحر الأسود، تبعد من هنا مسيرة عشرين يوماً

ناحية الشرق تدعى إريلي، حيث مناجم الفحم، تلبث فيها أربعين يوماً متواصلة، تقضيها كالآتي، تعمل هناك في المناجم حتى تقبض أول أجرك، تذهب به الى السوق وتشتري به حبات جوز، تضعها في خرج تحمله على عاتقك، ثم تدور به بين الأزقة والحواري، تتوقف حيثما وجدت صبياناً يلعبون. تمنح الصبي جوزة شرط أن يصفعك أو يرجمك أو يبصق في وجهك. وإن فعل، تسأل الآخر، وهكذا تتنقل من جماعة الى أخرى، حتى تنفد جميع حبات الجوز".

إبتسم شايع غير مصدق

"ما الذي يضحكك؟" قالها جنكيز بصبر.

"أنت تمزح معي، خليفتي، أليس كذلك؟".

باغته جنكيز بصفعه قوية على وجهه، قلبته من مكانه ليسقط على جنبه، نظر إليه شايع بحنق بينما وجه الخليفة بقي ودوداً مبتسماً إليه، وواصل كأن شيئاً لم يكن:

"الدرس الثاني، على المريد إبداء ثقة وطاعة تامتين تجاه خليفته، حتى وإن تم تكليفه بأمور بدت له ليست ذات معنى. ولعلمك إن جهاد النفس على تلك الشاكلة وسيلة ابتُكرت قبل مئات السنين على يد شيخ عارف هو بالتأكيد أجلّ مكانة منك ومني بمئات المرات، صارت منذ ذلك الحين واحدة من أنجع سبل الصعود".

رجع شايع الى جلسته، بلع ريقه حرجاً، سأل وعيناه منكستان إلى الأرض:

"بعد إتمامي الأربعين يوماً، هل سأرجع الى هنا، إلى التكية؟".

"ستعرف حينها ما يكون".

شايع لم يناقش أو يعترض هذه المرة، وقبل أن يغادر، كان يضمر سؤالاً أخيراً، تردد كثيراً قبل أن يسأله:

"قد رويت لك كيف طردني مدحت باشا بنفسه من المدرسة الحربية.. أسألك خليفتي، هلا كلمت لي حضرته... لعله يرجعني إليها بعد إتمامي لرياضاتي؟".

تنهد جنكيز وردّ:

"لا يجدر بالمريد أن يسأل مثل هذا السؤال، لقد اصطفاك حضرة الشيخ واختطَ لك طريقك، إن كانت الحربية جزءاً منه فلن تتمكن أية قوة على الأرض، مهما بلغت، من إزاحتك عنها".

خجل شايع من نفسه وأغلق جفنيه مسلماً.

"أي سؤال آخر؟".

هز شايع رأسه بالنفي.

"على العموم، من الآن فصاعداً، ان أردت أن تسأل عن شيء، فما عليك إلا أن تضمره في صدرك وتنتظر، فسيودع جوابه في قلبك بأسرع ما يكون".

ظل شايع صامتاً، يجتر في ذهنه زخم المعلومات الجديدة والغريبة التي تلقاها تواً.

"فجر الغد، سأصطحبك إلى ساحة كارديشلي، نلحق بقافلة كومور قبل مغادرتها المدينة، تلك هي التي ستوصلك إلى وجهتك في إريلي. لكن قبل ذلك عليك أن تحوز من حضرته الرخصة، وتطلب منه أن يبارك لك في رحلتك".

في مساء ذلك اليوم أخذ جنكيز شايعاً الى مكان حضرة الشيخ. تعوّد حضرته قضاء الاثنين والثلاثاء من كل أسبوع في معتكفه الخاص، وهو مكان منعزل غربـي اسطنبول، عند طرف قرية آيكابا، على أطراف مقاطعة شيشلي.

في طريقهم الى المكان، لاحظ شايع تغيراً ملحوظاً على حال مرشده، يشتد عليه كلما اقتربا أكثر من مكان حضرته. في البداية تعرقت جبهته وأرنبة انفه، ثم شرعت أطراف أصابعه بالارتجاف، ثم ثقل نفسه، ثم صار يهذي سراً وجهراً.

"هل أنت بخير، خليفتي؟".

انتبه إليه جنكيز، سحب نفساً طويلاً وابتسم:

"نعم، أنا بخير، ما تراه علي الآن ماهو الا أحوال حضور، هذا ما ينتاب خاصة الدراويش كلما اقتربوا من مكان حضرته".

"حقا!... قد سمعت بالأحوال الا انني لم أفهمها، فما هي الأحوال، يرحمك الله؟".

"اقرب وصف للحال كما جاء عند الأقدمين هو ما يرد على القلب دون اختيار، ولا اكتساب، كأن يكون طرباً، أو حزناً، أو قبضاً، أو بسطاً، أو هيبة.. او كلها معاً، او بعضها، ممزوج ببعض.. ويزول بدخول إرادة النفس عليه".

"لم أفهم.. هلا تفضلت، ووصفت لخادمك ما ينتابك الآن في هذه اللحظات.. بكلمات أفهمها؟".

"أصف لك بكلمات! لا أظنني قادراً على ذلك، حتى وان فعلت فسيُؤوّل السامع كلامي بغير معناه".

"حاول ان تجرب معي، استحلفك الله؟".

"حسناً، حسناً سأحاول... آآآ.. تخيل نفسك

ثلاثة أشياء في آن واحد... طاساً صغيراً نصب تحت شلال ماء... وتداً تشده حبال غليظة من عشر جهات... وقطرة مطر تحط على سطح صفيح ساخن".

".... أظن من الصعب على المرء تخيل نفسه كل ذلك معاً".

"بالضبط، هذا ما أردت إيصاله لك. تلك أحوال من الصعوبة وضعها في كلمات، لذا قيل عن التصوف إنه ذوق أكثر منه علماً وعرفان أكثر منه معرفة، والمتصوف سالك أكثر منه عارفاً، والدرويش مريد أكثر منه تلميذاً".

حينما صارا على بعد مائتي ذراع عن مكان جلوس الشيخ، تهيأ لشايع أن جسمه بات أخف وزناً،

ونطاق بصره امتد إلى أبعد مما كان، ورئتيه أوسع. نسيم منعش بدأ يضرب وجهه برفق ملأه فرحاً ونشاطاً، وهو محمل بتلك الرائحة الزكية التي خصه بها حضرته دون سواه، رازقي وخزامى وزعفران. أحسّ حينها أنه نورس يفرد جناحيه على وسعهما، تاركاً جسمه ينزلق مع تيار الهواء، أغمض شايع عينيه للحظات ليحبس اللحظة قبل ان تتفتت، وحينما فتحها تراءت الى نظره من بعيد البقعة التي يتربع عليها الشيخ، تضيء من نفسها، ومن حوله أيكات العنب، خضر مزهرة تطوف حواليها أسراب يراعات تلمع جميعها معاً في آن واحد.

بستان مترامٍ، عند أحد أطرافه حجرة صغيرة فارغة بُنيت من ألواح بلوط، على حافة ساقية عريضة،

وسدرة عملاقة تظلل المكان. كان الشيخ السندي جالساً لوحده على سجادة صغيرة فرشت على الأرض خارج الحجرة، أمام متكأ بُني بطوب قشتالي نصف مفخور. الوقت ما بعد الغروب. حيّاه الزائران مقبّلين كفه بالتناوب، طلب حضرته من جنكيز ان يتركهما لوحدهما لبضع دقائق، فانسحب هذا الى مكان ليس ببعيد.

"اجلس ياشايع" قالها السندي لشايع، وأشار الى موضع أمامه على الأرض يبدو أنه أُعد مسبقاً له.

تردد شايع ثم امتثل وجلس هناك على ركبتيه وبصره مقفول بالأرض. لبث ساكناً، سيبدو للناظر من الخارج ثابت الجنان، بينما داخله، كان طاساً تحت شلال ووتداً تشده حبال ومطراً ينهال على صفيح

ساخن. وضع الشيخ كفه على رأس مريده بتؤدة، فانطفأ اللغط في الحال وركدت الأمواج.

"شايع ولدي، انتبه جيداً لما سأقوله لك الآن".

هز شايع رأسه موافقاً، وتمتم:

"مرني حضرتك".

"بعد إتمامك لجميع رياضاتك بإذن الله، سنرخّص لك بالشروع في المهمة التي اصطُفيت لأجلها، كان من المفروض أن نحدثك بشأنها بعد رجوعك الينا من إريلي، لكن ولسبب ستعرفه لاحقاً ارتأينا أن نعجّل بالأمر تحسباً لغوائل الزمان، لعلنا لن نرى بعضنا البعض بعد الآن، الله العالم".

"اطال الله لنا في عمر حضرتكم".

ابتسم السندي برضى:

"لن أفصّل لك كثيراً فيما أنت مقبل عليه، لا شك ان خليفة جنكيز عمل اللازم، الا انني سأضع بين يديك ثلاثة مفاتيح يتمم بعضها البعض، ستكون لك عوناً عظيماً متى ما استغلقت عليك الأبواب".

هز شايع رأسه موافقاً. واصل السندي مشهراً ثلاثة أصابع يثنيها بالتتابع بعد كل نقطة يذكرها:

"... الأول: لن تعرف معنى أن ترى ما لم تعرف الظلمة... الثاني: لن تعرف الظلمة ما لم تعرف سرها. والثالث: لن تعرف سرها ما لم تكن أنت منها".

تبلبل شائع وضاق نفسه. فأشفق عليه الشيخ:

"على رسلك، شايع، دع الآن ما لبس عليك منها، احفظها في قلبك كما هي، وستفهمها حين تحتاجها فيما ينتظرك من عسرة".

"سأفعل، مولاي".

قالها مخنوقاً ونظره ما زال في الأرض. افترّ فم الشيخ عن ابتسامة رحمة:

"كأني أسمع لسان حالك يقول: ولمَ تُكتب عليّ العسرة!، ما أنا في الآخر إلا رسول".

بقي شايع صامتاً كأنه وافق ضمناً على متن السؤال، إلا أنه لا يجرؤ على قوله. واصل الشيخ:

"حسناً، لأكن صريحاً معك، شايع، أنت لست مجرد رسول، أنت العون، الضد الذي يبرز الضد، الليل الذي يحتاجه البدر ليتحرر من فيض الأنوار الكلية. لعلك لن تفهم ما أقوله لك الآن لكنك ستفهمه بعد حين. أما العسرة التي ستلاقيها في طريقك، هي من ضرورات الطريقة، فكلما اشتدت الدنيا على الدرويش سلك صعوده في الدرجات، وقصر طريق وصوله. وقد اخترنا لك طريقاً وعراً، وعورته على قدر الغاية الذي اصطفيت من أجلها، وهي - أصدقك القول - جسيمة".

استمر شايع يهز رأسه موافقاً دون أن يفهم كلمة واحدة من الذي سمعه.

"شايع، لا أراك محباً للكلام، رغم اني أسمع سؤالاً خبيثاً يدوي في رأسك، وما أنا مجيبك عليه حتى

يدور لسانك بنطقه".

احمرّ وجه شايع، انحبس الكلام خلف أسنانه، لكنه عصر نفسه ونطق دون أن يرفع رأسه:

"مولاي، أنا ممتن لما أوكل لي... وللنعمة التي حظيت بها دون غيري... لكن في بالي تساؤل ملح... سبق وسألته لخليفتي جنكيز، إلا أنه لم يعرف له جواباً".

"لك أن تسألني الليلة ما تشاء، شايع، فلا حرج عليك في ذلك".

"قربانك مولاي... وددت أن أعرف من حضرتكم، لماذا تم اختياري انا بالذات..؟".

"اسمع ياشايع آن الأوان أن تعرف أن الأمر لم يتم مصادفة، بل تم اصطفاؤك بالذات من عالم الذر، حتى قبل ان تولد بزمن طويل، ولتعلم ان كل ما مر بك في حياتك حتى الآن كان إعداداً لما أنت مقبل عليه، أما لماذا انت بالذات، فهذا أمر يطول فيه الكلام، والجواب الأقصر هو: انك الأنسب، ومع ذلك فإن قليلاً من الصبر، وبعد حين قد يمتد لعقود من الزمن، ستلقى الجواب كاملاً، وستعلم حينها أن كثيراً من الأجوبة لا تصاغ بمجرد كلمات".

كان تفسير الشيخ، بالنسبة لشايع، كشفرة في بطن شفرة، إلا أنه ميّز فيه كلمات حسسته بأهميته. فهز رأسه مقتنعاً:

"نعم، قربانك".

"حسنا، قبل أن أسبغ عليك بركتي، أريد أن اتأكد انك تعرف ما هو مطلوب منك بالضبط في هذه المهمة، هلا أعدته على سمعي ليطمئن قلبـي؟".

أجاب شايع كتلميذ مجد حفظ درسه جيداً:

".... أن أبلّغ رسالة... الى رجل سأعرفه... حين أراه".

"احسنت، هذا كل ما عليك معرفته حتى الآن عن مهمتك. وهل أراك متهيئاً لها؟".

انفكت عقدة لسانه وأجاب بحماس:

"على أتم جهوزيتي، حضرتكم، لا ينقص خادمكم الا مباركة كفكم الكريمة لينطلق بعدها راشداً".

توثق الشيخ الآن من عزم مريده، وجده مخلصاً صادقاً في نيته. فاطمأن قلبه إليه... انحنى ناحيته قليلاً ليجعله في متناول يديه، حطّ إحدى كفيه مفرودة الأصابع على رأسه والأخرى ألقاها على قلبه، كما لو كان يمسكه من تلابيبه. ثم شرع يمده بدفقة سلام، تسللت تسري عبر عروقه بروية وثبات لتنتهي برودة منعشة تسكن في صدره... مادت الارض من تحت الصبـي وانداح الفضاء من فوق رأسه، فترقق حضوره والتبس للحظة بهيولي الأثير، حتى تهيأ اليه أن بدنه يرتفع ويطوف فوق مقعده.

تناهى إليه صوت شيخه كما لو كان يأتيه من بعيد:

"انت الآن مهيأ لبدء الرحلة، قد منحناك

الرخصة وفوقها البركة، وفوق البركة لك أن تتمنى علينا الآن أمنية فنجعلها بين يديك تحية لنجابتك".

دون أن يفكر، ومن غمرة غبطته رد شايع في الحال:

"اتمنى ان أعرف الآن، من هو... الذي سألتقيه؟".

سحب الشيخ كفيه في الحال كمن لسع في غفلة. رمقه بنظرة عتاب، فكر قليلاً، أمال رأسه ثم ابتسم متنازلاً:

"قد أخذتني بغتة، ولد... اسمعني شايع.. ولدي، فلتعلم اولا انه حينما أبلغناك أنك ستعرفه حين تراه، لم نقل ذلك عبثاً، إنما لان اسمه أمانة ثقيلة، أشفقنا

عليك دونها من شر المتربصين، وما أنت الآن إلا مريد في أول الطريقة".

تشجع شايع بعد أن أدرك بسليقته أنه أصاب مقتلاً في قلب شيخه، فتمادى في رميته كالطفل يناور أباه ويعرف انه مقنعه:

"خادمكم أهل لكل شديد، ألم يصطفيني حضرتكم على هذا الأساس".

تمهل الشيخ قبل أن يرد، صمت مسلماً بمنطق درويشه المتذاكي وفخوراً بشجاعته: "حسنا، ها إنك تختار الطريق الأصعب، وتلك سنحسبها لك لهفة مشتاق، ولا نرى بأسا في اندفاعك هذا... حسناً.. سنخبرك باسمه ما دمت طلبت، على أن تبقيه في

حرزك لا يخرج عن سوانا، أنا وأنت".

هز شايع رأسه بقوة موافقاً على الوعد، أحس برأسه يدور طرباً للمكانة التي وضع تواً فيها، أن يتشارك، هو المبتدئ الغريب، وحضرت الشيخ ذاته سراً ذا شأن. لبث الشيخ ينظر إليه برهةً وكأنه يراجع نفسه فيما يريد قوله، ثم تنهد، علامة حسم الأمر مع نفسه، زم شفتيه، شحب لونه، فرك وجهه بكفيه، ثم نطق ببطء، كمن يتلمس خطواته في الظلام:

"هل تعلم.. أن للعالم قطباً أوحدَ، كنيته.. غوث الزمان؟".

"سمعت الناس يذكرون شيئاً من هذا في مجالسهم لكن على انها محض أساطير".

ارتعش صوت الشيخ:

"حسنا، انظر الي واسمع ما سأقوله لك جيداً..".

رفع شايع رأسه ونظر في وجه شيخه لأول مرة منذ جلس في حضرته، بذل لأياً في جمع رؤوس أركانه الأربعة اليه ليركز فيما سيقال. لكن، ما رآه أمامه صدمه في الحال، شيئاً جعل قلبه يخفق رعباً، مشهداً شككه بجميع حواسه في تلك اللحظة، كاد يقسم حينها أنه يرى ملامح مدحت باشا في وجه شيخه، وأن الذي يكلمه هو الباشا بهيئته ولسانه وليس الشيخ الذي كان تواً في حضرته.

واصل الشيخ - الباشا كلامه الى مريده

المبهوت المشتت، بوتيرة مركزة، بطيئة آتية من مكان سحيق:

".. انه موجود... انه هو... إليه ترجع الأمانة التي حملتك إياها.. هو مرشدي ومعلمي، القطب الأوحد.. غوث الزمان.. إمام الظاهر والباطن.." غاص بعدها صوته في حنجرته، فتنحنح يصفيها، وأكمل:

"هو الذي اختارني لحمل السر مذ كنت في عمرك، على أن أرده إليه حين يأتي الحين، وقد حان أوانه الآن..".

أمالَ بجذعه إلى الأمام وحدق مباشرة في عيني شايع كمن يريد إيداع ما سيقوله في بطانة مقلتيه، أكمل بصوت كالفحيح:

"إسمه... هيباش".

(16)

فكرة المهمة الغامضة التي أوكلت اليه دون غيره، وما تعِدُ به من تحدّ ومغامرة، لاقت حماساً منقطع النظير في روحه الفتية المتمردة. حياة الدروشة والسياحة جاءت خير بديل لملء الفراغ الذي خلفته كرامته المثلومة بعد أن تفتت حلم صعوده في المدرسة الحربية حتى قبل أن يضع قدمه على عتبة بابها. باغتته

المدينة الكهلة بركلة رمت به خارج الحفلة، تُرك في المنتصف، معلقاً في الهواء. لم تكن العودة خياراً. الديار منذ أن غادرها آخر مرة استحالت ذكرى كئيبة، اختلطت صور دروبها ومنازلها مع ألم جرحه المفتوح: عيشة.

اليوم هو الرابع والعشرون من أيلول، ولادة جديدة. ذلك كان أول أيامه مع قافلة الفحم المتجهة شرقاً. منذ دخوله الطريقة، وجد شايع نفسه في ذلك اليوم، ولأول مرة، دون وصاية مباشرة من مرشده، أربكه الوضع الجديد في بداية الأمر، وقبل أن يدع ذلك الشعور ينال من زخم عزيمته، رفع يمناه بحركة تلقائية وتشمم راحة كفه... الحمد لله، الرائحة العطرة ما زالت هناك، شمله فيض من الأمان، عرف أنه لم يكن وحيداً

بالمرة، كأنه تحت رعاية قوى مطلقة لا حدود لقدراتها.

مع مرور الساعات الأولى للرحلة، بدأ شايع يتلقى، وبشكل لا لبس فيه، دفق الكرامات والتحولات الباطنية، بدأت تترى عليه بالتناوب، ها قد تداركته القدرة الكلية بمد جزيل مع أول أيامه في طريق الرحلة. تابع مذهولاً، كيف يعاد ترتيب أجزائه لأجل أن توضع في أماكنها الصحيحة، عرف للتو معنى أن تذوق بدل أن تعرف، أن تبصر بدل أن ترى، وأن تصغي بدل أن تسمع.. فجأة، ثمة اختلاف هائل حلّ على طريقة تلقيه للعالم، كأن حواسه تضاعفت او صارت تعمل وفق طرق مغايرة تماماً لما عهده فيها طيلة حياته من قبل... علاقاته بالناس، حتى العابرين منهم، صار يرى فيهم ألقاً كامناً، متوارياً معظم الأحيان خلف حُجُب طارئة،

تنويعات مدهشة لوجود حي ميّز نفسه عن سائر الموجودات بطرق خلاقة. الخير والشر والخطأ والصواب فيهم ما هي إلا وجوه يكمّل بعضهما البعض، كما هو الأمر مع قصة محكمة الصنع. أما فتحه الأكبر في ذلك اليوم فكان حينما بدأ يخطو خطواته الأولى نحو التصالح مع ذاته.

سيجد نفسه، منذ اليوم، في دوامة وشائج حب، مع الهواء الذي يتنفسه، الأرض التي يطئُها، والمخلوقات التي يصادفها في طريقه. كُشفت له في لمحة من الزمن حقيقة أولية، كان عليه أن يعرفها قبل كل شيء: جميع المسميات لها أصل بسيط، وما هي إلا أطياف لمضمون واحد.

كل تلك "الفتوح" اندلقت عليه في يوم

واحد... في عرف التصوف، يكون للمستجد حظ من "الكشف" و"الأحوال" كما هو حظ المبتدئ الغشيم في القمار.

مرت الأيام الأولى للرحلة بسلام، كان شايع خلالها خدوماً محباً متسامحاً، خُصصت له وجبتا طعام، حسب الاتفاق، كان يكتفي بواحدة ويتصدق بالأخرى. وظل متثبتاً بعروتين باتتا أثيرتين الى قلبه بعد الصوم، تعينانه على الدخول في "الحال" بسهولة: قلة النوم والكلام.

باتت القافلة ليلتها الأولى في مدينة غبزي. ثم استأنفت المسير صباح اليوم التالي.

قرى ونواح، تلال ومروج، القافلة تكبر تارة

وتصغر أخرى، حسب المحطة التي تمر بها، ينفصل عنها أناس وينضم اليها آخرون. وفي درينجي، وصل عددهم نحو خمسمائة راكب، ومثلهم راجلة.

خلال الطريق ما بين درينجي وسكاريا اشتدت على شايع "الأحوال" حتى تدهور بدنه في حمى شديدة... رأى ضفادع بيضاً يكسوها الفراء بعشرات الآلاف تعبر الطريق، الواحد منها بحجم الهر، وسلاحف بقرون أيائل، وأفاعيَ صفراً تنشد كالشحارير، وفراشات نقشت أجنحتها بكلمات تخبر بالغيب، وكمثرى تجعل آكليها يرطنون بلغات غريبة، وحوريات عاريات يدعين العابرين باسمائهم من خلف العرائش...

***

بعد مغادرة القافلة لسكاريا تتوجه شمالاً سالكة طريقاً سهلاً خالياً يمتد حوالي خمسين كيلومتراً حتى ينتهي بساحل البحر الأسود عند مدينة كاراسو، تلك المسافة تكون عادة الأخطر على القوافل في جميع المواسم بسبب تعرضها بين الحين والحين لهجمات جماعات مسلحة خارجة على القانون من قبائل آرجندل، لكن، تلك الرحلة كانت تحفّ بها حالة سلام كلي منذ انطلاقها، شعر بها الجميع، حتى في دواخلهم، اجتازت تلك المسافة دون تعرضها الى ما يعكر صفوها.

من بعد كاراسو تواصل القافلة مسيرها شرقاً حذو ساحل البحر الأسود حوالي خمسة أيام حتى تصل بلدة اريلي، آخر محطاتها شرقاً، حيث المحطة التي

سيترك فيها شايع القافلة.

قبل بلوغ كاراسو بألف متر، سكرت الأجواء برائحة البحر، انتبه شايع وانصت لحضور شاطح امتلأ الهواء به من حوله، قد أسر البحر روحه عن بعد هذه المرة، حتى قبل أن يبين ساحله للناظر، كان شايع قد رأى البحر في العاصمة إبّان فترة إقامته القصيرة فيها، لكنه كان حزيناً حينها، مشوشاً لم يكترث كثيراً لما حوله، ورأى البحر في الأيام الأربعة الأولى للقافلة وهي تسلك طريقها بمحاذاة سواحل خلجان مرمرة، لكن ايضاً لم يكن شايع حينها بعد، قد بلغ الدرجة التي تُكشف له فيها أطراف الحجب، او يحوز على قبس من أسرار الرؤية. الأمر هنا اختلف تماماً، فبعد أن ناخت القافلة للراحة والمبيت، وضُربت الخيام في الجوار عند

مرجة خضراء في وادي أوردك، نسي شايع فجأة تعب مسير يوم طويل، انقطع عما حوله، انتصب شاخصاً لا يلوي على شيء، بعيداً عن الجمع، يشده شوق غامض جهة البحر، حاول للحظة كبح الحال التي شلت قواه، وترك نفسه تنجرّ منساقة نحو موجة غواية عاتية تلوح في الأفق. مشى ناحية مصبه. انساب للبحر كبذرة هندباء تجرفها الريح. أصبح البحر على مسافة بضع مائة خطوة عن متناول يده، بدا شايع مسحوراً أو كالسائر في نومه، مأخوذاً بهدير الموج الذي يصل إلى سمعه خفيضاً ثم يتصاعد في الشدة فيفاقم في صعوده شعور النشوة، اقترب منه، صار وإياه وجهاً لوجه، تدحرجت موجة مياه شاهقة من بعيد، عرف انها تقصده بالذات، بدأت تتعالى كلما اقتربت، وقبل أن تضربه، أغمض عينيه وأفرد لها ذراعيه ليضمها، فإذا بها

تخترقه وتنفذ إليه، لتمضي فيه. صار البحر فيه، أتاح له في الحال سره، وفتح أمامه شطراً من رموزه، مضى فيه ولبث هناك في صدره قرابة مائة عام، مرقت بسرعة خاطفة من بين لحظتين مما تعدون. غاب شايع إبّانها عن تمييز المسميات دون أن يغيب عن المسميات. هناك استرد ذاكرته الأخرى، تلك التي لا يكون للأماكن فيها قوام، وتنحو الأزمنة فيها على غير منوال، سيعرف هناك معنى أن تحيا وأن تكون، سيعرف فداحة أن تهدر وجودك في الطَرق على أبواب التمني، سيعرف كيف يتحرر من أثقاله ويطوف مع المد، يغوص في الجمال المحض، ويكونه، كما هو، حراً منفلتاً، دون كتلة او كثافة او وزن، الذي لا يُقرن بحالة او شيء، سديماً مجرداً يعي وجوده اللامتناهي، دون أن يُكبل نفسه بهوية.. أو ماهية.. أو.. أنا.

الفصل السابع
جُفرانة

(17)

1920

رتبت نعمين الأمور بشأن زواج الجرادتين، كما وعدت، وأقنعت طرفي النزاع، قبيلتي بطينة والجواهل، بقبول التغيير الذي طرأ على الاتفاق بشأن دية المقتول ليكون امرأتين بدل واحدة. لم تكن أي من

القبيلتين لتهتم لمثل هذا التعديل، فأول الأمر وآخره، بالنسبة إليهما، لا يتعدى كونه زيجة منبوذين بمنبوذتين. لكن ومع ذلك، أظهرتا بعض مماطلة بعد أن علمتا أن للخاتون يداً في الأمر، أملاً في انتزاع ترضية مادية من أي نوع. ولم تكن الخاتون بغافلة عن ذلك، فبعثت بعشرين زكيبة دقيق لعشيرة بطينة قبل أن ينحل مجلس أعيانهم الذي تداولوا فيه الأمر، ومثلها للجواهل.

يبقى طرفان آخران، لن يستوي أمر الزيجتين دون مباركتهما، رجلان، كلاهما من الشوايع، الأول، شايع بن حمود، زعيم "العرابيد"، الذي لم يكن ليرد طلباً للخاتون مهما عظم، كان المطلوب منه أن يفك ارتباط صداح ويعسوب به وبعصابته، على أن يتعهدا أمامه بترك حياة الغزو والنهب من بعد الزواج، وأن

يراعيا الله في الصبيتين. ورداً لهذا المعروف أوعزت نعمين للخاتون أن تذكر ابن حمود بشيء، فدعته هذه ان يختار من اصطبل فروان ما يشاء، فاختار فرساً كحيلانية سوداء نادرة السلالة.

أما الرجل الثاني فهو ابنه، عليّان بن شايع، كبير الشوايع سكنة الجفرانة بعد أبيه، الذي سيتولى، نزولاً عند طلب الخاتون، أمر إيواء العرسان في واحة الجفرانة. وكانت هدية الخاتون اليه ناقتان من النوق المغاتير، إكراماً له على قبوله إيواء المطرودين وامرأتيهما في حماه، وايضاً عدم رفضه لطلب ضمهم الى نسب آل شايع. في الحقيقة، لم تكن هناك صعوبة في قبول الطلب الأخير، خاصة وإن أخوال نهوة طرفاويين كما الشوايع. أجزلت الخاتون صداق الفتاتين

من مالها الخاص، جهازي عرس كاملين، تم إحضارهما من حلب، وليرة مجيدية ذهبية مع زنجيل ثقيل ذيل أصلع كاردينال لكل واحدة.

مع نهاية شتاء السنة الخامسة لموجة الجفاف، هطلت الأمطار بغزارة شديدة، متداركة من نجوا من جوائح الجوع واليأس والمرض. جرت الأنهار بجنون وارتفعت المياه في الآبار والينابيع حتى فاضت في مناطق عدة. بدأت الأوبئة بالانحسار تدريجياً. اخضرّت المروج. نبت العشب وشبعت الدواب. امتلأت الأسواق من جديد وانخفضت أعداد المتسولين واللصوص وقطاع الطرق بشكل ملحوظ. كانت جميع الاشارات تبشر بمواسم خير تكفّر عن خمس سنوات متواصلة من الشح والموات. وشيئاً فشيئاً بدأت الطرقات التجارية

المهجورة تستعيد بعضاً من نبضها. الأمر الذي حدا بالشيخ عودة الجريان الى تدارك الفرصة لإقامة تحالفات عشائرية جديدة، دون الرجوع الى الاستانة، تؤمن طريق الحج الشامي وتحل محل حلف الجباويين المنحل. فسارع الى بذل وعود مجزية لعشائر الدليم، التي بدأ نجمها في الصعود خلال تلك الفترة، لاغرائهم بالانضمام الى حلفه الجديد الذي سيتولى تأمين جزء كبير من طريق الحج الشامي، وبعض الطرق البديلة، ونجح في ذلك إلى حد بعيد، حتى صارت القوافل النازلة جنوباً مع الفرات تنعم بالحماية التامة الى ما بعد البصرة. وبذلك استردت حركة التجارة عافيتها من جديد، وان كانت ليست كأيام عزها.

قبل إقامة عرسيهما على الجرادتين، قدم

صداح ويعسوب إلى واحة الجفرانة ليشيدا سكناً يضمهما معاً، حرصا أن يكون بعيدا نوعا ما عن مجمع بيوت أولاد شايع، السكان الوحيدين للواحة، المبنية حول نبع وجران. وجدا كوخاً طينياً مهجوراً يقع على حافة الطرف الغربـي للواحة، هو عينه الكوخ الذي كان قد بُني لعيشة بنت مزاحم، الجدة الأولى للشوايع، قبل حوالي ثلاثة عقود من ذلك التاريخ، بعد أن أجليت من بيوت ألبوطرف في الزهدية، وعزلت حينها في ذلك الكوخ، وكان ذلك قبل أن يقترن بها شايع ويأخذها ليسكنا معا داخل الجفرانة عند نبع وجران.

كان الكوخ مشيداً على سفح تلة راس الطوك، متفرداً بنفسه، يبعد عن باقي البيوت بنحو اربعمائة متر. جدران البيت بنيت من اللِبن وسقفه من الجذوع

والحصران. أضيفت له حجرة أخرى، لتكونا اثنتين، واحدة لشاغية وصداح والأخرى لجراكة ويعسوب. جعلا للبيت باحة خارجية مسقوفة، نصبا فيها جومة البسط التي تم نقلها من بيتهم في صرّة غمّاد. صارت الباحة الخارجية، بسبب انحدار المكان الذي شيد عليه البناء، مرتفعة بنحو متر عن الأرض ما يتيح للجالس إطلالة شاملة على مساحة واسعة من الواحة وما بعدها. الا أن أيّاً من بيوت الشوايع لا يظهر في مدى الرؤية، كون البيت مبنياً على السفح البعيد للتل.

أقيم العرس في الجفرانة وسط بيوت الشوايع، حضره غجر كثيرون جلبوا معهم طبولهم ومزاميرهم وربابـاتهم، لكن لم يحضره أي نفر من بطينة او الجواهل، عشيرتي العرسان.

باعت نهوة معاضدها الذهبية التي كانت قد تركتها، منذ زيجتها الأولى، في حرز الخاتون ليوم العازة، واشترت بثمنها ناقة مع حوارها وست عنزات، تركتها جميعاً لبناتها في بيتهم الجديد، عسى ان تؤمن لهما مصدراً للعيش، ويكونوا مع الجومة سبباً لاستقرار زوجيهما ولعلهما يتخليان عن حياة الغزو النهب. كما وتخلت للبيت الجديد عن جميع ما كان لها من متاع، أما هي فانتقلت لتعيش في قصر فروان بطلب من الخاتون بعد أن ساءت صحة الأخيرة ولازمت الفراش، فدعت نهوة لتكون قربها في آخر أيامها.

(18)

الجفرانة واحة خضراء مترامية الأطراف، تمتد على مساحة حوالي تسعين دونماً، ما بين سفح وأسفل تلة راس الطوگ المطلة على حافة الطريق الترابـي الوحيد الذي يربط منطقتي عرب عرام وعرب حزام الواقعتين على الحدود العراقية السورية ـ حسب خرائط اليوم.

بقيت الجفرانة حتى الربع الأخير من القرن التاسع عشر منطقة غير مأهولة. لم يذكر التاريخ أن أحداً سكن تلك البقعة النائية قبل تلك الفترة، رغم خصوبتها واحتوائها على نبع (وجران) ذائع الصيت، والذي يكنّ له بدو المنطقة، أباً عن جد، مشاعر متضاربة؛ خليطاً من تبرّك وتقديس وتطيّر، ذلك، وكما يبدو، راجع لمائه المشوب بالحمرة، والذي توارث الناس بشأنه حكايات شتى، فيها جنّ وسَعالٍ وغيلانٌ يسكنون حوالي النبع، يحرسونه، يُسمع همسهم عن بعد في ليالي المحاق، متى ما خفتت الريح... أشياء من هذا القبيل.

الراجح في أصل التسمية حسب ما يتناقله الناس، أنه في زمن سحيق، مرت من هنا قافلة، وقد نفد

ماؤها، وأوشك رجالها على الموت عطشاً، فقيدوا دليلهم، واسمه وجران، وصاروا يمصون من دمه وهو حي، ثم دفنوه ولما يزل فيه رمق، في المكان ذاته الذي صار فيما بعد نبع وجران. الحكاية تنتهي بموتهم جميعاً بعد أن يتيهوا في بادية الجزيرة. وتضرب مثلاً على جحود الناس وردّ المعروف.

وحسب بعض الروايات أن ماء وجران بقي غائراً لقرون حتى وقعت عنده عام 1687 حرب أهلية كبرى بين قبائل العرب، سميت لاحقاً على اسم النبع، (حرب وجران)، سقط فيها آلاف القتلى عند النبع ثم اختفت جميع جثثهم من هناك دون تفسير، كأن الأرض انشقت وابتلعتها، وإذا بمائه ينبثق من جديد ليستمر بالتدفق حتى يومنا هذا.

على العموم، الثابت في عرف العربان والذي لا يختلف بشأنه اثنان؛ أن السكن او الحلول في تلك الواحة أمر مدرج في خانة المحرم، كذلك المساس بزرعها او ترابها، او حجرها او الصيد أو الرعي فيها، الا ما أُخذ من ماء نبعها لأجل التبرك او الاستبراء، على أن يدخلها الطالب حافياً، ليس متى ما شاء، إنما في غرر الشهور، وقت تعامد الشمس على الرؤوس فحسب.

لا أحد يعرف مَن وضع هذه الشروط ومتى وُضعت، إلا أن حرمة واحة الجفرانة ونبعها وجران انحفرت عميقاً في عرف الأعراب وثقافتهم، لم يكسروها يوما أو حتى يجرؤوا على التفكير بذلك، لا في أيام الخير ولا في مواسم القحط والجفاف رغم وفرة

عشبها ومائها وطيورها. الرجل منهم، في أيام الجفاف، يُدبغ جلده ويصبر على جوع أولاده، وتنفق دوابه أمام ناظريه، ولا يخطر في باله ان مسيرة بضعة أيام وأحياناً ساعات، لتلك الواحة، قد تنتشله من بين فكي موت محتم.

لبثت الجفرانة هناك لعشرات السنين، كما لو كانت ضرباً من الاستثناء الناشز، بقعة خضراء فاقعة، غير محتشمة، تطفو وسط بحر من الألوان الكالحة. قطوفها دانية ووفيرة إلى حد يثير الريبة، وسط بيئة بخيلة تقتر عليهم أسباب الحياة كما يقتّر الغازي على أسراه. وهذا ربما كان السبب الذي دفع بالناس إلى تجنبها واعتبارها كما لو كانت غواية متربصة، من تلك التي تودي من يتبعها الى التهلكة، سيرينة بحر، شيء

مرتبط في مخيلتهم بالشجرة الممنوعة في قصص الخلق، او بكلمات أكثر تحديداً، منطقة حرام.

الاعتقاد بالمحرم شيء لا بد منه في تلك الاصقاع، واعزٌ يردّ الناس لبؤرة توازن تصون لهم إرادتهم، اعتدادهم بأنفسهم، أمام بيئة عدوانية غير متعاونة. فلولا ذلك الشعور بالقوة الذي يعم النفس كلما حُيدت فطرة او شُكمت غريزة، فلربما تصدع سبب تماسكهم كأفراد أو كمجموعات وانتفى مبرر وجودهم منذ آلاف السنين.

اشتق عرب الجوار لأولادهم من الجفرانة ونبعها وجران أسماء شتى، تيمناً وخوفاً، كما هي الحال مع أي مقدس، فتجد في بيوت الظفير: عبد وجران وجافر، وللأنثى جفرية وجورانة، ويشيع بين أسلاف

بيوت البوحايل، وهم بطن تابع لعشيرة الضلفعة، اسماء مثل وجر ووجّار وجفّار. كما أن الظهر السادس لفخذ الذنيبات التابع لألبوبطينة رجل اسمه جوران بن كعود، والذي يحكى عنه أن والي بغداد مصطفى باشا الاسبيناخجي قلاه حيا في زيت يغلي بعد ان قطع طريقاً على قافلة حج قادمة من ديار بكر، مسقط رأس الوالي، وجرد رجالها ونساءها من كل شئ تاركاً إياهم عراة في الفلاة.

خصص الدكتور قاسم احمد العلواني في كتابه (سبيل الحاج) فصلاً كاملاً عن واحة الجفرانة ونبعها وجران، وعمّن سكن حولها على مر الأزمنة. ومما ذكره فيه عن أصل التسمية قال، إن (الجفرانة) و(وجران) كلمتان من أصل أكدي، الاولى متشكلة من

مقطعين؛ (جفرا) و(آنو) ومعناهما معا (الإله المعتوه). والثانية من مقطعين ايضاً (وجرا) و(آنو) ومعناهما معا: (الإله العليل) وهما حسب الأساطير السومرية الاهان توأم نفيا إلى الأرض. وما زال الناس في تلك المناطق يستخدمون كلمة وجران بمعنى مريض. كما سبق وأشير إلى الواحة ونبعها من قبل أبـي الحسن المسعودي، الرحالة المعروف، ت 957 م، في كتابه (مروج الذهب)، يقول: جاء ذكر الجفرانة ونبعها وجران في اخبار العرب قبل الإسلام بضع مرات وبالذات في عهد الملك الغساني الثامن جبلة بن النعمان، حوالي بدايات القرن الخامس الميلادي، والذي كان يشحشج في ذروة الجماع، فأشار عليه طبيبه عائض ابن حيرام أن يُجلب له ماء من نبع وجران في واحة غربـي الفرات تدعى (الجفرة) ليشربه فيبرأ. لم

تذكر الرواية بعد ذلك إن نفعته الوصفة أم لا.

أول من سكن الجفرانة هو شايع بن حمود وامرأته عيشة، وكان ذلك تقريباً في نهايات القرن التاسع عشر، ثم خلّفا أولاداً وأحفاداً هناك. بدأ الناس فيما بعد يطلقون عليهم اسم (الشوايع). وشايع هو من عشيرة البوطرف الساكنة غرب وجنوب الأنبار، وان جد البوطرف الأكبر هو هيباش، الرجل المثير للجدل والذي احتل مكانة مميزة في تراث المنطقة، وحيكت عنه حكايات، منها ما فاق الخيال، ونظمت عن خصاله وأعماله الكثير من القصائد، بعضها باق حتى الآن.

ظل الشوايع سكنة الجفرانة الوحيدين منذ حلول شايع بن حمود فيها وحتى يومنا هذا، وان نسبهم إلى الشيعة، هو التباس شائع التصق بهم خطأً، سببه

تشابه في التسمية فقط.

(19)

حين حلت العروستان الجديدتان، شاغية وجراكة، في الجفرانة، كان قد مرّ على موت عيشة تسع سنوات. وعلى ترك شايع للواحة ثمان. غادرها دون رجعة، تاركاً خلفه تسعة أولاد وبنتين، وقد تزوج أغلبهم وأنجب، أكبر الأولاد اسمه عليّان، وهو الذي صار كبير الشوايع من بعد أبيه.

وجدتا في المكان الجديد ترحيباً طيباً من نساء الشوايع منذ البداية، احتفين بهما وأعاننها على التأهل في الحياة الجديدة. جمعن لهما ما جادت به بيوتهن من أغراض يحتاجها البيت الجديد. وسرعان ما توافر للعروستين باطية للثريد وذفال لحفظ الخبز وقربة لتبريد الماء ومنقل، أضيفت بدورها إلى الرحى الصغيرة، وصاج الخبز وشكوة الزبدة التي أحضرت من البيت القديم، ثم انضمت اليها لاحقاً أغراض بعثتها أمهما من قصر فروان: طنجرة وطاس وفانوس. واحضر الزوجان، بعد واحدة من غيباتهما الطويلة، صرة فيها إبريق ومغرفة ومهباش وجرن وطست، كلها من البرونز، لم يفصحا عن مصدرها. وكانت تلك أول وآخر مرة يجلبان فيها غرضاً للبيت الجديد.

قضت الفتاتان الأسبوعين الأولين في نسج رواق من الشَعر غطى جدران البيت من الأسفل بارتفاع متر واحد لعزل الرطوبة عن ظهور الجالسين. ثم فرشن أرضية الغرفتين والباحة ببسط سميكة من عمل أيديهن منسوجة من الوبر والصوف، ووسائد من جلد الماعز. ولم تنسيا نخلتهما الأثيرة عوادة، اذ حرصتا على شتل فسيلة منها أمام الباحة يسقيانها كل يوم. وثابرتا طيلة الوقت على إبقاء البيت نظيفاً ومرتباً.

بقيت الفتاتان عذراوان، لم يمسهما صداح ويعسوب طيلة السنة الأولى من الزواج، كانت القصص والأقاويل بشأن كونهما مكزوعتين، وأن من يتزوج من أي منهما يُعجل في هلاكه، قد اعتملت في مخيلة الرجلين وتركت فيهما خوفاً راسخاً جعلهما لا يجرؤان

على إتمام فصول الزيجة بالدخلة والنكاح. جاهدا أن يمنعا نفسيهما حتى عن الإتيان بأي فعل قد يثير استياءهن، فيغضب من بعد ذلك رئيسهما شايع، والخاتون، وبطبيعة الحال بطينة والجواهل. تلك ورطة كبيرة ومعقدة، وجدا أنهما حُشرا فيها حشراً رغماً عنهما.

لم يألف الشابان، منذ البداية، الجلوس في البيت ورعي الدواب، كما أبيا تعلم الزراعة من الشوايع والعمل بها، الصنعة التي طالما استنكف الأعراب منها. أربكهما ذلك التناقض الذي وجداه ما بين عالمهما الجديد، وبين نمط الحياة التي طالما تعودا عليه. فمن العيش على حافات المهاوي، غزو وغنائم وطراد على ظهور الخيل، واذا بهما يجدان نفسيهما

فجأة بين أربعة جدران من طين، يجتران ساعات نهارهما في تدبر قرص خبز وغموس. تحولٌ حاد عطّل في الرجلين سياق الأشياء. وجدا الجفرانة أرضاً سهلة أحالت رجالها نساءً وخيولها بغالاً. الناس فيها يقضون أيامهم ساعين ما بين ضرع وساقية. وفوق كل ذلك فتاتان مكزوعتان تحدقان فيهما طوال الوقت، قيلت عنهما أقاويل، من تلك التي تقشعر لها الأبدان، ما تملأ مخيلة أجيال ثلاثة.

في الأيام الأولى ومنذ أن وقع بصرهما على الفتاتين، انتابتهما رهبة وتردد، لم يعرفا حينها لهما سبباً. هما اللذان لم يجلسا من قبل قرب امرأة عدا أمهما المشلولة وهذه ماتت قبل نحو عقد ونصف من الزمان.

لم يريا في حياتيهما من قبل مثل تلك الفتنة

وذلك الصبا، شيء ليس من عالمهما تماماً. نظراتهن الثابتة الثاقبة، والثقة المستفزة الملازمة لكل ما يصدر عنهن، وذلك المد المبهم الذي يحيط بهما، الذي يفيض من حولهن سلاماً ملغوماً يحيّد النفوس ويحيلها صغيرة، مسلوبة الإرادة، تنحو في حضرتهما للخنوع والتسليم. لم يعرفا ما الذي كان ينتابهما بالضبط حينما يكونان قربهما، شلل، عجز، خشية... هما المتهوران اللّذان لم يعرفا من قبل خوفاً أو تراجعاً.

أيام معدودات مرت على تلك الحال، ثم سرعان ما غلبهما الحنين لأيام النهب والغزو. حاولا مراراً العودة إلى العمل مع ابن حمود، إلا أن هذا الأخير كان قد قطع عهداً للخاتون أن لا يعيدهما ضمن رجاله بعد الزواج.

تلك العقبات لم تجبرهما على التسليم لقدرهما الجديد بسهولة. صارا يغيبان عن البيت أياماً واحياناً اسابيع لا أحد يعرف وجهتهما او في أي مكان يقضيان أوقاتهما، تاركين الفتاتين وحدهما في البيت. وإن حضرا، لا يلبثان سوى ساعات ليغيبا بعدها من جديد. وكانت تلك الحال مريحة لجميع الأطراف.

أما الفتاتان فقد أحبتا المكان. مراتع خضر، مياه جارية، أشجار فاكهة وحيوانات لم تريا مثلها من قبل، طيور من كل نوع، بعضها غريب على المنطقة وبعضها يحل على الواحة في غير موسمه. غناؤها العذب وأشكالها الغريبة وألوانها المتعددة أضفت حبوراً جديداً الى روحيهما. فبعد نشوئهن على تذمر الإبل وعويل بنات آوى وغضب الكلاب، صرن يصطبحن

على سجع السحانين وكتكتة الحباري ويضحين على ضواع الخضيريات وسقسقة الحسون الأبرش ويمسين على هديل الحمام وزبيط الأوز ابو وحمة.

إبل وشياه وماعز تسرح في كل مكان دونما راع يرعاها، أعشاش الحجل والقطا والسمان وحتى الدرّاج استقرت على الأرض المعشبة في شتى الأنحاء، لا تخشى على صغارها من صيد او فخاخ، بعد أن أدركت بغريزتها أنها تعيش في أرض يحرم فيها الصيد.

استمرت نساء الجفرانة في عيادتهن للصبيتين بين الحين والحين، يسألن عن احتياجاتهما، خاصة في فترات غياب الزوجين عن البيت. وقد عجب أهالي الشوايع من مهارة القادمتين الجديدتين في نسج

البسط والتحكم بالجومة. أذهلهم تداخل النسيج بتلك الطريقة الساحرة، وتشكيل الخطوط والزخارف من محض خيوط جرداء. قررت الفتاتان تعلم زراعة الخضراوات من نساء الشوايع، واجتهدتا في معرفة أنواع الشتلات ومواسمها وطرق العناية بها. أحبتا ان تكون لهما جنينتهما الخاصة بهما. سألتا بعض الصويحبات عن المطلوب منهما لأجل تحقيق تلك الرغبة، فقلن لهما ما عليهما الا أن تختارا المرجة التي ترضيهما، في أية بقعة تشاءان فتزرعانها، هكذا، فأرض الجفرانة مشاع لجميع من سكن فيها وتربتها خصبة وكريمة أنّى بذرت او شتلت.

وكان ذلك الأمر مسلياً للجرادتين الى أبعد حد. سرعان ما تولعتا بالزراعة وصرن يبذلن وقتهما

لأجلها. أين هذا مما كانتا فيه من يباب، منذ ان فتحتا عيونهن على الدنيا لم يريا غير أصقاع جهمة لا تعرف الخضار أنى يممتا وجهيهما، الا من صبيرة هنا وعاقولة هناك.

البقعة التي اختارتاها للجنينة غير بعيدة عن البيت، يصلها ماء النبع، وفيها بضع نخلات وأشجار تين تنشر ظلالاً مشبكة لتلطف على الشتلات حر شهور الصيف. فاذا بها حقل صغير، تزرعان فيه ما تشاءان. وشيئاً فشيئاً صار العمل في ذلك الحقل يملأ نهارهن بنشاط آخر غير الجلوس لساعات طويلة خلف الجومة والاعتناء بحيواناتهن.

زرعن في الصيف خياراً وفلفلاً أخضر وريحاناً، وفي الخريف فاصوليا وثوماً وفي الشتاء

ملفوفاً وبصلاً وبطاطا، وفي الربيع جرجيراً وسبانخ.

وجدتا صيف الجفرانة معتدلاً مهادناً مقارنة بصيف وهاد الصحراء العدواني الجلف، وصار هو أحب الفصول الى نفسيهما. كانتا تنهيان نهاراته الطويلة بالاستحمام ليلاً في بركة بعيدة عن الأعين تتجمع فيها مياه النبع الزائدة، يطلق الأهالي عليها اسم حوض زويرة. تحف بها أشجار سامقة من فحول التوت، تعرشت عليها حتى منتصف جذوعها أذرع الجلبان والجنجل. تحيط بالبركة من جميع جهاتها أجمات الآس الونداري فاقع الخضرة. تتداخل فروعها مع بعضها بكثافة مكونة جداراً سميكاً جعل البركة مكاناً مناسباً لاستحمام نساء الجفرانة وقضائهن أوقاتاً طيبة بعيداً عن أعين الرجال.

كانتا تتسللان ليلاً الى تلك البركة بعد أن يهمد الجميع. تتحرران من جميع ثيابهن وتغطسان حد الرقاب، تمتعهن برودة المياه اللاسعة وسكون الظلام المغلف بصفير الجداجد. تلعبان وتمرحان معا لأكثر من ساعة، تروّحان عن نفسيهما فيها من تعب النهار، تستحمان، تليّف إحداهما الأخرى كما تعودتا منذ الصغر.

لكن ومنذ تركهما لبيتهما في صرّة غمّاد، البقعة الجرداء النائية، ثم انتقالهما فجأة إلى رياض الجفرانة الكريمة المتبسمة، بدأت أنوثتهما تتقلب في مراحل تحول حاد، كما لو كانتا صبيرتين بريتين نقلتا إلى روضة من رياض الجنة، صارتا تنضحان عذوبة وفتنة تسلب اللب وتلفت أنظار المارة كما لو كانتا

زهرتي عباد شمس في حقل سوسن. لم تعودا تلكما الصبيتين العابثتين. تكورت النهود واهيَفَّ العود وتقوست الأوراك. لم تعد الملامسة دغدغةً تُغرق، تلكما اللتين كانتا في عهد قريب طفلتين بريئتين، في سورة ضحك، شرع جسداهما يتلفعان بمجالات كثيفة متمردة تزدحم فيها خيوط الحس والرغبة، كما هي الحال مع كل يافع أَلغمت أولى نفحاتِ البلوغ مناطقَه السرية بعبوات بارود حام.

في تلك البركة الهادئة، وتحت ضوء متعفف، تارة من قمر وأخرى من نجوم، بات تحسس أحداهما لبشرة الأخرى حين الاغتسال، يورث في كلتيهما خدراً لطيفاً. تسالٍ جديدةٌ أكثر خطورة حلت محل الحنجيلة والمحلق والعرائس المحشوة باللبد، العاب تختلط فيها

متعة الاستكشاف برهاب الأماكن العالية، وضمن شعور واحد لا يشوبه استحياء أو رادع. كان مابين الصبيتين شيء خاص لا يفهمه الا من كان من فصيلتيهما. لبثت الـ (أنا) والـ (هي) هناك مزيجاً متجانساً، محض هوية واحدة لا تعرف التمييز. علاقة متكاملة ومكتفية بذاتها، ترقى لدرجة توحد المرء بأعضائه في سكرة النشوة. ان تحب شخصاً، هنا، يعني أن تحب صورتك طبق الأصل، أن يتناوب نصفاك على تسبيح جمال بعضهما البعض في الآن ذاته، لا يعرف الواحد منهما إن كان عابداً أو معبوداً.

(20)

من بين جميع فتيات الجفرانة، هناك صبية حيية، اسمها ريحانة، بعمر الجرادتين، كانت الأشد رغبة في مصاحبتهما وقضاء أطول وقت بقربهما. لم يكن لها حظ من الجمال، فتاة شحيمة تضلع في مشيها، ووجه مفلطح يتوسطه خشم أفطس وأسنان متفرقة نمت منحرفة الى الخارج. وحين الكلام تخرج كلماتها

متفرقة، وببطء يستدعي من السامع صبراً استثنائياً. أبوها هو عليّان بن شايع كبير أهل الجفرانة، وهي اكبر أحفاد شايع.

منذ المرة الأولى التي وقع بصر ريحانة على التوأم، بهتت وفغر فاها. بهرها تماثلهما التام ونغمة صوتيهما الرخيمة الواثقة، وفصاحة ليس فيها تردد او تلعثم او اعادة... أعينهما، قواماهما، مشيتاهما، حركات سواعدهما وأناملهما على الجومة معا كما لو كانتا تقدمان عرضاً راقصاً لا يفقد سحره بالتكرار. كانت ريحانة، وهي بقربهما، يعمها شعور كما لو أنها في حضرة سر الجمال الذي ليس لها منه نصيب. بذلت ما وسعها لتكون صاحبة لهما، كانت تجدّ في مساعدتهما دون توقف ودون أن يسألها أحد، فتقضي لهما حاجات

جمة، تصلح السقف وترتق الثقوب وتكنس الأرض وتجمع الحطب.. وقد أحبّها الفتاتان كثيراً، لم يتسن لهن من قبل صداقة أو اختلاطاً باترابهن في المكان الذي جاءتا منه. كانت ريحانة أول صاحبة لهما، عاملتاها بلطف وصبر جميل.

(21)

القبائل المجاورة للجفرانة لا تشتري أياً مما تنتجه حقول الواحة باعتبارها ارضاً حراماً، الا ان وقوع الواحة الى الغرب من طريق الحج الشامي مسيرة يوم، أفاد ساكنيها من الشوايع في تسويق منتجاتهم الزراعية والحيوانية بسهولة على القوافل المارة. ففي كل أسبوع، درج الشوايع على تسيير قافلة

صغيرة قوامها عشرة بغال وجملان، تتوجه الى واحة أخرى تقع على الطريق الشامي، تحل عندها القوافل للمبيت والراحة، اسمها (المجّة)، هي واحة متواضعة جداً مقارنة بالجفرانة. تحمل قافلة الشوايع معها الى المجة كل ما تنتجه بيوت الجفرانة من أجبان وبيض ولبن رائب وخضر وفواكه طرية تبيعها هناك، إذ يزيد الطلب على كل ما هو طازج، كون القوافل القادمة من أماكن بعيدة لا تحمل معها من الزاد إلا ما جفّ وخف.

بانجلاء موجة الجفاف واستعادة طريق الحج الشامي الكثير من عافيته، انتعشت الحالة المعيشية لأهالي الجفرانة من جديد وتنوعت البضائع في بيوتهم بسبب تلك القوافل. الأمر الذي تزامن مع حلول الجرادتين في الواحة، ما حدا بناسها الى الاستبشار

بهما خيراً.

بعد مرور شهر واحد على إقامتهما في البيت الجديد دعيتا من قبل الشوايع وبطيب خاطر ان تشاركاهم في تجارتهم مع القوافل بالبسط التي تحوكانها والتي وجدوها بضاعة مميزة. وسرعان ما لقيت البسط رواجاً واضحاً من تجار القوافل، وازداد الطلب عليها.

قبل مضي العام الأول على الجرادتين في الجفرانة، قدمت أمهما نهوة في أول زيارة لابنتيها في بيتهما الجديد، وكان يصحبها خادم وخادمة، جلبت معها حمل ناقتين من الدقيق والزيت والسكر والعسل والأواني والاقداح والثياب. اعتذرت عن طول الغياب، وتذرعت بحال الخاتون، إذ فقدت هذه الكثير من

وزنها، تواصل الليل بالنهار في نوم أقرب للغيبوبة، وان فاقت فمن عضات الألم.

الجرادتان فرحتا بأمهما كثيراً وانطلقتا تتحدثان اليها بإفاضة وحماس، عن حياتهما الجديدة وعن الجفرانة وأهلها الطيبين. سألتهما نهوة عن حال الزوجين، أخبرتاها باستحياء انهما لم تفعلا شيئاً بعد، وانهما تغيبان أغلب الوقت. أريتاها الباحة الفارهة والمتاع الذي ملأ البيت، والفسيلة التي نمت إلى ما فوق قامتيهما، والمواليد الجدد من العنزات، والحوار الذي صار جملاً، وجنينة الخضراوات.

ثم أريتاها نضد البسط التي انجزتاها مؤخراً، والتي كانت مرزومة الى بعضها، مهيأة للتحميل مع أقرب رحلة لقافلة الشوايع الى المجة، أرادتا أن تبهراها

بالطريقة الجديدة التي ابتكرتاها في نسج هيئات طيور سود على البسط بدل الخطوط والمعينيات، لكن تلقتا منها ما لم يكن في الحسبان. توقفت نهوة طويلاً عند هذه الاخيرة، تمعنت في أشكال الطيور السود لبرهة طال أمدها، ثم شحب وجهها فجأة، صار كباطن قدمها، كما لو كانت تنظر الى هيئات أبالسة، أشاحت نظرها بعيداً، تعوذت من الشيطان الرجيم، قالت لهما بمرارة:

"قد اعلمتكما من قبل أن رسم طيور سود مجلب للشر".

لم تتوقع الفتاتان نبرة غضبها المفاجئ، وبتلك الشدة:

"أماه ما خطبك! ما هي إلا زخرف يبيع

بضاعتنا".

"زخرف! آمنت بالله، لكن ماذا عن سواده؟".

"هذا ما توافر لنا من خيط، أماه، وكما تعلمين، هي في الأصل ثلاثة، أسود وبني وأصفر، ولا حيلة لنا بذلك".

"أعرف هذا".

"جربنا أن نبني بالبُني والاصفر، ونبرِّز اشكال الطيور بالاسود، فراج ذلك بين الناس".

"الناس عُميٌ، تطربهم نغمة الشر، فينامون عليها من حيث لا يعلمون".

"وهل من طريقة تُبقي الطير وتبعد شره؟".

هزت رأسها أسفاً:

"أعوذ بالله من الطير ومجالب الطير".

"نستحلفك بالله أماه لا تحرمينا رسمه، فلا أجمل من الطير في هذه الأنحاء".

أطرقت لثانية: "إن كان ولا بد، فدعن السواد واصبغن بسواه ما أنزل الله من لون".

"ومن أين لنا بالأصباغ؟".

"لن تعدمن أصباغاً في مثل هذا المكان، الم تذكرن لي عن قافلة الشوايع، تلك التي تسعى بين الواحتين؟".

"نعم، كيف فاتنا ذلك! سنفعل بما تنصحين،

وسنُري الناس بعدها بُسطاً يبتاعونها فيهيمون بها، حتى أنهم لا يودون وطأها بأقدامهم".

بقيت نهوة، طيلة فترة الزيارة، نزرة الكلام، لم يفرحها كل ما كانت تسمعه وتراه من جرادتيها الممتلئتين رضا ونشاطاً. لم تكن لتأمن على بناتها في الجفرانة للحظة، كانت ترى الواحة ببصيرتها على غير ما يراها الآخرون، لن تزغلل عينيها حللها الخضر والوفرة منقطعة النظير، وكل تلك المياه الجارية. هي خير من عرف قصة الجفرانة أباً عن جد، كما لم يعرفها الآخرون، الأرض الحرام، الواحة العصية على البشر منذ أن وجدت على الأرض، الواحة التي شاءت، ولا أحد يعرف لماذا أو كيف، أن تبذل سرها لرجل واحد فقط، شايع بن حمود البوطرف،

ومن بعده لعترته، وتلفظ سواهم ممن يرومون سكناها، دون رحمة.

استلقت نهوة في مكان أعد لها في إحدى الحجرتين، كانت مهدودة من السفر، وقد استفاق في نفسها حزن قديم زادها تعباً، كان نومها متقطعاً، كلما أغمضت عينيها هاجمتها كوابيس لم تعهدها من قبل، طيور سودٌ تملأ الأرض والسماء، لها أنياب ذئب وعيون قط وأقدام سعادين، وأشجار حمر تئن كلما حركتها ريح، ودماء قانية بدل الماء تتدفق من نبع وجران، أمور أقضّت مضجعها وجعلتها تفز من فراشها مرات عدة.

في اليوم التالي تُركت لتنام حتى رابعة النهار. وبينما الجرادتان منهمكتان في الباحة الخارجية

مع الجومة، حدث شيء سيبدو عادياً لولا ما كان من حديث الأمس. تردى من السماء هدهد أزرق اللون على خيوط النسيج، كان قد مات قبل ارتطامه بها. توقفت الفتاتان عن الحركة، نظرت إحداهما للأخرى بوجل، توقيت لم يخطر على البال، هل يجب أن يُقرأ على أنه نذير شؤم!

فزت نهوة من نومها على جلبة ما حدث، هرعت من مكانها مهرولة، التقطت الطير من الأرض بكلتا راحتيها، نظرت، اليه تأملت في تدرجات الزرقة على ريشه وكيف تتلاشى في أحزمة بيض، كما لو أن الطير كسرة سقطت من السماء. لاحظت الفتاتان أمهما تحرك شفتيها المتوترتين بكلمات غير منطوقة، تطالع الخطوط الزرق والبيض، كأنها تقرأ في لوح، بعينين

متحفزتين اتسعتا هلعاً، يداها ترتعشان بشدة.

كان للهدد منقار أسود صغير، يكمل سواد صدره المضمخ بلمعة حريرية، ورأس أحمر مشع يعتليه عرف أبيض ينتهي الى كرات صغيرة حمر كأنها جواهر تعتلي تاجاً صغيراً، وقزحيتان تبدءان من الخارج بحلقات فاقعة الخضرة، تخفت شدتها كلما اقتربت من البؤبؤ، فتكون برمتها كما لو أنها نوافذ سرية تقود الى وجود آخر. وله حجلان قرمزيان، كحليتين ثمينتين، يطوقان نهاية ساقين أسيلين عريقين في نبلهما. كان جسمه الصغير ما زال محتفظاً بكامل حرارته.

قالت لهما بصوت مخنوق مرتعش، يسمع بالكاد:

"تحرقان جثته حتى تكون رماداً... تدفنان الرماد عند نخلة... تسقيانها كل يوم حتى الأربعين".

أضجعته على الأرض بحذر، انتصبت واقفة وهي ما انفكت تحدق اليه بفزع، مسحت عينيها، تحسرت. نادت على الخادمين وابلغتهما أن يعدا الناقتين للمغادرة في الحال. كل ذلك والجرادتان تنظران اليها والى بعضهما بذهول. قبل ان تغادر المكان، قبلت طفلتيها واحتضنتهما مراراً. الحتا عليها عبثاً ان تخبرهما عن ذلك الطير وما قرأته فيه وسر هلعها منه، ردت بإيجاز شديد:

"الأفضل لكما أن لا تعرفا".

وآخر شيء فعلته قبل أن تعتلي راحلتها، انها

حدقت في وجهيهما بلوعة وبكت بمرارة، كأنها لن تراهما بعد الآن.

أحرقت شاغية جثة الطير ودفنت رماده قرب فسيلة النخلة. عادت الى جومتها، إلا أنها لم تجد الرغبة في مواصلة العمل، وكذلك اختها. أحستا بخواء هائل، لم تعرفا أن كان فيهما أم في المكان الذي يحيط بهما. لبثتا ما تبقى من النهار ساكنتين حزينتين ليس لهما رغبة في الحديث او الحركة.

الأيام التي تبعت ذلك الحادث، امتلأ هواؤها بحزن ثقيل، لم تتمكن الأختان من الرجوع إلى ما كان من سياق نهاراتهما، اختل المزاج، وانتفت الرغبة بالنسج على الجومة أو العمل في الجنينة أو اللعب بالماء في حوض زويرة. كل ما كان يشغل بالهما فكرة

واحدة، طغت واستحوذت، أرادتا أن تعرفا سرّ ذاك الطير الجميل الذي وقع عليهما من السماء. أن عرفتا اسمه أو صنفه أو من أين أتى لربما ستعرفان ما عرفته امهما بشأنه فأرعبها ودفعها أن تفر من المكان بتلك العجلة.

أول ما رأتا ريحانة شرعتا تصفان شكله بإسهاب واندفاع، فلم تعرفه هذه، ثم الى كل من يمر بالبيت من الشوايع، هؤلاء ايضاً لم يتذكروا انهم رأوا في حياتهم طيراً بذلك الشكل، بل وتعجب بعضهم من وجود مخلوق بتلك الأوصاف.

ظلت صورته الجميلة المفجعة منطبعة في ذهنيهما لا تغادره لحظة. انتفت الدوافع للسعي في أي إتجاه، وبهتت مصادر البهجة في كل مكان. لبثتا

خاملتين غير مكترثتين، ممسوتين بوسواس غامض عصي على الفهم. فقد البيت حياته، وصار هادئا لا يُسمع فيه حس، كما لو هجره أهله منذ سنين. في تلك الأيام الثقيلة تولت صاحبتهما ريحانة الزمام، وصارت تعتني بهما كما لو كانت أماً لهما، أقامت في البيت ولم تعد تتركهما لحظة، تجلب الماء وتجمع الحطب وتطبخ وتنظف وترتب، تفعل كل ذلك دون تذمر، كان يببهجها أن يكون لها ضرورة ملحة في حياتيهما، وفي يوم من الأيام ستقولان لها بامتنان وعرفان: لولاكِ ولولا حرصك علينا، في تلك الأيام الصعبة، لقضي علينا.

مر أسبوع على تلك الحال، وإذا بذهن ريحانة المتبلد يتفتق عن فكرة لامعة لفتت انتباه الجرادتين، قالت لهما:

"مادمتما تجيدان نسج الطيور بأحسن ما يكون، لم لا تبدءان بنسج ذلك الطير الذي أحزنكما موته، تعرضونه على الناس لعلهم يعرفونه فيذكرون عنه أشياء تفك عنكم حيرتكم بشأنه؟".

نظرت شاغية في وجه جراكة، ابتسمتا معا، دبت الدماء في أطرافهما من جديد، نهضتا في الحال وبإيقاع واحد، نصبتا الجومة التي كانت قد فُككت قضبانها، نظفتاها مما علق بها من غبار، وبدأتا ترصّان اللحمة. كانتا متحمستين لنسج أول طير بألوان صريحة، هذه المرة لن يكون مجرد زُخرف، انتابهما دافع غريب، كأن رسمه من جديد وبكامل ألوانه سيعيد له حياة سُلبت منه غدراً، فتنقلب الأقدار وينبض الدم فيه من جديد، ليخبرهما أشياء مفرحة تليق بجمال هيئته

غير تلك التي أوحت بها طريقة موته.

اعتادت ريحانة ان تمر على الفتاتين قبل مغادرة قافلة الشوايع بيوم تستمع منهن لقائمة طلباتهن فيما يحتاجه البيت والجومة، وتأخذ منهن ما تم انجازه من بسط لتحميلها مع باقي سلع الجفرانة الذاهبة في اليوم التالي الى سوق المجّة. هذه المرة كانت الطلبات تتضمن شيئاً واحداً فقط: أصباغاً للغزل.

أخبرتهم ريحانة موضحة:

"مثل هذه السلع لا تأتي مع قوافل الحج الشامي بل مع قوافل التشاريق والتي، للأسف، لا تمر ببوادينا".

أُحبطت الفتاتان للرد. شعرت ريحانة بالذنب.

فاستدركت:

"لكن يوجد هناك من بإمكانه تدبر مثل تلك الحاجات".

"حقا، ومن يكون؟".

"بائع جوال، شاب لا يعصي عليه شيء، يتمنى الناس عليه أشياء لا تخطر على بال، وما ان يمد يده في جرابه فإذا بها هناك..".

بان الاهتمام على وجه الفتاتين اثر سماع خبر ذلك الحاوي. تحفزت شاغية وقد استولى عليها فضول مفاجئ لم تعرف له سبباً، أرادت ان تعرف أكثر بشأن الشاب، لكن غادرتها فصاحتها فجأة، لم تجد شيئاً مناسباً تقوله:

"أهو... من هذا الجوار؟".

"لا، يقول الناس إنه من الجنوب".

لم تكن معلومة ذات شأن، إلا أنها وقعت على سمع شاغية بشكل غريب، وانسحب ذلك على أختها أيضا....

بعض الأنباء تأتي إلينا في سياق إشارات مبهمة، قديمة قدم الكون، رسائل مشفّرة.. في نبرة صوت، عزيف ريح، حفيف شجرة... حينما تغشانا، تربك أنظمتنا. أول ما تضرب فينا؛ مُستقبلاتنا اللابشرية، اختلاجة غير محسوسة تباغت الشفة السفلى، النبض يرمش على غير مجراه، كأنه يجيب أو يستجيب، ويتفصّد الجلد، إثر عصف غير محدد

المصدر، عرقاً بارداً، يتبخر في الهواء قبل أن يتبلور في كرات... ونتنهد.. تنهيدة طويلة، تنعتق من مكان عميق، لم نعرف أصلاً أنه موجود فينا.

مرت فترة صمت غير مفهوم بعد ذكر الجملة الأخيرة، شعرت ريحانة بالحرج، واصلت موضحة:

"... يطرق ديارنا كل شهرين مرة، يأتي ومعه بغلتان محملتان بعطور وزينة وتوابل وأصباغ، وكل ما يوصي به الناس، يجلبها من بغداد وأصفهان ومدن أخرى بعيدة... سأبلغه طلبكم حين قدومه".

كانت ريحانة تتبسم بحياء ويصعد الدم الى وجهها كلما دار لسانها بذكر الشاب. سألتها جراكة ممازحة:

"أراك تنشرحين كلما طرأ اسمه على لسانك، ما قصتك ريحانة!".

تلعثمت، ثم قالت:

"لا، لا.. لا لشيء... إلا أنه يفهم في كل شيء.. هو مليح.. لسانه ناعم... جميع الفتيات ينتظرن يوم قدومه، فيخرجن إليه بأبهى الزينة".

"ريحانة!!!" هتفت جراكة متضاحكة، مستغربة جرأة صاحبتها الخجولة، التفتت الى اختها بمرح تتوقع مؤازرتها، فوجدتها ساهية تحدق في فراغ. نبهتها جراكة:

"شاغية، هل انت معنا!؟".

انتبهت شاغية، أطلقت زفرة محبوسة كانت قد نسيتها في صدرها، تطلعت الى وجه ريحانة للحظة وضيقت عينيها، ثم سألتها غير متأكدة:

"ما اسم ذلك الشاب؟".

"اسمه... الهبش".

الفصل الثامن
فحم

(22)

"هناك أناس، عبر الزمان، راهنوا على معنى للوجود، ولأجل إثبات ذلك مضوا يبتكرون دروباً عملية خاصة بهم لبلوغ تلك الغاية، دروباً، حسب أغلب الناس، بعيدة عن العقل والمنطق".

"وكيف ذلك، خليفتي! أليس العقل خير وسيلة

لبلوغ الغايات؟".

"يقول شيخنا السندي، ما العقل إلا ماكنة عظيمة لصنع الأسئلة".

"صنع الأسئلة فحسب؟!".

"يقصد حضرته بذلك، أن العقل لم يُصمم أساساً للإتيان بأجوبة كاملة، أو بالأحرى أن ذلك ليس من عمله بالمرة، إلا أن الناس أعجبتهم قدرتهم على صنع أسئلة كبيرة، فراحوا يقسرون عقولهم على الإتيان بأجوبة كبيرة، استسهلوا الأمر فكانت الكارثة".

"وكيف هي كارثة، خليفتي! يكفيهم أنهم حاولوا".

"ليس هذا بيت القصيد... هل سمعت بقصة الفلاح الذي أنفق جميع ما يملك في صنع محراث عظيم لأرضه، فقيل له: لم تُبق مالا للحصاد. قال: من يملك مثل هذا المحراث لن يعييه حصاد. وبعد نضوج الزرع، جرب أن يحصده بمحراثه العظيم فأتلف الأرض والزرع".

"عفواً خليفتي، لم أفهم تماماً المغزى من وراء هذه القصة".

"حضرته يرى أن العقل مهما بلغ، له حدود، وأن من العبث دفعه لما ليس له طاقة به. أما الإجابات فهي مخلوقات لها كيانات قائمة بذاتها، كما باقي الكائنات، تنمو وتمشي وتتنفس، إن أردتها. أخرج من صندوقك أولاً، واسعَ نحوها، لأجل ان تنالها".

"حسناً، لنقل أني أريد أن أنالها، فكيف سأخرج من صندوقي، وأين سأجدها إن لم تكن في عقلي!؟".

"الطريقة تهيؤك بشكل أولي لأن ترى وتسمع وتتنفس كما ينبغي، بعدها تكون قد عرفت دربك فتسلكه إلى الآخر، إن كان له آخر".

"خليفتي، لكن ما هي الطريقة؟".

"هي الطريق الى الحقيقة، والطرق كثيرة لا حصر لها. يقول شيخ العارفين مولانا محي الدين بن عربـي: الطرق إلى الحقيقة تتعدد بتعدد السالكين".

"ومن يضع شروط الطريقة؟".

"كما أخبرتك في بداية حديثنا، هناك أناس جربوا وابتكروا وطوروا أساليب، ثم انتهوا الى مفاتيح، وضعوا لها رياضات وتعاليم صارمة يتبعها مريدوهم، تبدأ أولا بالذات من خلال تهيئتها ذهنياً وجسدياً لكي تتعلم كيف تدرك أوجه الوجود كما ينبغي".

"وهل في الأمر ثمة أسرار للوصول، او شيء من هذا القبيل؟".

"الأمر ببساطة يكمن في سر واحد فقط، بسيط الى أبعد حد، هو التحرر من الأحمال وليس إضافة أحمال أخرى".

"لم افهم هذه، خليفتي، من أين لي أن أعرف أحمالي كي أتحرر منها؟".

"الرياضات القاسية للمريد ما هي إلا بدايات تعلمه كيف يتخلص مما علق به بحكم العادة، ومن ثم الإبقاء على الأصل، جميع الرياضات الصوفية، تبدأ بوسيلة واحدة بعينها مهما اختلفت الأساليب: التخلي".

"التخلي وفق أي معنى؟".

"بمعنى إعادة تعريف "الضروري"، هو بالتالي نوع من فك ارتباط بأمور ما كان لنا إدمانها أصلاً. هذا من المفروض يقود الى التحرر، وبالمعنى الصوفي يعني، الى حد ما، تحرير الطاقة الكامنة، وهي بطبيعتها، طاقة خلاقة، لها طبيعة وامتداد الطاقة الكلية ذاتها، كما الشمس وأشعتها".

"نتخلى عن ماذا مثلا، خليفتي؟".

"التخلي يتمظهر أولاً في السلوك، غالباً بالاستغناء عن الحاجة قدر الإمكان، خذ الزهد مثلا، ومتى ما تهيأت همة كافية لدى الدرويش لأن يتخلى عما هو غير ضروري، سيكتشف مع الوقت أن هناك الكثير من الأمور لم تكن لها ضرورة من الأصل، كان يظنها في يوم من الأيام لوازم لا يتسنى له العيش دونها. أن لا تَملك فلن تُملك".

"إذن، هل بإمكاننا القول إن الزهد أساس الأخلاق عند المتصوف؟".

"اسمع شايع، زهد الدرويش ليس بالضرورة له علاقة بالأخلاق، الشرائع تُعنى بالاخلاق، لكن في التصوف تكون قوانين الشريعة خارج دائرة التركيز. الأخلاق هنا ليست غاية بل وسيلة تسهّل طريق السالك.

فالزهد والصبر والإيثار والتواضع والتسامح أدوات للسالك تجعله خفيفاً غير منتم للتفاصيل، تزيح الغشاوة عنه، تفتح بصيرته لتمييز الغث من السمين مما علق بذاته بالتقادم".

"وماذا بعد أن يتخفف؟".

"يتحرر، ليضع نفسه في الطريق الذي من المفروض أن يأخذه الى الجوهر، حيث جميع الموجودات والأفكار تجليات وأطوار لأصل واحد، بسيط وكلي".

"لكن ما المغزى من كل ذلك؟ ولماذا".

"سأحاول أن أبسّط أكثر... احتار الإنسان منذ القدم أين يضع نفسه، أفي خانة أشباه الآلهة أم في خانة

صغار الحشرات، ولا أقصد هنا الكلام نصاً، المتصوفون هم من ضمن المتبنين للاتجاه الأول، هم آمنوا أن المطلق موجود أصلاً في جوهر كل فرد، لكن الانسان نسي جوهره مع الأيام بعد أن انفرط تركيزه وتعكر صفاؤه وسط دوامة الاحتياجات. وما تاريخ البشر في حقيقته إلا ابتكار يومي متواصل لاحتياجات جديدة، يكبلون بها أنفسهم، فيدمنونها بعد حين".

"الا انها، وكما قلت انت، احتياجات، وبدونها قد تتعسر علينا سبل الحياة".

"تلك هي العلة، الاحتياجات الحياتية، إن نظرت إليها بعين صافية، ما هي إلا سراب يستنفد طاقتك ويشغل ذهنك كلما سعيت خلفه. والحل يكمن في التوقف عن اللهاث خلفه، ثم التخلي والخروج من تيه

تلك الحلقة المفرغة".

"وهل يتأتى كل ذلك بالرياضات؟".

"تلك وسيلة أثبتت نجاحها عبر الزمن، الرياضات التي ابتكرها المشايخ عبر مئات السنين ما هي إلا طرائق تقترح عليك أدوات تكتشف بها نفسك، تبتدئ بترويض الغرائز، وغالباً بمخالفة النفس، وهنا يعني أنك عزمت مع نفسك أن تتسلم الزمام من الآن فصاعداً...".

"ما اجمل ذلك.. أشعر الآن أن فيّ رغبة شديدة للتحرر واستلام الزمام، أرشدني خليفتي، من أين ابدأ؟".

(23)

طيلة الأيام الخمسة التي قطعتها قافلة كومور على الطريق المحاذي لساحل البحر الأسود قبل أن تحل في إريلي، بقي شايع منقطعاً الى نفسه، مستغرقاً في "حال" متواصل. من يراه يظنه عليلاً على عتبة النوم او الغيبوبة، الا أن أحداً لم يعرف أنه كان يحمل البحر بين ضلوعه، تلك هي أولى الثمرات بعد كل تلك

الرياضات المجهدة، هي المرة الأولى التي يذوق فيها طعم الأسرار، ويرى ما لا يراه الأنام، كما وعدته الطريقة، هذا بعض من طعم الوجود، شيء لن تعرف انك مفتقده حتى تكونه أول مرة.

أخيراً دخلت القافلة مشارف مدينة اريلي، تهيأ شايع لمغادرة القافلة، ودّع الجميع ودعا لهم بالسلامة فيما تبقى من رحلتهم. سيترك فيهم أثراً طيباً. ترخّص من القومندان وتشكر منه، كان هذا ممتناً منه طيلة الرحلة. كانت رحلة موفقة حتى ذلك الحين، أصابت مالاً كثيراً، ولم تتعرض في طريقها لأي عارض. حاول القومندان أن ينفح شايع مبلغاً من المال، يعرب له به عن امتنانه منه، إلا أن الأخير اعتذر عن أخذه، لم يستطع أن يخبره انه غير مسموح له الاحتفاظ

بمال.

انفصل عن القافلة عند نهر كيليجسو، كانت الشمس قد أتمت غروبها. استحم في النهر وبات ليلته قريباً من جرفه مفترشاً الحشائش الطرية. في الصباح التالي صحا متأخراً بعد أن لفحت وجهه شمس الضحى. نهض وتوجه مشياً ناحية المدينة، بانت له أطرافها عن بعد، مآذن صخرية ودواب سائبة وبيوت كالحة متداعية، سقوفها واطئة.

إريلي.. وجوه واجمة متعبة، شوارع ضيقة لا تؤدي في الغالب إلى بعضها، تتخللها مجار تفيض بمياه ثقيلة نتنة، كلاب سائبة وصبيان عراة وقمامة ونساء عجائز يغزلن على عتبات أبوابهن، البيوت ضيقة دون أبواب، بعض مداخلها مغطى بستائر جنفاص، مداخن

لا حصر لها، من الواضح أن الفحم في هذه الأنحاء أرخص من الماء. العيون تتطلع فيه باستهجان، حسناً، الغرباء غير مرحب فيهم في هذا المكان. لكن..

"اين ذهب جميع الرجال يا أختاه؟". سأل شايع إحدى العجائز. فأجابته هذه متفحصة إياه صعوداً ونزولاً بعد أن سمعت لكنتة الغريبة:

"جميعهم في المقالع، يحلّون بعد أذان المغرب" وأشارت بيدها ناحية الشمال صوب ضجيج يأتي من بعيد.

دقات مطارق ومثاقب عملاقة تأتي من الجهة المشار إليها، عرف انه موقع عمل، مشى باتجاه الضجيج، سرعان ما تحولت الأرض تحت قدميه

سوداء وقاسية، اختفت الخضرة من المشهد وتسللت الى قلبه إشارات كئيبة حاول تجاهلها. وصل هناك، تلال وسكك وعربات، كهوف مظلمة وحفر عملاقة تتناوب منها واليها زبلان مليئة بأحجار سود تفرغ في خروج محملة على ظهور بغال تنزل بها الى عربات تمشي على سكك، رجال بالمئات حفاة، شبه عراة، طُليت ملامحهم بطبقات من السناج حتى لا تكاد تميز بعضهم عن البعض، يتنفسون بعسر عبر عصابات غطت أنصاف وجوههم. عيونهم نصف مفتوحة على الدوام، كأنها تيبست على تلك الحال، برموش غلظت شعراتها بجلطات سود صغيرة كالخرز.

مر من أمام شايع واحد منهم، وكان عجوزاً يحمل على ظهره رجلاً ميتا أو مغمى عليه:

"مرحبا يا أخ، إني أبحث عن عمل".

لم يتوقف للحظة او يلتفت اليه كأنه لم يسمعه. حاول شايع مع واحد غيره كان يدفع عربة مليئة بالفحم، لا من مجيب، تخيل نفسه للحظة انه غير مرئي لهؤلاء الأحياء الأموات. بدوا كأنهم غير مكترثين حتى ليعرفوا ان كانوا أحياء او أموات.. في غمرة حيرته، انتبه الى كف ثقيلة تربت على كتفه من الخلف. التفت الى الداعي فإذا به رجل بدين عار الا من وزرة صغيرة قذرة غطت مكان عورته، وكان يمضغ أوراقاً خضراً تلطخ منها ذقنه وصدره، ببقايا كأنها قيء سبانخ:

"هيه أنت، ماذا تريد؟".

"ابحث عن عمل يا أخي".

ردد "عمل.. تبحث عن عمل؟"، ظل يحدق إليه ببلاهة، ثم قرصه من خده بإصبعين حجريين:

"انت شَكَر".

انتفض شايع متضايقاً مبعداً الكف عن وجهه وتراجع خطوة. اقترب البدين منه الى مسافة غير مريحة:

"أعطني قبلة، يا حلو؟".

وقبل أن يستوعب شايع جلية الذي يجري، هجم عليه البدين مطوقاً إياه بذراعيه يريد أن يقبله. هرول ناحيتهما رجل خمسيني يعتمر طربوشاً

مخروطياً ويرتدي شروالاً وزناراً وصدرة ـ لنقل- نظيفة ليس تحتها شيء. قصف رأس المهاجم بحقيبة خشبية صغيرة كان يحملها في يده:

"اتركه يا نجمي واذهب لعملك وإلا حطمت لك جمجمتك"".

انسحب نجمي يردد مع نفسه:

"شَكر، جوك شَكر".

عرف شايع من هيئة ونبرة منقذه إنه أسطباشي العمال. مخلوق صغير الحجم، عينان ضيقتان وجفنان يلمعان كأنهما فركا بزيت، فك أسفل واسع مسحوب الى للأمام، ووجنتان نبشتا بآثار جدري قديم فيها بقايا حفر. سأله بنبرة مراعية:

"من أنت وماذا تريد، ولد؟".

مستمراً في مسح بقايا الهريس الأخضر عن وجهه وملابسه. رد شايع:

"جئت أبحث عن عمل".

"من أين أنت؟".

"من بغداد".

"وهل تعنيت كل ذلك الطريق للبحث عن عمل هنا؟!".

"لا أُسطة، سأعمل لأجل توفير مصاريف ترحالي وما يقيم أودي".

"افهم من ذلك أنك لست باقياً هنا طويلاً؟".

"لن اكذب عليك، بضعة أسابيع".

"همممم، هل عملت سابقاً في المناجم".

"لا".

"همممم، اسمع، يبدو عليك أنك ابن ناس، اسمع... سأضعك اليوم مع من يعلمك عملك، ثلاثة ايام.. اسمع.. دون أجر وسننظر بعد ذلك في أمرك".

"تشكّرلار أسطة، لن أخيب ظنك فيّ بإذن الله".

"اتبعني، ولد".

أخذه في الحال الى مدخل كهف منخفض، تبعه داخله حانياً ظهره ومشى به مسافة عشرين متراً، ثم انعطف الدهليز الى الأسفل بشكل حاد مسافة عشرين متراً أخرى، لينتهي بفسحة مستديرة واسعة جدرانها وسقفها مدعمة بعواميد وسقالات خشبية. رائحة أمونيا خانقة تلسع العيون كأنها مبولة عامة والأرض صلبة مقعرة يتجمع في مركزها مياه صفر ثخينة كأنها عصير برتقال متعفن، مصدر الرائحة القاتلة على الأرجح. (مصابيح دافي) الانجليزية، علقت قرب أماكن التكسير. بضعة رجال جلودهم تلمع من التعرق، يحملون معاول عملاقة يكسرون في الجدران القاسية. كانوا شديدي الشبه ببعضهم الى حد كبير، كما هو الأسطباشي، بشرة خمرية فاتحة جمجمة مخروطية ذات قاعدة عريضة وعينان ضيقتان متقاربتان، عرف

شايع لاحقاً انهم جميعاً من قبيلة تونجاي. نادى الأسطباشي على أحدهم:

"مراد".

هو كبير العمال، كررها عدة مرات بسبب الضجة الهائلة، التفت مراد، ناحية الاسطباشي دون أن يقترب إليه، أشار الاسطباشي لشايع معرفاً به ثم رفع سبابة معقوفة علامة يعرفها الجميع على أن القادم الجديد عديم الخبرة ويحتاج الى تدريب. ثم دفعه ناحية كبير العمال، أسطة مراد، وغادر. ظل كبير العمال ينظر ناحية الجهة التي غادر منها رئيسه وحينما تأكد انه اختفى، بصق في أثره بغضب.

داوم شايع مباشرة في العمل، لم يتطلب الأمر

خبرة تذكر، مجرد ضرب بالمعاول على جدران قاسية. زندان قويان وقدرة على التحمل والبقاء حياً بأقل قدر من الأوكسجين، هذا كل ما ستفعله لتحتفظ بعملك. الأمر في البداية بدا شاقاً وفي غاية الصعوبة، لم يكن بدنه مهيئاً لمثل ذلك الإنهاك المتواصل، تنملت جميع عضلات جسمه في اليوم الأول وتورمت في الثاني وتصلبت في الثالث. إلا أنه واصل دون تذمر. عرف لاحقاً ان الأسطباشي الأبوي النبرة لم يكن أبوياً بالمرة، اختار له أصعب المهن بالنسبة لمبتدئ، كان المفروض أن يبدأ في التعبئة او التحميل أو تعضيد الأسقف بألواح الخشب. وايضا سمع لاحقاً كلاماً كثيراً عن جشع الاسطباشي ونذالته.

كان مرض الرئة السوداء شائعاً بين عمال

مناجم الفحم في أريلي، واغلبهم لا يعيشون بسببه حتى الخامسة والأربعين، هذا ان لم يموتوا قبل ذلك بالغازات السامة المنطلقة من بين صخور الفحم أو يحترقوا بالغازات المتفجرة.

قبل وصول شايع للمنطقة بأسبوعين وقع آخر انفجار كبير في زاردور، أكبر مناجم إيريلي، قُتل وجرح بسببه أكثر من ثلاثين عاملاً. وفي اليوم الذي باشر فيه شايع العمل، اشتعل الهواء في المنجم الذي كان فيه لمدة ثلاثة دقائق لكن لم يخلف ضحايا، وكانت تلك من حالات الانفجار النادرة التي يخرج الجميع منها سالماً.

يشيع في مناجم إريلي ثلاثة أنواع من الغازات التي تشكل خطورة حقيقية على العمال هناك،

يسمونها بلغتهم الدارجة (أبخرة)، أكثرها شيوعا (العباءة السوداء)، وهي خليط من ثاني أكسيد الكربون والنيتروجين، وهذه تسبب الاختناق، وتتكون نتيجة التكسير في الأماكن العميقة المغلقة، تكمن خطورتها في قدرتها على إزالة الأوكسجين والإحلال محله. النوع الثاني يطلقون عليه اسم (الريق النتن) وله رائحة البيض الفاسد، هو بالحقيقة غاز كبريت الهيدروجين، يمكن أن ينفجر لأتفه الأسباب، وايضا هو سام حين التنشق. أما النوع الثالث فيسمونه (فساء البقر)، هو غاز الميثان، والذي ينبثق بين الحين والحين من جيوب مختبئة بين الصخور، وهو أيضا شديد الاشتعال وكذلك يسبب الاختناق.

كان لهب مصابيح الكحول المستخدمة في

أعماق الأنفاق، هو السبب الرئيسي لحدوث الانفجارات على مدى عقود طويلة، حتى اخترع البريطاني همفري ديفي عام 1817 (مصباح ديفي) والذي أدخل في تصميمه الحديد والشاش لمنع تمرير اللهب خارج نطاق المصباح. لكن هذا الاختراع المدهش لم يدخل مناجم إيريلي إلا عام 1850، حيث اختصر بمجيئه نسبة الوفيات بين صفوف العمال الى النصف، أما النصف الآخر فكانوا يموتون بسبب انفجارات من نوع آخر، تحدث أحياناً بسبب الشرر الناجم عن ضرب الفحم المختلط مع البيريتت بأداة معدنية.

مرت الأيام الثلاثة الأولى لكن لم يفتح شايع مع رئيسه موضوع الأجرة بعد، مر أسبوعان والأمر على حاله. لم يكن يستلم أي شيء حتى مجرد ما يؤمن

له وجبة طعام واحدة في اليوم. في تلك الأيام كان يصيب من زملائه بعضاً مما يجلبونه معهم في صرر الغداء، رأس بصل او قطعة جبن أسود (سياخ بنير) او كسرة خبز (دوميز)، الواح سميكة صلبة من الشوفان والذرة يرش عليها الماء لتليينها قبل أكلها. استمر شايع كعامل تكسير ضمن ستة حفارين تحت إمرة الأسطة مراد، وهذا أربعيني متعفف قليل الكلام، لا يتهاون في العمل، له كلمة على الجميع. وجد في شايع صورة من شبابه، فأسبغ عليه حمايته، وكان ذلك ضرورياً لشايع، فملاحة وجهه وابتسامات المودة التي يوزعها على الجميع دون حساب فُسّرت من البعض على الوجه الخاطئ. وهناك ايضاً نجمي، الأبله الضخم، المتربص به من بعيد أينما ذهب.

مر أسبوع آخر، كان شايع يتوجه بعد ساعات العمل إلى ضفة نهر كيليجسو، يغتسل فيه ويغسل ملابسه التي لا يملك سواها، يعصرها بشدة ويجففها على نار، ثم يرتديها نصف رطبة لتجف على جسمه. يتوجه إلى أحد الكهوف المتروكة ليس بعيداً عن موقع العمل، يلقي بجسمه على لوح سنديان، هامداً مستنفداً كبقايا وليمة.

عرف شايع أن الأجرة تدفع أسبوعياً، ليرة وعشرون قرشاً، لكن مرّت الأسابيع، والاسطباشي يتملص من الدفع كلما سأله شايع. صبّره حيناً بقرشين وأخر بثلاثة. اشتكى مرة لمعلمه مراد، تصاعد الدم في رأس هذا وجرّه من يده الى الاسطباشي حين نزل إليهم يتفقد العمل.

"يقول هذا الشاب انه لم يستلم أجرته منذ أن باشر العمل هنا".

"وما دخلك انت؟"

"اعطه أجرته، الآن".

"اسمع.. انه يكذب، قد اعطيته أجرته أولاً بأول، اسمع، اسمع.. أنا لا آكل حق أحد، تعرفني يا مراد، عِشرة عمر، ولو".

التفت مراد الى شايع وسأله: "هل هذا صحيح؟".

هز شايع رأسه نفياً، رد الأسطباشي:

"انه يكذب وروح أمي، أقسم بالله والقرآن

المجيد أنني أعطيته أجرته كاملة، وفوق ذلك كنت أتصدق عليه بين الحين والحين بالخبز والسكر والصابون.. لكن ماذا أقول في ناكري الجميل، خيراً افعل شراً تلقى.. حسبـي الله ونعم الوكيل".

كان جميع العمال قد توقفوا عن العمل يتفرجون على المشهد الصاخب، جميعهم يعرفون من هو الأسطباشي، كان اسمه نامق، لكن فيما بينهم يشيرون اليه بـ (ناقص). ومع ذلك هالتهم الأيمان المغلظة التي كانت تترى عن لسانه كإطلاقات مدفع، حتى كاد بعضهم أن يصدقه.

شايع بقي صامتاً، كاتماً لغيضه، يعرف انه ان فتح فمه نطق كفراً.

"ها.. ها.. انظروا اليه، انه لا يرد... كاذب، ليس لديه ما يقوله".

بقي مراد وباقي العمال صامتين يتطلعون في وجه الاسطباشي بازدراء، كانوا قد عايشوا الشاب الغريب وخبروه طيلة الستة أسابيع الماضية، فوجدوه خلوقاً قنوعاً متعاوناً، والذي دفعهم أكثر للوقوف بصفه، أنه غريب وسطهم ليس له معين...

وجد الأسطباشي نامق نفسه محاصراً بنظراتهم، لم تجد أيمانه وتبريراته طريقها إليهم لإقناعهم بنزاهته، فاندفع ينصب آخر خطوط دفاعاته:

"اسمعوا، ادعو من الله ان يقصف عمري الآن، في هذه اللحظة، لو كنت أكذب".

شايع لم يحد عن صمته، لكن موجة الغبن التي كانت تمور في نسغه صعوداً ونزولاً سمّمت دمه واتخمته بكراهية صفراء لها مخالب وعيون وعروق، تميز وتنفث أزيزاً مكتوماً. استقرت بعدها تفور في رأسه، ثم شرعت تندلق من منخريه مع أنفاسه. إحمرّت عيناه كأنْ أصابها صابون، سخن الدم في أعلى أذنيه وابيضّ أسفلها. نفثت غدده مرارة وحموضة سدت مسامات جلده، ذلك هو الغضب بكامل سطوته يتمكن منه، غاصت أخلاق الدرويش فجأة أمام مد جبروته، توارى صوت العقل بعيداً، وصار كالغريق يكتم صريخه الماء... وقع في الفخ، أتراه سيستعيد رشده قبل أن ينهار كل ما أنجزه على مدى الشهور الماضية؟ الغضب حين يستحكم يورث طاقة محفزة، رقصة طقسية تستدرجك الى عالم حسي صاخب، طعم لاذع

يغوي بالسقوط الحر، الأمر لا يخلو من متعة، متعة الانفلات والتهور، وصل الأمر في شايع الى اقصاه، لم يعد يسمع أو يرى ولا حتى يتنفس.. استحال حضوره الى كتلة بدائية منقطعة الى نفسها.

انتبه الجميع الى عينيه الناريتين، وهيئته تتناوب عليها الألوان. خرس الأسطباشي، خيم عليه ظل جُرم ما، لم يتبين مصدره، انتابه خوف ثقيل أتعب له قلبه. لاحظ مراد الشر يتطاير من وجه عامله، وانّ شيئاً ليس على ما يرام يوشك أن يحدث، فترجاه أن يغادر ليواصل عمله، على ان يتولى هو الأمر بنفسه مع الأسطباشي.

شايع ثقيل غير متزحزح، مركزاً نظره على الرجل الذي صار نقطة مرماه، لم يكن هناك في جوفه

سوى ضجيج انشودة قاتمة، عبارة واحدة، تبلورت بوضوح حاد، كسكين حام يقد في قالب زبدة: "أريد أن أراه ميتاً، الآن"...

فجأة، وقبل أن ينهي الجملة في ذهنه، تخلخل ضغط الهواء من حولهم فكُتم على آذانهم، سرعان ما امتلأ الجو برائحة نتنة... بوووف، اشتعل الهواء بنار اندفعت ألسنتها بقوة هادرة الى جميع الاتجاهات، ثم خمدت فجأة كما بدأت، تم كل ذلك في أقل الدقيقة. تخلّف دخان أسود. سرعان ما انقشع قبل أن يجد العمال طريقهم الى الخارج... تلفتوا يطمئنون على بعضهم البعض، الجميع سالمون، عدا واحد، وجدوا الاسطباشي ملقى على الأرض، تجمع العاملون حوله... مات!... نعم مات.

تطلعوا الى شايع بذهول - احترام - وجل...
هذا رجل فيه شارة.

(24)

صحا شايع من نومه متأخراً، الكهف الذي تعود المبيت فيه، بقايا مرارة تخلفت تحت لسانه، حين انفرج جفناه، هاجمته في الحال ذكرى ما حدث بالأمس. فرفع يمناه بحركة لا إرادية وتشمم راحة كفه.. قد زايلتها الرائحة العطرة، صدمته في الحال فداحة خسارته. فنفرت دموعة وبدأ ينشج باكياً. لأول مرة منذ

أن انفصل عن مرشده جنكيز، وجد نفسه وحيداً، عاجزاً دون رعاية او سند، مع إحساس ثقيل بالذنب يخيم على مزاجه. استرجع في باله تعاليم الطريقة في مخالفة النفس، وتذكّر تأكيد مرشده عليه في عدم استخدام الأسرار حين الغضب، او إيذاء الآخرين، لكن وقع المحظور... قُتل إنسان.

كيف سيسامح نفسه، وكيف سيسامحه شيوخه. خور في قواه، لغط في رأسه، شعور رهيب بالفراغ. أدرك أنه ومنذ اللحظة التي غفل فيها وانقاد وراء نفسه، أُقفلت دونه أبواب الأسرار، وقُطع عنه المد، وتبلد فيه الوجد. عرف انه أُعيد الى ما كان عليه قبل أخذ العهد، رجع وجهاً لوجه مع دنيا صماء، بعد أن ذاق طعم الصعود، كأن العالم عاد كما كان، باهتاً

ومملاً كمزحة راهب.

كان قد أخذ كامل أجرته من رئيسه مراد، الذي شرع بدوره في تسيير أمور العمل بعد موت الاسطباشي، عرض على شايع أن يبقى، وأنه سيرقّيه ليكون رئيساً للعمال، لكنه اعتذر وقال له أنه ليس بإمكانه البقاء في هذا المكان بعد الذي حصل.

تحامل على نفسه، نهض واقفاً، اختار أن يتم ما جاء لأجله أصلاً في إربلي رغم الذي جرى، بدل أن يجلس مكانه في انتظار نتيجة بتّ مشايخه في أمره بعد الذي استجد. آخر وأصعب مرحلة من رياضاته، أن يشتري جوزاً، يوزعه على الصبيان ليقوموا بإيذائه. حين عزم على البدء، انتبه الى انه، في وضعه ذاك، كان بأشد الحاجة، الآن، لمثل هذا الشيء ليقتص به من

نفسه. استطلع قلبه قبل ان يهمّ بما كان مقدماً عليه فوجده مجدباً، يباباً، كأرض بور. مع ذلك، اختار أن يواصل طريقه.

توجه إلى سوق البلدة ليشتري حبات جوز. لحسن حظه، بالأحرى لسوئه، إن أشجار الجوز في تلك الأنحاء تزرع بغزارة وهي من الرخص، حتى إن البائع منحه أربعة شوالات كبيرة، زنة الواحد أربعين رطلاً، مقابل الليرات الخمس التي جمعها من العمل. حمل شايع شوالاً على عاتقه وأودع الباقيات عند البائع، يرجع إليها على التوالي حتى آخرها.

توجه بشوال الجوز الأول، وكان ثقيلاً عليه، الى أزقة وحواري إيريلي، توقف عند أول مجموعة صبيان، حاول معهم، لم يتقبل أحد منه عرضه، انفضّوا

هاربين من حوله كما العصافير تنفضّ عن أفعى مجلجلة. تابع مسيره وحاول مع غيرهم، لكن حدث الشيء نفسه معهم، أدرك لاحقاً أن جميع اهالي البلدة صاروا ينظرون اليه بوجل وتحسّب بعد الذي حدث مع الأُسطباشي. سلّم شايع بأنه لا فائدة ترتجى من السعي فيما عزم عليه في إيريلي، فقرر أن يبتعد الى مكان ناء قدر الإمكان، عسى ان قصته مع رئيسه لم تصل إليه بعد.

اختار ميناء زونغلداك، مسيرة يومين عن إريلي، ذهب ماشياً، لم يبق معه أجرة ركوب، ومع حمله الثقيل، صار الطريق عليه عذاباً مضاعفاً، خاصة وقد حُبس دونه المد، وانقطعت الأحوال.

اذهب الآن وسدد ما عليك... الإشارات التي

كانت تحتفي به في السابق تخلت عنه الآن. تشوشٌ وتوهان اعتليا حزنه على نفسه. شعور طاغ باللاأمان حفّ به من ست جهات. استوعب حينها تحذير مرشده له قبل بدء رحلته الى إريلي، معنى ان ينقطع المدد عن الدرويش....

الأزقة والدروب في ميناء زونغلداك أقل تعاسة مما هي عليه في اريلي، مدينة أكبر بكثير من هذه الأخيرة، تتجمع فيها كل حمولات الفحم الآتية من إريلي والمناجم القريبة، ليتم شحنها في سفن إلى مدن أخرى. أغلب السكان إما عمال في الميناء او صيادون، وكما في جميع الموانئ، ترى الناس أكثر تنوعاً وازدحاماً، الشوارع تعج بالنصّابين والمتسولين. هناك ايضا عصابات من صبيان يمشون بمجاميع، يطلق

عليهم الأهالي اسم "زوربلاري"، عملهم هو التقاط ما تخلّف من حمولات القوافل الداخلة والخارجة من والى الميناء، تلك المجاميع شديدة الخطورة، وغالباً ما تشتبك فيما بينها على مناطق النفوذ. إذا ما تهيأ لك أن تشهد إحدى معاركهم، سيذهلك كم وحجم الأسلحة التي تخرج فجأة من تحت ملابسهم.

أدرك شايع ساحة مراد بيك، وسط المدينة مساء، كانت الحركة بطيئة، لم يعره أحد من المارة انتباهاً. الناس هنا تعودوا رؤية الغرباء في شوارعهم. جلس ليرتاح على دكة فارغة، لمح صبياً في العاشرة ينبش في قمامة على بعد بضعة أمتار منه، ناداه وعرض عليه جوزة، فمد هذا يده ليأخذها، قال له شايع:

"لن تنالها إن لم تصفعني او تبصق في وجهي".

نظر اليه الصبـي مستفهماً، لعله ظنه مخبولاً، ابتعد خطوة الى الوراء وعيناه على الجوزة. شجعه شايع:

"لا تخف، خذ. هاتان جوزتان، كل ما مطلوب منك، ان تصفعني فتفوز بهما، شيء بسيط".

الصبـي لا يتحرك. حارَ شايع، حاول أن يبدد شكوك الصبـي:

"حسنا يمكنك ان ترميني من مكانك بحجر، وستكون الجوزتان من نصيبك".

الصبـي لا يستجيب، يئس منه شايع، فهمّ بإرجاع الجوزتين الى الخرج. لكن قبل ان يرفع رأسه تلقى حصاة كبيرة على أذنه، أدمتها في الحال.

بعد أقل الساعة تجمع على شايع صبيان إحدى عصابات الزوربلاري، وكانوا يتناوبون على ركله ولطمه وضربه بالعصي والبصق عليه، وقد وجدوا في تلك اللعبة مرحاً كثيراً. ثم صاروا يتبارون فيما بينهم في تكسير الجوز على رأسه. بعد أن أفقدوه وعيه، أخذوا ما تبقى في الخرج، وكان كثيراً، وهربوا به تاركين شايع مرمياً على الأرض، غائباً عن وعيه.

فاق في صباح اليوم التالي على لغط ثلاثة رجال يرفعونه عن الأرض ويمدونه على دكة حجرية. غسلوا له وجهه، ووضعوا قربه صرة فيها خبز وجبن،

وارجعوا إليه خرج جوزاته، يبدو انهم استعادوها من الصبية. وصل الى اذنيه المقفلتين بدم متخثر، جمل متقطعة، وهو نصف صاح، أحدهم يخاطبه:

"احذر يا غريب من أولئك الزوربالية..."..
"إن أردت مكاناً آمناً تُصرّف فيه بضاعتك فاذهب الى ساحة جلبار حيث الدرك هناك على مدار الساعة".

بقي مسدوحاً في مكانه إلى ما بعد منتصف النهار. شوته شمس الظهيرة حاول أن يفتح عينيه المنتفختين، تحرك كي ينهض فسقط من الدكة، تحامل على نفسه، أحس بجسمه مضعضعاً كبزاقة تناهشتها الطيور. قرصه جوع شديد، كان قد مر عليه نهاران دون أن يدخل لجوفه شيء. تحامل على نفسه ناهضاً وتوجه الى مسجد قريب، ساحلاً خرجه خلفه. غسل

وجهه ويديه، صب ماءً بارداً على رأسه. شرب حتى ارتوى، ثم جلس وأكل الخبز والجبن اللذين تركا له. احس بفارق كبير، لم ينتظر طويلاً، حمل خرجه على ظهره، وبدأ يسأل عن الطريق المؤدي لساحة جلبار. بدا كالمقاتل المهزوم، يسأل عن مكمن عدوه ليلوذ به.

وصل الى هناك قبيل غروب الشمس، وقف أمام اول مجموعة صبيان، كانوا يلعبون الباش طاش، طلب طلبه من أحدهم، تلفت هذا الى اقرانه غير مصدق ما سمعه، انطلق ضاحكاً، تجمع آخرون حواليه، يتبادلون تعليقات ساخرة. رأوه حاسر الرأس، ازرق الوجه، ملابس ملطخة ممزقة، ولكنة غريبة، أمور وجدها الصبيان جديرة بالازدراء، كانوا سيضربونه على أية حال حتى إن لم يُطلب منهم ذلك.

أحدهم جرّب أن يختبر قوة كفه على وجه هذا المعتوه، فكافأه هذا بجوزة... استظرف بعدها الصبيان اللعبة، فتوالوا عليه بالدور.. الذي يلطم، والذي يركل، يصفع، يبصق، يضرب بعصا ويرجم بحجر، وكلٌ يأخذ جوزته. بعد هؤلاء، جرجر شايع نفسه متنقلاً من جماعة الى اخرى حتى اتم جميع حمله من الجوز بعد نحو ساعة من صلاة العشاء.

أخذ الخرج الفارغ وذهب لجامع السلطان مامت، أكبر جامع في المدينة، كان يغلق أبوابه أمام الناس بعد صلاة العشاء، لكن يبقي باحاته مفتوحة للفقراء والمشردين، يقضون ليلتهم فيها ويصيبون ما تيسّر من صدقات المحسنين. أصاب شايع لنفسه مكاناً بينهم، رمى نفسه على الأرض متوسداً خرجه الفارغ،

كان منهكاً متعباً، ومع ذلك لم تغمض له عين طيلة الليل من لسع الألم. كان يئن من جميع أجزاء بدنه، الا ان جيوباً حول عينيه، وخاصرته من ناحية الكبد كانت الأشد بينها.

لم يساوره شعور بالغبن او الرحمة على نفسه للحظة، لم يعد يرى أن مكافأة الأولاد، الذين يؤذونه، ضرباً من العبث كما ظن في البداية. أحب المعتدين عليه وخاصة الذين أمعنوا في إهانته وإيذائه، كانوا بنظره، يد العدل التي سترد الأمور الى نصابها.

رغم أنه كان ينتظر إشارة الصفح من شيخه، لكنه لم يستعجلها، أراد مخلصاً أن يخوض التجربة للآخر، أن يدفع الثمن كاملاً، ومن يدري، ربما لن ينال الصفح مطلقاً.

لبث يومين متتاليين حول الجامع، يقضي ليله في باحته، أما في النهار، حيث لا يسمح للمشردين دخول البناية خارج أوقات الصلاة، يستلقي عند السور من الخارج، ويأكل مما يجود به السابلة. بعد مرور اليومين، شعر شايع ببعض تحسن، خفّت أورامه، تمكن من الرؤية دون غبش، واسترد بعض قدرته على المشي. مشى في الحال راجعاً إلى إريلي ليجلب شوال الجوز الثاني، ومن ثم العودة من جديد إلى الميناء، يوزعه على الصبيان.

استمر على هذه الحال ثلاثة أسابيع، ما بين إريلي وزونغالدوك. ما بين مبيت في الجامع والسعي على الصبيان، وما بين يأس من تغير الحال وأمل في نيل المغفرة... حتى لم يبق في خرجه الأخير سوى

أربع جوزات. لكن مع اقتراب نهاية مسعاه، تخلفت تلك الجوزات في حوزته، لم يجد صبياً واحداً يقبل واحدة منها في ذلك اليوم. كان خبره قد وصل المدينة على أنه رجل فيه شارة، وقبل ذلك، قد عرفه الناس لكثرة ما أهين وضرب في الشوارع، فاشفقوا عليه وأوصوا به، وصاروا يتداولون بشأنه حكايات وأقاويل.

تغيرت سحنة شايع تماماً خلال تلك الأيام، تحولت بشرته للون التراب، نحَلَ كثيراً، نتئت عظام وجهه وأضلاعه، جحظت عيناه، غار صوته، ثقلت حركته ونتنت ريحه، صار كالميت الذي قام من قبره تواً. انبرى ذلك النهار عليه متنقلاً من زقاق الى زقاق ومن شارع الى شارع، لكن دون تمكنه من إغواء أي صبـي بواحدة من جوزاته الأربع. ذهب أبعد قليلاً الى

مناطق جديدة لعل الناس هناك لم يسمعوا بقصته بعد، لكن لا فائدة، جف ريقه ونضب ما تبقى في عروق ساقيه من حياة.. تأكّله اليأس، لم يبق أمامه سوى التوجه الى ساحة مراد بيك، حيث مراتع صبية الزورباليه، ليصرّف آخر ما تبقى من بضاعته.

وصل هناك بصعوبة، يجر نَفْسه جراً، اقترب من إحدى مجاميعهم الصاخبة، كانوا جالسين حول قصعة كبيرة يأكلون ثريداً بالسكر، عرفوه في الحال، وقف أمامهم ورفع كفه مفتوحة وفيها الجوزات.

لكن مهلاً... كأن شيئاً غريباً، لفت انتباهه. لاح لناظريه من بعيد في تلك اللحظات... وهو واقف هناك، تهيأ له أنه يلمح على الجهة الأخرى من الساحة، صبياً في حوالي العاشرة من عمره مليح الوجه بجلباب

نظيف، شعره طويل ناصع البياض لا يتناسب وعمره، كان متربعاً على مكان مرتفع لإفريز سور صخري، مبتسماً يحدق من مكانه الى شايع، ولعله أشار بيده محيياً إياه من هناك. شايع، ورغم الحالة التي كان عليها، ميز في الصبـي وعموم هيئته أنه لا ينتمي، بأية حال من الأحوال، لنسيج تلك البيئة، كما لو كان انعكاساً لبدر على وجه مستنقع أسود. وشيء آخر، كان يشبهه إلى حد كبير، كأنه صورة طبق الأصل منه حينما كان صبياً، نسخة محسنة. نفض رأسه بقوة، ليركز على ما جاء من أجله، رجح مع نفسه أن أشياء غير حقيقية بدأت تتراءى له.

أدار انتباهه لصبية الزوربالية، يطالع وجوههم بانكسار، مشرعاً كفه بالجوزات دون أن يرى

داعياً للكلام، فمغزى جوزاته بات معروفاً للقاصي والداني.. لكن لم يستجب إليه أحد منهم، تطلعوا في هيئته المخيفة ثم نظروا الى بعضهم البعض بعيون طرائد أحست بخطر وشيك، دفع كبيرهم قصعة الثريد نحو شايع بطارف كفه. تراجع بحذر خطوتين الى الوراء، ثم انطلق يعدو بعيداً غير متلفت خلفه، سرعان ما تبعه الباقون مهرولين بشتى الاتجاهات كما لو كانوا يفرون من ملك الموت جاء يحصد أرواحهم.

بقي وحيداً في المكان، بلا حيلة، ولا بصيص طاقة يواصل به سعيه، تلفت حوله، لا ناس ولا صبيان ولا دواب، خلا المكان تماماً كأن المدينة أصابتها لعنة أتت على جميع الحيوات فيها. سقط شايع على ركبتيه، عرف في تلك اللحظة أنه هُزم، لا أمل له بنيل الصفح،

سيقضي باقي حياته تائها يحمل ذنبه على كتفيه أنّى ذهب. انبطح على وجهه يائساً، وسط القذارة التي خلفها الصبيان، مستَنفداً كقشرة قرع يابسة، ظلّ هكذا، ليس له طاقة حتى على البكاء. من يراه يظنه بقايا مهملة لم تعد تسترعي الإلتفات...

"هيه.. انت.." سمع صوتاً رفيعاً يناديه من بعيد..

بالكاد رفع رأسه يستطلع مصدر الصوت، فإذا به هو، ذلك الصبـي ذو الشعر الأبيض، ما زال هناك متربعاً على مقعده، حقيقي الى أبعد حد، يشير إليه الآن أن يقترب نحوه.

تمعن شايع من مكانه ناحية الصبـي. هل

تخونه عيناه، لا، كانت صورته جلية تشع بقوة على خلفية عالم كالح، لا يمكن للعين أن تخطئه بتاتاً. كانت في اشارته دعوة لا يمكن تجاهلها.

نهض شايع، لا يعرف من أين جاءته القوة للنهوض، مشى مسحوباً بذلك الاتجاه. وصل عنده، دخل حيزه، فاحس، وفي رمشة عين، بنفحة سلام شملته بالكامل، شغلته للحظة عن زرايته بحاله. جر نفساً كاملاً، شهيقاً وزفيراً لم يحدث له ذلك منذ زمن طويل. وقف أمامه مسحوراً بإشراقة وجهه، وذلك الشبه الفظيع الذي يجمع بينهما.

سأله الصبـي بصوت نقي متعاطف:

"كم تبقّى عندك من جوز؟".

دسّ شايع كفه في خرجه وأخرج له الحبات. نظر اليها الصبـي من مكانه واقترح مخلصاً، دون تخابث:

"حسنا، سأضربك على رأسك كما لم يضربك أحد من قبل، لكن مقابل ذلك سآخذ منك جميع ما تخلف في جعبتك من جوز، هل توافق؟".

هز شايع رأسه موافقاً، لا يقوى على النطق. شعر أمامه بتفاهم لا نهائي، وكأنه توأمه.

"سلمني الجوزات أولاً".

مدّ يده إليه يناوله حبات الجوز، تلقاها الصبـي منه بكلتا يديه ثم دسها في عبه بعناية كما لو كانت حبات لؤلؤ. نظر اليه باستقامة، تبسّم ونطق بنبرة

ودودة:

"الآن، اقترب اليّ اكثر واحنِ رأسك".

فعل شايع ما طُلب منه، سلم له رأسه، أغمض عينيه، ولبث ينتظر.

تهيأ له أن انتظاره طال، لكن، وبعد حين بدا طويلاً، أحس بكف ثقيلة تحط بلطف على رأسه.. فإذا... بوووم.. إعتورته حزمة (أحوال) كانت جميعها جديدة عليه تماماً..

في البدء، انضغط جوفه إثر عصف بهجة وحشية صاخبة لا طاقة لامرئ على حملها، فأصابه دوار شديد، وفقد الإحساس بأطرافه، اختلّ توازنه وكاد يطيح أرضاً، لولا الكف التي استحكمت بناصيته وابقته

ثابتاً في مكانه مهيأ لما سيأتي: الجذوة التي ستُزرق فيه لتسلك طريقها نحو ما تبقى من ذبالته، تلك التي سبق وذوت وشارفت على الانطفاء... متيحة مكانها قبساً صغيراً استُمد من بحور الأنوار العلوية، درجة جديدة لم يكن مهيأ لبلوغها بعد... غَمَره فيض النور الجديد في الحال بمد كاسح، تخلّعت به أوتاد وجوده، وتصدّعت البرازغ المكينة بين ظاهره وباطنه، واترعت جمجمته برموز لغات ليست من هذه المجرة... تفتقت الحجب وتغبشت الرؤية واستحال حضوره إلى فكرة مضببة هائمة، كون صغير يلف حول نفسه بسرعة هائلة، مولداً، وبإطراد، صواعق من الغبطة ارتفعت به خارج تخوم أطواره..

تسارع نبض شايع إثر تدافع كل هذه الأحوال

فيه بالجملة، حتى كاد قلبه أن يتوقف، لم يتحمل بدنه الضعيف كل ذلك الذي انفتح عليه دفعة واحدة. الا انه، وبعد ان أدرك أنه صار على عتبة الموت... انتفض وصرخ صرخة مدوية ارتجت لها اركان المكان، ثم خرّ على ركبتيه منهاراً، يهذي بصوت صاخب مدمج ليس من الكلام بشيء، استمر هكذا حتى تدرّج عائداً الى نفسه، وخفت عليه (الحال).. سكن.. تماما... لبث... ساجداً... مغلق العينين، يلهث بقوة كالذي أُنتشل تواً من قاع نهر.. منح لنفسه برهة يسترد فيها رشده ويستوعب ما حصل له، أراد أن يتأكد أولا انه ما زال موجوداً، وأنه ما زال هو نفسه.

بعد أن انتظمت أنفاسه واستقر نبضه، رفع يمناه يتحسس بها وجهه، فاذا بالرائحة الزكية تعود إليها

بأقوى مما كانت، كأنها رخصة لبعث الحياة فيه من جديد، في اللحظة التي تنشقها، فهم في الحال ما وراء ذاك الذي حدث له قبل قليل، تنهد وفتر فمه عن ابتسامة... لقد مُنح الصفح، ليس هذا فقط، بل وأدرك انه وُضع في مرتبة أعلى، يتاح له فيها، من الآن فصاعداً، أسرار لا تكشف إلا للخواص. اليوم أتم صعوده من مرتبة (الأحوال) إلى مرتبة (المقامات). رفع رأسه الى المكان الذي جلس عليه الصبـي ذو الشعر الأبيض، يريد أن يعرف من يكون، فلم يجده هناك، تلفت حوله في جميع الاتجاهات، لكن لم يكن هناك ثمة أثر لذلك الصبـي بالمرة. تحسر شايع على ما فاته منه، حلم جميل انقطع عليه فجأة، أجمل بكثير من أن يكون حقيقة، وخلّف فيه انطباعاً لذيذاً مشوشاً...

"ترى من يكون؟".

سيردد شايع ذاك السؤال كلما فرغ الى نفسه ما دام يتنفس. إشراقة ذلك الوجه وطلّة ذلك الحضور ودفئ تلك الكف.

"ترى من يكون؟!".

المكان ما زال خالياً، إلا أن العالم لم يعد غريباً، رجع من جديد مفتوحاً على بعضه. تحسس شايع أجزاء بدنه ووجهه.. يا الله!!، قد زايله الألم تماماً واندملت جميع جروحه حتى لم يعد هناك من أثر لرض أو كدمة.. شعر بنفسه خفيفاً من جديد، عاودته قوته، بل أحسّ لحظتها انه كائن بلا حدود، أرحب بكثير مما كان عليه،.. دمعت عيناه تأثراً. أقعى على الأرض، وانفجر

يجهش باكياً، بكاء حاراً متواصلاً، نفث فيه ندمه وتوبته وضعفه... مرارته وتعبه وهوان الأسابيع الماضية... شوقه ولهفته وعرفانه. الأبن الذي عاد الى البيت بعد أن ضل طريقه... بكى وبكى وبكى، بحرقة، حتى تيبس فكاه ونشفت عيناه وتشنجت عضلات خديه.

بعدها شعر ان أحشاءه نظفت وأُنهكت من الجلي حتى صارت تلمع بما ليس من طبعها. لبث بعدها هناك في مكانه صافي الذهن، جلس حين من الوقت لم يحسب مداه. ثم فجأة مر في باله:

"ماذا بعد؟ أين أذهب الآن؟".

تذكر شايع ما قاله له مرشده جنكيز قبل الرحلة بأنه، وبعد إتمامه لمهمته في إريلي، سيعرف

حينها ما سيكون. فنطق بصوت مسموع:

"حسنا، أظن انني قد انتهيت من إريلي".

وقبل أن يرتد اليه رجعها، تناهى الى سمعه صوت من خلفه ينادي عليه:

"خليفة شايع.. خليفة شايع.. أين انت يارجل؟".

من ذاك الذي يناديه بـ "خليفة"، لا أحد في هذه المدينة يعرف انه درويش. التفت ناحية المنادي فإذا برجل يهرول مقترباً إليه، كانت لكنته وملابسه تدل على أنه إسطنبولي. وصل اليه منقطع الأنفاس، بدت هيئته ليست بالغريبة على شايع. تناول كف شايع في الحال فقبلها وفعل شايع الشيء نفسه معه.

"حمداً لله انني وجدتك، كنت ساعياً ثلاثة أسابيع أجدّ في أثرك".

".... اهلا بك يا لأخ، لكن عذراً إن خانتني الذاكرة، هل أعرفك؟".

"أنا أعرفك، ولا أظنك تعرفني، اسمي خليفة بيمان، أنا من دراويش حضرة الشيخ السندي".

"اهلا بك خليفة بيمان، وكيف عرفت طريقك اليّ وانا لم انقطع اتنقل من حي الى حي ومن بلدة إلى أخرى؟".

"لم يكن ذلك علي سهلاً، لكن أبشر، فإن صيتك ملأ الأنحاء، والناس هنا يحكون عنك الأعاجيب".

"استغفر الله، هل لي أن أعرف السبب الذي حدا بك لاتباع أثري كل تلك المسافة؟".

انقلبت ملامح الرجل، هوى على ركبتيه وانفجر باكياً:

"الهول الهول، المصيبة المصيبة، والله يستر من الآتي".

مسكه شايع من كتفيه ليهدئه:

"اهدأ يا خليفة واخبرني مالذي حصل".

"ماذا اقول.. انتهت السندية وقُضي علينا جميعاً".

هوى قلب شايع في جوفه، وغامت عيناه،

صرخ به ضاغطاً على رمانتي كتفيه:

"أجننت يارجل، كيف تقول هذا؟ ما الذي حصل بالضبط؟".

"وقعت أمور جسيمة من بعدك...".

كان ينطق كلماته من بين لهاث ونحيب ليبلّغ عن جلية المصيبة..

"... بعد أن تآمر المتآمرون على خلع السلطان عبد العزيز وتنصيب ابن أخيه محله، الشاهزادة مراد ابن السلطان عبد المجيد".

"ماذا؟!".

"اسمعني للآخر يرحمك الله... لم يمر يوم

واحد على خلع السلطان حتى وقعت الواقعة، صادف ذلك يوم إحياء المولد، حيث، وكما تعلم، يجتمع الدراويش من كافة الأرجاء، فإذا برجال ملثمين أغاروا على التكية بعد ان سدوا جميع منافذها، ثم نزلوا يذبحون كل من كان فيها، مبتدئين بحضرة - هنا انشخط صوته- الشيخ السندي... وخليفة جنكيز، وبعد أن فرغوا خرجوا يجدّون في إثر من نجا ومن لم يكن هناك... وقد علمنا بعد حين أنك.. على رأس المطلوبين".

الفصل التاسع
أكزع

(25)

2006

بدأ الأمر معي كالآتي، في 2006 كنت أشرف على رسالة ماجستير في جامعة بغداد لأحد الطلاب اللامعين حينها، اسمه يونس عيادة، هو الآن أستاذ انثروبولوجيا في جامعة برنستون، رسالته كانت

بعنوان: "اثنولوجيا بادية غرب الفرات"، تناولت عينات قبلية "نقية العرق". والنقاء هنا إثني- ثقافي لقبائل استوطنت أراضي بقيت بعيدة عن موجات الغزو الأجنبي عبر التاريخ، لقلة مواردها أو قسوة طبيعتها... المهم، جاء في الرسالة ذكر عرضي للجد الاكبر لعشائر "البوطرف" المعروفة والتي تسكن جنوب وشرق مدينة راوة، اسمه "هيباش"، عاش في النصف الثاني من القرن السابع عشر. أول ما لفت انتباهي، غرابة الاسم وجرس نطقه، ثم، لا أعرف لماذا أو كيف، وجدت نفسي أردده بإلحاح على مدى أيام، تارة أتهجاه وأخرى أهمهم به وأخرى أغنيه في خلوتي وخلافها، هيباش لسمر ما يكلّي مرحبا. حتى بدأ الأمر يلفت انتباه البعض من الأصدقاء وزملاء العمل:

"عفوا، هل أنت بخير، أراك تكلم نفسك أحياناً؟".

وانا أداري واتملص:

"حال البلد يا أخي! انظر حواليك... لطفك يا رب".

في تلك الأيام كانت الحرب السنية - الشيعية على أوجها في بغداد، ومن العادي أن ترى الناس في الشوارع يكلمون انفسهم وهم يمشون.

في السابعة من عمري، مات والدي أمام عيني بعد تلقيه اطلاقة عرس طائشة في رأسه. تدهورت على إثرها حالتي النفسية وأصبت بمتلازمة "باليلاليا"، نوع من الوسواس القهري "أو سي دي"،

من أعراضه ان أردد كلمات أو جملاً بعينها آلاف المرات خارج نطاق سيطرتي، حتى يجف فمي ويتشتت تركيزي ويضطرب نومي وأصل أحياناً الى حافة الجنون. تركت المدرسة ذاك العام لعدم احتمالي سخرية الصبيان والمعلمين. حارت أمي معي وجربت علي كل أنواع الطب النبوي، لكن دونما فائدة. لم تكن عيادات الطب النفسي تلك الأيام، حلاً لمن هم في مثل حالتي، بل اقتصرت حينها على استقبال حالات الجنون الرسمي، وما زالت كذلك حتى الآن على أغلب الظن.. لكن، مع مرور الأيام خفّت الحالة عندي بالتدريج، ثم تلاشت تقريباً قبل بدء العام الدراسي التالي. غير أنها خلّفت فيّ شعوراً طاغياً بالخجل حين التكلم في الأماكن العامة، لازمنى حتى الآن. لم تعاودني الحالة منذ ذلك التاريخ. لكن وبعد أربعين عاماً وجدت نفسي أردد كلمة

ما بدافع قسري، فخشيت من ان "باليلاليا" عادت إلي من جديد، ربما بسبب ضغوط الحرب والتفجيرات ومشاهد قطع الرؤوس.

أحيانا كنت ألجأ الى تبديد الاحراج بسؤال خارج سياق الحديث، في أغلب الأحيان، لكل من أصادفه واقفاً قربـي من زملاء او أصدقاء او جيران:

"عذراً، هل يعني هذا الاسم لك أي شيء؟".

لم يفاجئني أن أكثرهم لم يسمعوا به اطلاقاً. لكن يبدو أن كثرة ترديد السؤال يقود، بصيغة من الصيغ، الى نتيجة، جاءني جواب من رجل تنحدر عائلته من غربـي الأنبار، بالتحديد من مدينة راوة، لم يكن من ذوي الاختصاص، بل معلم اللغة العربية لواحد

من أولادي. ميّز الرجل اسم "هيباش" حالما سمعني أردده أمامه، فأفرحه انني أعرف اسمه، وانطلق يثرثر دون توقف، يخبرني بشأنه اموراً أغلبها كان سخيفاً، وأخرى وجدتها، للأمانة، مثيرة للاهتمام. منها أنه كان يكنّى بـ "الأكزع" لوجود علامة على جبهته منذ الولادة، هي أقرب للوسم. وقال أيضاً، من ضمن ما قال، أنه صيغت بشأنه حكايات شتى، ما زال بعضها متداولاً في مناطق غربـي الفرات حتى الآن. ثم أنهى هذره بقصيدة قديمة من الشعر النبطي. لم أخبره طبعاً أنني لا أطيق سماع هذا الصنف من الشعر جملة وتفصيلاً. القصيدة كانت طويلة ومملة، حوالي نصف مليار بيت في مدح هيباش، ينطق فيها اسمه، ولا اعرف لماذا، بكلمتين: هايي - باش، ما زلت أتذكر مطلعها:

"هايي باش فيه العلم
مكنون

يندل به سهيل بسود
الليالي"..

الغريب في الأمر، أنني وبعد لقائي بذلك المعلم، والاستماع منه لتلك الأخبار عن هيباش، لم يعد الاسم يتردد على لساني وبتلك الطريقة المنفرة للأعصاب... برئت منه فجأة، تنفست الصعداء. لم تكن باليلاليا هذه المرة على أية حال. لكن، هل انتهى الأمر عند ذلك الحد؟

بالطبع كلا، جرني بعدها فضول الباحث،

وبدافع العلم بالشيء ليس إلا، للاستعانة بالعم غوغل-عرب-ي من أجل معرفة إن كان لاسم "هيباش" أي ذكر في المصادر الموثوقة. ادخلت الاسم وضغطت على زر البحث، فظهر لي مصدران، الاول اشار للإسم كما كتبته، وكان عنوان لحكاية تراثية ضمن كتاب حمل عنوان "ليال عربية جديدة" ضم 162 حكاية مختارة من العراق ومصر والشام، كتبه الايرلندي آرثر أوسوليفان، الذي قدم إلى العراق عام] كآثاري متدرب ضمن البعثة التي ترأسها حينذاك عالم السومريات البريطاني هارلي وليامز لمدينة بابل. أوسوليفان لم يعد الى بلاده بعد أن أتمت البعثة مهمتها، كما فعل زملاؤه، بل اختار الاقامة في المنطقة، وبقي هناك لأكثر من خمسة عشر عاماً، عاش خلالها حياة بوهيمية، متنقلاً ما بين بغداد والقاهرة وبيروت. وألف

عدة كتب في الآثار والتراث والأدب، كان منها "الليالي.." والذي لم يتم نقله الى العربية حتى عام 1952 بمبادرة من دار "بيت التراث" في القاهرة.

أما المصدر الآخر فيذكره باسم "الهبش"، وهو أيضا عنوان لحكاية ضمن كتاب "مجمع الحكايات العراقية" للباحث أدور آكوبيان، والذي جمع فيه 553 حكاية تراثية من جميع مناطق العراق. حصلتُ على الكتابين لاحقاً، وقرأت الحكايتين بتمعن. الأولى يرجع زمنها، على الأرجح، للقرن السابع عشر، أحداثها تدور في مناطق شمال غرب الأنبار. والثانية، حدد الكاتب زمنها في بدايات القرن العشرين، تدور أحداثها في جنوب العراق بالتحديد. الحكايتان مختلفتان تماماً في الزمان والمكان، لن أخوض الآن في تفاصيل كل

منهما، الا إن الملفت في الأمر، أنني وجدت الشخصية الرئيسية في كل من الحكايتين: "هيباش" أو "الهبش"، تشترك مع الأخرى في الكثير من الصفات، وقد اختصرها بالآتي: رجل غامض، لا ينتمي إلى عشيرة محددة، يظهر فجأة في مكان معين، يقطن فيه ويختلط بناسه لفترة، يتزوج منهم، ينجب.. ثم يختفي فجأة كما ظهر، وسيم، شعر أبيض طويل، له كارزما وتأثير طاغ على الآخرين، والأهم، وجود علامة على جبهته، كما ذكرها معلم ابني آنفاً. أُطلق عليها في الحكاية الأولى "كَزعة" وفي الثانية "قزّة"... حسناً، حتى الآن ليس ثمة ما يلفت الانتباه في كل هذا، فمن الوارد أن تنتقل الشخصيات الحكائية دون صعوبة بين تراثي بيئتين متجاورتين.

انتهى الأمر هناك، او هذا ما اقنعت به نفسي حينها لفترة. ظل صدى الحكايتين يتردد في ذهني طيلة ما بعد ذلك، مع ظهور أسئلة أخرى كثيرة لم اعثر لها على إجابة. فرغم الاختلاف الواضح بينهما في المتن وطريقة القص، إلا أن ثمة أمر غامض يميزهما عن باقي الحكايات لم أقع حينها على فحواه، وكأن الشخصية الرئيسية التي اختفت في أحدهما، سافرت عبر الزمن لتظهر في زمان ومكان مختلفين، وتكون قصة أخرى بالبطل ذاته، كما يحدث في أفلام الخيال العلمي. ذاك الغموض داعب فيّ فضول الباحث لمعرفة المزيد بشأنه، وهل أن لذلك الأسم وجود حقيقي في التاريخ. مرّ في بالي الرجوع لطالب الماجستير، يونس عيادة، وسؤاله عن مصدره الذي استمد منه معلوماته عن الشخصية. وجاء رده مخيباً، قال لي انه أخذها من

روايات شفهية لنسّابين من سكنة تلك المناطق. قررت بعدها أن أتوقف عند ذلك الحد، فليس من السهولة البحث في أمر دون توفر المصادر الكافية بشأنه. ببساطة، قررت نسيان الموضوع، فثمة أوضاع دموية كانت تمر بها البلاد في تلك الأيام، تجعل جميع ما سواها يبدو ثانوياً.

لم تمر سوى أسابيع حتى اكتشفت، مرة أخرى، أنني كنت متوهماً بشأن مسألة نسيانه. نطت في بالي فكرة تجريب مقارَبات أخرى للوصول الى رأس خيط، قلت مع نفسي: ما دامت شخصية هيباش/ الهبش تظهر في الحكايتين على أنها غريبة، قدِمت من منطقة بعيدة، وهذا أيضا ما توحي به غرابة الاسم بصيغتيه، فهو وكما يبدو ليس عربياً، فلأوسّع دائرة البحث قليلاً،

تحولت هذه المرة إلى غوغل ـ انغليش، وانزلت الأسم في محرك البحث بعدة صيغ، مغيراً في بعض حروفة، وقد ساعدتني خبرتي الطويلة في البحث على تجريب أقرب البدائل المحتملة دون الابتعاد عن الأصل. نجحت الفكرة الى حد ما، وإذا بـي احصل على عشرات المصادر. غربلتها على أساس مطابقتها للأوصاف التي في حوزتي عن هيباش/الهبش، وجاءت المحصلة غير متوقعة، ثلاث شخصيات حكائية، مشابهة لما عندي الى حد كبير، ترد في تراث ثلاثة شعوب مختلفة وفي أزمان مختلفة، لكن بتسميات قريبة الشبه الى بعضها لدرجة تثير الأهتمام، الأولى من الهند واسمها "هايباس" والثانية من تركيا: "هابشي" والثالثة في اليونان "هيباسوس". الثلاثة يشتركون بالأوصاف الرئيسية عينها.

لا يمكن أن يكون ذلك التكرار محض مصادفة: عينان سوداوان واسعتان وشعر طويل ابيض، والثالثة والأهم، العلامة على الجبهة.

وهكذا، جرني فضولي أكثر فأكثر خلف تلك النغمة الملحاح، تلك التي خلتها منفّرة في بادئ الأمر، ولم تنقطع تتردد في بالي، فإذا بها تتحول، فيما بعد، لأن تكون السبب الرئيسي لشروعي في رحلة بحث طويلة، قادتني بالتالي إلى نتائج، لعلها كانت أفضل إنجاز بحثي حققته في حياتي على الإطلاق، فضلاً عن كونه غير حياتي ذاتها، وطريقة نظرتي للأشياء.

هنالك مقولة للاهوتي برتغالي مغمور من القرن التاسع عشر اسمه سالازار فريرا، بشأن الدوافع الخفية للإنسان في البحث والمعرفة، مفادها أن ثمة

هدف انت تختاره، وآخر هو يختارك. وقد سبقه في هذا المعنى جلال الدين الرومي، وبصيغة لعلها أبلغ، حينما قال: ما تبحث عنه يبحث عنك. أقول، إنني خبرت تلك التجربة نوعاً ما، حينما تحولت، لا أعرف كيف أو متى، من شخص يتذمر من ذلك الأسم - الباليلاليا، إلى آخر يريد أن يعرف وبشدة ما وراءه، لأكتشف بالتالي من خلال سيرة ذلك الرجل الاسطورة، ان هناك طرقاً أخرى لعيش حياتنا، وجدتها أشمل وأكثر اتساقاً ومعنى... وشيئاً فشيئاً، الفيت نفسي مدفوعاً، طيلة فترة البحث، بفضول جارف، ممتع، وغير مفهوم لمعرفة شيء غير محدد، رغم أن جميع الدلائل كانت تشير الى انه حقيقي.

يحدث أحياناً أن إشارات قوية، مصدرها

عوالم مغايرة، تلك التي صاغت أسباب وجودنا، تتجلى أمامنا فجأة وبوضوح شديد، الا ان برمجيات مداركنا التي استهلكتها الثوابت تخفق في قراءتها، ولأجل التقاطها كما ينبغي، من بين حزم الترددات الضاجة التي تملأ عالمنا، كل ما علينا فعله، أمران، الأول أن نمد أبصارنا لما بعد الجدار السميك الذي أسميناه منطق الأشياء، والثاني أن نرهف الإصغاء لما تحت الصخب الناعم الذي اتفق الناس على تعريفه بـ السكون.

لم يحدث الأمر دفعة واحدة، كما أن بداياتي في البحث وكما هو واضح، لم تكن جادة نوعاً ما، كل ما توفر لدي حتى ذلك الحين، لم يتعد سوى بضع معلومات غير مترابطة عن شخصيات حكائية تحمل الصفات ذاتها، ورغم اني وجدتها مثيرة للاهتمام، لكن

تبقى مع ذلك محض مادة أدبية تدرج ضمن خانة التراث، وليست، كما كنت أتمنى، وقائع تاريخية يمكن اعتمادها في إثبات حقيقية تلك الشخصية. مع ذلك، حاولت أن أجد من النزر المتاح، نقطة انطلق منها لأحصر مجال البحث ضمن فترة محددة، او منطقة بعينها. بدأت أولا أبحث في تاريخ المناطق التي أنتجت تلك الحكايات، والفترات التي ظهرت فيها. كان الوصول الى المصادر المطلوبة، عملية مجهدة وشبه مستحيلة، في بلد تمزقه الحروب وينخره الفساد.

بدأت أيأس، مرّ شهران وكدت أنسى الموضوع، الا ان الصدفة شاءت وأنا في بيت شخص في الكاظمية، اسمه سيد راجي البيضاني، عرفني عليه أحد زملائي الأساتذة في الجامعة، رجل مولع بجمع

المخطوطات والكتب التراثية. وأثناء ما كان يتحدث بمرارة عن الفراغات التي تعاني منها مكتباتنا، والإهمال القاتل للثقافة والتعليم والذي باركته الأحزاب الدينية الحاكمة، أيدته في ذلك، وضربت له مثلاً عن نزوتي البحثية بشأن هيباش، لكن حالما نطقت الاسم، قاطعني بشكل مفاجئ، وطلب مني ان أكرر نطقه مرة أخرى، ففعلت. أغمض عينيه واطرق لبرهة يفكر، عقص جبهته، وزم شفتيه، كمن باغته مغص عابر، ذلك الأداء تميز به الكظماويون، ثم فجأة، نطّ من مكانه منتصراً، خطا ناحية أحد الجدران، وكانت جميع جدران بيته عبارة عن كتب مرصوصة في رفوف، دون ترتيب أو تصنيف على أغلب الظن. سحب كتيباً قديماً، كان محشوراً بين المجلدات، مهترئ الغلاف، اصفرّت وتآكلت حافاته. ثم خطا ناحيتي، وقدمه إليّ قائلا:

"علّك تجد شيئاً من ضالتك في هذا".

تناولته منه بتردد، وقرأت العنوان: "دلائل الأرومات"، صادر عن دار ابن عساكر، بيروت سنة 1331 هجرية (1921م)، المؤلف: عبد اللطيف جناد الآلوسي. وفي وسط الغلاف عنوان فرعي يقرأ: "معارك ومآثر عشائر بادية الشام والعراق تحت الحكم العثماني". فتحت الكتيب لا على التعيين، وإذا بنظري اول ما يقع، على اسم هيباش، في بداية السطر الأعلى للصفحة، نعم، هكذا... قهقهت غير مصدق، كانت صدفة جميلة، إن كانت صدفة، من تلك التي تنفخ في المزاج دفق اعتداد صبياني بالنفس. المهم، سعدت كثيراً حالما عثرت في الكتاب على ذكر اسم هيباش، الشخصية التاريخية. واصلت قراءة السطر وما بعده،

فهمت منه، على ما اتذكر، وصف للمجاعة التي حلت بآلاف الناس غرب الفرات إثر مآسي حرب أهلية طاحنة تدعى "وجران"، دارت في نهايات القرن السابع عشر ما بين "المخالفين" و"الأشراف"، أكبر مجموعتي عشائر ضمن "حلف الجباويين". قلت لنفسي ظافراً، أخيراً، هو شخص حقيقي، وليس مجرد سيرة بطولية يغنيها حكواتيون في المقاهي.

وجدت نفسي بعد ذلك، أبسّط، وأسهب بحديث منفلت غير مترابط مع مضيفي الكريم، عن سخف اندفاعي وفضولي غير المبرر تجاه ذلك الشخص. الا أن الرجل أصغى الي بتركيز، عيناه تزججتا بلمعة تشوّق، لم ينبس ببنت شفة طيلة ما تبقى من الجلسة، بدا لي حينها ساهياً ضيق النفس كمن انتابته فجأة أعراض

حمّى، ولم يتبادر الى ذهني بتاتاً في تلك اللحظة، أن موضوع هيباش صار يستحوذ على اهتمامه، هو الآخر. كما حدث معي من قبل عند سماعي اسمه أول مرة. وقبل أن أغادره، ترجاني أن يكون للحديث صلة، ووعدني ان يجد لي مصادر أخرى ذات علاقة.

صاحبنا هذا كان متصوفاً سالكاً، عرفت عنه لاحقاً أنه درويش وفيّ للطريقة القادرية الكازنازانية منذ ان كان صبياً. وقد لاحظت، في زيارة أخرى، أن رعشة خفيفة تغشاه كلما ذكرت اسم هيباش أمامه، الدراويش أحيانا أناس غريبو الاطوار. على أية حال، بات الرجل منذ ذلك اليوم مهووساً بشخصية هيباش إلى أبعد حد، خاصة بعد أن أعاد قراءة الجزء المعني من كتيب الآلوسي مراراً وتكراراً قراءة "وجدية" حسب

تعبيره، لم أعرف حينها حتى ما الذي يعنيه ذلك بالضبط.

بعد حصولي على ذلك المصدر، جمعت منه كل ما وجدته فيه عن هذا الرجل، أضفته ضمن مفكرة خاصة، الى كل المقتطفات الصغيرة التي وقعت في يدي من قبل في الموضوع ذاته، بعد ان غربلت ـ طبعاً ـ الكثير منها، خاصة تلك التي نسبت إليه صفات وأفعالاً غير واقعية. لكن شيئاً واحداً لم أجرؤ على إسقاطه، ربما لأنه تكرر عند الجميع في معرض وصفهم لملامحه، كما هو الحال في كتيب الآلوسي، وهو العلامة الفارقة في جبهته التي ذكرتها آنفاً، اذ توصف وصفاً دقيقاً، لا اختلاف عليه ولا لبس فيه ـ توثقت كذلك بشأنها لاحقاً من مصادر أخرى ـ العلامة

عبارة عن وحمة أو دمغة ناتئة بعض الشيء، سموها الـ "قزعة" او الـ "قزّة"، كما وتلفظ أيضاً بالغين او الكاف المعجمة، والاولى هي الغالبة، وهنا سأحاول ان أصفها بشكل دقيق، لأنها ستكون فيما بعد الأساس الذي انطلقتُ منه لإتمام بحثي الكبير، هي رسم بيضوي يتوسط جبهته، بحجم وشكل تمرة كبيرة أسمتها بعض المصادر "الزليبة"، منتصبة ومقسومة عند منتصفها بخط طولي، أحد نصفيها غامق، يظهر التمرة كما لو كانت نصف فارغة.

(26)

2007

في آذار 2007، تركت بغداد مع العائلة وانتقلت الى عمان، بعد أن اكتظت منطقتنا، الكرادة الشرقية، بالميليشيات، وشاع القتل على الهوية، وكثرت نقاط التفتيش والحواجز الكونكريتية حتى صار مجرد

الذهاب من الكرادة الى الجامعة في الباب المعظّم، رحلة تستغرق نصف نهار ناهيك عن المخاطر. حصلت في الأردن على عقد عمل في جامعة اليرموك. بقينا أنا وصديقي البيضاني على تواصل عبر البريد الالكتروني، نعم صرنا أصدقاء مقربين بعد لقائنا تلك الليلة التي تحدثنا فيها عن هيباش أول مرة، الا ان أغلب رسائله أصبحت عبارة عن هوس متواصل بشخصية هيباش، في الوقت الذي صار الموضوع بالنسبة لي شيئاً من الماضي، لكن ذلك لم يمنعني، وأنا أقرأ رسائله، ان استمتع بمطالعة لغو درويش مثقف، خاصة بعد ان داخلَ الأمر عنده حضور وحلول وأنس وتجلّ وتحلّ، حنانيك ابن الفارض، هذيان يتداعى على ذلك المنوال، برسائل (فتح) الله عليه فيها من(كشف) منذ أن حصر اهتمامه بهذه الشخصية التاريخية، الا انه هذيان الصوفي، ذلك

الذي تحب أن تقرأه لكن ليس بالضرورة أن تفهمه تماماً، ذكرني حينها بالتراكيب الأنيقة الممتنعة في مؤلفات أعلام التصوف، مثل.... حسناً، طرأ على بالي الآن "تأويل الشطح" للبسطامي.

لكن للأمانة، من كل تلك الإيميلات لفت انتباهي ثلاثة، كتبت بسياق متسلسل ومفهوم، هي نماذج توضح لأي مدى بلغ اهتمام هذا الرجل بالموضوع، اسماها "كشوفات"، وبغض النظر عن الاصطلاحات، وجدت أن من الضروري تضمينها هذا الكتاب...

فحوى الأول، ان السيد راجي، وبعد بحث لم يشر الى مصادره، استنتج الآتي: أنه إذا ما قارنا ما بين "زليبة" هيباش وبين "الزبيبة" التي نراها على جباه

الكثير من المتشددين الاسلاميين- او غير المتشددين- سنجد فيهما الكثير من النقاط المشتركة، كتشابه الشكل والتسمية، وموقع الدمغة على الجبهة وأمور أخرى، رغم أن الثانية غير أصلية، يطبعها أصحابها كياً بحصاة حامية على جباههم، لا لشيء إلا المراءاة. لكن وحسب السيد راجي، لا أحد من الذين تكلم معهم من حملة الزبيبة يعرف شيئاً عن مصدرها، وفي أي زمان ظهرت، كما أنها لا تشبه ثمرة الزبيبة شكلاً او حجماً، بل هي أقرب لشكل تمرة عظيمة، ناهيك عن إن ليس لها أية أصول واضحة في التراث الإسلامي. على الأرجح أتت، حسب قوله، من تراث حضارات ما قبل الإسلام.

الايميل الثاني، وفيه يقول انه وبسبب ذكر

المصدر إن العلامة على جبهة هيباش هي على شكل تمرة كبيرة نوع "زليبة"، وهو صنف غير معروف من التمور، رأى صاحبنا أن يبحث في أصله وأين ينمو، علّه يجد خيطاً يقوده الى مفتاح ما له علاقة بما يبتغيه. عرفت منه حينها انه يوجد مئات الأصناف من التمور. على أية حال، بعد بحث وسؤال، سمع السيد راجي عن صنف نادر، حجم ثمرته كبير يملأ الكف، يقال انها كانت، على الأرجح، تُزرع في جنوب العراق حول هور الصحين، أحد اهوار العمارة غرب نهر دجلة.

لم يدخر صاحبـي جهداً، حزم حقيبته في الحال وسافر الى المكان، وبعد التنقل من قصبة الى أخرى، وجد نفسه وسط أهالي قرية صغيرة معزولة تقع جنوب غرب قصبة شيخ سعد باتجاه مدينة القرنة

اسمها جكمانة. وياللمفاجأة، وجدهم يقدسون نخلة فريدة من نوعها اسمها "زينبة" ويأبون أكل ثمارها رغم فقرهم المدقع، والأغرب من كل ذلك أنهم يستخدمون تمرها في طقس يشبه التعميد، حيث يقسمون التمرة نصفين ويشدونها على جباه مواليدهم الجدد بعصابة تبقى حتى يومه الاربعين، هم لا يعرفون لماذا يفعلون ذلك، اللّهم الا لتحمي أطفالهم من الشرور.

تواصل البيضاني مع معمري القرية عن قصة تلك النخلة وسبب تقديس الناس لها، وسمع منهم ما فحواه أن هذا النوع من النخيل حديث العهد نسبياً على القرية، جُلبت فسائله قبل حوالي مائة عام من قرية أخرى تابعة لناحية غماس اسمها الكاظر، حيث نبتت بوفرة هناك مع ظهور صبـي مبارك في عائلة شيخ

من شيوخ خفاجة إسمه زغيّر البهدل، شاع صيت ذلك الصبـي حينذاك حتى صار الناس يأتون من جميع الأنحاء ليتبركوا به وبرؤيته، وكان ذلك الصنف النادر من النخيل وحجم ثمرته أكثر ما جذب اهتمام العامة في تلك القرية. لكن مع مرور الزمن تناقص عدد أشجاره الى حد كبير، ولم يتخلف منها غير بضع نخلات، ان لم تكن تلك الموجودة في قرية جكمانة هي الوحيدة الباقية. تلك معلومات وجدها صاحبـي مثيرة.. زليبة/ زينبة، ذلك التشابه في الأسماء من الصعب أخذها على أنها مصادفة، كما رآها هو.

البيضاني قرر من هناك ان يذهب مباشرة إلى قرية الكاظر جنوبـي محافظة القادسية ليتم بحثه، لكن، وللأسف، باغتته وعكة وحمى شديدة في الطريق

أجبرته على العودة الى بغداد، على ان يكمل ما بدأه في يوم آخر.

الايميل الثالث، وهو الأهم بالنسبة لي، كتبه بعد عودته من تلك الزيارة بيومين، كان عبارة عن سرد مسهب لـ "رؤيا" أتته في منامه...

"جاءني رجل في المنام، كان عظيم الجثة، أبيض الشعر، رخيم الصوت، وعلى جبهته تلك القزعة كما وصفتها المصادر. سألني، أتريد ان تعرفني حقاً ياراجي؟ أشرت برأسي: نعم. فأعطاني ثلاث تمرات، الواحدة منها بحجم البيضة، قال لي، أحلق رأسك ودع كل ما عليك من ثياب، ثم اخرج قبيل السحر الى أرض خلاء، لا زرع فيها ولا بشر. قف شاخصاً في أدنى الأرض هناك، ثم انشقْ من الهواء، كما لو كانت آخر

نشقة في حياتك، بعدها أغمض عينيك وضع في فمك اول تمرة، وانت تلوكها قل بصوت مسموع: انا لا أصدق ما أراه... ثم تناول التمرة الثانية وقل، أنا أرى ما أصدق به فقط... وبعد الثالثة افرد ذراعيك واقفز في مكانك أعلى ما بوسعك، وانت في الأعلى، غافل الزمن بضع ثانية، واستمد من آخر خيوط العتمة شيئاً من سوادها (هكذا جاءت في الإيميل)، ثم احلله في مجرى نسغك محل ما تلبد بفعل السنين، لتنفّر مكامن الحمم. وقبيل ان تهبط، سلّط كل تلك الطاقة ناحية قدميك، انزلها فيهما نزول الصاعقة. ثم اهبط بسلام.. حينها ستعرف من أكون. قال ذلك ثم اختفى..".

"اتبعت الخطوات كما سمعتها بالضبط، اكلت التمرات الثلاثة، قفزت حسب التعليمات، لكن، لم أحطّ

بعدها على أرض كما ينبغي، بقيت مستمراً في هبوطي لزمن حسبته لن ينتهي، فتحت عيني وأنا على تلك الحال، لأرى جلية الأمر، نظرت تحتي، ماذا رأيت! حدثٌ جلل!.. الأرض تنبعج من تحت مهبط قدمي، وتنسحب الى الأسفل بمشهد عظيم، لينقلب سطح الكوكب بالكامل الى الداخل، كما لو كان كرة جوفاء، حل وجهها محل بطانتها وبطانتها محل وجهها. بقيت أهوى بسرعة رهيبة، الى ان حطت قدماي أخيراً على مهبط ثابت عند آخر نقطة في القعر.. لم يكن ثمة ارتطام، الأمر تم بسلام، وجدت نفسي، جذلاً، خفيفاً، منتصباً في قعر تلك الكرة العظيمة...".

"نظرت حولي، ثم رفعت رأسي إلى أعلى، فشاهدت القارات والمحيطات كما لو كنت انظر اليها

من الاعلى الى الاسفل... شعور غريب، هنا يلتقي الاعلى بالاسفل، التحليق بالسقوط، ويذوب الجواني بالبراني، يتلاشى الكامل بالناقص، يندمج المحدود بالامحدود، وتتمدد اللحظة فتكون قائمة بذاتها، لانهائية، متجردة عن زمنها..".

"... حسناً، لقد حسمت أمري، جئت هنا أبحث عن شيء ما، الا انني، بدلاً منه، وجدت شيئاً أعظم، لم أعرف أنني طالما كنت أبحث عنه دون أن أعرف كنهه بالتحديد، الطريق إلى البيت أجمل من البيت، الأسرار الكبيرة تكمن في الصغيرة، هيَ، هيَ... قد أدركتُ أخيراً نقطة تلاقيّي، فإن تذوق طعم الغبطة، ليس كما أن تكونها.. نعم سأبقى.." هنا ينتهي الإيميل.. كما لو ترك هكذا دونما إتمام.

كان ذلك آخر إيميل استلمه منه على الإطلاق. انقطعت رسائله إليّ فجأة، ومرّ اسبوعان، حاولت خلالها الاتصال به، لكن دون ما جدوى، علمت بعد حين من صديق مشترك ان سيد راجي وُجد ميتاً في فراشه إثر أزمة قلبية حادة، وكان حينها في السابعة والأربعين.

للأمانة، لم أكن اعلم انني سأحزن كل ذلك الحزن على صديق عرفته مؤخراً، كما وتأثرت بإيميله الأخير أيما تأثُر، فحدوث وفاته المفاجئة بعد تلك الرسالة، جعلت لذهابه وقعاً مؤثراً، كما وللرسالة بعداً أعمق. التوقيت الغريب الذي مات فيه، وآخر كلماته التي تمنى فيها ان لايغادر حلمه، فكرة ملهمة استثارت مخيلتي الى أبعد حد، تلك قصة مميزة سأبقى أتذكرها

وأرويها، بعد قص ولصق طبعاً، لأصدقائي بمناسبة أو غير مناسبة. لا أعرف لماذا تتخذ كلمات المرء وأمنياته الاخيرة أهمية خاصة لدى الآخرين.

بعد نحو ثلاثة أسابيع من وفاته، وصلني طرد صادر منه يبدو انه أرسله لي قبيل موته، او ربما من العالم الآخر - أمزح - احتوى على كتاب للمؤرخ المعروف عامر مجيد آل ياسين، عنوانه "فروع وأصول عرب الفرات" طبعة بغداد 1962، وآل ياسين، لكل من لم يسمع به، مرجع موثوق في تاريخ المنطقة وانسابها، تعتمد دراساته ليس من المختصين فحسب بل ويرجع اليها جميع النسابة في اليمن ونجد والحجاز والشام والعراق.

التهمت الكتاب دفعة واحدة بصفحاته المائتين

والعشرين، ووجدت فيه مادة من تسع صفحات، تضم من المعلومات ما فاق كل ما جمعته من قبل عن "هيباش"، الشخصية التاريخية وليس الحكائية، فيها شطر لا بأس به من سيرته، وكيف نشأ بطن البوطرف الذي انحدر من صلبه، ونسَبه الى رباح العشيرة الأم، وقبل ذلك، وصف مفصل "لحرب وجران" التي سبقت ظهوره ومهدت له بصيغة ما.

الفصل العاشر
نرمين

(27)

في عام 1851 انتشرت حالات الإصابة بالجذام في مدن السلطنة العثمانية المطلة على الساحل الجنوبـي للبحر الأسود، تارابزون، ريزي، آرديشان. أشيع حينها إنها مؤامرة مدبّرة ضد الدولة، لنشر الوباء في البلاد كان وراءها الروس. ولأجل تطويق الكارثة قبل ان تخرج عن السيطرة، أمر السلطان عبد المجيد

الأول بجمع المصابين ووضعهم في مكان بعيد ومعزول، على أن يتم اختياره بعناية. فوقع الاختيار على جزيرة غير مأهولة وسط البحر الأسود، بعيدة تماماً عن السواحل العثمانية وخطوط الملاحة، الا انها أقرب نسبياً للسواحل الروسية، اسمها جزيرة نرمين. وكان اختيار تلك الجزيرة بالذات، كما يبدو واضحاً، حركة مقصودة من السلطان لأجل إغاظة خصمه اللدود؛ قيصر روسيا نيكولاي الأول، كون أن الجزيرة كانت، وعلى مدى عقود، موضع تنازع بين الإمبراطورية العثمانية والإمبراطورية الروسية.

نرمين، جزيرة صغيرة نسبياً، حوالي سبعة هكتارات، المجذومون يُجلبون إليها بقوارب شديدة الحراسة ويُتركون على ساحلها الجنوبـي، ليقضوا

بقية حياتهم هناك، وهكذا استمرت سفن السلطنة منذ ذلك الحين بجلب دفعات جديدة من المصابين والقائهم في تلك الجزيرة المقطوعة، مع من سبقوهم من المجذومين. أما دور الدولة تجاههم فينتهي عند ذلك الحد، لا حماية، لا رعاية صحية، أو معونات غذائية او حتى وسيلة، مهما كانت، للتواصل مع ذويهم.

كان على المجذومين أن يتدبروا أمورهم بأنفسهم، ويجدوا سبلاً للبقاء على قيد الحياة في مكان منعزل تماماً، شديد البرودة معظم أيام السنة، ومقطوع عن العالم. وفوق كل ذلك نصبت السلطة حراسات مشددة ودوريات بحرية وعيون للحيلولة دون فرار اي منهم من الساحل الجنوبـي للجزيرة، المواجه للجانب العثماني، او حتى التسلل ومحاولة التواصل مع أي من

السفن التجارية المارة. الحراس كانوا مخولين بشكل كامل بإطلاق النار على أي قارب يخرج من الجزيرة يتجاوز حد الخمسة كيلومترات باتجاه الجانب العثماني. كذلك وجد الروس أنفسهم مضطرين لاتخاذ الإجراءات نفسها على الجانب الشمالي ضد أولئك المعزولين رغم اتفاقية باريس التي تمنعهم من ممارسة أي نشاط عسكري في البحر الأسود. وبذلك وجد أهالي الجزيرة أنفسهم محاصرين من جميع الجهات في بقعة صغيرة وسط البحر.

مع مرور السنين طور المجذومون، أو بالأحرى من يبقى منهم على قيد الحياة، وابتكروا طرقاً للعيش بأقل المستلزمات المتوفرة، كان الصيد في البحر هو المصدر الرئيسي لغذائهم، بنوا بيوتهم من الطابوق

المفخور وسقفوها بألواح السرو، أشجار السرو تنمو بغزارة على الجزيرة، أما ملابسهم فيحوكونها بأنفسهم من الصوف، اذ تمكنوا ان يجدوا سبلاً لرشوة بعض الحراس المرابطين في البحر ليجلبوا لهم اغناماً وماعزاً وأدوية وأدوات نجارة وبناء وصيد ونسيج ودباغة وكذلك بذوراً للزراعة.

من حسن حظهم ان جزيرة نرمين كانت شديدة الخصوبة لسببين: وفرة المياه، سواء الجوفية او الأمطار، وهذه الأخيرة كانت تزخ على مدار العام. والسبب الثاني، فضلات الطيور التي تراكمت على أرضها عبر العصور قبل أن يسكنها المجذومون. ما جعل الزراعة في أرضها مصدراً سهلاً للغذاء. الطيور نفسها، والتي تعج بها الجزيرة في جميع المواسم، كانت

أيضا مصدراً غير منقطع للغذاء.

المجذومون كوّنوا مع مرور السنين، بحكم الأمر الواقع، مجتمعاً متجانساً دون طبقات، يجمعهم شعور مشترك بالمرارة كونهم منبوذين من قبل مجتمعاتهم، على اختلاف أطيافها، الجميع فيه يعمل ويأكل ويتزوج وينجب ويتعبد.

إذا توخينا الدقة، لم يكن جميع قاطني جزيرة نرمين من المجذومين فقط، كما هو مفروض، بل كان يُجلب اليها ايضاً مصابون بالجرب، والكوليرا والطاعون، وايضاً معارضون سياسيون وإصلاحيون تنويريون ومتمردون ضد السلطة وطامعون في الحكم وثوار وضباط انقلابيون وقادة انفصاليون ومرتدّون وملحدون ودعاة مجددون ومحترفون للسحر ومدعو

نبوة. وحسب المؤرخ سادات كوزوزادة في كتابه غونجال دييل (خارج التاريخ) أنه وخلال أعوام حرب القرم (1853-1856) التي تواجه فيها العثمانيون والروس، قارَب عدد المنفيين الى جزيرة نرمين، بأوامر مباشرة من الصدر الأعظم حينها، مصطفى نايلي باشا، جراء الاضطرابات التي وقعت في المدن الرئيسية شمال شرق الامبراطورية إبان فترة الحرب، ممن وصفوا من قبل السلطة بـ (المتمردين) و(مثيري الشغب) و(اللصوص)، حوالي ثلاثة آلاف رجل. وكان منهم أسماء بارزة كسيماف جارفيك وتيموجين آراكلي وشيرفان غوموشلو... وغيرهم.

استمر عدد سكان الجزيرة بالنمو والتكاثر بمعزل عن العالم ورغم جميع الظروف القاسية

والاهمال المتعمد، حتى قدر تعدادهم في العقد الثامن للقرن التاسع عشر، حوالي العشرين ألف نسمة، حسب كوزوزادة.

لكن مع نهايات العقد الثامن للقرن التاسع عشر، طرأ على وضع تلك الجزيرة المنسية انقلاب مفاجئ، نقطة تحول غيرت الموازين، فإذا بها، بين ليلة وضحاها، تدخل التاريخ، ومن أوسع أبوابه... ما الذي حصل بالضبط؟!

في السنين الأولى لحكم السلطان عبد الحميد الثاني، تحولت جزيرة نرمين فجأة الى مصدر قلق كبير للباب العالي، اذ صارت تشكل تهديداً جدياً لحركة الملاحة في البحر الأسود، وبالذات لسفن الأسطول الهمايوني المرابط هناك، بعد أن تحول أغلب سكان

الجزيرة الى امتهان القرصنة. كيف حدث ذلك! كيف تحولت جزيرة مسالمة أغلب سكانها من المرضى والمصابين، تفتقر لأغلب متطلبات العيش، الى جماعة قوية وشديدة التنظيم، امتلكت في غفلة من السلطة، وفي ظرف بضعة شهور، أسلحة ومدافع وأسطولاً لا بأس به من السفن بلغ عدده في أوج نشاطه خمس عشرة سفينة حربية. (المصدر).

نقطة التحول حدثت في بدايات أيلول من عام 18، مع وصول شاب مجهول الأصل، ثري ووسيم، الى الجزيرة، لم يأت مقيداً أو مخفوراً بحرس، لم يكن مريضاً او منفياً، بل جاء بمحض رغبته، ومعه حمل كبير من الذهب والأحجار الكريمة. وقد عرّف عن اسمه حين وصوله بـ (هارا)، ذلك الهارا، هو في

الحقيقة صاحبنا شايع بن حمود.

لماذا قدم إلى هذه الجزيرة المنبوذة؟ ولماذا غير اسمه؟ ومن أين له كل ذلك المال؟ أمور سنعرفها ان رجعنا لتتبع قصته من حيث تركناها.

بعد تلقيه خبر اغتيال الشيخ عز الدين السندي ومعه أغلب رؤوس الطريقة السندية داخل تكيتهم في جامع اورطكواي في العاصمة اسطنبول، المجزرة التي ارتكبت بأيدي مجهولين، بعد يوم من عزل السلطان عبد العزيز الأول وتنصيب ابن أخيه الشاهزادة مراد، ابن السلطان عبد المجيد الأول، والذي سيكون اسمه السلطان مراد الخامس، كان على شايع ان يتخفى او يفر من البلاد بأسرع ما يكون، خاصة بعد أن عرف أن اسمه على رأس قائمة المطلوبين.

لم يكن معلوماً تماماً الجهة التي كانت وراء كل هذا، إلا أن البعض كان يشير إلى مدحت باشا، والذي لطالما أعلن مناوأته للشيخ السندي، أضف الى ذلك ما أشيع بشأن العداوة الشخصية الغامضة التي كان يضمرها للشيخ والتي يرجع تاريخها الى فترة الصبا، حسب الكثير من المقربين.

القصة التي شاعت في العاصمة بعد المجزرة، ان مدحت باشا كان يضمر في نفسه نية القضاء على الشيخ السندي واتباعه قضاءً مبرماً، إلا أن ما كان يحول بينه وبين بغيته، خشيته من غضب السلطان عبد العزيز، الذي كان من أشد أنصار السندي، لكن مع استقواء مركزه السياسي في العاصمة، وزيادة مناصريه من قيادات الجيش، صار

مدحت باشا كما لو كان رئيساً لحكومة الظل، له الكلمة النافذة، على حساب الصدر الأعظم الفعلي آنذاك محمود نديم باشا، ومن بعده محمد رشدي باشا، بل وحتى على حساب نفوذ السلطان نفسه، وأنه، وكما تقول الإشاعة، تآمر مع الشاهزادة مراد، ابن أخ السلطان، للحصول على العرش من عمه مقابل حزمة تنازلات وشروط كان منها التسريع بالإصلاحات وتوسيع صلاحيات الصدر الأعظم، وايضاً رفع حماية الباب العالي عن الشيخ السندي والطريقة السندية وغض النظر عن إطلاق يده فيهم، وقد تم له ذلك على ما يبدو.

(28)

عودة إلى الذي حدث لشايع من بعد سماعه من الخليفة بيمان، الرجل الذي جدّ في أثره من إسطنبول حتى ميناء زونغلداك، ليبلغه بخبر مذبحة تكية أرطكواي، وليحذره من أن هناك من يتعقبه ليقتله كونه آخر من تبقى من خاصة الشيخ السندي.

كان وجوده في زولغنداك، المكان النائي، لإتمام رياضاته، مسيرة أكثر من عشرين يوماً عن مكان حدوث المذبحة، قد أنقذه لا شك من موت محتم، ومنحه وقتاً ليتدبر أمر هروبه وتخفّيه عن أعين الذين يبغون قتله. أخذ شايع في اعتباره أن التكية، حينما كان يرتادها، لا شك كانت مليئة بعيون المتربصين، وأنهم عرفوا بالتأكيد أخبار اصطفاء الشيخ السندي للفتى الجديد شايع وتحميله السر، وجعله من أقرب خاصته، فإن كان مدحت باشا، فعلاً، وراء تلك المذبحة فلابد أن يكون الآن جاداً في طلب شايع بأي وسيلة كانت.

في البداية لم يكن لديه شيء من المال يستعين به على محنته، كان عليه تدبر عيشه يوماً بيوم، والتمويه على هويته في الوقت ذاته، لم يكن أمامه

خيارات كثيرة، عمل في البداية حمالاً مياوماً في الميناء، يحضر فجر كل يوم في ساحة جلبار مع عشرات آخرين في انتظار سفينة تريد عمالاً لتفريغ حمولتها أو تحميل البضاعة الوحيدة في ذلك الميناء: الفحم الحجري. كان عدد الحمالين يفوق المطلوب بكثير، فقد يمر عليه نهار او اثنان دون الحصول على عمل. كان عليه أيضاً، فضلاً عن تدبير قوت يومه ومنامه، جمع أجرة سفر الى بلد، أيا كان، بعيد عن العاصمة قدر الإمكان. ونظراً لاستحالة التوفير مع شظف العيش، تمنى الحصول على عمل حارس او عامل في إحدى السفن المغادرة.

خلال تلك الفترة. أطلق شايع لحيته وارتدى ملابس أهل المنطقة؛ شروال يربط حبله على الصدر

وصدرة قطنية بلا أزرار أو أكمام، صار إسمه الجديد: أيتاج، وتعلم الكلام بلكنة أهل أذربيجان.

استمر يتابع أخبار الباب العالي من المسافرين، كان شديد الحرص في اختيار الأشخاص الذين يسألهم او يدفعهم للكلام، يذكّر نفسه باستمرار ان يبقى حذراً تجاه الجميع، فإن كان ثمة من يتتبع أثره، فلابد أنهم رجال احترفوا القتل، وراءهم جهات متنفذة، يدهم تطال جميع الأمكنة، كان من الممكن أن يدركوه بغتة في أي مكان أو أية ساعة، كأن يأتونه في هيئة متسولين، باعة متجولين، رفاق سفر، نساء منقبات، متعبدين زاهدين.. والقائمة تطول.

كان شايع يعرف أنه يجب عليه أن لا يبقى طويلاً في الميناء، فالكثير من أهل المدينة صاروا

يعرفونه. وصل الى علمه إن تغيرات كبيرة تتابعت على العاصمة في الأيام الأولى التي أعقبت عزل السلطان عبد العزيز. والخبر الأعظم، الذي بدأ الناس يتداولونه همساً، ثم صار يدور على السنة الجميع دون حذر، هو موت السلطان المعزول بعد ثلاثة أيام من عزله، وكان الغمز يميل الى تصديق إشاعة انتحاره او قتله على أيدي الذين تآمروا لعزله. ثم ربط الناس ما بين موته وموت الشيخ السندي، إذ شاع، في الأيام التي أعقبت موت السلطان المعزول، أن هناك نبوءة أخبر الشيخ السندي بها خاصته قبل مقتله بسنوات، والتي تخبر بما سيحدث بعد مماته. تقول النبوءة المزعومة:

بعد رحيلي، سيُقتل الكبير ويُجنّ الصغير ويسقط الوزير.

وها ان الناس بدأوا يجزمون ان النبوءة بدأت تتحقق، ولا بد ان المقصود بـ "الكبير" هو السلطان المعزول نفسه. واختلفوا على من سيكون "الصغير" و"الوزير".

استمرت يوميات شايع على تلك الحال. حمال في الميناء، لأكثر من شهرين، لم يتمكن خلالها من جمع حتى ربع ثمن أجرة السفر. كان أقصى ما يمكن له جنيه في يوم عمل كامل لا يتعدى الستة قروش. وتلك لا تكفي حتى للرغيفين ونصف رطل جبنة فتّا وعشر حبات زيتون أسود، كل ما يقيم به أوده خلال اليوم. بقي قليل الاختلاط بالناس، شديد الحذر مع الغرباء، متشككاً من الجميع. وفي يوم، لاحظ ان متسولاً غريباً عن المنطقة، أعمى، أو لعله يتظاهر بالعمى، صدف أن

تواجد في مرمى نظره أينما ذهب، فتوجس شايع من ذلك الوضع خيفة. في مساء ذلك اليوم ارتأى أن يترك موقع عمله مبكراً ويغير المكان الذي تعود المبيت فيه، وكان ضمن فسحة ضيقة، تحت سقالات الرصيف القديم، بين الأعمدة الخشبية العملاقة التي ترفع ألواح الرصيف، يُضرب جادر سميك بين عمود وعمود ليمنع الريح والهوام، فتتكون للحمالين حجرات متوازية للمبيت، مساحة الواحدة منها تستوعب ثلاثة أنفار مستلقين على جنوبهم بشكل متعاكس، وفي الصباح ترفع الجوادر والمنامات وترزم في مكان متوار تماشياً مع تعليمات حرس الميناء، على أن يقبض هؤلاء قرشاً عن كل نفر ليغضوا النظر عن تجاوز الحمالين على أملاك الدولة. المهم.. غيّر شايع في تلك الليلة مكان منامه، وفي الصباح التالي ثبت له صحة مخاوفه بشأن

ذلك الأعمى، فقد اصطبح الحمالون على ثلاثة قتلى، هم نزلاء الحجرة التي تركها شايع الليلة السابقة، زميلاه وحمال ثالث شغل مكانه الفارغ. قد تم خنقهم بحبال رفيعة، ومن ثم طعنهم بخناجر في الصدور والرقاب والبطون فاختلطت دماؤهم وأحشاؤهم ببعضها. ولم يعرف أحد ان المقصود هو شايع.

قرر شايع مغادرة الميناء في الحال، فها أن مكانه بات معروفاً لملاحقيه، قضى طيلة ذلك النهار مختبئاً عن الأنظار في هيكل سفينة متروكة تملئها المخلفات، ومع حلول الليل، خرج تحت جنح الظلام، اشترى بالقروش العشرة التي كانت في حوزته خبزاً وقربة ملأها ماء. بعد صلاة العشاء، وبعدما هدأت الحركة في الميناء، تلثم وسار نحو مرسى الجورجيون،

المكان الذي تتجمع فيه السفن المتوجهة شرقاً، يعلم أن سفينتين على الأقل تغادران من هناك كل يوم بعد منتصف الليل. حرص ان يسلك طريقاً خلفياً، تناهى الى سمعه وقع أقدام كأنها تتبعه، وكلما تلفت خلفه لا يتبين سوى كلاب ضالة. لاح له من بعيد ضياء قناديل استراحة البحارة الجورجيين، حث خطواته. يعرف جيداً أن أياً من ربابنة تلك السفن لن يستكري غرباء للعمل على ظهورها، لكن لم يكن في باله خيار آخر، سيتدبر الأمر بطريقة ما، ضربه حدس الدرويش، انكشف له في تلك اللحظات، وبما لا يقبل الشك، أنه مغادر الميناء قبل حلول الصباح، الى وجهة بعيدة، دون تحديد.

لكن حينما صار على بعد حوالي مائتي متر من أولئك البحارة، وفي أشد بقاع الطريق ظلمة،

اعترضه بغتة، انبثق من اللاشيء، رجل ملثم عظيم الجثة، تنبعث منه رائحة مقززة، براز رضيع مخلوط بقيء سكران بالراكي. ارتد شايع الى الوراء بحركة ارتكاسية. عاجله المهاجم باندفاعه سريعة، قاوم شايع متجنباً الاشتباك، صار يتبع حدسه، لم يكن يميز من مهاجمه سوى لمعة عينيه ورائحته القاتلة ونصل خنجره يندفع إليه من جميع الجهات، ركز على اليد التي تحمل السلاح قدر المستطاع، تمزقت أماكن من ملابسه وأصاب النصل جلده في الجنب والجبهة والساعدين، كانت الأمور تجري بسرعة رهيبة، اشتبك الاثنان بإحكام، هويا معاً على أرض حصباء، وبقيا يتصارعان لبضع لحظات، قرقعة سقوط الخنجر على حصاة، شايع يمد كفه مخمناً مكانه دون ان يلتفت ناحيته، حاول المهاجم الثقيل ان يعتليه ليشل حركته.

انزلق شايع من تحته في لمح البصر، التفّ بحركة رشيقه على مهاجمه، حضنه من الخلف بقوة اشتعلت في جسده فجأة، وغرز الخنجر في صدره، في مكان القلب تماماً، ثم سرعان ما برمه حول محوره عدة مرات. ظل الرجل يرفس بما تبقى له من أنفاس، الا ان شايعاً بقي محكماً ذراعيه من حوله كطوق حديد. اختفت الرائحة الكريهة تماماً مع آخر أنفاسه، فعرف شايع انه انتهى.

لم يعرف كيف حدث ذلك التتابع وكيف انتهى في صالحه، لم يكن لديه وقت ليفكر بما جرى، كان يلهث بجنون كحصان سباق. استقام واقفاً أمام الجثة يلتقط أنفاسه، وبعد أن خفّت لجج تشوشه وانفعاله، تقدم الى الجثة المنكفئة، قلبها ليتطلع في الوجه، حركة لابد

منها يعرفها المنتصرون. اقترب من الوجه، تبين ملامحه رغم الظلمة، نعم.. هو المتسول الأعمى الذي كان يتبعه كظله طيلة نهار اليوم السابق، لم يتفاجأ، كأنه كان يعلم مسبقاً. تمعن ملياً في الثغر الفاغر والعيون الحالمة. ضربته للحظة حقيقة ما حصل في الدقائق الأخيرة، (قد قتلت للتو رجلاً بيدي)، كررها مع نفسه بضع مرات، وجد أن الفكرة لم تترك فيه أثراً سيئاً كما كان يتوقع، بل حدث العكس، خلّف وقعها نشوة تئز في جلد ذراعيه، وخدراً لطيفاً في مقدمة رأسه، شعور جديد عليه جعله يخبر طعماً قوياً تحت لسانه، الحياة بالفلفل الأحمر... ظل هكذا للحظات يتطلع صعوداً ونزولاً الى جثة الرجل، كما لو كان نحاتاً ينظر لتفاصيل عمله بفخر. في غمرة ذلك، كان عليه أن يتوثق من أمر انتمائه. رفع يمناه التي ما زالت

مضرجة بدماء الرجل وتشمم راحتها، هل زايلتها رائحة شيخه الزكية...؟ لا، بل وجدها أقوى وأنضج وأكثر حدة، تنسمها تنسم المدمن، فامتلأت رئتاه من شذاها وانتفضت لها جميع أطرافه من صعقة النشوة، كاد أن يعوي لحظتها كالذئاب.

تذكر بعدها احتمالية الخطر القائم الذي ما زال يحف به، عليه ان يعجل بالمغادرة من هذا المكان، لعل للقتيل شركاء هم الآن يبحثون عنه. تلفت حوله يبحث عن صرته التي فيها قربة الماء والخبز، خاض في المياه الضحلة، غسل كفيه ووجهه والخنجر، الذي لابد ان يحتفظ به من الآن فصاعداً، خبأه بعناية تحت ثيابه، أكمل طريقه نحو مرسى السفن الجورجية، غاص ليتسلل إلى الأقرب. عرف من انشغال البحارة

بفك ولف حبال أشرعتها، انها مغادرة قبل الفجر، أدرك جدار بدنها من تحت الماء، تلمسها وهو يدور حولها دون إصدار ضجة، حتى أمسك بأحد حبلي الرسو، تسلقه بحذر، ولخبرته في تحميل الفحم، يعرف جهة باب المخزن في سفن الشحن، جعل صعوده أقرب لناحيته، كان الباب مواربا، دلف المخزن بخفة، واختبأ بين أكياس الفحم المتراكمة، استلقى هناك، لم ينتبه اليه احد. بعد لحظات زال تعبه، لكن بقي شايع مستوفزاً، مع بقايا شحنات انفعال تخلفت في لثته وقشرة شفتيه. شعر فجأة بجوع شديد، أخرج صرة متاعة واقتطع من خبزه مقدار قضمتين، الأحرى به أن يقتصد بما عنده قدر المستطاع، فأمامه رحلة ستستغرق، والله أعلم، كماً من الايام، يقضيها مختبئاً بين عبوات الفحم ليصل الى... لم يكن متأكداً بعد من وجهة السفينة.. "باتومي"

على الأرجح.

مرّت عليه في مخبئه أربعة أيام متتالية من الرحلة، كان يقضي حاجته في واحد من أكياس الفحم، يفرغ نصف الكيس، يتبرز داخله، ثم يتمم ملأه من جديد بالفحم ليكتم رائحة البراز قبل أن يُستدل بها على مكانه، واذا ما تبول يفعلها في كيس فحم آخر، الفحم يقتل الروائح. نفد كل ما في صرته من خبز ومعظم ما في قربته من ماء قبل ان ينتهي اليوم الرابع. عليه أن يجبر نفسه على الصوم ما تبقى من الرحلة، الدراويش خير من يجيد لعبة الصيام، لكن الى متى؟ حرص على أن يطيل من غفواته قدر المستطاع حتى لا يبدد بقايا طاقته. ماذا لو اشتدت الأنواء خلال الرحلة؟ وتأخر وصولها الى وجهتها أياماً أُخرى؟.

صحا صبيحة اليوم السادس على لغط بحارة يتصايحون فيما بينهم استعداداً للرسو، يفكون حبالاً ويشدون أخرى، يفردون أشرعة ويحلون أخرى. كان الجوع والعطش قد تمكنا منه الى أبعد حد، وجد نفسه خدِراً واهناً، حنجرته يابسة وريقه مجّ. خمّن ان السفينة على بعد نحو ساعة إبحار عن المرسى، بقي مهيئاً، يعرف أن لحظة الرسو يصاحبها لغط واختلاط ما بين الحمالين والبحارة، حينها سيكون أنسب الأوقات للتسلل نحو الجانب البعيد. سيقفز حينها في البحر ليكمل إلى أقرب ساحل. لم يكن قلقاً من مسألة قدرته على إنجاز ذلك، هو الآن في درجة متقدمة من الطريقة. سيعرف من أين يستمد الطاقة حينما يحتاجها. بدت الامور على ما يرام حتى تلك اللحظة، بعد وقت قصير سيكون في مكان آمن.

أغمض عينيه وحاول أن يركز وعيه في نقطة التقاء النهايات، يلملم الشتات، يجلو ما علق بأوتاره من غبار، ويصفو مع إيقاع تنفسه صعوداً وهبوطاً. في تلك الأثناء وفي غمرة انقطاعه الى الداخل، إذا به يجفل، أحس بأربع قبضات خشنة، شتتت عليه انسجامه مع نفسه، تمسكه من كلتا ذراعيه بإحكام. انتفض جسمه وانفرجت عيناه، فإذا برجلين عاريي الصدور، برك كل منهما على أحد جانبيه، يمسكان به بإحكام من ذراعيه، وقد سلطا ثقل ركبهم على فخذيه. كانا ضخمين، مشعرين أحدهما أصلع تماماً ودون حاجبين، والآخر إفريقي شديد السمرة، كثّ الشعر واللحية، وشفتاه مكتنزتان كأنهما معا فوهة بوق من العصور الغابرة. وقبل أن يبدر من شايع أي صوت، أحكم الإفريقي كفه على فمه وخاطبه بصوت حرص

أن يكون خفيضاً:

"لا تخف ولد، إهدأ، لن نؤذيك كائناً من تكون".

قال الثاني:

"يبدو عليك ابن أصول، سنساعدك إلى أبعد حد، هل أنت جائع؟".

هدأ شايع مفترضاً حسن نواياهما، لكن بقي في نفسه منهما شيء. هزّ رأسه متفهماً وتبسمت عيناه علامة الصداقة. رفع الأفريقي كفه عن وجهه بالتدريج. مد الأصلع يده في جيبه وأخرجها تقبض على حفنة زبيب، قدمها لشايع. أخذها هذا بحذر وبدأ يلتهمها. الرجلان ينظر احدهما إلى الآخر برضا، الإفريقي مد

يده يمسح على شعر شايع:

"لدينا المزيد، ولد، سنريحك على الآخر إن وجدناك ولداً مطيعاً".

توقف فكا شايع عن المضغ، بات الأمر واضحاً فيما يريده منه هذان الغولان. كانت عيونهم المستثارة تشي بالكثير. واصل شايع المضغ كما لو كان غير معترض، تنهد وفق إيقاع يوحي بالخضوع، ابتسم لهما ابتسامة تسليم، كان عليه أن يساير وان يفكر بسرعة.

"من اين انت يا وسيم؟".

"من باكو، جئت الى هنا للدراسة" قالها ببراءة.

"للدراسة، همممم، في اسطنبول، لوحدك؟".

"نعم لوحدي، هل قلت اسطنبول!؟".

"نعم، اسطنبول، أليست هي وجهتك؟".

"... ظننتكم ذاهبين شرقاً، ناحية باتومي".

ضحك الاثنان، أجاب الأصلع موضحاً:

"المفروض أن نعود لباتومي، لكن حينما تتحول رياح الأشناس غربية، نواصل إبحارنا حتى اسطنبول".

اتسعت عينا شايع من وقع الخبر، اسطنبول هي آخر مكان في العالم يود الذهاب اليه الآن. شعر أن ثمة أقداراً تتآمر عليه لتقوده ناحية حتفه. لاحظ

الإفريقي خيبة شايع، فوعده مطمئناً:

"لا عليك، بإمكانك البقاء معنا في رحلة العودة، سنعتني بك انا وصاحبـي، وجميع البحارة".

هز شايع رأسه غير متأكد، لم يكن مصغياً للعبارة الأخيرة. صادقَ الأصلع على كلام صاحبه:

"لن نشي بك الى حرس الميناء، ما عليك إلا أن تكون ولداً مطيعاً... ها.. مطيعاً.. تسايرنا".

بقي شايع محدقاً في الفراغ. تبادل البحاران نظرة تفاهم. انسابت كف الإفريقي من رأس شايع نزولاً الى رقبته، ثم كتفه:

"ياه، أكاد أحس بتيبس بدنك، لعله طول

الاستلقاء دون فرش في هذا المكان الرطب".

مد كفه الأخرى وصار يدلك لشايع عضلات رقبته وكتفيه من تحت الثياب. والأصلع يراقب ما يجري بنهم وقد ازدادت عيناه احتقاناً.

صعدت دفقة دم ساخن الى وجه شايع. تشنج فكاه وثقلت وجنتاه، حسناً، هناك شيء واحد بإمكانه فعله الآن، إذا ما فشل فيه فتلك ستكون نهايته دون شك. حاول أن يركز بشدة، كما العدسة تكثف شعاع الشمس على عود ثقاب، ليختار اللحظة المناسبة. تنقل ببصره بين الإفريقي والأصلع كأنه يحاول أن يقيّم كلاً منهما لشيء في باله، ثم همّ يتحسس صدرته. فإذا بالأصلع يسارع بمسكِه من معصميه شالاًّ حركته:

"ما الذي تفعله؟"

"أشعر بالحر، أريد أن أتحرر من بعض ثيابـي".

تبادلا نظرة متشككة، هل يصدقانه؟ دسّ الإفريقي كفيه في ثنايا جسد شايع يفتشه بحركات خبيرة، لعله يحمل سلاحاً. لم يعثر على شيء، استرخى مبتسماً، وربت على خد شايع:

"ولد طيب، الجو فعلاً حار، أتمم ما أردت فعله".

أرخى الأصلع قبضتيه من حول معصمي شايع ليتركه يتمم نزع ثيابه بنفسه. رفع شايع صدرته، ثم عاكس ذراعيه تحت رأسه من الخلف، يريد ان يشلح

قميصه... تحسس الخنجر هناك، في جيب خفي اعلى الظهر بين لوحي الكتفين، تعلم ذلك في الإعدادية العسكرية، ضمن درس تجنب الوقوع في الأسر. تحسس القبضة الخشبية بيمناه من تحت القميص، أحكم كفه حولها. نظر مرة أخرى الى البحارين، لعله يخمّن المسافات بينه وبين كل منهما.

بلمح البصر، أخرج يده بالخنجر، مررها بحركة خاطفة ومحسوبة على تفاحتي آدم، حركة بارعة واحدة، لم يدركا ما الذي حدث لهما توا، سمعا الدماء تشخب من رقبتيهما بقوة، ذهول.. شلل تام.. عاجلهما شايع بحركة معاكسة فوق المثانتين، ثم ثالثة فوق الكبدين.. اختناق، سقوط، رفس، خمود... انتهى الأمر.

نهض سريعاً وخطا الى الخلف، وقف على بعد مترين من جثتيهما، يتطلع فيهما ويلهث بشدة، نسي للحظات إن عليه أن يستعجل في ترك المكان قبل ان يُفتضح أمره ويكتشف باقي البحارة ما حدث، تلك لحظات وجدها حينها جديرة بأن تعاش حتى الثمالة. لم يشأ تفويت أي نتفة من جزيئاتها، تأمل من مكانه فصول إنجازه؛ بركتان من الدم القاني أسفل رقبتيهما، دائرتان تتسعان ببطء على الأرضية الخشبية، عينا شايع تابعتا دون صبر اقتراب حافتيهما إلى بعض، تلامستا دون ان تختلطا ببعضهما.. نقل الخنجر الذي ما زال يقطر من يمناه الى يسراه، ورفع يمناه إلى أنفه يتشمم راحته، الضوع العطر ما زال هناك، ازداد عبقه، أخذه عالياً ليدخل به بعداً حسياً جديداً. تنشّق الرائحة طويلاً، مغمض العينين، هازاً رأسه يميناً

وشمالاً، كما السّوامي ينخرط في طقسه، تتصاعد نشوته كلما اختلطت الدماء ببعضها، انتفض جسده بشدة لحظة التماس، ما بين حضوره واللحظة الشاردة. ثم استغرقه دفق موجات دقيقة متتابعة تنطلق من سُرّة بطنه نحو الخارج، لتنتهي تحت جلده، دغدغة وحشية تستثيره في آن واحد، وفي جميع الأماكن، فتندفع أصابعه تهرش دون رحمة، يريد أن يصرخ، الهياج يتأكله ويحرق الأماكن الهشة، يكتم هو على الهدير حد الاحتقان، ينتفخ الوجه، تتأزم أوداجه، وتجحظ عيناه. ثم... ينطفئ كل شيء مرة واحدة..

مسح خنجره بسروال الإفريقي وأرجعه تحت ثيابه، تلفت من حوله، سمع وقع أقدام تتجه ناحيته، تسلل من الجانب البعيد، صعد الى سطح السفينة. أربعة

بحارة منشغلون بإنزال الأشرعة ورزم الحبال، ركض بأقصى طاقته نحو أقرب حافة والقى نفسه في البحر قبل أن يستوعب أي من البحارة جلية الأمر. تحرك بعضهم يتصايحون في أثره باتجاه الحافة لكن... فات الأوان.

غاص مبتعداً عن المركب، عرف جهة الساحل من اتجاه السفينة، قدّرها، في أسوأ الأحوال، بنحو ساعة متواصلة من السباحة. لكن بعد نصف ساعة بقليل بدأت قواه تخونه، نفدت طاقته فجأة، لم يعد يحس بذراعيه، تورم كتفاه، استمر يحرك أطرافه ليحول دون نزوله عن سطح الماء. تشنجت يسراه من منطقة العضد، بدأ يرفس لدقيقة ليقاوم الغرق ما استطاع، إلا أن استجابة أعضائه جميعها كانت قد بلغت

نقطة الصفر، سكن للحظة مسلماً، انساب جسمه إلى الأسفل ببطء وإصرار، كلوح صفيح لم يحتمل خفته الماء...

شايع، هو نفسه، في أقصى حالات وعيه بوجوده، لكنه منقطع عن ارتباطه بمادة جسده، قد خبر من قبل حالات مشابهة. تلك المنطقة يعرفها جيداً. كان يراقب نفسه من الخارج، ثابت الجنان، ليس ثمة مسام يتيح للهلع باباً. في تلك اللحظات وجد نفسه ممتلئاً بفكرة منعشة، انبثقت من مكان موثوق في قلبه، دغدغته في خاصرتيه فتبسم. إن كان هذا هو ما يشعر به الذاهبون الى نهايتهم، فلا بأس... أغمض عينيه، فرد أطرافه، استرخى تماماً، تاركاً جسمه يطير ناحية القعر دون مقاومة.

البحر... سبق لشايع وأن كانه، تلّبس بعضهما الآخر منذ زمن ليس بالبعيد. تذكر شايع انه لم ينم نومة مريحة منذ شهور، قرر أن يمنح نفسه إغفاءة طويلة هناك. سلام مجدول بالصفاء.. في تلك اللحظة كان هو الغاية.. ذاب في الماء، امتلأ به، لا فراغات تتيح للّغط حيزاً يرجّع فيه صداه، طمأنينة من حرير، مفروشة على مدى البصر، ليقيم هناك بسلام، لا داعيَ لأن يشغل باله بما سيكون...

الفصل الحادي عشر
وجران

(29)

"دلائل الأرومات" و"فروع وأصول عرب الفرات" الكتابان اللذان حصلت عليهما من صديقي المرحوم البيضاني، كانا ولفترة طويلة المصدرين الوحيدين اللذين توفرا بين يدي في بدايات بحثي عن شخصية هيباش، الحقيقي وليس الخيالي، في المصادر التاريخية الموثوقة. المعلومات التي جاءت بشأنه في

الكتاب الأول كانت عامة وشحيحة لا تتعدى بضعة أسطر، بينما توسع الثاني في ذكره على مدى تسع صفحات، نفهم منها أنه ظهر فجأة في شمال غرب الأنبار وسط ديار عشيرة رباح في الربع الأخير من القرن السابع عشر، منقطع النسب لا يُعرف له لقب، من أي مكان جاء أو لأي بلد ينتمي. الكتاب ايضاً يتوسع في تبيان مكانة عشيرة رباح وشيخها آنذاك صايم عبيّس الجريان. كذلك يتطرق الى وقائع حرب قبلية طاحنة في تلك الفترة أطلق عليها عرب المنطقة اسم"حرب وجران". إذ يستطرد الكتاب كثيراً بشأن كيفية اندلاعها والعشائر التي شاركت فيها وأهم الزعماء والفرسان الذين سقطوا في معاركها، ثم كيف كانت نهايتها.

ظهور هيباش كما يذكره الكتاب جاء بعد عام تقريباً من انتهاء تلك الحرب. وقبل أن أتطرق الى ما جاء بشأنه في الصفحات التسع، رأيت أنه من الأفضل في البداية إعطاء نبذة سريعة عن قبيلة رباح والحلف العشائري الواسع الذي أنشأه شيخها صايم الجريان، وحرب وجران وحال البلاد والسلطنة العثمانية آنذاك، جميعها، وكما سنرى، أمور مرتبطة ببعضها، تكشف، الى حد ما، صورة واضحة عن الحالة السياسية والاجتماعية لذلك الجزء من البلاد في الفترة التي ظهر فيها هيباش.

لنبدأ من رباح.. هي عشيرة غنية، عريقة، ولها مكانة مميزة بين قبائل المنطقة آنذاك، اشتهرت بعقد مجالس الصلح والفصليات ما بين القبائل

المتخاصمة، برزت مكانتها بشكل واضح في النصف الثاني من القرن السابع عشر، حينما كان يرأسها الشيخ صايم عبيس الجريان، الرجل الثري والسياسي الداهية، الذي بنى لنفسه مكانة مميزة بين شيوخ طيف واسع من القبائل الممتدة على طرفي الفرات، من جرابلس شمالاً حتى البصرة جنوباً، ما حدا بسلطة توب كابـي (الباب العالي) أن تستثمر في مكانته بين القبائل فعُين لأجله مبعوثاً خاصاً اسمه أورخان بيك يعوده مرتين في العام، يصله بعطايا الصدر الأعظم سليمان باشا، ويتبادل معه المشورة ويعرف منه مزاج أهل البادية. كذلك عيّن كلاً من والي بغداد كبلان مصطفى مرزونلي ومن ثم خلفه عمر باشا، مبعوثاً يعود الشيخ ثلاث مرات في العام للغرض ذاته.

يذكره التاريخ ايضاً أنه من أوجد حلف "الجباويين"، أكبر حلف عشائري شهده الشرق الأوسط حينذاك، تم تشكيله بأمر مباشر من السلطان محمد الرابع لتأمين "طريق الحج الشامي"، بدأ صغيراً، إلا أن الحلف الواعد سرعان ما توسع في ظرف شهور ليضم عشرات القبائل العربية الموزعة بتفاوت ما بين شرق الأردن من أنحاء معان، على امتداد الطريق الحجازي، وتخوم عمان ونواحي تدمر الى أطراف حمص، وحول الفرات ابتداء من الرقة ثم الرحبة فالدالية مروراً بهيت والأنبار، ثم الحيرة والديوانية والسماوة ومغارب البطائح، وجزء من سواد البصرة حتى عبادان. على أن يتم تقسيم مسؤولية حماية الطريق من قبل تلك العشائر، كل حسب منطقة نفوذها. أهمية الطريق جاءت من كونه الخط الرئيسي الذي يربط

شمال الامبراطورية بجنوبها، تسلكه كبرى قوافل الحجاج وتجار بلاد الشام والجزيرة وأذربيجان والقوقاز والقرم والأناضول والبلقان، اضافة الى الاستانة نفسها، إذ يصل عدد أفراد القافلة الواحدة ما بين ثلاثين الى خمسين الف نفر. وقد عد ذلك الطريق على مدى عقود طويلة ثاني أهم طريق تجاري للإمبراطورية العثمانية بعد "طريق الحرير" المعروف.

عشائر الحلف تنقسم الى ثلاث فئات، منها اثنتان رئيسيتان، الأولى تضم ثمانية عشر عشيرة، أعزها مكانة عشيرة الجواهل، وجميعها منحدرة من قبيلة إياد، مجموع عدد أفرادهم معا نحو مائتين وسبعين ألفاً. والفئة الثانية تضم واحداً وعشرين

عشيرة، أكبرها بطينة، وجميعها من قبيلة ربيعة، وعددهم نحو مائتان وأربعون ألفاً، إياد وربيعة اللتان تنحدر منهما الفئتين، قبيلتان عريقتان وذاتا مكانة مميزة في تاريخ العرب منذ فترة ما قبل ظهور الإسلام.

ثم هناك الفئة الثالثة في الحلف، والتي تقتصر على عشيرة واحدة فقط هي رباح، عشيرة الشيخ صايم الجريان، مجموع أفرادها نحو سبعمائة نفر لا غير، وهي لا تنحدر من إياد او ربيعة، بل من قبيلة مذحج في اليمن، التي نزح فرع صغير منها الى ما يعرف بمنطقة الهلال الخصيب أواسط القرن الرابع عشر الميلادي، وبذلك تكون رباح الطرف الأضعف في الحلف مقارنة مع كل من تلكما الفئتين، الا ان دهاء شيخها وغناه الفاحش وصلاته الوثيقة بالباب العالي من

جهة، وولاة بغداد من جهة أخرى، جعلت شيوخ الفئتين الكبيرتين في الحلف، يضعونه في المقام الأرفع ويرتضون به سيداً عليهم وعلى الحلف. السبب الآخر الذي جعل أمر قبول زعامته للحلف غير موضع خلاف، هو الخصومة التاريخية التي تجذرت ما بين الجواهل وبطينة، ما جعل من المستحيل أن يقبل أي طرف منهما أن يُساد بالطرف الآخر.

سمي بـ "حلف الجباويين" أو "أهل الجبّة"، بعد أن جمع الشيخ صايم زعماء القبائل التي عزمت على التحالف في قصره الواقع في حصيبة على نهر الفرات، وجعلهم يتناوبون على ارتداء جبة الإمام الحسن بن علي، المتوارثة في عائلته جيلاً بعد جيل، وهم يقسمون على العهد، حتى ذهب تلبيس الجبة من

بعد ذلك مثلاً يضرب، فحينما يقول المرء: ألبسني فلان الجبة، أي ألزمني بعهد لا فكاك منه.

استمر هذا الحلف لسنين على أداء الغرض الذي شُكل من أجله مقابل رسوم معينة تفرض على تلك القوافل تدفع للشيخ صايم ليوزعها بدوره على عشائر الحلف، وكانت تلك الحال تعود بالنفع على الجميع، ويعزز من ناحية أخرى سلطة الباب العالي على أجزاء السلطنة البعيدة عن العاصمة، وخاصة تلك المناطق الصحراوية التي تكاد تخلو من تواجد الدولة.

لكن وبعد مرور حوالي أربع سنوات على تشكيله، حدث ما لم يكن في الحسبان. نشبت حرب طاحنة بين المجموعتين الأكبر في الحلف، سميت حرب وجران، طغى فيهما ذبحٌ موتور وثارات لا تنام،

حتى سقط فيها الآلاف، دامت حوالي ثمانية عشر شهراً.

تكرر الروايات ذكر فتاة شابة اسمها حظيّة، كلما ذكرت أسباب نشوب حرب وجران، هي ابنة الشيخ صايم الجريان..

بداية الأمر كان مجرد تلاسن بين يافعين، الأول اسمه صالح، وهو نجل رئيس عشيرة الجواهل، برذون بن وضيحان، والثاني اسمه مهاوش، نجل رئيس عشيرة بطينة، مانع بن سويط، تجادلا في البدء على أيهما سيكون الأكفأ لنيل شرف الزواج بحظية ابنة الشيخ صايم، ثم تطور الجدل إلى اشتباك بالأيدي لينتهي بموت الثاني إثر طعنة سددها الاول بيرعشية يمانية. طعنةً مهينة، اخترقت دبره وخرجت من صفن

خصيتيه. سرعان ما طار الخبر الصادم الى ديار العشيرتين.

قدم في ليلة الحادث وفد من البوبطينة، عشيرة القتيل، الى ديوان برذون بن وضيحان، شيخ الجواهل، عشيرة القاتل، وناشدوهم، دون أن يترجلوا عن جيادهم، أو يطأوا عتبة ديوانهم، أن يُسلم إليهم القاتل، يقتلونه بفقيدهم، لكن يبدو أن شيوخ الجواهل عزموا مسبقاً على عدم تسليم الفتى لخصومهم، واقترحوا عليهم بدل ذلك عشرين ناقة وعشرين حواراً، دية عن المقتول، ذلك العدد كان أضعاف ما يجب ديته عن مقتول آنذاك. رفض شافي بن عبد الرحمن رئيس وفد بطينة ذلك العرض، وسألهم إن كان ذلك آخر كلامهم، فأجابوا نعم، فرد عليهم، إذن هي الحرب ما

اخترتم، ثم غادر من حينه مع بقية الوفد، حاملاً الى قومه أخباراً مشؤومة.

قبل أن ينجلي الليل وصل ثلاثون من شيوخ وأعيان عشيرة الظفير، ليجتمعوا بأولاد عمومتهم الجواهل يعدون لحرب لا مندوحة من قيامها، فسمّوا منهم في الحال مائتي مقاتل، ثم وفي ظرف عشرة أيام انضمت اليهما ثمانية أفواج من باقي عشائر إياد، واتفق شيوخهم أن يطلقوا على حلفهم الذي سيخوض الحرب اسم "المخالفين".

وفي الطرف الآخر، وبعد ان عرف شيوخ بطينة أن لا فائدة ترتجى من التفاوض مع الجواهل لتسليم القاتل، تباصروا مع نظرائهم من حليفتهم الضلفعة، ثاني أقوى عشيرة في ربيعة، ثم بعثوا

بالرسل الى جميع بطون ربيعة من حلفائهم، سرعان ما استجاب هؤلاء لهم بتسعة أفواج بلغ تعدادهم معاً نحو ستمائة مقاتل. واقترح شيخ بطينة على تسمية حلفهم الجديد بـ "الأشراف". وهكذا انحلّ حلف الجباويين في ظرف أيام وصار الى حلفين متحاربين: "المخالفين" و"الأشراف"، يريد أن يفني أحدهما الآخر.

أما بالنسبة للفئة الثالثة: رباح، والتي طالما فضلت لعب دور بيضة القبان في الحلف الكبير، رأى زعيمها الشيخ صايم أن يبقيها على الحياد، كما انه من ناحية أخرى لم يحاول بذل جهود جدية لمنع القتال بين الأفرقاء، لأسباب سنعرفها لاحقاً.

جرت الأمور من بعد ذلك بسرعة موتورة.

فسرعان ما تجمعت حشود جميع بيوت الجواهل والظفير وباقي "المخالفين" وكانوا كثر، ورؤساؤهم حينئذ برذون بن وضيحان وفهد بن جاسر الطيار، يحمل رايتهم ضيغم بن هملان، ثم اتجهوا شمالاً لملاقاة خصومهم "الأشراف". وبالمقابل توجهت في الأسبوع ذاته بيوت بطينة والضلفعة وباقي "الأشراف" جنوباً، يتقدمهم رئيسهم مانع بن سويط، وعلى يمينه نايف ابو رواس، يحمل رايتهم سالم بن هزاع من بيت ذرب.

التقى الجمعان بعد أربعة أيام في وادي نطران قرب مكان يدعى الجفرانة، وكان ذلك في أواخر ربيع الأول. في البداية، أقام كل منهما في جهة، حيث ناخت إبلهم، ثم لبثوا في مناخهم ذاك يتبادلون الرسل، في حين تواصل خلال ذلك مدد الفرسان من

الحلفاء ومرتزقة الحرب لتعزيز الصفوف، آتين من مناطق قريبة ونائية، تتوافد الى الجانبين، حتى جاوز عديد كل طرف الأربعة آلاف مقاتل. ثم بقي الأمر على حاله هكذا دون قتال نحو عشرين يوماً، حتى نفدت مؤنهم فصاروا يأكلون الضب والخزعل ويلوكون الرغيلي والحشرج، وصارت الإبل تجتر أوبارها من شدة الجوع مع طول المناخ، ثم صاروا وهم في مناخهم، يعادّون ويناوشون للقتال ويراوحونه طراداً على الخيل هنا وهناك بعد أن يئست النفوس وطال الأمد.

ثم حلت ساعة الحسم، كان الوقت فجراً، والهواء قارساً، فتقدم بعضهم إلى بعض، فرساناً وراجلة، يكبّرون ويهزجون ملوحين بالسلاح. التحم

الطرفان وسط نقع غبار كثيف واقتتلوا قتالاً شديداً عند نبع عاطل اسمه وجران، وبعد أقل من خمس ساعات من القتال، سقط من الطرفين حوالي ثلاثمائة قتيل.

انفكّ الاشتباك الأول بينهما على هدنة قصيرة، تدوم الى اليوم التالي، يدفن كل طرف فيها قتلاه ويُخلي جرحاه، ويأخذ قسطاً من الراحة استعداداً للغد. لكن حدث شيء غريب، لم يجد أحد له تفسيراً آنذاك، اختفت جميع جثث القتلى التي تراكمت عند نبع وجران والذي كان عاطلاً في تلك الفترة ليس فيه ماء كما أسلفنا، دون أن تخلف أثراً يدل عليها. غاصت عميقاً في الأرض الجافة لمكان النبع كما لو اختطفها الجن.

استؤنفت المعارك على هذا المنوال لثلاثة أيام

متتالية، فقدَ كل طرف خلالها حوالي نصف عدد رجاله، ما بين قتيل وجريح.

في اليوم الرابع للحرب كان الحسم. مالت الحزيمة منذ البداية على طرف بطينة والضلفعة وباقي ربيعة، وعشيرة أخرى من نعيم اسمها رويشة حرب، آزرتهم لاحقاً سعياً وراء المغانم، إلا أنها فنيت عن بكرة أبيها في تلك المعركة.

استولى الجواهل والظفير في الأيام التي تلت المعركة، على مراعي المهزومين وما فيها من خيل وإبل وأغنام، جمّائها وقرنائها، ثم هدموا بيوتهم بعد ان نهبوا كل ما فيها.

بعد حين على انتهاء المعارك، اتجهت الأمور

نحو الهدوء، لكن في الظاهر فقط. دفن خلالها الطرفان قتلاهم ولطموا عليهم. بينما يئس الكثير منهم من أن يعثروا على جثث المفقودين، خاصة تلك التي ابتلعتها رمال النبع. كُتبت المرثيات وقصائد الفخر، ونزحت عوائل الطرف الخاسر الى البطاح وفروعهم البعيدة. وصار مكان النبع فيما بعد مزاراً لذوي القتلى المفقودين من كلا الطرفين، يقدسونه ويقدمون له النذور والقرابين. بقي الأمر على ماهو عليه عشرة شهور، لم تنته فيها الحرب تماماً، استمرت المناوشات والإغارات الصغيرة بين حين وآخر على الأجنحة الضعيفة التي تسكن المناطق النائية لكلا الطرفين.

(30)

بقي الشيخ صايم خلال الشهور التي تلت المعركة، ثابتاً على حياده، حافظاً لقسمه، فلم يستقبل أحداً ولم يفتح بابه لأي كان من الذين حاربوا او من حالفهم، رافضاً مساعي كلٍ من الطرفين وأطراف أخرى لتشكيل حلف جديد يستثنى منه جميع خصومه.

ثم أتت الزيارة التي طال انتظارها من مبعوث الباب العالي أُورخان بيك، الذي قدم إليه برسالة شديدة اللهجة ليس من الصدر الأعظم هذه المرة بل من السلطان محمد الرابع ذاته، إذ كانت ممهورة بالختم السلطاني.

كان السلطان محمد الرابع في تلك الفترة يعيش أصعب أيام مرت به خلال سنيّه في الحكم، والتي انتهت به أن الى يجد نفسه موضع مقارنة مع من سبقه من السلاطين. لم يقدم محمد الرابع أي منجز حربـي يذكر خلال فترة حكمه والتي دامت نحو أربعين عاماً، بل تتابعت في عهده الهزائم، وفقدت الامبراطورية العثمانية الكثيرَ من هيبتها، خاصة بعد فشل حصار جيشه لفييّنا في حزيران عام 1683م

والذي دام شهرين، تحت قيادة صدره الأعظم آنذاك قرة مصطفى باشا، قُتل خلاله آلاف العثمانيين، وانهزم الباقون بعد أن تآزرت أوروبا، بمباركة البابا، ضد الجيش العثماني وهزمته. كان محمد الرابع ترعبه فكرة أن يذكره التاريخ كونه الخليفة الذي شهد عهده نهاية (الفتوحات).

في تلك الأيام بدأ الجيش يتذمر منه، ومن تدخل الإنكشارية السافر في شؤون الحكم، الذين سبق ونصبوه سلطاناً وهو لا يتجاوز السابعة من عمره. كل تلك الضغوط دفعت بالسلطان إلى البحث عن منجز يعزز به مكانته، فكانت مراهنته على إعادة فتح طريق الحج الشامي بأي ثمن كان بعد أن توقفت القوافل عن المرور فيه بسبب الحرب بين العشائر التي كانت تتولى

حمايته.

تُلمح الرسالة الى انه اذا وجد الشيخ صايم نفسه عاجزاً عن فعل المطلوب، ففي هذه الحالة، سيوعز جلالته فوراً الى والي بغداد عمر باشا أن يخرج بجيشه على جميع المتحاربين من أهل الحلف، ويُجبرهم على قبول شروطه صاغرين، أو لعله سيستبدلهم بحلف آخر، يستحل ربوعهم وبيوتهم، ويتولى حماية الطريق بدلاً منهم.

استمع الشيخ الى الرسالة بهدوء وفهم معانيها ومغازيها، وطلب من أورخان بيك أن ينام ليلته مرتاحاً، وفي الصباح التالي سيحمّله رسالة مكتوبة الى جلالة السلطان يشرح له فيها جلية الأمر، ويطمئنه على أن الأمور سائرة الى ما يحب:

بسم الله الرّحمن الرحيم

بعناية حضرة عزة الله جّلت قدرته وعلت كلمته، وبمعجزات سيد زمرة الأنبياء، وقدوة فرقة الأصفياء محمد المصطفى، وبمؤازرة قدس أرواح حماية الأربعة أبـي بكر وعمر وعثمان وعلي رضوان الله تعالى عليهم أجمعين، وجميع أولياء الله الصالحين...

الى سلطان السلاطين وبرهان الخواقين، متوّج الملوك، ظلّ الله في الأرضين، أمير المؤمنين محمد الرابع، سلطان البحر الأبيض والبحر الأسود والبحر الأحمر والأناضول والروملّي وقرمان الروم، وولاية ذي القدرية، وديار بكر وكردستان وأذربيجان والعجم والشام ومصر ومكة والمدينة والقدس وجميع

ديار العرب والعجم وبلاد المجر والقيصر وبلاد أخرى كثيرة افتتحتها أيادي أسلافه المبجلين السلاطين الاجلاء بسيف الظفر ولله الحمد، والله أكبر.

أما بعد:

فقد وصلنا المكتوب الذي أرسله جلالتكم مع تابعكم أورخان بيك، وأعلمنا أن غضبكم بلغ حدّه على الحال التي وصل إليها حلفنا، وأنكم الآن ساخطون، وتستعجلون من هذا الجانب مدد الصلاح بخصوص ذات البين، وكل ما قلتموه جلالتكم مرق الى صميم عقولنا وقلوبنا الموقوفة لطاعتكم بعد الله، وقد أحطنا علماً ببلاغكم الشريف على وجه التفصيل، فصار بتمامه مفهوماً، فلا عجب من حبس الملوك وضيقهم، فليكن، مولانا وولي نعمتنا، منشرح الصدر، غير

مشغول الخاطر، فإننا، وهذا عهد منا أمام الله، مقبلون على الصلح ولمّ شمل القبائل المتقاتلة قريباً باذنه تعالى. إلا أن الذي وصل الى أسماعكم الشريفة على أن الحرب بين القبائل قد وضعت أوزارها، فذاك أمر فيه كلام، فما زال في القتال جولة أخيرة يسترد فيها المهزوم ماء وجهه، ويعادل قتلاه بقتلى هازميه حتى يشفي غليله، فيقعد بعدها راضياً للصلح. وليعلم جلالتكم، بعد هذه الغمة، اننا ذخركم في المحن، وإن خيولنا مسروجة وسيوفنا مسلولة ليل نهار في نصرتكم وهزيمة أعدائكم، فسبحانه وتعالى ييسر الخير بإرادته ومشيئته. وأما باقي الأحوال والأخبار فستفهمونها جلالتكم من تابعكم المذكور، والله ولي التوفيق من قبل ومن بعد.

خادمكم وباغي رضاكم، الحقير الى الله،
صايم بن عبيس الجريان

قبل أن يدور الحول، تحققت قراءة الشيخ صايم بأن الحرب لم تنته بعد بل كان لابد لها من جولة أخيرة، اذ تحرك شيوخ الطرف المهزوم من بطينة والضلفة في الخفاء وصاروا يحشدون ما بوسعهم مستنفرين كل من له ثارات قديمة مع أي طرف من عشائر "المخالفين"، كما وأغروا بدواً من حفر الباطن وأطراف النجف بالمال والوعود لأجل أن ينضموا إليهم. ثم تحالفوا في السر مع فرج بن عطاس سيد بوادي الزبير، وزعيم "الهبايش" وهم مجموعة أقوام محاربة، أشبه بالصعاليك، أتوا من أماكن متفرقة ولا يجمعهم نسب واحد. أن يبعث لهم من رجاله الأشداء

خمسمائه، على أن لا ينازعوه من ذلك اليوم فصاعداً على مراعي أهوار خشيبة والدوايل وخصيلة. وافق شيخ فرج على عرضهم بعد أن أضاف من لدنه شرطين، الاول: أن يصيب له ولجماعته ثلث الغنائم التي سيغنموها من عشائر "المخالفين". والثاني: أن يمنعوا عنه وقومه عشيرة الجواهل ومن حالفهم، بعد أن تضع الحرب أوزارها، إذا ما سعوا للإنفراد بهم طلباً للثأر، فقبلوا وتعاهدوا على ما تم الاتفاق عليه وقرأوا الفاتحة.

في ظرف أسبوعين تجمّع مقاتلو آل بطينة والضلفعة وباقي الرجال من عشائر "الأشراف"، مضاف اليهم حلفاؤهم الجدد، آتين من طرق متفرقة، متخفين على شكل رعيان ومسافرين ومعتمرين، حتى

لا يثيروا الشك في عيون خصومهم، وتجمعوا عند أسفل واحة كويشة، إذ ناهز عددهم الألفين. وعند الهزيع الأخير من الليل أغاروا على الجواهل مباغتينهم وهم في ديارهم نائمين، حدث ذلك في أواسط محرم، فقتل من قتل وفرّ من فرّ من رجال ونساء وأطفال الجواهل، حتى تم الأمر للغازي في بضع ساعات، ثم سرعان ما عرجوا على بيوت الظفير في نخيل، على مسيرة نصف نهار، حتى لا يتركوا لهم وقتاً يعدون فيه أنفسهم، فألفوهم على ربكة من أمرهم، فهمّوا بهم وأثخنوهم ذبحاً وقتلاً، وسلبوهم كل ما عندهم وما عليهم، حتى ثيابهم، فاستجار الذين فروا منهم، كذلك فعل الجواهل قبلهم، ببيت الشيخ صايم الجريان زعيم رباح فأجارهم، إلا أن لحق بهم الغزاة وصاروا عند باب الشيخ صايم في حصيبة، فخرج إليهم واغلظ فيهم

القول ليثوبوا الى رشدهم، قال لهم:

"يكفيكم ما قتلتم وسلبتم، وها إنكم استوفيتم ثار قتلاكم العام الماضي أضعافاً مضاعفة، وما زاد عن ذاك فهو جور وعدوان، وانكم والله لا تحبون أن تبطش بكم جيوش السلطان، او تجتمع سيوف العرب من غير أهل الجبة، على الجائر، وحربكم هذه أضعفتنا وقسمتنا، وأطمعت العدو فينا، فعودوا الى رشدكم واذهبوا من حينكم الى دياركم، وليأتنا أجاويدكم بعد سبعة أيام، وليجلسوا مع أجاويدهم، وسندعو الله أن يغفر لنا ولكم أجمعين، ويلهمنا وإياكم أن ننهي جلَّ الأمر على ما يرضيه".

فاستمعوا اليه وغادروا.

كان الشيخ صايم سياسياً محنكاً بالفطرة، له حسابات سديدة في لعبة المصالح وبسط النفوذ على الآخرين. نعم، كان بإمكانه أن يمنع وقوع تلك الحرب منذ البداية، لكن ما الضير، بالنسبة له، من ان ينهك القتال الفئتين الأكثر قوة في حلف أهل الجبة؟ ما الضير في أن يفرغوا بأسهم بينهم ما دامت عشيرته، رباح، آمنة في ديارها؟.

لكن، لابد لكل حرب من نهاية. وأنه من الحكمة أن يبادر بنفسه لوقفها في الوقت المناسب، فيجعل من نفسه بطلها الأوحد، وبذلك ستعترف به الاستانة زعيماً قوياً، له الكلمة الفصل على جميع القبائل. كما ان من الحكمة أيضاً أن يسعى لإنقاذ ما تبقى من قوة العشائر المتحاربة ليديم بها حلفه الذي

سيستأنف تأمين طريق الحج الشامي من جديد بعد أن تضع الحرب أوزارها.

بعد أسبوع جاء الى بيته كبراء المتخاصمين، وجلسوا في ديوانه متقابلين ينتظرون ما سيراه فيهم. ورغم أن صلحاً بعد كل ذلك القتل والحرق، دام لأكثر من سنة ونصف السنة، لن يأتي بسهولة، إلا أن ادارة مثل تلك المجالس وتحديد الفصليات وأعراف القبائل، كانت لعبته التي يجيدها دون منافس. ذلك الجاه اختصّ به آل الجريان أباً عن جد.

كان من غير الممكن أن يفرض على أي الطرفين فصولاً او تعويضات يدفعها للطرف الآخر، فكل من الطرفين لا شك يرى نفسه ضحية للطرف الآخر. في مثل تلك الحالات الملتبسة، لا تبرد الخواطر

الا بـ "المزيّة"، وهي مال يجزله طرف ثالث، فاعل خير ذو وجاهة، يرتضيه الطرفان، لأجل درء كارثة عظيمة. وقد أخذ الشيخ صايم على عاتقه دفع المزية، أربعة آلاف من إبلهِ محملةً بحبوب التشاريق، وزعت على الطرفين بالتساوي، على ان يتصالحا ويتخليا عن ثاراتهم ويتعاهدا على الصلح. وقد أرضى ذلك العرض جميع الأطراف.

وهكذا انتهت شهور الحرب الى مصالحة، وعاد حلف الجباويين بعد وقت قصير الى الالتئام. فُتح طريق الحج الشامي، وتنفس الباب العالي الصعداء. ورد السلطان للجريان ثمن إبله، كما وخلع عليه لقب باشا لجهوده في إنهاء الحرب.

بما أن الشرارة الأولى لقيام الحرب كانت

بسبب تنافس على الزواج من ابنته حظية، ولأجل قطع دابر أية فتنة في قادم الأيام، أقسم الشيخ صايم أن لا يزوجها لأي رجل من رجال طرفي الحرب: "المخالفين" و"الأشراف"، او لكل من متّ لهما بقرابة، أو حالفهما أو ناسبهما أو والاهما من باقي القبائل. كما انه سبق وقرر أن لا يزوجها لأحد من أولاد عمومتها من رباح، درءا لخروج المشيخة من بعده عن نطاق أولاده الذكور. كان ذلك، في الحقيقة، حكم على وحيدته أن تبقى عانساً طوال حياتها، أقسى التزام اتخذه شيخ صايم على نفسه، لأجل أن يحقن دماء من تبقى من شباب المتخاصمين، وأن لا تكون ابنته سبباً للاقتتال مرة أخرى.

(31)

بعد مرور عشرة أشهر على نهاية تلك الحرب تلقى الشيخ صايم الجريان دعوة من الباب العالي لحضور مراسم جلوس السلطان سليمان الثاني من بعد عزل أخيه غير الشقيق السلطان محمد الرابع إثر هزيمة جيش الأخير في معركة موهاج، كان ذلك حوالي عام 1687.

لبى الشيخ الدعوة وغادر الى عاصمة الإمبراطورية في رحلة دامت شهرين، رجع منها ومعه غريباً مردوفا على فرسه "الغمكة"، وتلك بحد ذاتها مكانة لا تتسنى لمخلوق، لم يمنحها الشيخ لأحد من قبل، ولا حتى لواحد من أولاده. معروف عنه انه يكره أن يردف خلفه راكب. كان ذلك الغريب هو هيباش. "لم يذكر الكتاب من يكون هيباش قبل أن يلتقيه الشيخ، او أين التقاه بالضبط، أو من أين أتى، وما سر اهتمام الشيخ به الى ذلك الحد".

بعد دخول موكب الشيخ العائد من الاستانة ديار عشيرته رباح، قدّم ضيفه للناس على إنه صديق عزيز وإنه سيقيم في الديار الى ما يشاء الله، هذا كل ما سمح لهم بأن يعرفوه بشأنه. استقبله بنو رباح بجميع

فئاتهم بحفاوة ورحبوا به بأفضل ما يكون، وجدوا ومنذ الوهلة الأولى أن هذا الغريب يترك في المقابل أثراً طيباً بمجرد النظر الى وجهه. وسرعان ما صاروا، بعد ذلك، يركنون إليه ويحبون محادثته ومجالسته.

كان حينها في الثلاثين من عمره. حسن الإصغاء، إن تحدث أوجز، مع سحر وطلاوة. لطيف المعشر، لا يحب تصدّر المجالس رغم أن العين لا تخطئ حضوره الآسر أينما حل. عظيم الجثة، حسن الطلعة، شعره أبيض ناصع طال الى ما دون كتفيه، وعلى جبهته تلك القزعة - قد وصفناها سابقاً - قليل النوم، كثير الإطراق، لا يأكل اللحم بجميع أنواعه، يعشق الماء، ويشربه بجرعات صغيرة متتالية، رافعاً رأسه الى الاعلى بعد كل جرعة، كما تفعل الديَكة...

كان لا يشرب إلا من ماء نبع وجران، المشوب بحمرة، النبع الذي عاد الى الحياة منذ انتهاء الحرب مباشرة، من بعد دهور جفافه، إذ كان قبل الحرب، ولمئات السنين، اسماً على غير مسمى، إن صح القول، تدل عليه حلقة صخور سودٍ وسط منطقة قريبة نوعاً ما الى ديار رباح، محرمٌ الحلولُ فيها، تدعى الجفرانة، سميت في زمن مضى واحة، ربما حين كان نبعها نابضاً بالماء. لكن، وبانتهاء الحرب التي سميت على اسم النبع، واختفاء المئات من جثث الذين سقطوا فيها حوله، انبثقت المياه منه وبقوة من جديد، غامرة جميع أراضي منطقة الجفرانة لتحيلها بعد حين قصير إلى واحة خضراء من جديد. ورغم ذلك بقي الناس يعدونها أرضاً محرمة، موقوفة للجن، لا يطؤها أحد من الناس إلا بشروط قاسية وأوقات

محدودة للغاية.

اعتاد الرجل الغريب (هيباش) في تلك الأيام أن يخرج إلى الواحة المحرمة فجراً، حاملاً معه قربته الفارغة، يمشي اليها من ديار بني رباح في حصيبية مسافة نصف نهار، ولا يعود منها إلا بعد غروب الشمس. نصحه الناس كثيراً بالتوقف عن فعل ذلك، وأخبروه عن حرمتها، وعن قصص الجنّ الذين إختصوها مسكناً لأنفسهم دون البشر، وأمور أخرى كثيرة بشأنها، إلا ان الغريب كان يصغي ويبتسم ثم يستمر في مواصلة عادته كل يوم. فاتحوا شيخهم صايم بشأن تردده على الجفرانة، فرد عليهم:

"دعوه وشأنه، إن كان في ذلك ضير فعلى نفسه".

فتوقف الناس عن لومه وفسروا كلام الشيخ على أن هذا الغريب مخاوٍ للجن.

أحبه الشيخ كثيراً وقربه منه، عامله كما لو أنه واحد من أولاده، كان يأخذ بمشورته في الخاص والعام. لبث المدعو هيباش في ضيافة بني رباح بضعة شهور، لم يتجرأ أحد من الناس خلالها أن يسأله عن أصله، او من أي بلاد جاء، نزولاً عند رغبة الشيخ صايم بعدم مساءلته بهذا الخصوص.

وفي الوقت الذي حسب الناس أن إقامة هذا الغريب فيهم طالت، أو لعلها قاربت على نهايتها، فاجأهم شيخهم صايم، أنه ينوي تزويجه من ابنته الوحيدة حظية (اسمها في بعض المصادر "روثة"، إلا أننا وجدناه واقعياً أكثر من اللازم، لا يصلح للسرد).

قد رآى الشيخ في ذلك الرجل شيئاً لم يره أحد غيره، أو لعله وقع تحت تأثير سحره كما تقوّل البعض. لكن، من الناحية العملية، فقد فات الناس بشأنه أمر مهم، ميزةٌ فريدة لعلها تاهت عنهم، هي انه كان غريباً مثالياً، لم يكن منتمياً لا من قريب ولا من بعيد لأي من الخصمين: الجواهل وبطينة، ولا إلى من حالفهما او ناسبهما او والاهما أو ناصرهما، وهنا بالطبع صار الشيخ صايم الجريان في حلٍ من قسمه في أمر تزويج ابنته.

تزوج هيباش من حظية، وأقام وإياها في بيت في منطقة تدعى الزهدية، لا تبعد كثيراً عن ديار ألبورباح، وأنجب منها ولدين: خلف وطرف، وبنتين توأم: رقية وعباسة، ورثت كل منهما عنه ومنذ الولادة

قزعة باهتة على الجبهة. وحينما شبتا، زوج إحداهما لرجل من الجواهل اسمه مزبان. والأخرى لواحد من بطينة وإسمه عيث. وبذلك عزز مكانته بين العشائر القوية.

أما ولداه، فخلف، مات وهو في الثانية عشرة من عمره. وطرف، تزوج من واحدة من حفيدات الشيخ صايم، اسمها جروة، وأنجب منها أحد عشر ولداً وثلاث بنات، وإليه يُنسب بطن البوطرف.

يقال أن هيباش وبعد أن زوج جميع أولاده ترك المنطقة وسافر صوب الهند دون رجعة. فانقطعت أخباره واختفى من تلك الأنحاء فجأة وبطريقة غامضة، كما هو الحال مع ما روي عن ظروف أول ظهوره هناك.

الفصل الثاني عشر
شْبيلكا

(32)

صباح جديد، شمس برتقالية. ظلال ممطوطة. شِباك مفرودة على أعمدة خضر تكسوها الطحالب. نسيم فوق الرؤوس غير منتم لما تحته. قارب صغير فارغ يترنح في مكانه. ضجيج أطفال عراة يتراشقون بكرات الرمل. نورس كسول ينبش بمنقاره تحت جناحه...

وفي الأفق، من بعيد، تلوح كتلة كبيرة بُنية - خضراء، من أذرع البوسودونيا، ملفوفة على بعضها، ككرة صوف مغزول، لفظها البحر إلى الساحل، ما زالت اقدام أمواجه تركلها برفق، أربعة نوارس تحط عليها.. تجفل مُنفضّةً عنها...

انفتحت عينا شائع ببطء في جوف تلك الكتلة، صورة مغبشة للعالم. تصفو بالتدريج، وعيه جلاتيني، يتكاثف من الداخل الى الخارج، يشّكل العالم من حوله. حاول أن يرفع رأسه ليستطلع ما حوله، لم تطاوعه أية عضلة في جسمه، مرضوض، كبساط مزار داسته آلاف الأقدام... تريث، ولم العجلة؟ "أنا حيّ". ليستنشق بعمق هواء صعيداً، ليتلذذ وقعَ الحياة بطعم جديد. نكهة الجمّار حينما تذوقه أول مرة. بقي على تلك الحال،

خفيفاً، مائعاً، خدِراً، دون حواف.. لفترة لم يكن ليعنيه حسابها، حتى استحكم فيه الوهن، تذكر أنه لم يأكل منذ ألف عام. تحسس خنجره تحت ثيابه بحركة لا إرادية، إنه هناك، شعر بالأمان، وتذكر ايضا، عليه ان لا يبقى طويلاً في مكان واحد. لكن مهلاً... "أين أنا الآن؟".

قرية تشياز الساحلية، على الطرف الشمالي لاسطنبول الكبرى، عرفها لاحقاً من بعض صيادي القرية، أخبرهم انه معتمر أضاع طريقه، وناشدهم أن يرشدوه الطريق الى ميناء أوزكدار، جنوب-ي اسطنبول، حيث السفن تبحر إلى مدن بعيدة. كانت حاله تثير الشفقة، هزل كثيراً في الأيام الأخيرة وزادت سمرته، وجدوه تائها تحل عليه الصدقة، إلا أنه نزل عليهم في موسم صعب، لم يكن في حوزتهم شيئ

ليتصدقوا به عليه، إلا كسرة خبز بحجم الكف اقتطعها أحدهم من غدائه وقدمها إليه. نصحوه أن يتخذ طريق ساحل بوغازي جنوباً مسيرة أقل من يومين ليدرك وجهته، أرعبته الفكرة في البداية، فهذا الطريق يأخذه وسط جميع مناطق العاصمة المطلة على البوسفور، مناطق مكتظة، من الممكن أن يميزه أحد فيها. قرر أن يسلك طريق الضواحي، بعيداً قدر الإمكان عن الساحل والمناطق المكتظّة. عزم وتوكل، لم يكن عنده خيار آخر، سيسير ليلاً ويتوارى نهاراً، وسيحرص على تجنب المرور في الأماكن التي كان يؤمّها سابقاً. وفي أوزكدار، لعله سيجد هناك مكاناً في إحدى سفن الشحن المتوجه الى مصر أو اليونان، عليه كذلك أن يؤمن طعاماً. تفاقم عليه جوعه إلى درجة صار من المستحيل بعدها تجاهله، كسرة الخبز التي ابتلعها للتو أبقته حياً

لكن لم تسد حتى عُشر معدته الخاوية. مشى نحو بقعة معشبة بعيدة عن ساحل، بدأ يدقق بالأعشاب النابتة على جانبـي الطريق، ليس لديه أية فكرة عما يؤكل منها وما لا يؤكل، بدأ يجرب الطري منها، يمضغ ويبصق.. يمضغ ويبتلع.. يمضغ ويستفرغ. انخفض ضغطه فجأة بشكل حاد، أخذته سورة دوار، برك على الأرض، مر على باله خليفته جنكيز، افتقده بشدة في تلك اللحظة، تمنى أن يكون معه في ذلك المكان. تذكر ما قاله له قبل أن ينطلق في رحلته الى إريلي، على أنه لن يكون وحيداً بعد الآن، وأن المدد سيأتيه، حين يطلبه، حتى وإن كان في بطن حوت. الا أن مرشده، وكذلك شيخه، كلاهما الآن في عداد الموتى، فمن أين يأتيه المدد؟. ما أجمل كلمات مرشده جنكيز، كلما رددها مع نفسه انبثقت في أوصاله مصدراً للقوة. تحسر

وقال مع نفسه:

"آه لو كانا حيين، ترى ما الذي كنت سأطلبه منهما في مثل وضعي المزري هذا؟".

صمت للحظة ثم ردّ على نفسه متهكما:

"حسنا، أريد الآن، وفي هذه الساعة، أن آكل خبزاً حاراً محلّى بالبنجر ومدهوناً بالزبدة".

قهقه ساخراً. وقبل أن يتم ضحكته، مرّ من جانبه رجلان يهرولان، يحث أحدهما الآخر: "فلنسرع، ما زال لدينا وقت لإدراك المأدبة".

اقشعر بدن شايع من هذا التوقيت، كأنه جاء رداً على أمنيته السمجة. تحامل على نفسه، تبعهما دون

أن ينتظر لحظة. بعد مسيرة دقائق، ليس بالمكان البعيد، وجد نفسه وسط مأدبة عظيمة تضم أكثر من مائتي نفر يجلسون زمراً حول قُصع كبيرة مُلئت بثريد يخنة العدس والبصل، مفتوحة للعامة، عرف لاحقاً أنها مُقامة على روح زعيم قبيلة ببارغاجيان.

وقف شايع هناك متسمراً مكانه. من غير المعقول أن تكون هذه صدفة. نسي جوعه للحظة مصدوماً بفكرة أنه وبعد كل الذي حصل، ما زال المدد يدركه وإن كان في بطن حوت، حتى بعد مقتل جميع مشايخه. اغرورقت عيناه امتناناً، من جديد شعر أنه لم يكن وحيداً، وأن عناية كلية تحفّ به من جميع الجهات.

كفٌ صغيرة ناعمة ربتت على كتفه من الخلف، استدار، صبية مليحة وشعر أحمر تحمل نضداً

من الخبز الحار، خبز تنور، يا إلهي، تماما كالذي يعمل في قريته الزهدية، لم يذق مثل ذلك الخبز منذ زمن بدا له كأنه دهر، سألته الصبية بصوت بدا مألوفاً لديه:

"الطعام وفير ياغريب، ما الذي تنتظره؟ إجلس وكل حتى تشبع، أتريد أن أوسع لك مكانا؟".

"لا، شكراً سأتدبر حالي... هل لي أن أسأل؟ أيأكل الناس مثل هذا الخبز في هذه الأنحاء؟".

"لا، انه خبز عراقجي محلى ومدهون بالزبدة، اعتاد الناس في ديرتنا على خبزه في المآتم فقط".

"هل لي بواحدة؟".

"بل خذ اثنتين".

بدأ يقضم منها ودموعه تجري بصمت، تصحو الحياة في جسده شطراً فشطراً بعد كل قضمة. شعر بشوق إلى أبيه... بيته في الزهدية، طرقاتها، رائحتها، بيوتها، ناسها.. و... عيشة...".

"لماذا تبكي؟ عماه.. هل كنت تعرف جدّي المرحوم؟".

(لا، الله يرحمه، سأتلو الفاتحة على روحه ما استطعت... ما اسمك ياصبية؟)

ابتسمت بحياء، وقبل أن تخبره باسمها، وخزه شيء في صدره، لم يعرف لماذا:

"اسمي عيشة"...

مهلاً.. مهلاً، مهلاً.. هل يصدق كل هذا الذي يحصل له الآن؟!!! الكرامات والإشارات تترى عليه اليوم بالجملة... تصدّع من حوله ترس حديدي سميك اسمه الرجولة.. تحررت من تحته كائنات صغيرة ملونة كسربِ ذباب الجثث، اسمها المشاعر.. انهارَ يجهش باكياً كالصبيان.

***

واصل مسيره جنوباً الى حيث الخليج الذي يدخل عنده البوسفور ببحر مرمرة، إلى وجهته ميناء أوزكدار، لكن عبر الضواحي الشرقية لاسطنبول. يومان ويكون هناك إن حثّ السير، لكن بعد أن يصل

الميناء كيف سيتدبر مركباً يبحر به إلى بلد بعيد؟ يعرف أنه من الصعب التسلل إلى أي من السفن في موانئ العاصمة، الحراسة هناك مشددة خاصة على السفن المبحرة الى المدن البعيدة، التفتيش صارم، فضلاً عن أن الاختباء في قبو او مخزن سفينة تبحر لأسابيع أمر شبه مستحيل. حسناً، لن يفكر بكل هذا الآن، تعلّم ان يجد حلولاً للمشاكل كلٍ في أوانها.

كان قد مر حوالي ثلاثة أشهر على جلوس السلطان الجديد مراد الخامس، لكن كانت الأجواء ما زالت تشي بعدم الثبات، الناس متخوفون مما هو آت، إثر تقلب الأحداث السياسية والصراع الحاصل بين أذرع الحكم داخل الباب العالي، وبالذات بين جبهة مدحت باشا والموالون له من قادة الجيش والإصلاحيين

من جهة، وبين العائلة الحاكمة والحرس القديم والمحافظين المتمسكين بنظام الخلافة من جهة أخرى. الدكاكين تغلق أبوابها مبكراً والطرقات تكاد تخلو من المارة والمسافرين، الناس تلتزم بيوتها إلا للضرورات القصوى، والاعتقالات تتم على الشبهة والظن. عناصر الجيش والجندرمة يملأون الشوارع. جميع الاشارات تدل على أن الأمور بين رؤوس الحكم لم تحسم بعد منذ مقتل الخليفة المعزول.

استغرق الطريق ثلاثة أيام بدل اثنين.. حال وصوله الميناء وجد الحركة مشلولة وقد أُوقفت جميع الانشطة الملاحية من وإلى موانئ الاستانة الى اشعار آخر بأوامر همايونية. ظل شايع يراقب من بعيد، رجال الدولة مرابطون في جميع الأمكنة والزوايا. حاول أن

يسترق السمع لأجل التقاط كلمة او إشارة بشأن الذي يجري، لكن وجد الناس يركنون للصمت او التفرق كلما مرّ غريب بقربهم، الأجواء ملغومة، الجميع يشك بالجميع. اقترب من متسول عجوز دون ساقين، منزو في ركن بين دكانين مقفولين، حيّاه وقدم له آخر كسرة خبز كانت في خرجه، شكره المتسول ودعا له بطول العمر، جلس على فرشته، صدفَ أنه من بغداد، استذكرا معاً شوارع المدينة وأحوالها وناسها، فاطمأن أحدهما للآخر، واصلا كلامهما بالعربية، سأله شايع:

"ما الذي يحدث هنا، أبتاه، كأنها الحرب؟".

"شيء أشبه بذلك. والستر من الله".

"هلا أخبرتني ما الذي حدث بالضبط؟".

"أحقا لا تدري؟!".

"لا والله، لم أكن في العاصمة، وقد وصلت تواً".

قرّب وجه منه وهمس:

"تم اليوم عزل السلطان الجديد مراد الخامس. يقول الناس، والله أعلم، إنه جنّ حتى صار يأكل برازه، ويقضي معظم نهاره في حوض ماء قارس".

وقع الخبر في نفس شايع موقع رضا وتشفي، لعلها العدالة السماوية. الباب العالي، منذ مقتل الشيخ السندي وأتباعه، يسير من سيء الى أسوأ، لكن هل خفف الخبر على شايع رغبته بالانتقام من كل الذين تآمروا في مذبحة السندية؟ الجواب كلا، لم تخفّ تلك

الرغبة مثقال ذرة. كانت نيران غضبه موّجهة الى جميع رؤوس النظام، بمحافظيه وإصلاحييه ورجال دينه، وبالذات رأس الأفعى مدحت باشا. الجميع ساهموا بتلك المذبحة بصيغة ما. طبعا لن يفصح بما كان يدور في رأسه للمتسول، حاول أن يبدو طبيعياً:

"لا حول ولا قوة إلا بالله.. لم يمض على جلوسه سوى ثلاثة أشهر. ترى من سيخلفه على الكرسي؟".

"الاشاعات ترجح أن الشاهزادة عبد الحميد، أخو السلطان مراد من غير أمه، هو المرشح الأوفر حظاً".

كان مدحت باشا يجتمع بالشاهزادة عبدالحميد

سرّاً منذ بدء ظهور علامات المرض على السلطان مراد. وتعهد عبد الحميد له حينها بأنه يرغب في وضع دستور يخوّل الشعب سلطة أوسع من التي نصّ عليها الدستور المعروض عليه، وزاد على ذلك أنه مستعدّ للتنازل عن العرش متى استعاد أخوه قواه العقلية، وقد أعطى مدحت باشا صكاً خطياً تضمن جميع هذه العهود. إضافة الى، وهذا هو الأهم، تنصيبه صدراً أعظم بدل محمد رشدي باشا.

بعد إعلان جنون السلطان مراد الخامس وعزله، تضاعف شيوع النبوءة المزعومة ولاقت قبولاً منقطع النظير. وحسب الناس، ها قد تحقق الشطر الثاني منها، بعد حوالي ثلاثة أشهر من تحقق الشطر الأول..

"بعد رحيلي، سيُقتل الكبير ويُجن الصغير ويسقط الوزير"

كان عمر السلطان مراد الخامس ستة وثلاثين سنة حينما جنّ وعزل، بينما كان عمر سابقه، عمه السلطان عبد العزيز الأول ستة وأربعين حينما عزل وقتل. الناس أوّلوا (كبر) الأول بمكانته و(صغر) الثاني بسنّه لأجل أن يصدقوا النبوءة. وقد شنّ خصوم مدحت باشا بعد ذلك اليوم حملة واسعة للترويج في المجالس على أن كل هذا البلاء الذي أصاب البلاد والباب العالي ما هو إلا انتقام إلهي لمذبحة التكية السندية، وعززوا قناعة الناس بأن مقولة الشيخ السندي تتحقق حرفياً، وأغدقوا الكثير من الأموال على أئمة الجوامع ليبلغوا المصلين أن المقصود بـ (يسقط الوزير) في النبوءة

المزعومة، هو شخص مدحت باشا نفسه. خاصة بعد أن تسلم الأخير منصبه الجديد كوزير أول. وقد راجت تلك التأويلات بين العامة وأوساط الجيش كالنار في الهشيم.

اقتيد السلطان الصغير (المجنون) بعد يوم عزله إلى قصر جيرغان ليوضع هناك قيد الإقامة الجبرية. وكان ذلك في نهاية آب 1876. ثم انقطعت أخباره بعد ذلك تماماً لحوالي ثلاثة عقود، حتى مات هناك عام 1904.

عرف شايع أن من الجنون البقاء طويلاً في الميناء وسط تلك الأجواء الملغومة، لكن كان من شبه المستحيل مغادرة المنطقة أيضاً، فقد شرع الجيش، بُعيد وصوله بقليل، بإغلاق جميع الطرق الداخلة والخارجة

الى الميناء. في الحقيقة لم يكن في نية شايع التسلل خارج نطاق الميناء او حتى التواري عن أعين الحراس. التراجع في تلك النقطة من الرحلة لم يكن خياراً، كان يعرف في قرارة نفسه أنه آمنٌ وأن ضرراً لن يصيبه في ذلك اليوم وفي ذلك المكان. حل عليه "كشف" لا لبس فيه منذ اللحظة التي دخل فيها المنطقة، على أنه مغادر الليلة على متن واحدة من السفن الرابضة. بالضبط كالذي حدث له من قبل في ميناء غونزلداك. كيف سيتم ذلك؟ لا يعرف هو بالتحديد، إلا أنه، ومرة أخرى، عرفان الدرويش، لمحة كشف تأتي في جزء من الثانية، تخبره بالذي سيكون بشأن أمر محدد. ابتسم لنفسه مطمئناً، أحس بنفسه محصناً وسط حالة النفير وأولئك العساكر المخولون باتخاذ أي إجراء ضد من يصادفونه أمامهم، حتى

لمجرد شيء في هيئته لم تعجب أحداً منهم. تمدد على الأرض قرب المتسول، ونام نوماً عميقاً بعد تعب يوم طويل.

صحا فجراً على اثنين من العساكر يلكزونه بجزماتهم، تلفت حوله، لم يكن المتسول هناك:

"هيه، أنت إنهض، ولد..".

اقتلعوه من مكانه حتى قبل أن يستوعب جلية الأمر. اقتادوه الى سفينة على وشك الإبحار بمهمة رسمية عاجلة، كانت بحاجة الى عمال، وبما أن المنطقة قد خلت من السابلة، صار العساكر يلتقطون أي شاب يجدونه في الميناء ليصعد الى السفينة كعامل سخرة. المهمة السرية، كانت نقل مسؤول كبير من

الباب العالي إلى مدينة ألكساندروبولي لأمر عاجل. كان هذا المسؤول هو اللواء فيضي باشا، المبعوث الشخصي للصدر الأعظم مدحت باشا، ومهمته السرية، حسب ما سيكشفها التاريخ لاحقاً، هي إيصال رسالة الى اللواء رائف باشا آمر الأسطول الرابع المرابط في الساحل الشمالي لبحر إيجة، يطلب منه أن يحرك أسطوله في الحال ناحية العاصمة اسطنبول من الجنوب، يرابط هناك ويبقى في حالة تأهب قصوى بانتظار أوامر ستصله لاحقاً من الصدر الأعظم مباشرة.

ألكساندروبولي لم تكن بالمدينة البعيدة كفاية بالنسبة لشايع ليتخذها ملاذاً من ملاحقيه، لكن مع ذلك، لا شك إنها محطة ستتيح له عدة طرق للهروب الى

أماكن أبعد ما تكون عن معاقل السلطة.

اللواء فيضي باشا!... هل تتذكرونه؟ عرفه شايع في الحال من أول نظرة، الرجل الصارم ذو العلامة الفارقة، جرح قديم يقطع حاجبه الأيسر من المنتصف. هو الذراع الأيمن لمدحت باشا وكلبه الوفي منذ سنيّ ولاية هذا الأخير على بغداد. يتذكره شايع جيداً، رآه أول مرة قبل حوالي ثمان سنين، وهو واقف على يمين الباشا يريد أن ينقضّ على الصبـي ذي الأثني عشر عاماً إرضاءً لسيده، تلك المرة التي وقف فيها الصبـي شايع أمام والي بغداد مدحت باشا، في ليلة الانتفاضة الكبرى، يخبره عن مصيره. وبعد حوالي سبع سنين من تلك الحادثة، حينما قدم شايع الى اسطنبول للالتحاق بالمدرسة الحربية، وبالضبط حينما زار الباشا المدرسة والتقى بالموفدين من العراق،

كان فيضي باشا واقفاً حينها على يمين الصدر الأعظم مدحت باشا أيضا، تماماً كما رآه في المرة الأولى.

لم يتوقع شايع أن فيضي باشا سيعرفه بالمقابل، قد تغير شكله كثيراً وطالت لحيته. لم يحتج شايع أن يفكر كثيراً ليحزر أن فيضي باشا مرسل من قبل سيده مدحت باشا لاستنفار قادة موالين له لأجل ترهيب خصومه داخل الباب العالي في تلك الأيام الحرجة. فكر شايع مع نفسه أنه لو تمكن من عرقلة تلك الرحلة، مهما كان الغرض منها، سيكون ذلك خير انتقام لشيوخه من الباشا الكبير، المتهم الأول في المذبحة الكبرى.

لم يكن واضحاً لدية ما الذي بإمكانه فعله بالضبط والسفينة مليئة بالحرس المرابطين حول الباشا

دون أن يتركوه لحظة. أضمر النية داخله. هذا ما يفترض ان يسلك خاصة الواصلين إن عزموا على شيء.. أن يفرغوا أذهانهم إلا من نية ينوونها، يؤمنون بها إيماناً خالصاً، فتكون حقيقة، يرون ما يصدقون به. الحقيقة والخيال يتبادلان الأمكنة هنا بسهولة عجيبة لا تنبغي إلا لأولئك الخاصة.

انطلقت الرحلة، كان من المفروض أن تستمر تسعة أيام إن واتتهم الريح، لكن مع انقلاب الأنواء تمددت أيام الرحلة، فزاد الاختلاط بين الحرس والعمال وسقطت الرسميات، كذلك تواضع الباشا مع الجميع وسمح للبعض مشاركته الصيد بقوارب صغيرة تخرج من السفينة الى عرض البحر في أوقات الصحو. عمد شايع الى التفاني في الخدمة أثناء ممارسة صيد السمك

للفت انتباهه. وفي واحدة من حملات الصيد تلك، إذا بالحل يقع في يده كاملاً نظيفاً سهل المنال. كان المستهدف في الصيد تجمعات سمك الشوبرا، ولم يكن الاستدلال عليها بالعملية الصعبة في تلك الأوقات من السنة خاصة وأنهم جاءوا في أوج موسم تزاوجها، لكن كانت الشباك تلقط مع ما تلتقطه في طريقها بعضاً من سمك الأرنب بين الحين والحين، وهو أخطر الأسماك السامة على الاطلاق، سمها الفتاك، المشبع بالتترودوتوكسين، يتركز في الجلد والكبد والمبيض. كان من ضمن ما يقع على العمال في حملات الصيد ان يلتقطوا تلك الأسماك من الشباك ويلقونها ثانية إلى البحر، إلا أن العمال يرتعبون حتى من مجرد لمسها، فتبرع شايع بتولي ذلك العمل على عاتقه بدلاً عنهم. وفي غفلة من الجميع تمكن من أن يشق بطن واحدة

ويأخذ مبيضها ليخبئه في جيبه. جففه بعدها تحت أشعة الشمس ثم فركه ليكون كالمسحوق الأبيض. جمع المسحوق في صرة صغيرة احتفظ بها تحت ثيابه.

بعد خروج السفينة من مضيق شَنَقْ قلعة بوغاز (الدردنيل) ودخولها بحر إيجة، عرف شايع أن الرحلة قاربت على نهايتها، بقي في حالة استنفار لتنفيذ ما في رأسه، لكن فضل أن ينتظر حتى آخر يوم في الرحلة، وقبل أن تصل السفينة ساحل الكساندروبولي بوقت قصير، استغل شايع انشغال رجال الباشا بالتحضير للمغادرة، ليرش المسحوق القاتل على آخر قصعة للباشا قبل الرسو.

بعد مضي ساعات رست السفينة، سمحوا للعمال بالمغادرة وكان شايع من ضمنهم، إلا أن الباشا

لم يغادرها على الفور. كان قد أحس بخدر في شفتيه وثقل في لسانه قبل الرسو بحوالي نصف ساعة، فلم يعر ذلك انتباها، ظنه من أثر الراكي، لكن تبعه بعد حين وخز شامل في الوجه والأطراف. ثم دخل في دوار وإرهاق وصداع، قرر ان يأخذ قيلولة قبل أن يغادر، إلا أنه قضى باقي النهار في فراشه ما بين تقيؤ وأسهال شديد، بدأ التترودوتوكسين المنحل من المبيض المسموم يصل الى جميع خلايا جسمه ويضرب جهازه العصبي. حتى تلك المرحلة لم يشك أحد أنه عملٌ مدبر، ظنوه وعكة شديدة، جلبوا له طبيباً إلى السفينة.

كان شايع قد غادر في سبيله منذ ساعات، لم يلبث طويلاً في المدينة خوفاً من أن ينكشف أمره. واصل المسير شمالاً دون توقف باتجاه الأراضي

البلغارية.

نُقل اللواء فيضي باشا الى مستشفى عسكري في الكساندروبولي، لبث هنالك يومين في حالة فقدان وعي تام قبل أن يموت. الوثائق كشفت لاحقاً أن الغرض من تلك الرحلة لم ينجز، وأن الرسالة السرية للصدر الأعظم لم تصل الى رائف باشا لا في ذلك اليوم ولا بعده.

الأحداث بعد ذلك تتتابع على شايع بسرعة...

واصل مسيره نحو الأراضي البلغارية، لماذا اختار وجهته تلك؟ لم يكن خافياً في تلك الفترة أن الانفصاليين البلغار كانوا في أقصى حالات نشاطهم ضد السلطة العثمانية، وأن الخضوع لسلطة الدولة

هناك، ومنذ فترة ليست بالقصيرة، لم يعد معمولاً به.

وصل بلدة بيرنك، حوالي خمسة وثلاثين كيلومتراً جنوب-ي صوفيا، وكانت حينها معقلاً لجماعة سلوبودني بويان، أشهر وأقوى ميليشيات المقاومة المسلحة في الأراضي البلغارية. قوامها فلاحون شبان وجنود مطرودون من الخدمة وبعض المتعلمين. حال وصوله طلب شايع الانضمام إليهم. شكّوا بأمره في البداية كونه غريب وقادم من اسطنبول، لكن بعد سماع قصته منه قبلوه بتحفظ على أن يلحقوه مع صبيان الخدمات وليس ضمن الوحدات المقاتلة. وفي ظرف شهرين تمكن من كسب ثقة القادة، فرقّوه في المرتبات بسرعة قياسية، وقد شفع له في ذلك إخلاصه في العمل وسنيّه في المدارس العسكرية وكذلك ذكاؤه مع تناسق

شكله. وجد شايع فيهم ملاذاً مثالياً في تلك الفترة العصيبة من حياته، يحميه من ملاحقة رجال السلطة من ناحية. ومن ناحية أخرى وفّر له وضعه الجديد فرصة واسعة لم يكن ليحلم بها للانتقام، والنيل من هيبة السلطنة والجيش.

كانت الميليشيات البلغارية في تلك الأيام تمارس عملياتها السرية ضد أية جهة تمثل السلطة العثمانية على أراضيهم، وكان التركيز منصباً على الضباط الأتراك. منذ دخوله الوحدات القتالية برز شايع بين المقاتلين بطرقه المبتكرة في اغتيال الضباط الأتراك، يجبر من يأسره منهم على ابتلاع نياشينه او رتبته العسكرية المصنوعة من المعدن حتى يختنق بها. يقطع رؤوسهم ويبعثها الى حامياتهم بأكياس البريد،

يحرقهم أحياء، يدفنهم في الرمال حتى الأعناق فتنبش الطيور رؤوسهم، كان يعمد إلى إرهاب الآخرين منهم بتلك القصص البشعة لتقويض معنوياتهم، كما وداوم من ناحية أخرى على إلحاق أكبر الضرر بحامياتهم ومنشآتهم العسكرية داخل وخارج المدن كلما سنحت له فرصة. واصل نجم شايع الصعود في أوساط المقاومة حتى صار واحداً من أعلامها، اسمه الحركي كاسابن، أ ي الجزار، تحول إلى بطل شعبـي، وصار البلغاريون يتداولون في مجالسهم قصص بطولاته ضد السلطة هناك.

(33)

في إستنبول، بدأت الأحداث السياسية تتداعى بسرعة، فبعد جلوس السلطان الجديد عبد الحميد الثاني على كرسي الخلافة خلفاً لأخيه مراد الخامس (المجنون)، وتنصيب مدحت باشا صدراً أعظم، لثاني مرة، اختلفت الدنيا فجأة على الأخير، فبعد أن كان قد كبّل الخليفة الجديد بعهود ومواثيق أخرى تمنح الباشا

صلاحيات أعظم بكثير مما كانت متاحة له أصلاً، بدأ الأمراء والحرس القديم يتآزرون ضده في السر موظفين جميع أموالهم وأتباعهم لأجل وضع حد لنفوذه المتعاظم. استثمروا أولاً في نشر الشائعات التي كانت تروى ضده على ألسنة العامة، على إن الباشا هو المسؤول الأول عن مذبحة التكية السندية وشيخها عز الدين السندي، كونه رجل (كافر) يكره الأولياء و(عميل) للفرنسيين، مع استمرارهم الترويج لفكرة (سقوط الوزير)، ومن يكون غيره، الخصم الأكبر للسندي والسندية، الذي تشير إليه جميع أصابع الاتهام بارتكاب المذبحة.

لم يتوقع خصوم الباشا الأثر الفظيع الذي ستخلفه تلك الشائعات، كان وقعها في مزاج الناس

وحتى مؤيدي الباشا أكثر من جميع الوسائل والخطط التي وضعوها للتعجيل بسقوط الباشا الكبير. ففي ظرف أيام، انفضّ عنه أغلب أزلامه ورجالاته الأقوياء في كل مفاصل الحكم.

أشير على السلطان الجديد عبد الحميد أن الوقت كان مناسباً للتعجيل في تسديد الضربة القاضية لصدره الأعظم، قبل أن يسترد هذا الأخير أنفاسه وشعبيته بين الناس. كانت الخطة المثلى للتخلص منه تماماً، دون إثارة فتنة او انقسام في قيادات الجيش، هي أن تُوجه اليه تهمة قتل السلطان المعزول عبد العزيز الأول، الخليفة المسالم، طيب القلب، صاحب الشعبية بين الناس والجيش والذي يلقبه الناس بالبخت سيز (قليل الحظ)، مستغلين نظريات المؤامرة التي شاعت

بين الناس عن ظروف موته / قتله بعد يومين فقط من عزله في ظروف غامضة. كانت الفكرة جهنمية، تضرب أكثر من عصفور بحجر واحد، فمن ناحية ستُرضي غريزة الانتقام عند الناس، بالقصاص العادل من قاتل خليفة المسلمين، ومن ناحية أخرى سيكون سقوط الصدر الأعظم موافقاً رغبة الناس بالانتقام من قاتل ولي من أولياء الله الصالحين. وبذلك يبعد الباب العالي نفسه من قائمة المتآمرين على قتل الشيخ السندي. ثم إن سقوط الوزير الأول سيعمل على لم شمل العائلة المالكة، وسيرضي بالأخص أولاد السلطان المغدور عبد العزيز بعد أن بدا لهم أن عزل والدهم كما لو كان مؤامرة من أولاد عمهم عبد المجيد الأول على سحب ولاية العهد منهم.

في الليلة التي حُددت لتنفيذ الخطة، تم اتخاذ جميع الاحتياطات قبل ساعة التنفيذ، تمت الأمور من بعد ذلك بسرعة قصوى، دُعيت قيادات الجيش للقصر بحجة تجديد البيعة للسلطان الجديد. وعند صلاة العشاء أُلقي القبض على مدحت باشا وخاصته المخلصين وهم مجتمعون في قصره، بكمين محكم. وفي الليلة ذاتها حرص السلطان الجديد على توزيع ترقيات ومُنح على جميع القيادات لشراء صمتهم وتطمين كل منهم بالحفاظ على منصبه بعد سقوط الباشا.

تم تنفيذ فصول الخطة بتزامن ممتاز. ونجحت نجاحاً غير متوقع. أُعلنت حالة الطوارئ في العاصمة وباقي أمصار البلاد. بعدها وفي ظرف أيام تمت محاكمة مدحت باشا محاكمة صورية وحكم عليه

بالإعدام. وبذلك انتهت الفترة الثانية لمدحت باشا كصدر أعظم، في عهد السلطان عبد الحميد الثاني، بعد ثمانية وأربعين يوماً فقط من تسلمه للمنصب، بينما كان قد قضى في فترته الأولى عام 1872 في عهد السلطان عبد العزيز الأول، نحو ثمايون يوماً.

تمكن الباشا قبل يوم من تنفيذ الحكم فيه، وبمساعدة موالين له، ان يتسلل خارج سجنه. لم يكن الهروب الى بلد آخر بالأمر الممكن وجميع الطرق مكتظة بالعسكر. وجد الباشا طريقه الى السفارة الفرنسية ودخلها طالباً اللجوء.

كان السفير الفرنسي مسيو كاسافيريه حينها نائماً في بيته، أيقظه رجاله ليخبروه بخطورة الموقف وكيف صارت السفارة في قلب الأحداث. كان رجلاً ذا

مبادئ، لن يتخلى عن الباشا بسهولة، مقدراً مواقفه ووفاءه مع الفرنسيين. لم يكن الباشا يخفي، مذ كان شاباً، أنه فرنسي الهوى، وبعد أن تسنم منصب الصدر الأعظم ظل يعلن على الملأ إعجابه بتجربة قيام الجمهورية الفرنسية الثالثة عام 1871 والتي أطاحت بحكم الملكية في فرنسا دون رجعة. وطالما سعى الباشا إبان سني نفوذه الى السير بالامبراطورية العثمانية باتجاه أوروبا الغربية والفرنسيين بالذات على حساب الروس.

أبرق السفير الخبر في الحال الى الرئيس الفرنسي حينها، باتريس دو مكماهون، يستعجله أن يتدخل شخصياً لإنقاذ الموقف. وبعد مفاوضات صعبة، وتهديد من الباب العالي باقتحام السفارة، رضخ

الفرنسيون على تسليم مدحت باشا لكن بصفقة، أن يخفف حكمه من الاعدام الى المؤبد، مقابل إسقاط ثلاثين بالمئة من فوائد الديون الفرنسية للسلطنة، فوافق السلطان الجديد على الصفقة. بعدها أشير عليه من خاصته أن لا يدع الباشا يقضي فترة حكمه في العاصمة أو أي من المدن القريبة، فما زال له الكثير من الأتباع والمناصرين، فتم إرساله بسفينة خاصة مخفوراً بعشرات الجنود، تحرسها خمس سفن عسكرية من الاسطول الثاني، الى سجن في الحجاز، يقع داخل بناية مكينة ومنفردة تدعى قلعة الطائف...

نعم، قلعة الطائف، حينما سمع مدحت باشا بمكان سجنه، ذُهل، اقشعر بدنه، كان، في داخله، يعرف أنه سيقضي آخر أيامه داخل تلك القلعة، طالما

تجاهل مع نفسه تلك الحقيقة منذ أن سمعها من فم ذلك الصبـي ذي الإثني عشر عاماً، شايع، قبل حوالي ثمانية أعوام، حينما كان والياً على بغداد. في ذلك اليوم لم يتمكن الباشا من مسح صورة الصبـي من دماغه، بابتسامته اللئيمة وتلكما الغمازتان الساخرتان على خديه. لكن بعد انتهاء ولايته على بغداد، وتقلبه في المناصب العليا واستغراقه في السياسة نسي أمر ذلك الصبـي وما قاله. وبعد سبع سنين من ذلك الموقف، إذا به وجهاً لوجه معه في إسطنبول، صادفه في المدرسة الحربية، ميزّه من بين العشرات، استشاط وطرده في الحال، وبقي مستفزاً، متعكر المزاج طيلة ذلك اليوم. حينها وبعد أن هدأ، عرف أن صلة غير مفهومة تربط مصيره بمصير ذلك الشاب، من العبث بعد الآن تجاهلها، وانه لا محالة ملاقيه مرة أخرى.

انتشر خبر اعتقال ونفي مدحت باشا في جميع أرجاء البلاد في ظرف أيام. حينما تلقى شايع الخبر، لم يكن قد مرّ عليه حينها سوى أيام مع جماعة سلوبودني بويان. تفاجأ بالسرعة التي انهار فيها الباشا وشبكة النفوذ التي بناها على مدى سنين. أرضاه الخبر الى حد كبير، لكن لم يشف غليله تماماً، لسببين، أولاً لأن الباشا لم يزل حياً. وثانياً أن الباب العالي خرج منتصراً من تلك المؤامرة.

قرر شايع ان يستمر في نشاطه في اثارة العصيان ضد السلطة، والتعرض لكل من يمثلها، وان كان في أرض بعيدة عن مركز القرار.

بعد مرور حوالي الخمسة أشهر مع سلوبودني بويان، مُنح شايع منصباً قيادياً، وصار العقل

المدبر للعمليات الخاصة ضد ثكنات الجيش العثماني في بلوفديف وصوفيا، وكانت خططه تقفز من نجاح الى آخر.

المتمردون البلغار كانوا مدعومين سراً من الرومانيين والروس على أعلى المستويات، خاصة الروس، إذ عيّن القيصر نيكويلافيتش رومانوف (الكسندر الثاني) مسؤولاً كبيراً من العائلة المالكة، كنيته يليتسا (الثعلب)، لتولي تلك المهمة، وهو نيكولاي، حامل لقب الدوق الأعظم، حفيد الإمبراطور نيكولاي الأول، (بعد خمسة وثلاثين عاماً سيكون قائد وحدات الجيش الإمبراطوري الروسي في الحرب العالمية الأولى).

كانت مهمته الإشراف والتواصل وبشكل

مباشر مع المتمردين البلغاريين، وإمدادهم بالمال والسلاح والمشورة والتدريب، للدفع باتجاه استقلال بلغاريا عن السلطنة العثمانية. كان متابعاً لنجاحات شايع في الميدان وقد أُعجب كثيراً منذ البداية بجرأته ومهارته في إدارة حرب العصابات. فبعث إليه يستدعيه إلى العاصمة سان بطرسبورغ ليلتقي به شخصياً ويعرض عليه تولي مهمة سرية خاصة. كان الدوق يراهن الى أبعد حد على قدرة الشباب في اجتراح المعجزات، كان هو نفسه شاباً في العشرين من عمره، أي من عمر شايع.

منذ حرب القرم (انتهت عام 1856) وحتى عام1877 لم تقع مواجهة تذكر بين الإمبراطوريتين العظيمتين. وفي فترة نفوذ مدحت باشا الذي لم يكن

يخفي كرهه للروس، توترت العلاقة بين الامبراطوريتين إلى أبعد حد، ركز الروس خلالها على استهداف مدحت باشا شخصياً واتباعه والاتجاه الذي يمثله، والذي كان بمثابة العقبة الأكبر أمام بسط نفوذهم داخل الباب العالي. لكن بعد سقوط الباشا نهائياً، تنفس الروس الصعداء، ودعموا بشدة إجراءات عبد الحميد الثاني لإرجاع الهيبة إلى مكانة السلطان، إلا أن ذلك لم يمنعهم من الاستمرار في تنفيذ استراتيجيتهم القديمة بالعمل على إخراج العثمانيين من الأراضي المسيحية وخاصة في القارة الأوروبية، وجدوا حينها الفرصة مواتية، حيث السلطان الجديد قليل الخبرة، ورجل الدولة القوي مدحت باشا في السجن، وكبار قادة الجيش من اتباع الباشا انتهوا ما بين إعدام وسجن ونفي وطرد. في الوقت الذي كانت فيه المدن البلغارية

حاضرة للتمرد وإعلان الانفصال. ومع ذلك كان الدوق الأعظم يعرف أنه من غير العملي أن تشتبك القوات البحرية الروسية بمعركه مباشرة مع الأسطول الهمايوني في البحر الأسود وذلك لسببين، أولهما كثافة التواجد العسكري العثماني في البحر الأسود، والثاني اتفاقية باريس.

في آذار 1856، أنهت اتفاقية باريس حرب القرم بين الإمبراطوريتين الروسية والعثمانية، وافق بموجبها الطرف الروسي، المهزوم، على العديد من الشروط التي عدت حينها مجحفة بحقهم، كان منها إعلان حياد البحر الأسود، وكانت هذه المادة كارثة بالنسبة لروسيا، إذ أجبرتها على سحب سفنها الحربية من البحر الأسود ونقلها إلى بحر البلطيق، وبالتالي

أصبح البحر الأسود من يوم التوقيع، من الناحية الفعلية، بحيرة عثمانية. منذ ذلك الحين لم يهدأ بال للقيصر الكساندر الثاني، والذي تم توقيع الاتفاقية في بداية عهده بالحكم. ظل ذلك التنازل، نقطةً سوداء في تاريخه، ومن حينها لم ينقطع يخطط ويناور بشتى السبل لاستعادة نفوذ روسيا الشرعي في البحر الأسود.

مع استلام السلطان عبد الحميد الثاني الحكم، كان لدى البحرية العثمانية واحد وعشرون سفينة حربية هجومية ومائة وثلاثة وسبعون قطعة حربية ما بين متوسطة وصغيرة، وكانت تحتل حينها المرتبة الثالثة كأكبر قوة بحرية في العالم بعد القوات البحرية البريطانية والفرنسية. لكن الحجم الهائل للبحرية كان عبئاً كبيراً على الاقتصاد العثماني المنهار، خاصة بعد

إعلان الحكومة إفلاسها عام 1875.

كان السلطان الجديد يدرك أن الإمبراطورية بحاجة الى إيجاد مصادر تمويل جديدة لتحديث قوته البحرية من أجل استمرارها في حماية السلطنة، وخاصة من التهديد الروسي المتنامي.

كانت خطة الدوق الأعظم، باختصار، هي أن يتم إشغال وإنهاك الأسطول العثماني في البحر الأسود بحرب عصابات قبل أن تنطلق المعارك لتحرير أرض البلغار على السواحل الغربية للبحر. على أن ذلك الاشغال يجب أن يأتي، ليس من الروس طبعاً، بل من طرف ثالث، مجهول الهوية، وكانت تلك هي بعينها المهمة التي اختير لأجلها شايع.

لم يعرف شايع، في البداية، من طبيعة المهمة التي انتدب لأجلها سوى أنها موجهة ضد العثمانيين، وهذا كل ما كان يحتاج لمعرفته ليوافق في الحال. التعليمات التي وصلته بهذا الشأن أبلغته انه وبعد استلامه رسالة الدوق الأعظم، عليه التوجه في الحال الى القنصلية الروسية في صوفيا والتي ستتولى بنفسها أمر ترتيب رحلته الى العاصمة الروسية سان بطرسبرغ. عمل شايع حسب التعليمات، انطلق ضمن الرحلة البرية التي رتبتها القنصلية، كانت محروسة برجال من الحرس الامبراطوري الروسي متخفين في هيئة تجار. كانت رحلة طويلة نحو الشمال، اجتازت أراضي وعرة وسلاسل جبلية وسهولاً ومدناً باردة، مرت برومانيا أولا ثم أوكرانيا فبلاروسيا، فليتوانيا فلاتيفيا وأستونيا.. شايع كان مسحوراً بتنوعات الطبيعة

الجديدة على عينيه طيلة طريق الرحلة. غابات نهر الدانوب التي تظهر في النهار وتختفي في الليل، جبال الكاربات الشاهقة التي تنمو رؤوسها أمام عينيك، سهول باراغان التي تغيّر ألوانها كل ساعة، بحيرات بيلاروسيا التي تتكاثر في الربيع كالفئران، مياه نهر نيموناس الوردية التي تُسكر الطيور، بحيرة كورسيو التي تنادي الحوامل بأسمائهن فتغرقهن.. شعوب وأقوام وطبائع لم يسمع بها من قبل، الأماكن الجديدة أدخلته في "أحوال" جديدة، وطوال الرحلة تماهت عنده الخطوط الفاصلة بين الحقيقي والمتخيل، ليكوّنا معا واقعاً جديداً، يصعب وصفه، أشد حياة من كلا الكونين، كان هو مركزه. وكل ما يمكن أن نسميه "تفاصيله" ما هي إلا أجزاء منه وفيه.

بعد استونيا، تدخل القافلة سان بطرسبرغ من ناحية الجنوب، وبالتحديد ضاحية كراسنوسيلسيكي. كان الدوق الأعظم ينتظره هناك بنفسه، رحب به بحرارة وكأنه يعرفه منذ زمن طويل، أصعده الى عربة الترويكا الخاصة به، والتي قادها بنفسه حتى مقر الإقامة الذي أعد لشايع في قلب العاصمة، قصر كاشاييف، المخصص لإقامة كبار الضيوف. منذ اليوم الأول كسر معه جميع الرسميات وصار يعامله كصديق قريب من عمره. تفاهم شايع والدوق الأعظم على الخطوط العريضة للمهمة وكان هذا الأخير منفتحاً على جميع اقتراحات شايع بخصوصها.

بعد انقضاء ستة أيام في العاصمة، كان المفروض البدء بمرحلة إعداد شايع وتدريبه على

فصول المهمة، وقد سبق للدوق الأعظم تكليف ضباط من الحرس الإمبراطوري لتولي ذلك الأمر، والذي سيتم في مكان سري داخل معسكر في مدينة أوديسة على الساحل الشمالي للبحر الأسود. لكن بقي شيء واحد كان الدوق حريصاً على فعله قبل إرسال شايع الى مكان تدريبه. أن يتيح له شرف مقابلة القيصر الكسندر الثاني شخصياً في قصر الشتاء، مقر الحكم، ليريه مدى جدية المهمة التي انتدب لأجلها.

تم إعداد شايع على مدى خمسة أيام لتلك المقابلة، كيف يدخل على مجلس القيصر، كيف يقف بحضرته، كيف يقدم التحية، متى يتكلم، متى يصغي، إن كانت الامبراطورة ماريا الكساندروفا، عقيلة القيصر، حاضرة كيف يحييها وبأي الأسماء يناديها.

قائمة طويلة بالمسموح وغير المسموح، قائمة أخرى بأسماء الحاشية الذين قد يحضرون اللقاء ومناصبهم وأين سيقف كل منهم، وفوق كل هذا عليه أن يتذكر أن لا ينظر مباشرة في وجه القيصر او الامبراطورة، إن حضرت، أو أي من الحاضرين، وأن يقف في المكان الذي سيتم تحديده لوقوفه أمام القيصر، والذي سيكون على مسافة حوالي خمسة أمتار، ممنوع تخطيها منعاً باتاً. اعدوا له للمقابلة زيا عربيا، صاية وغترة وعقال مقصّب وعباية صوفية مبطنة بفرو السمّور، صنعت خصيصا لأجله.

جاء اليوم الموعود، كان يوماً كانونياً قارس البرودة، الثلج يتساقط بكثافة على العاصمة، كان شايع اصلاً قد تعلم عدداً لا بأس به من الكلمات الروسية

أثناء فترة نضاله في بلغاريا، ومع ذلك أعدوا له مترجماً روسياً يجيد التركية والعربية والبلغارية. في ذلك اليوم كان شايع متماسكاً قد نام جيداً في الليلة التي سبقت يوم اللقاء، هو لا يرتبك او يخاف في حضرة الملوك، يعرف تلك الميزة فيه منذ أن وقف أمام الوالي مدحت باشا وهو صبـي، لكن هناك استثناء واحد، (ملك) واحد يفقد تماسكه في حضرته وتختلط أحواله بعضها ببعض، حتى وإن كان على بعد ألف ذراع منه: شيخه الكبير عز الدين السندي.

وصلت عربته الى قصر الشتاء بعد منتصف النهار، وجد في استقباله شخصين بزي موحد، معاطف فراء طويلة رمادية وقبعات يوشانكا بيض. انبهر شايع بفخامة حجم قصر الشتاء، كان شيئاً مختلفاً تماماً عن

قصور اسطنبول التي شاهد بعضها عن بعد، طبعاً باستثناء توب كابـي سرايا وطولمة باغجا. لكن من ناحية المساحة فلو جمعت قصور يلدز وكوجوسكو واهلامور وبكلربكي فلن تساوي معاً نصف حجم القصر الذي هو بإزاء دخوله.

مشى كثيراً في ممرات القصر، وكانت مليئة بحراس طوال القامة واقفين على الجوانب بالاستعداد وبكامل بهرجة تجهيزاتهم كأنهم تماثيل. كلما اجتاز مسافة، يتنحى دليلاه، ليحل محلهما آخران، يبدو من ملابسهما أنهما أعلى مرتبة من سابقيهما، وهكذا حتى أوصلوه إلى قاعة جلوس القيصر، انتظرا معه قليلا أمام بوابة حمراء عظيمة حتى تلقيا إشارة الدخول، اثنين آخرين فتحا البوابة، فتقدم دليلا شايع به الى حيث

يكون العرش.

جرت الأمور خارج جميع التوقعات، كان القيصر في مزاج طيب، مستثاراً في داخله لتلك المقابلة. شيء مختلف تماماً عما عهده من اجتماعات بروتوكولية واستقبال الوفود والسفراء. مثل هذه المقابلة تداعب له حس المؤامرات، وتمجد عبقرية الـ "أنا الخارقة" في تحريك الأحداث من خلف الستر. كان مستعداً أن يمنح من وقته الى مثل تلك المهام السرية أكثر ما كان يمنحه للمعارك والمهام التقليدية. كانت توفر له مادة لقصص مشوقة، لا يمل متباهياً بها في مجالسه الخاصة.

كان القيصر الكسندر الثاني رجلاً فخوراً بانجازاته وعهده، ويعد نفسه حاكماً معاصراً يختلف

عن جميع من سبقه في الحكم، خاصة من ناحية تقربه من الشعب واحتياجاته، فهو أول من حرر العبيد، وقد لقب لذلك بـ "المحرر"، وأصلح نظام التعليم ونظام الحكومة ونظام الخدمة العسكرية القديم الذي كان يجبر الفلاحين على أداء خمسة وعشرين سنة خدمة إلزامية، كما ألغى نظام العقوبات الهمجية على المواطنين. ورغم أن الإصلاحات في روسيا القيصرية بدأت في عهده، إلا أن التاريخ لم ينصفه كفاية بهذا الخصوص، فمهما عمل وأنجز، يبقى أولاً وأخيراً محسوباً على آل رومانوف.

لم تكن القاعة مليئة بالحضور، القيصر وزوجته الامبراطورة ماريا الكسندروفنا يجلسان على كرسيين بظهرين عاليين، مبالغ في زخرفتهما بطبيعة

الحال، يقف على يمينهما الدوق الأعظم والترجمان الى الخلف قليلاً، وبعض الحراس يقفون على مسافات متباعدة. لم يحضر اللقاء أي من حاشية القيصر، ربما بسبب الطبيعة السرية للاجتماع.

خشي شايع وهو واقف في حضرة القيصر أن تلتبس عليه التعليمات والارشادات التي امتلأ بها رأسه طيلة الأسبوع الماضي، لكن بعد أن حيّا القيصر، وكذلك عقيلته، تبدد خوفه. بدأ القيصر يخاطبه بنبرة ودية ودون توقف، تفاجأ شايع من كم المعلومات التي كان جلالته يعرفها بشأنه. مواقف كاملة وقصص بطولاته ضد الضباط الأتراك، وحتى انه أبدى إعجابه الشديد بالطريقة التي اغتال بها شايع اللواء فيضي باشا حامل الرسالة السرية. لكن الذي حير شايع في هذه

الأخيرة، أن القيصر روى تفاصيل عن تلك الواقعة لم يذكرها شايع لأحد من قبل. كان القيصر يبدو مستمتعاً بما يرويه. ثم صمت محدقاً فيه كأنه يريد أن يتذكر شيء:

"... شايي.. أسمك صعب النطق، اسمع من الآن فصاعداً سيكون اسمك.. شبيلكا"

التفت الى الدوق الأعظم على يمينه معيداً الأسم عليه "شبيلكا"، فهز هذا رأسه استحسانا.

شبيلكا، اسم مفضل لدى القيصر سبق وأطلقه على كلبه الهوسكي، ثم وبعد أن مات، أطلق الاسم نفسه على أكبر موس في حديقة الحيوانات التابعة للقصر، كان ذلك الظبـي هو آخر ما جُلب الى قصره من

مقاطعة ألاسكا قبل أن يبيعها للأميركيين بسبعة ملايين دولار.

هنا تشجعت ماريا الكسندروفنا، بدت مستمتعة ايضاً بما يجرى، سألته مخاطبة إياه باسمه الجديد:

"شبيلكا، علِمنا إنك داريوش ايضاً- صححها الترجمان إلى درويش- لديك أسرار وقدرات وما الى ذلك، هل هذا صحيح؟".

التفت القيصر الى امرأته رافعاً حاجبيه إعجاباً بمداخلتها، كأن لسان حاله يقول:

وتلك ميزة أخرى لدى رجلنا، فاتني ذكرها.

كره شايع تحول الحديث المفاجئ بذلك الاتجاه:

".. نعم جلالتكم انا درويش، الدرويش في لغتنا معناه الزاهد بملذات الدنيا، أما الأسرار والقدرات، فما عندي منها، سموكم، إلا ما يجعلني متصالحاً مع حالي".

صفّقت بكفيها والتفتت إلى القيصر فاتحة عينيها على آخرها:

"وحكيمٌ أيضاً، يا للتواضع... أعجبني جوابه".

الإمبراطورة لا تعرف او بالاحرى لايعنيها مما قيل لها عن التصوف والدروشة غير شيء واحد،

شيء بعينه يستثير لا شك فضول جميع النساء:

"شبيلكا، أخبرني عن طالعي.."

انتقلت شرارة الفضول لصاحبها القيصر، طقطق أصابعه وعقد ذراعيه حول صدره:

"أووه، الآن حلت الجلسة أكثر".

كلاهما لا يعرفان أنهما يمعنان في إهانة وإحراج درويش. الدراويش لا يقرأون الطالع، قراءة الغيب لا تتأتى بكبسة زر، اللهم إلا إن ضربته ومضة كشف في تلك اللحظة، لكن الكشف لا يُستجلب عند المشيئة، بل يختار لحظة ظهوره وفق نظام لا ينبغي اليه سبيلاً.

فكر شايع بسرعة، العيون تتطلع فيه منتظرة، الدوق الأعظم يهز له رأسه مشجعاً. تجمدت حالة السكون في الأجواء، عليه أن يجيب بأي شيء. مرت لحظتا صمت ثقيلتان، نطق مجيباً:

"... في هذه الحالة، عليّ أن اقترب أكثر. هلا منحتموني، سموكم، الرخصة؟".

نظرت الامبراطورة الى زوجها تستطلع رأيه في ذلك، اختفت الابتسامة، ليس من اللائق أن تكسر شروط المسافة، أن يختلط فضاء العامة بفضاء الملوك.. انتظر القيصر قليلاً قبل أن يشير بالموافقة، وعلى مضض.

بتلك الموافقة، دق القيصر أول مسمار في

نعشه، ونعش امرأته دون أن يعلم. ولكن كيف يتسنى للملوك معرفة خطر خاصة الدراويش على مصائرهم؟ حين تختلط أنفاسهم بأنفاسهم؟ كان الأحرى بهما أن يبقياه بعيداً عنهما قدر الإمكان. كونان متنافران، أحدهما خطوطه مستقرة متوازية مسحوبة الى المركز، كأشعة ضوء تنحو الى الداخل، والآخر خطوطه مسحوبة الى الخارج، تتحول بالضرورة الى طاقة طاردة تحيل مجالها الى فضاء خاوٍ على الدوام... في حكم الباطن، لا يصح أن يقترب هكذا قطبان من بعضهما، وان حدث، فستنهار كتلة أحدهما في الحال، وكأنها لم تكن موجودة أصلاً.

تقدم شايع بخطوات ثابتة، برك على ركبتيه أمام الامبراطورة، منكساً رأسه، رفع راحة يمناه

مشرعة الى أعلى:

"هلا تفضلت جلالتكم ووضعتم كفكم الكريمة على كفي، لكن خالية من الحليّ إن أمكن؟"

نظرت مرة أخرى للقيصر، لا، هذا كثير، لم يعلما انهما وقعا في الأسر، بدا الضيق واضحاً على وجه القيصر، شعور جواني غريب بعدم الراحة كتم على أنفاسه. هل هو الخوف من هذا الكائن النكرة؟ شيء يصعب هضمه. لم تعد اللعبة ممتعة كما بدأت.

زم القيصر شفتيه، هز رأسه هزة خفيفة بالموافقة، وكأنه يقول:

"لننته من هذا الأمر بأسرع ما يكون".

تنهدت الامبراطورة مسلّمة بما لابد منه، أزاحت خاتمين من أصابع كفها الأيمن، حطت كفاً بيضاء نحيلة مرتعشة على الكف السمراء الخشنة... وبمجرد أن تلامستا، أصابها خدر، ماتت بين أصابعه كما الفراشة في قبضة صبـي. وبعد أقل اللحظة، ذهب الدرويش الى المابعد، عرف أنه أحكم الزمام، ليدخل منساباً الى منطقة اللارحمة، المكان الذي صار ملعبه مؤخراً، لم يكن في نيته مقاومة ما سيحدث، لا بأس أن يدْعك قملة كبيرة، نعم، هكذا يرى الدراويش جميع أباطرة الظاهر:

"الآن فلتسمح لي جلالتكم أن أنظر مباشرة في عينيكما الكريمتين".

عند تلك النقطة، كان القيصر وعقيلته

مسلوبـي الإرادة تماماً، منومين، يستجيبان بآلية قسرية لكل ما يطلب منهما.

ردت بصوت اعترته ارتعاشة واضحة:

"قد.. منحناك.. الرخصة".

رفع شايع رأسه ببطء، وركز عينيه السوداوين الواسعتين في عينيها مباشرة. نافذاً عبر أضعف الأماكن في غلاف طاقتها المظلمة، وما أكثرها فيها، محدثاً ثقباً صغيراً.

لم تصمد للحظة، جفلت في الحال، وأطلقت صرخة سريعة كمن بوغت في غفلة. سحبت كفها بسرعة. ظل شايع هادئاً، أنزل كفه ونكّس رأسه من جديد.

همس القيصر لها:

"هل انت بخير، عزيزتي؟".

قالت بعد أن استنشقت هواء كثيراً:

"أنا بخير، لا أعرف ما الذي حصل لي".

أشار القيصر إلى شايع بصوت متعب:

"هذا يكفي شبيلكا، بإمكانك الرجوع الى مكانك".

***

في مدينة الأوديسة، تلقى شايع دورات مكثفة في فنون القتال في البحار، طرق تجنيد المقاتلين،

التواصل السري مع ضباط الاتصال الروس، التمويه على العدو وإخفاء الهوية، زرع الجواسيس في صفوف العدو، معلومات عن الأسطول الهمايوني العثماني المرابط في البحر الأسود، قطعه البحرية، أنواع السفن الحربية ونقاط القوة والضعف في كل منها، المدافع التي يستخدمها، تحركاته، تدريباته، مناطق تواجد سفنه، وأسماء الضباط الكبار وخاصة الفاسدين منهم، وأمور أخرى. بقي شايع ثلاثة شهور متواصلة، تمكن خلالها كذلك من تحسين لغته الروسية بالقدر الذي يمكنه من التفاهم بها دون الحاجة لمترجم.

بعد ذلك اللقاء بشايع والذي حصلت فيه أمور، أقل ما نستطيع قوله عنها، انها لم تكن ملائمة، انتابت الإمبراطورة ماريا الكسندروفنا كآبة شديدة،

رافقتها وعكة بدأت خفيفة، لازمت على إثرها الفراش، قامت منها بعد اسبوع، لكن سرعان ما تبعتها نزلة صدرية حادة أرجعتها للفراش مرة أخرى، بقيت معها لفترة طويلة هذه المرة رغم جميع محاولات الأطباء، استمرت على هذا الحال، من مرض الى آخر، نحلت كثيراً وشحب لونها وثقل نفسها، وصارت كثيرة القلق، قليلة النوم.

الفصل الثالث عشر
أصباغ

(34)

على نحو لم أستطع له دفعًا..

ساحت أحوالي.

استحالت بين يديكِ... أفاعي مأمورة، أَنِسَت بين أصابع حاويها.

هل استمرت الحياة مع الجرادتين في واحة الجفرانة كما كانت عليه؟... هنية؟ ناعمة؟

منذ زيارة نهوة الأخيرة لابنتيها، والمغادرة فجأة بعد حادثة الطير الذي سقط من السماء، تعكرت الأجواء الى حد ما على الجرادتين. شابَ إيقاع يومياتهم ترقب غير مفهوم وقلق. ثم جاءت فكرة حياكة هيئة الطير بألوانه، ثم البحث عن أصباغ لتلوين الغزول، ثم انتظار مجيء بائع متجول اسمه الهبش، يشتريان منه أصباغاً... بعد ذلك بقيت حياة الجرادتين مربوطة بذلك التتابع المقطوع لحين قدوم الشاب.

منتصف حزيران، يوم قائظ، لم تكن هناك أعمال مهمة تنتظر إنجازها. الهواء تشبع برطوبة سميكة أورثت الناس كسلاً سميكاً، سيمتد الى ما بعد

الظهر...

ذهبت جراكة مع ريحانة في مشوار إلى حقل الخضراوات لترميم الشِباك التي تحمي مزروعاتهم من العصافير. ظلت شاغية لوحدها جالسة في الباحة الخارجية للبيت، بجانبها الجومة والتي نُصبت وشُبكت سديتها منذ زمن بانتظار مجيء الغزول الملونة. ساعتا رتابة لا تعِدان بشيء. من المفروض أن يعقبها غداء ثم قيلولة.

خنقها الملل، أرادت أن تشغل حالها بشيء ما على أن لا تبرح مكانها لحين رجوع أختها وصاحبتها من الحقل. مرّ في بالها أن تمرّن أصابعها مع الجومة، تنسج ثم تفل. أحيانا تلجأ لفعل ذلك لتديم مهارتها. وقبل أن تباشر خطرت في بالها فكرة أفضل، لتجرب أن

تؤشر حدوداً لهيئة الطير، الهدهد الغريب الذي سقط من السماء، ما دامت السدية منصوبة. وان حضرت الأصباغ فيما بعد سيكون كل شيء قد أعد سلفاً لملء الحدود. باشرت في عمل عُقد صغيرة على خيوط السدية، تحدد الهيئة الخارجية للطير، تضع علامات تدل على العين والعرف والجناح، اختارت ان تجعل حجمه كبيراً يملأ مساحة بساط. مرت ثلاث ساعات، اكتملت خطوطه الخارجية، أسبلت ذراعيها، رجعت ثلاثة خطوات الى الوراء، ألقت نظرة شاملة، بدأت هيئة الطير تتضح، تنهدت وابتسمت بارتياح. لبثت في مكانها لفترة تتمعن في ما أنجزته... لكن فجأة، حدث شيء غريب.. تشوشٌ مجهول المصدر اقتحم عالمها وبقوة. تأزمت الفتاة، انعصر جنباها إلى الداخل كأن كفاً كبيرة هصرتها من حول خصريها للحظة ثم أطلقتها.

في ذلك التوقيت بالذات وذلك المكان بالتحديد، تغير شيء ما، نقطة تحول حلت عليها وعلى الأجواء برمتها. أعقبت تلك اللحظة تفاصيل غريبة تتابعت على التوالي...

في البداية تناقصت كثافة الهواء وتناهت حركته، صار شحيحاً عصياً على الاستنشاق، ثم فرغت الأجواء من جميع الروائح والأصوات مرة واحدة. انتبهت شاغية للتغير المفاجئ المبهم الذي احتوى كل شيء من حولها، أرهفت حواسها، لا شك أن ثمة انحرافاً ما طرأ على سياق ما، لم تتمكن من فهمه، كان له علاقة بإيقاع معين، كحصان بوغت بانعطافة حادة، إيقاع لم تعرف أنه موجود ولم تكن لتشعر به لولا انه انقطع عنها فجأة في تلك اللحظة،

حارت في تحديده.

وجمت تنتظر. تباطأ الزمن عليها، ثقلت تروسه. ازدحم المكان بهالات مشدودة من الترقب، كما لو امتلأ بآلاف العيون ركزت أنظارها نحو نقطة انتباه كانت هي مركزها. كأن جميع الحضورات تزحزحت عن أماكنها في آن واحد. تبلبلت شاغية. تلفتت حولها بتوجس، لم تكن هناك دالة محسوسة لما كان يحدث، أية دالة يمكن الإشارة اليها.

شعرت بإجهاد، جلست في مكانها حيث كانت تقف، حاولت أن تحتوي كل ما كان ينتابها، إلا أنها عجزت عن أن تستقر في مجلسها، تململت في مقعدها، غيرت من وضع جلستها أكثر من مرة، توقفت، فتحت كفيها ونظرت الى أصابعها، كانت شاحبة غير مستقرة،

قلّبت ناظريها في السماء تُروِّح عن نفسها، تنهدت لتطرد عنها ما ظننته شبح هاجس عابر. ثم قررت ان تتجاهل وطأة اللحظات والعودة للعمل، فاستجمعت تركيزها، نهضت وخطت الى الجومة بنية إزالة الزوائد، الا أن أناملها فقدت انسيابيتها، أبت الخيوط أن تلعب أدوارها بطواعية، انتابها شعور غير مريح. جفت شفتاها وشعرت بعطش شديد.

وقبل أن تهم بترك مكانها تناهى الى سمعها صوت رجل، لعله كان يخاطبها، نبرته فيها دفق دافئ، أعادها في الحال إلى عالم متماسك. سرعان ما استردت توازنها لمجرد سماعها نبرة صوته، كأنها استفاقت من كابوس. لم تتمكن في البداية تحديد اتجاه الصوت، كرر المنادي مؤكداً:

"انه الغرنوب"

تلفتت حولها فاذا بشاب وسيم ممشوق القامة، في منتصف الثلاثينات. تسمّر خلفها على بعد سبع أذرع يحدق اليها بعيون متعبة، كان يتنفس من فمه، وقد عقد ذراعيه حول صدره، محاولاً احتواء بدنه الذي كان يرتجف رغم حرارة الجو.

استدارت بجلستها ناحيته، وحينما صارا وجهاً لوجه. ارتخت أساريرها لطلعته، بينما صدرت عنه شهقة مكبوتة، كمن بوغت بدلو ماء بارد على ظهره. لم تعرف الفتاة أتبتسم من حاله ام تشفق عليه، بدا لها أليفاً الى أبعد حد رغم عدم تذكرها أنها رأته من قبل.

كان يلف على رأسه غترة صفراء غطت شعره، عدا بعض ذؤابات بيض خلف الأذنين، جلبابه الى ما دون الركبة، تحته سروال أبيض طويل ملفوف من الاسفل برباط من الجوخ. حول خصره حزام عريض محمل بزمزميتن وطاس، ويحتذي نعالاً من جلد سميك قاس، رقّت وتهرأت حوافه من كثرة المشي.

كان عموم هيئته معفراً، ووجهه قد قسي وتلوّح كمن جاء من سفر طويل. خلفه بغلان محملان بخرجين محشوين بأغراض، تتدلى على جانبيهما جِرار وأباريق ومناجل ونعال وقناديل ومباخر.. كلها مشدودة الى بعضها بشبكة حبال. ظل الشاب صامتاً بعد أن نطق جملته الأولى، سألته شاغية متشككة:

"اكنت تتكلم معي؟".

لبث مشدوها، ربما لم يسمع سؤالها. رفعت صوتها قليلاً:

"هل أنت بخير؟".

"متعب قليلاً، لا عليك سأكون بحال أفضل.".

"لا أظنك من الشوايع...".

"نعم، أنا غريب... لكن الناس هنا ألفوا قدومي بين الحين والحين".

"هل لي أن أعينك بشيء ما، شربة ماء.. أو طعام؟".

"لا، لا داعي لذلك يا بنت الناس، لا تتعبي حالك".

"... كأني سمعتك تقول شيئاً، قبل ان التفت اليك".

"نعم... كنت ماراً.. فلمحت رسم طائرك غير المكتمل على الجومة، فسميته".

""يا الهي، هل قلت سميته؟ أخيراً ثمة من يعرفه، أخبرني أولا استحلفك بكل عزيز، ما هو؟".

"انه الغرنوب".

"وما الغرنوب، هلا أخبرتني المزيد عنه؟".

"رأيت هذا الطائر يوماً في جزيرة سقطرى، وعلمت من الأهالي أن لكل غرنوب ألواناً خاصة به، ما هي إلا رسائل تخبر عن الغيب، وقد علموني كيف

أقرأها".

"صحيح! وهل بإمكانك قراءة طائري؟".

"... طائرك لا لون له".

"نعم، فاتني ذلك، لكن قريباً سيكون له لون، قد انطبعت ألوانه في بالي وأنا بصدد حياكته بها، لكنني لا أملك الآن أصباغاً".

"عندي بعضها، وإن أحببت، ساعلمك كيف تحضرين ما يكملها".

ابتسمت بخفر، شيء عذب في صوت هذا الشاب وطريقة كلامه، يرفع الكلفة ويغوي بالمواصلة.

حل الحبال عن أحد خرجيه وأخرج زكيبة

فيها أكياس صغيرة من الكتان تحتوي على مساحيق ملونة، حملها بيديه خطا خطوتين ناحية شاغية ثم تسمر في مكانه. لفت انتباهه بعض البسط المنشورة على دارابزون الباحة، حاول أن يعلّق بشيئ، عجزت شفتيه عن النطق. لاحظت شاغية تمعنه في البسط:

"هل أعجبتك البسط؟".

"بلى أعجبتني، وأظنها ستكون بحال أفضل إن استبدلت وبر السدى بالشَعر".

"أراك تفقه بشؤون اللحمة والسدى؟".

"ليس كثيراً، لكنني رأيت سداك من الوبر، وهذا فيه يبوسة... تقسو على لحمة الصوف وتترك فيها حزوزاً.... تخنق رخاءها".

كلام، وقعه جميل على الأذن، استحسنته دون ان تجهد في التمحص فيه.

"وأنت ترى أن أُبدل وبر السدى بالشَعر؟!".

"نعم، الشَعر أطوع، ويدع النسج يتنفس، وحين الوطء يأبى التقصّف كما الوبر".

"كلامك يبدو لي معقولاً، سأجرب ذلك".

بقي لبرهة لا يجد ما يضيفه، وشاغية تتطلع نحوه ورأسها مائل، كجرو يتفحص دمية. أحس فجأة بإنهاك في زنديه، فحار إن كان عليه وضع زكيبة الأصباغ على الأرض أم يتقدم بها خطوات أخرى.

تقدمت شاغية إليه وأعانته على إنزالها حيث

كان واقفاً، وضعاها أرضاً، وقبل أن ينهضا التقت العيون. توقف الزمن بضع لحظات، تبودلت فيها، وبلمح البصر، إشارات ورسائل وشفرات، كانت سابتة فيهما لمئات السنين، صحت في ذات اللحظة، حيوات انقرضت منذ دهور، تواصل وعييهما سريعاً وبقوة كصعقة برق، فكان ما كان.

طال الأمر أكثر مما يجب، تنبه الى نفسه، نهض واقفاً، ونطق بنبرة مترددة:

"حسنا.. أغادر".

لم يزل هناك الكثير ليقال، لكن لعل ذلك كان كل ما يمكن أن يكون بين عابر سبيل وفتاة تجلس عند عتبة بابها.

"... صاحبتك السلامة".

استدار وخطا خطوتين، فتداركت شاغية نفسها بجواب لسؤال سألته لحالها منذ لحظة وقوع نظرها عليه:

"انت الهبش؟".

التفت اليها فرحاً كتلميذ صغير نودي باسمه من وسط ألف.

"نعم وكيف عرفت؟!".

"وصفتك صاحبة لي قبل حين... هل اسمك حقا الهبش؟!".

"ذلك اسمي، الناس ينادونني به".

ابتسمت:

"اسم غريب، وهل لك اسم آخر؟".

أجابها جاداً:

"سيكون لي... منذ اليوم".

ظنته يمزح، لم تتمكن من مسك قهقهة فلتت منها، فبانت أسنانها له، خارت ركبتاه لإشراقة ضحكتها، وكاد ان يفقد توازنه. سألته تجاريه:

"وما ذاك الاسم ياترى؟".

صمت يفكر...

وقبل أن ينطق بشيء آخر.. اقتربت منهما

جراكة وريحانة تهرولان، التفت الشاب إليهما، انقطع عنه عالم وحل مكانه آخر، تماسك في مكانه وبات انسحابه واجباً. وقفت جراكة تلتقط انفاسها، كانت قد تقاسمت مع اختها عن بعد، وقبل أن تصل، كل ما مر بها قبل ساعة من مشاعر، تشوش أعقبه فضول ثم فرح. وعندما تطلعت جراكة في الشاب عن قرب، لاقت كل تلك الإحالات التي تتابعت فيها، حينما كانت في الحقل، من وحي اختها، ما يبررها. فابتسمت له بأريحية. تمعن في وجهها للحظة ابتسم لها ثم سرعان ما غضّ بصره عنها، متجنباً النظر الى عينيها. الغريب في الأمر أنه لم يعلق بكلمة على الشبه الخرافي بين الأختين، تلك كانت أول مرة في حياتيهما يحدث لهما ذلك، أن يراهما شخص أول مرة دون أن يشير للشبه بشيء. لم تمر تلك اللحظة على شاغية دون تبعات، نبض قلبها بقوة حين

ضربتها تلك الحقيقة، لأول مرة في حياتها تشعر بخصوصيتها كفرد له كيان مستقل، لا كتوأم. لأول مرة... الأمر لم يكن مقلقا كما كان يجب أن يكون. غبطة بطعم جديد، خصتها دون اختها، جعلتها تحمر خجلاً وتبتسم لنفسها دون أن تلحظ ذلك.

ظلت ريحانة تتطلع في الهبش من وراء جراكة طوال الوقت، اعترت وجهها حمرة. حيته بخفر، ثم أردفت:

"أتيت هذه المرة أبكر من العادة... وتبدو مختلفاً بعض الشيء، كأن شيئاً ما تغير فيك".

بقي محرجاً لا يعرف بم يجيب، كمن تم مسكه متلبساً بجرم، ثم تحمس لشيء تذكره فجأة:

".. قد غيرت اسمي يا ريحانة".

"حقا، وما هو اسمك الجديد؟".

"... قمر".

"قمر... ذلك أنسب لوجهك من سابقه".

أيقظتها جراكة من التمادي أكثر في الإشادة بوسامته:

""جراكة!! أمسكي لسانك".

الفتيات ضحكن بمرح.

قبل أن يغادر، استرق نظرة الى شاغية وفي عينيه شبح ابتسامة واثقة، خصها بها، كانت كالوعد،

بذرة تحط في بقعة أرض بكر، بعيدة، لا يعرف مكانها سوى اثنان.

الوجد لهيب ينشأ في الأسرار، ويسنح عن الشوق، فتضطرب الجوارح، طربًا أو حزنًا عند ذلك الوارد.

أبو الحسين النوري ت 908 م

الفصل الرابع عشر
هارا

(35)

وصل شايع جزيرة نرمين بعد منتصف الليل، بقارب صغير، مرتدياً ملابس فاخرة، ومعه خرج فيه خمسمائة ليرة ذهبية وثمانون حبة لؤلؤ كبيرة الحجم، اسمه الجديد هارا، وهو أقرب ترجمة تركية لشبيلكا، الاسم الذي منحه إياه القيصر، لتجنب أي أثر فيه يدل على الروس. ومع أولى خطوط الفجر وجد شايع

طريقه الى كوخ كبير المجذومين، واسمه سرجوك. الجميع ينادونه "باترون"، كونه المسؤول الأول في الجزيرة. طرق على الباب، خرج إليه هذا وعيناه نصف مغلقتين من أثر النوم.

كانت التشوهات التي تظهر على وجهه من تلك التي تسببها البكتيريا الفطرية الجذامية الورمية، النوع الأشد فتكاً. جلده عبارة عن منطقة وعرة من مختلف الآفات الجلدية، ابتداء من الالتهابات الشائعة، مروراً بالتقرحات المسطحة، والمنتفخة، وانتهاء بالعُقيدات الجلدية. أنف محتقن، قزحية حمراء، جزر صغيرة من الشعر تطفو على الرأس، لا رموش، لا حواجب. ومن كثر ما فقد من أنسجة، أصابه قِصَر وتشوّه في أصابع اليدين والقدمين، كنتيجة لانهيار

الجزء الغضروفي في الأطراف. كان يعيش بمفرده دون عائلة في ذلك الكوخ المتواضع.

"صبّحك الله بالخير باترون سرجوك، عذراً إن أقلقنا راحتكم".

تفرس في هيئته، شاب وسيم متعافي، كث اللحية، حاد العينين، نبيل المظهر، يبتسم إليه ويناديه باسمه. رد عليه بصوت دافئ، فيه حميمية متأصلة، شيء لا يتطابق وهيئة المسخ:

"لا، لا عليك، صبحك الله بالخير، صديقي، كيف بإمكاني خدمتك؟".

"اسمي هارا، قد أرسلني إليك فاعل خير، رجل ميسور الحال من أهل الإحسان، من أولئك الذين

لا تعلم يسراهم بما تنفقه يمناهم في سبيل الله، وقد بعث معي إليك بقدر من المال، تعين به ناسك على محنتهم".

تحرر الباترون في الحال من بقايا غفوته، بشّ له وترجاه أن يتكرم ويدخل كوخه.

جاء وصول شايع في سنة عسيرة مرت على أهل الجزيرة. أمطار غزيرة أهلكت زرعهم، تبعها تساقط ثلوج صفر استمرت ثلاثة أسابيع متواصلة قتلت جلّ دوابهم واتلفت أكواخهم.

وضع شايع الخمسمائة ليرة الذهب، وحبات اللؤلؤ جميعها بين يدي الباترون، وقال له أن يصرفها بالطريقة التي يراها ملائمة لإنقاذ ناسه. كان المبلغ أكبر بكثير من مجرد إخراجهم من محنتهم.

بعد أن كسب شايع ود وثقة كبيرهم، استسمحه أن يقيم في الجزيرة لفترة يساعد الناس لحين خروجهم بسلام من محنتهم. فرحب كبيرهم بموقفه ومروءته وشكره كثيراً على عظيم معروفة وسعيه في فعل الخير.

"لكن، ألا تخشى أن يصيبك المرض؟".

"لا تقلق عليّ بهذا الخصوص، عرفت مؤخراً الكثير بشأن تجنبه، وبعد التوكل، الأمر أولا وأخيرا إليه عزّ وجل".

في فترة وجيزة، عرف شايع كيف يدخل الى قلوب أهل الجزيرة. استمر يفرق المال بينهم دون حساب، يعودهم في بيوتهم بيتاً بيتاً، يداوي مرضاهم

يواسي مكلوميهم ويصلح أكواخهم. وشيء آخر كان يحرص على استثارته في نفوسهم بإصرار، تحريضهم على ظلم الناس لهم ونبذهم واحتقارهم كما لو كانوا حشرات لا قيمة لها. وقد أيقظ ذلك في نفوسهم غضباً كان نائماً لسنين، تجاه العالم خارج جزيرتهم بجميع فئاته.

قبل مضيّ شهرين على تلك الحال، فإذا بأهل الجزيرة يفزّون فجراً على خبر موت الباترون في فراشه. تلقوا الخبر من شايع الذي كان معه بمفرده في ساعاته الأخيرة. أخبرهم أيضاً ان الباترون قبيل موته قد أوصاه بأن يتولى هو عليهم من بعده. نعم هذا ما نقله شايع الى الناس، لم يكن هناك شاهد على تلك الوصية.

هل ثمة رائحة مؤامرة في ذلك الذي حدث؟

هل نحن إزاء شايع جديد لا يتورع عن الإتيان بأي فعل لأجل الوصول لغاياته؟! لا أحد يدري.

أقام شايع للباترون مأتماً عظيماً وأكرم دفنه، مآدب ضخمة لم يشهدها أهل الجزيرة في حياتهم، وزع الأموال بجنون على الجميع على حد سواء، وقد أسكرت أهل الجزيرة تلك المظاهر العريضة للبذخ، لم يتوقعوا يوماً أن يشهدوا مثل كل هذا الاهتمام وتلك الحفاوة تحدث على جزيرتهم، امتلأوا امتناناً وعرفاناً لذلك القادم الجديد، لم يشكّوا، او بالأحرى لم يشأوا أن يشكّوا لحظة، في أمر رغبة رئيسهم بتوليه عليهم من بعده، بل لعلهم تمنوا ذلك في نفوسهم.

كان شايع قد عبأهم باتجاه معين منذ اليوم الأول له في الجزيرة، موقظاً فيهم روح التمرد

والكراهية والثورة ضد من أنكروهم. آمنوا به وبمنطقه الساحر وقوة شخصيته، وحينما جاء الوقت الذي صار فيه رئيساً عليهم، وجدهم أتباعاً مخلصين، مستعدين لفعل أي شيء يؤمرون به. جمعهم يوماً وحاضر فيهم كالعادة، كان قد مر شهر على توليه عليهم، كانوا على أتم الاستعداد للإصغاء له، قال لهم؛ قد آن الأوان لفعل شيء، فليس من الرجولة ان نبقى غاضبين يأكلنا الشعور بالغبن، فوافقوه هاتفين، "مُرنا بما تراه، باترون". قال:

"حسناً اعتمدوا علي، سأغادر اليوم وارجع بعد عشرة أيام، جالباً معي لكم ما سيسركم".

عاد شايع الى الجزيرة بعد عشرة أيام، كما وعد، ومعه تسع سفن حربية مزودة بمدافع وكمية

كبيرة من البنادق والعتاد والسلاح الأبيض إضافة الى الكثير من المؤن والأموال والملابس. انبهروا بما رأته عيونهم، لم يفكر أحد منهم أن يسأله عن مصدر كل هذا، كان كل منهم يتمنى أن يكون له دور في المرحلة الجديدة.

بدأ بتدريبهم، كان فيهم أصلاً ضباط وقادة عسكريون منفيون استفاد شايع من خبراتهم. ثم فاتحَ الجميع بما قد عزم عليه، جيش صغير من القراصنة، يغيرون على أطراف الأسطول الهمايوني العثماني والسفن التجارية والمدن العثمانية الساحلية. تحمس الجميع للفكرة، بدأ التدريب ووضع الخطط. وانطلقوا ينفذون غاراتهم.

كان شايع قد واكب منذ قدومه على رشوة

الحرس المرابطين حول الجزيرة، وجعل له فيهم أتباعا وجواسيس مخلصين، حتى صار اختراق خطوط الحراسة أمراً ميسراً.

انطلقت حملات القرصنة، أولاً على سفن الأسطول العثماني البعيدة عن الجزيرة، لغرض التمويه. كانت المعلومات الاستخباراتية تصل الى شايع من الطرف الروسي أولاً بأول، عبر رسل يأتون ليلاً بقوارب صغيرة في أماكن متفق عليها مسبقاً. منذ الهجمات الأولى تكشفت نقاط الضعف الهائلة ومخلفات الفساد المستشري في بنية الأسطول العثماني، خسائر فادحة مني بها أمام قوة متواضعة ليس لها تاريخ في المواجهات البحرية، كانت سفن القراصنة تظهر لهم فجأة تنفذ غارتها وتختفي. استخدم شايع معهم تكتيكات

الحرب النفسية التي تعلمها في بلغاريا، مع الحرص على استهداف السفن المنفردة البعيدة عن مراكز القيادات، على أن تكون الغارة خاطفة ومكثفة قدر الإمكان. تتسلل كتيبة من قراصنته المدربين جيداً ليلاً الى ظهر السفينة المستهدفة، يذبحون الحراس الخفر أولاً، في الوقت ذاته هناك غواصون يبقرون السفينة من الأسفل، وفريق آخر يقترب بقوارب صغيرة يرمي جراراً صغيرة مليئة بالكحول إلى سطح السفينة تتبعها كتل مشتعلة من النار، ثم يتسلقون بالعشرات الى السطح ومن عدة جهات، يباغتون العساكر المذعورين أصلاً، ليخوضوا فيهم قتلاً وذبحاً، ثم تقترب إحدى سفنهم من السفينة المحترقة، لتُنقل إليها المدافع والاسلحة الخفيفة والذخيرة والأموال وكل ما يمكن حمله. يتم كل ذلك بسرعة هائلة، ثم ينسحب القراصنة

الى قواربهم فجأة وتنسحب سفينتهم ليتركوا السفينة المنكوبة تحترق وتغرق. كانت وجوه المجذومين المشوهة وهي تظهر في الظلمة فجأة أمام البحارة والعسكريين تثير فيهم فزعاً مضاعفاً، يظنونهم أشباحاً أو مخلوقات من الجن، ما يجعلهم مشلولين أمامهم، دون مقاومة تذكر.

لم تقتصر غارات قراصنته على السفن الحربية فقط، بل شملت ايضاً السفن التجارية والمدن الساحلية وخطوط التجارة المتاخمة للساحل. فخلال أقل من ستة أشهر، بلغ مجموع غارات القرصنة حوالي اثنين وأربعين، وكان ذلك العدد كافياً لارباك السلطة وإثارة الفزع في صفوف الجنود وضرب حركة التجارة والسفر في جميع جهات البحر الأسود. وقد

تحقق الهدف من ذلك بأفضل ما يكون، إحراج كبير وإهانة لهيبة السلطان الجديد عبد الحميد الثاني، وتكبيد خزينة السلطنة أموالاً هائلة، وتذمر بين أوساط الناس، صاحبه تقهقر في أداء الأسطول الهمايوني، وطرد لكبار قادته من مناصبهم، وهروب جماعي لجنوده من الخدمة. في تلك الأثناء وطوال عام 1877 شنت روسيا عدة معارك داخل الأراضي العثمانية الواقعة في القارة الاوربية وبالذات البلغارية، انتهى أغلبها بهزيمة العثمانيين. كان منها معركة قيزل تيبة، بلفن، معبر شبيكا، وطاشكيسن. ثم جاء الوقت لحسم مسألة تحرير جميع الاراضي البلغارية من سيطرة العثمانيين. ومع بداية عام 1878 قرر القيصر إطلاق حملة كبيرة تكون حاسمة لدعم الثوار البلغار في تحرير أراضيهم بالكامل.

انطلقت القوات الإمبراطورية الروسية بكامل تجهيزاتها مخترقة الأراضي الشمالية بقيادة الجنرال جوزيف فلاديميروف غيوركو، ودخلت الأراضي البلغارية من ناحية الشمال، لم يجدوا مقاومة تذكر في الطريق داخل الأراضي البلغارية، بل ترحيب ومؤازرة من الأهالي وجماعات المقاومة، حتى وصلوا مدينة بلوفديف إذ وقعت أول مواجهة جدية مع القوات العثمانية هناك، سميت معركة فيليبوبولس، وكان ذلك في الرابع عشر من كانون الثاني 1878، حاصر خلالها الجنرال أكبر قلعة للعثمانيين في بلوفديف، والتي كانت حينها تحت إمرة اللواء سليمان باشا. استطاعت القوة الروسية بعد يومين اقتحام القلعة وقتل أغلب الجنود الموجودين فيها، أما الذين نجوا فقد فروا بجلودهم باتجاه اسطنبول. استمرت القوات الروسية في

التقدم باتجاه العاصمة العثمانية، لكن سرعان ما تدخلت القوى الأجنبية مقترحة معاهدة لوقف الحرب، سميت معاهدة سان ستيفانو، نصت ضمناً على منح البلغاريين استقلالهم. لكن فرضت عليها روسيا المنتصرة حزمة تعديلات قبل ان توافق عليها. وبعد مداولات سريعة، وقّع عليها الطرفان المتحاربان. وكانت فيليبوبولس آخر معركة في سلسلة الحروب بين العثمانيين والروس.

***

كان أول قرار اتخذه القيصر الكساندر الثاني بعد الانتصار على العثمانيين وتحرير الأراضي البلغارية منهم، هو أن أوعز للدوق الأعظم أن يتخلص في الحال من عميلهم في نرمين، شبيلكا، فبعد إتمام

المهمة وتوقيع اتفاقية سان ستيفانو مع العثمانيين، لم تعد هناك حاجة له، صار، وفق المفاهيم الاستخباراتية المعمول بها حينذاك، ما يمكن تسميته بالورقة المحروقة. الا أن القرار لم يلق قبولاً من الدوق الأعظم، حاول جاهداً إقناع القيصر بتغيير قراره تجاه العميل الكفء والوفي شبيلكا، قال له؛ الأحرى بنا تكريمه بنيشان أو منصب شرفي مقابل خدماته للقيصر، او على الأقل منحه إقامة على الأراضي الروسية، لكن وجد إصراراً وغضباً لم يكن مبرراً من وجهة نظره، من قبل القيصر، على أن تتم تصفيته في أسرع وقت.

الدوق الأعظم لم ينفذ أوامر القيصر بالحرف، كان متعاطفاً مع شايع الى أبعد حد. وجد أن

مسألة تصفيته فكرة مجنونة، وقد تبعث برسالة شديدة السلبية لباقي المتعاونين والعملاء بشأن سياسة التاج المجحفة أمام ما يقدمونه من خدمات. بعث في الحال شخصاً مؤتمناً من حاشيته الى شايع يخبره بما عزم عليه القيصر بشأنه وينصحه بالهروب الى أبعد مكان ممكن، على أن يعيش باقي حياته متخفياً لا يُعرف إليه سبيل. تلقى شايع الرسالة بهدوء، يبدو انه لم يتفاجأ بمحتواها، فاتح في الحال أهل الجزيرة بأمر مغادرته، فزعوا، تحسروا كثيراً على ما آلت اليه الامور وبتلك السرعة، كان بالنسبة لهم كالنزوة المحرمة، بكى الكثير منهم على فراقه لهم، وعلى حالهم من بعده، الحياة التي خبروها معه كانت، على خطورتها، لا تقارن مع ما كانوا عليه من موات. وكانت آخر نصيحة قدمها إليهم قبل رحيله، أن يجمعوا عوائلهم ومؤنهم ويفروا بقوارب

من الجزيرة لبضعة أيام، تجنباً لانتقام الأسطول العثماني بعد أن انكشف أمرهم، كانت قد وصلته أخبار مؤكدة من جواسيسه بهذا الخصوص.

عملوا بنصيحته وفروا بعوائلهم ومؤنهم الى عرض البحر، ولم تمض ساعات على مغادرتهم حتى بدأت المدافع العثمانية تدك جزيرتهم من عشر سفن حربية على مدى ثلاثة أيام متواصلة. احترقت البيوت والأشجار، ماتت الدواب، وهلك الزرع، حتى صارت الجزيرة قطعة سوداء ساوتها النيران بالأرض، صورة حية للقرية الملعونة في العهد القديم. بعد أن تأكد الأهالي من انتهاء القصف، عادوا أدراجهم الى الجزيرة، وواصلوا حياتهم، باهته شحيحة، مثلما كانت قبل ان يحل عليهم رجل، كما لو كان حلماً جميلاً، أو

لعله نبي مارق من أنبياء بني إسرائيل، اسمه هارا.

من يومها لم يُعرف لشايع أثر، انقطعت أخباره تماماً، وخفت ذكره مع الأيام حتى نسيه الجميع. لكن في قصر الشتاء، لم يكن التخلص من ظله الثقيل عليه بتلك السهولة، بقي شبحه يعشعش في أركان القصر حتى بعد أن أمر القيصر بالتخلص منه تماماً ومن أي شيء يذكره به. كانت الأمور في القصر قد بدأت تسير من سيء الى أسوأ منذ مغادرة شايع/شبيلكا القصر بعد تلك الزيارة.

ازدادت حدة النزلات الصدرية على الامبراطورة، حتى ألزمتها فراشها بشكل دائم، لم يعد بإمكانها حتى حضور حفلات القصر ومراسم استقبال الضيوف الكبار.

كان القيصر يعودها بين الحين والحين، كلما التقت عيونهم على انفراد، ترتد النظرات في الحال، كلاهما يعرف سبب كل ذلك التدهور، لكن يمنعهما الكبرياء من أن يتكاشفا بشأنه.

كان الهمس في الكواليس، بعيداً عن أسماع القيصر. كلام يُتناقل عن مسّ أصاب القصر، أطلقوا عليه اسم: لعنة شبيلكا.

القيصر نفسه تغير كثيراً منذ ذلك اللقاء، لم يعد مرحاً منفتحاً كما كان. صار واجماً أغلب الأحيان، كثير القلق والوسواس، يرى شايع في كوابيسه على الدوام. حتى بات يكلم نفسه على مسمع من حاشيته وزواره. قرر مع نفسه منذ وقت مبكر، وعلى نحو لا مجال للشك فيه، أن يتخلص من شايع حال إتمامه

مهمته، لكنه لم يفاتح الدوق الأعظم، المتحمس لشايع ولمهمته السرية، بما عزم عليه. وبعد الانتصار الكبير على العثمانيين في بلوفديف أخذت العلاقة بينه وبين الامبراطورة بالتدهور بشكل سريع، حتى لم يعد يرها او يسأل عنها بالمرة، في الوقت الذي صارت فيه علاقته بعشيقته الأميرة يوريفسكايا أكثر حميمية وعلى مرأى الجميع.

***

في منتصف عام 1879 تحولت النزلات الصدرية الى سلّ، لازم الامبراطورة حتى قضى عليها. توفيت الامبراطورة ماريا الكسندروفنا في الثاني والعشرين من مايس عام 1880. لم يصبر القيصر من بعد وفاتها طويلاً حتى أعلن زواجه من عشيقته الأميرة

يورييفسكايا. إلا أن تلك الزيجة، التي أزعجت الكثيرين من رجال الكنيسة والعائلة المالكة، لم تدم سوى تسعة أشهر. ففي نهار الثالث عشر من آذار عام 1881 وبينما كان موكب القيصر في طريق عودته الى قصر الشتاء قادماً من ميدان ميخالبلوفسكي، بعد حضور استعراض عسكري كبير هناك، ومع اقتراب الموكب من جسر القناة، هاجمه أربعة متمردين، ينتمون لمجموعة ثورية من طلائع الحركة النهلستية، بقنابل يدوية، انفجرت أول واحدة منها خلف عربة القيصر مباشرة، فاتلفت مؤخرتها دون أن تصيبه هو بأذى، لكن حين ترجل القيصر من العربة المحطمة لتفقد الجرحى من الشرطة والمارة، فإذا بشاب من ضمن الأربعة، تبين لاحقاً انه بولوني واسمه أغناتوس جرنفتسكي، يهاجمه بقنبلة أخرى أسقطته صريعاً في الحال، وقد

كُسر ساقاه وبُقرت بطنه واحترق وجهه. فحمُل مضرجاً بدمائه الى غرفة منامه في قصر الشتاء. سرعان ما تحلق حول فراشه تسعة من أفراد عائلة رومانوف، لبث غائباً عن وعيه لبضعة ساعات قبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة. في ذلك اليوم عاد الهمس في أروقة القصر مجدداً عن لعنة شبيلكا وما فعلته وتفعله بآل رومانوف.

كان من ضمن التسعة، أبنه الذي سيخلفه على العرش، الكساندر رومانوف والذي سيكون القيصر الكساندر الثالث. وحفيده ذو الاثنتى عشرة سنة نيكولاي الكساندروف رومانوف. والذي سيخلف أباه الكساندر الثالث، ويكون اسمه القيصر نيكولاي الثاني، آخر قياصرة الامبراطورية الروسية. لم يعرف أي من

الموجودين في تلك الغرفة حينها، بشاعة المصير المأساوي الذي كان ينتظرهم جميعاً، حين يتم اغتيالهم على أيدي البلاشفة في صيف 1918.

(36)

القيصر الجديد الكساندر الثالث كان رجلاً مسالماً، أميَل للمصالحة وتجنب المواجهات، اذ لم تخض الامبراطورية الروسية في عهده حروباً تذكر، لذا لقب بعد حين بـ "صانع السلام". قام منذ الأيام الأولى لحكمه ببذل محاولات جادة لحل المشاكل التي ورثها عن فترة أبيه، وكان من ضمنها، لعنة شبيلكا.

كان القيصر الجديد يؤمن بالطالع وأثر القوى الشريرة عليه وعلى حكمه إلى أبعد حد. استدعى الدوق الأعظم واجتمع به على انفراد. سأله دون مواربة:

"أصدقني القول، نيكولاي، ولك مني الأمان، هل ان المدعو شبيلكا ما زال على قيد الحياة؟".

أجابه الدوق بكل أمانة انه لم ينفذ أمر أبيه القيصر فيه بالقضاء عليه. تلقى القيصر الجديد الجواب بهدوء:

"حسنا فعلت، لو كنت مكانك لفعلت الشيء ذاته، لقد ظلمنا الرجل كثيراً. والآن أخبرني نيكولاي، كيف نصحح خطأنا؟ أم أن الأوان فات؟".

"بصراحة، لا أعرف، سموكم، فمنذ اليوم

الذي غادر فيه الرجل جزيرة نرمين انقطعت أخباره عني تماماً".

أطرق القيصر الجديد يفكر، ثم لمعت في عينيه فكرة جريئة:

"اسمع نيكولاي، علينا أن نجده".

تفاجأ الدوق ولم يعرف ما يقول: "لا أعتقد أن ذلك بالأمر السهل، سموكم، فليس ثمة أثر يدل عليه".

لكن يبدو أن القيصر لم يكن مصغياً لما قاله الدوق، كان يركز على فكرة العثور على شايع بعد أن خرجت من فمه. لمح الدوق وتيرة الحماس على وجه سيده، تتصاعد مع مضيه في ترديد ما عزم عليه:

"ستتولى أنت الأمر، أعرف كم إنك متعاطف معه ومعجب بشخصه، لذا فإني أراك الشخص الأنسب لإنجاز هذه المهمة. اسمع، نيكولاي، سأضع تحت تصرفك ما تحتاجه من المال والرجال، تبثهم في البلدان يتبعون أثره، ولا يرجعون إلينا من دونه".

"أنا أتشرف بانتداب سموكم لنا لهذه المهمة، لكن لنسلم جدلاً، فخامتكم، أننا عثرنا عليه، فماذا لو أبى القدوم معنا؟ لنفترض انه تغير علينا بعد الذي لاقاه منا، فما نحن فاعلون في مثل هذه الحالة؟".

أطرق القيصر مرة أخرى يفكر، ثم قال متنازلاً:

"حسناً، لنعدّل قليلاً فيما أمرنا به.. في حالة

رفضه طلبنا بالقدوم، يبقى أن تسألوه، ما الذي بإمكاننا تقديمه إليه لأجل إرضائه؟".

"فكرة وجيهة، سموكم. وهل علينا أن ننجز له كل ما يطلبه منا.. مهما كان؟".

"... نعم عزيزي نيكولاي، مهما كان".

المهمة معقدة جداً، كان المطلوب من الدوق الأعظم أولاً وضع خطة ذكية تتضمن عدة مراحل تتداخل أحيانا فيما بينها. إبتدأ أولا بمرحلة جمع المعلومات عن شايع من الأماكن التي سبق وعاش فيها قبل اختفائه. أخذ بعدها يجند اشخاصاً كانوا مقربين منه، فاختار اثنين من جزيرة نرمين وثلاثة من جماعة سلوبودني بويان في بلغاريا، ثم انتدب مجموعة من

خمسين نفراً من الرجال الأشداء الثقات، بعضهم من الحرس الإمبراطوري الخاص، وبعضهم من ضباط البحرية، وآخرين متخصصين في تقفي الآثار، وتجار لهم معرفة بالطرق والمدن البعيدة، ثم قسمهم إلى خمس فرق، كل فرقة مكونة من أحد عشر شخصاً، يكون ضمن كل منها واحد من الذين عرفوا شايع عن قرب. وقد أعطى زمام القيادة الميدانية على جميع الفرق الخمس لنقيب من الحرس الامبراطوري اسمه ألكسي ساروكين ديميتروفيتش.

بعدها بعث برسائل الى جميع ملحقيات الإمبراطورية وجواسيسها في البلدان، تطلب منهم التعاون مع الفرق الخمس في كل ما يطلبونه منهم. وبعد كل هذا أنشأ شبكة بريد خاصة وسريعة لإرسال

الرسائل أولاً بأول منه وإليه في سانت بترسبورغ لاستلام التقارير وإرسال التوجيهات.

شرعت الفرق الخمس، وحسب المعلومات الأولية المتوفرة لديها، بالتوجه، كبداية، الى خمس مدن يحتمل أنّ شايعاً مر بها أو أقام فيها لفترة بعد مغادرته نرمين، لأجل الانطلاق من بعد ذلك الى مدن وأماكن أخرى في رحلة البحث. المدن الخمس هي: الاسكندرية، بغداد، بلوفديف، أثينا، وفاس. الفريق الذي توجه الى بغداد، أول ما فعله بعد وصوله، أن بعث برسول من المتعاونين معهم من أهل البلاد الى الزهدية، بلدة شايع، للتأكد إن كان قد رجع إلى مسقط رأسه، لكنه تلقى تأكيداً من أهل البلدة أنهم لم يروه في المدينة منذ مغادرته إياها لغرض الدراسة في

إسطنبول.

لبثت الفرق الخمس في تلك المدن لفترة وجيزة ثم انطلقت الى مدن وأماكن أخرى طبقاً لأية معلومة يحصلون عليها من الناس عن أوصاف مشابهة لرجل بهيئة وطبائع شايع. وكان تبادل المعلومات بين الفرق عبر الدوق الأعظم، يختصر الكثير من الجهد والوقت. مرت أربعة أشهر دون أن يحصل أي منهم على دليل مؤكد.

ثم جاء أول الغيث من أحد الفرق التي حلت في وهران، وقعت بأيديهم معلومات عن شخص اسمه عبد الله جرابلسي، هيئته وصفاته وسنه متطابقة تماماً مع من يبحثون عنه. كان قد أقام في المدينة لفترة ثم غادرها فجأة، وكان ذلك قبل سنتين أو ثلاث من

وصول الفريق الروسي إليها. تلك البداية كانت بمثابة رأس الخيط الذي قاد جميع الفرق بعد ذلك لتتبع مسار رحلة شايع عبر المدن. إستغرق البحث والتقصي بعد ذلك مدة أربع سنوات، خرجوا بعدها بتقرير مفصل عن الأماكن التي أقام بها شايع، أرسله الكابتن للدوق الأعظم. وكان يُشار لشايع في التقرير بالحرف (س).

أهم الاماكن والمدن والتواريخ التي ظهرت في ملخص التقرير:

حزيران 1878 وهران، الجزائر..

قدم المدعو (س) الى مدينة وهران، أقام فيها لفترة في زاوية سيدي بو مدين، وفيها تعرف على ثوّار

شبان أقنعوه أن ينضّم الى حركة الشيخ محمد أمزيان بإقليم الأوراس. هي حركة ثورية تنشط ضد المحتلين الفرنسيين في البلاد. كان الشيخ أمزيان إماماً، ينتمي إلى زاوية تبرماسين الرحمانية، ويؤمن بنفسه أنه المهدي المنتظر، وكان الناس يعتقدون بخوارقه وكراماته. في ظرف شهر صار (س) من المقربين الى الشيخ أمزيان، وقد أوكل إليه فيما بعد أمر تنظيم أتباعه في عصيان كبير ضد الفرنسيين إثر مقتل شخص من فرقة الدواير التي حاولت اعتقال الشيخ في منطقة عرش اللحالحة الذي نزل فيها لتدريس القرآن. حينها أشار (س) على الشيخ بتسليح الثوار بالبنادق بدل العصي والسلاح الأبيض، إلا ان الأخير رفض الاقتراح، وكان شحيحاً في صرف المال.

بعد أقل منه شهرين تقدمت قوة من الجيش الفرنسي لإنهاء ذلك العصيان. اشتبكت مع الثوار في معركة أُطلق عليها اسم "الأرباع"، انتهت إلى سقوط أعداد كبيرة من الثوار ومن ثم هزيمتهم، وقد أُصيب فيها (س) في حوضه إصابة بليغة، نزف بسببها نزفاً شديداً، كادت أن تنهي حياته، إلا أن جماعته تمكنوا من إخلائه من ساحة المعركة بأعجوبة، وانسحبوا به بعيداً وهو مغمى عليه. استمر الفرنسيون في مطاردتهم لهم حتى فقدوا أثرهم في بلدة نفطة بالجريد التونسي.

آذار 1881، تونس...

نزل المدعو (س) في بيت شخص يدعى حميد البوهالي، أحد المتعاونين مع الثوار، بيته يقع في قرية سيدي جابر، جنوب غرب تونس، وكان هناك

طبيب اسمه عزيز بن عاشور يعود (س) في السر بين الحين والحين، يداويه ويعتني به. بعد حوالي الشهر تماثل (س) للشفاء وصار بإمكانه المشي من جديد. صادف في تلك الأيام أن قامت احتجاجات في تونس وضواحيها بسبب إجبار الحكومة الفرنسية باي تونس، محمد الصادق، على توقيع معاهدة باردو، التي تعلن وصاية فرنسا على البلاد التونسية، اعتبرها الأهالي حينها بداية الاستعمار الفرنسي لبلادهم. تم قمع الاحتجاجات بقوة، أعقبته حملة اعتقالات ركزت على الوافدين الأجانب، حتى من غير المشاركين في الاحتجاجات. ألقي القبض خلالها على (س) بعد أن تم التبليغ عنه من قبل أحد المخبرين في القرية. سرعان ما تعرف الفرنسيون على هوية (س) الحقيقية كواحد من قيادات الثوار في الجزائر، أودع على إثرها في معتقل

سليان بقلعة سوسة بانتظار محاكمته. وقبل موعد محاكمته بيوم واحد تمكنت مجموعة من الثوار المحليين من اقتحام المعتقل وتحرير (س) ومن ثم تهريبه الى القاهرة.

حزيران 1881، القاهرة..

عمل المدعو (س) محرراً في صحيفة "الاتحاد المصري" وقد غير اسمه الى: عبد المنعم الأبيض، كان يكتب مقالات تحريضية ضد المحتلين البريطانيين والنفوذ العثماني وينشط بين أوساط المتمردين المتطرفين على نظام الحكم. في تلك الأيام كانت الثورة العرابية قد وصلت ذروتها في مصر.

بحلول أيلول من العام ذاته حدثت انتفاضة كبرى في القاهرة، تحركت جميع الوحدات العسكرية المتمركزة في القاهرة إلى ميدان عابدين مع أحمد عرابي، شملت أيضاً مشاركة الشعب المصري إثر ظهور نزعة قومية فيه. وصل عرابـي أمام قصر عابدين وخرج له الخديوي توفيق ومعه القنصل البريطاني، أعلن عرابـي حينها مطالبه للخديوي، والتي تمت الموافقة على أغلبها بعد جدال. الا ان المدعو (س) اعتبر بعد ذلك الاتفاق، أن الثورة العرابية قد حادت عن مبادئها، والتي هي، حسب ما كان يراه، قلب نظام الحكم وطرد البريطانيين. وقد كتب مقالاً ينتقد فيه عرابـي ويشكك في وطنيته، فلم تنشره له جريدته فنشرها في صحيفة "الاعتدال"، وهي صحيفة معارضة للثورة العرابية، طُرد على اثرها من

الصحيفة التي يعمل بها بسبب (آرائه التحريضية المتطرفة)، غادر بعدها القاهرة الى السودان.

كانون الثاني 1882، مدينة شندي، ولاية نهر النيل، شمال شرق الخرطوم. السودان..

انضم المدعو (س) الى جماعة عبد الرحمن النجومي، أهم قادة الحركة المهدية في السودان، وكان اسمه الجديد جاد الله ابو الشول، شارك مع النجومي في جميع نشاطاته ومعاركه على مدى أكثر من سنة، وكان أهمها "معركة شيكان"، التي وقعت في تشرين الثاني 1، اذ أشار البريطانيون على الحكومة المصرية بإرسال جيش الى السودان للقضاء على الحركة المهدية التي باتت تشكل تهديداً جدياً على التواجد البريطاني.

استجابت الحكومة المصرية وأرسلت جيشاً من ثمانية آلاف مقاتل، جُندوا أساساً من فلول جيش عرابي الذي كان قد هزم في تلك الفترة. تحرك الجيش من الخرطوم نحو الأبيض، وتابع طريقه حتى مدينة الكوة، ثم اتجه غرباً نحو كردفان. لكن الأدلاء ضلوا دربهم، إما بتواطؤ مع النجومي أو لجهلهم بالطريق. أرسل النجومي كتيبة من جماعته بقيادة (س) لردم الآبار في طريق الجيش الذي أضاع طريقه، ومناوشة أطرافه لإنهاك المقاتلين. وفي منطقة شيكان، قبل وصول الجيش المصري الى الأبيض، انقض عليه جماعة النجومي وأبادوا معظمه. بعد هذه المعركة مباشرة، اختلف (س) مع النجومي حول مبادئ القيادة ومفهوم فكرة "المهدوية"، اعتزل بعدها الحركة وغادر السودان.

نهاية 1883 الى منتصف 1884..

انقطعت أخبار (س)، لم يُستدل له على أي أثر في بلد أو مدينة أو قرية، لكن جاءت أخبار غير مؤكدة عن شخص يحمل صفاته الى حد بعيد، اسمه شيخ زاهر النوراني، يعتقد المحليون بأنه صاحب خطوة، وله كرامات وخوارق، كان معتزلاً الناس، يعيش وحيداً في سرداب تحت خانقاه الحاج ملاّ علي، تكية في سرشقام، أحدى ضواحي مدينة السليمانية، شمالي العراق.

أيلول 1884 كلكتا، الهند..

المدعو (س) يظهر بين أتباع راما كرشنا،

المعلم الروحي "الغورو" الذي ضرب صيته الآفاق في تلك الأيام، وصارت تعاليمه تستقطب الأتباع من مختلف أرجاء العالم. كان (س) يظهر معه في جميع الأمكنة التي يذهب إليها، صار مقرباً من كبار تلامذته المعروفين كماهندرا ناث غوبتا وغيريش جاندرا وماهندرا لال ساركار وآكشاي كومار.. وغيرهم.

في بدايات 1885 أصاب الغورو الكبير التهاب حاد في الحنجرة، تطور بالتدريج الى سرطان حنجرة، نقل على اثرها الى مدينة شيمبوكور قرب كلكاتا للعلاج. نصحه الأطباء أن يبقى صامتاً، الا انه تجاهل نصائحهم وبقي يتحدث لزواره وأتباعة. استمرت حالته بالتدهور، كان (س) يخدم حواليه ويسهر ويصوم لأجله طيلة تلك الفترة. توفي راما

كرشنا في آب 1886. فترك (س) كلكتا والهند واقسم، حداداً على المعلم الكبير، أن يظل سائراً في الأرض دون توقف.

تشرين الثاني 1886 تسالت، مالي...

تم اختطاف المدعو (س) جنوب مدينة تسالت، شمالي شرق مالي، في الطريق المؤدي لمدينة أكويلهوك من قبل قطاع طرق تابعين لقبيلة تدعى أوارا، وهي من طوارق جنوب الصحراء الأفريقية الكبرى، تمتهن تجارة العبيد، تقيم في أكربـي، بلدة صحراوية تبعد ستين كيلومتراً جنوبـي مدينة بوغيسا القريبة من الحدود الجنوبية للجزائر.

هنا ينتهي ملخص التقرير الذي خلص إليه النقيب ألكسي ديميتروفيتش، بعد سنوات من العمل المتواصل، وقد أرسله الى الدوق الأعظم في انتظار تعليماته قبل التوجه الى مضارب قبيلة أورارا وتحرير شايع.

أوعز الدوق للنقيب أن يعزز قوته ويأخذ جميع الاحتياطات قبل التوجه للهدف لخطورة المكان وانعزاله. باشر النقيب في الحال بوضع خطة محكمة لمسار الرحلة، بعث رسائل للفرق الخمس الموزعة في مختلف البلدان إلى التجمع في مدينة تيمياوين جنوب-ي الجزائر على الحدود المالية. وبعد أن تجمعوا هناك، جند معهم خمسين مقاتلاً إضافياً من الأهالي، ليكون المجموع مائة رجل وخمسة، يصحبهم ثلاثةُ أدلّاء

محليون موثوقون، ومترجمان يعرفون لغة وثقافة الإيموشاغ. واشترى بنادق حديثة، والكثير من الخيام والمؤن. ثم انطلق بهم الى الهدف بقافلة من الإبل متنكرين بملابس تجار، وقد خبأوا أسلحتهم بين المؤن... الغرض شراء عبيد.

سارت القافلة من تيمياوين الى بوغيسا، المسافة حوالي 120 كيلومتر، على طريق صحراوي مقفر، مات منهم رجلان إثر عاصفة رملية باغتتهم وسط الطريق. بعد أربعة أيام صعبة وصلوا إلى بوغيسا، باتوا يومهم هناك وتزودوا بمؤن إضافية، ثم واصلوا إلى أكربـي مسافة يوم ونصف، لم يتعرض لهم أحد في الطريق ما زالوا يخبرون كل من يلاقيهم من الطوارق أنهم ذاهبون الى مضارب قبيلة أوارا

للتجارة معها.

وصلوا مضارب قبيلة أوارا مع بداية الليل، منهكين تماماً، وجدوا رئيس القبيلة، واسمه محمدين أغ بهنقا، في استقبالهم، وسط جمع من أولاده ورجاله، الجميع يضعون تاجلموست (لثاماً) على وجوههم، مصنوعاً من قماش أزرق نيلياً يطغي على جميع ملابسهم يسمونه ألاشو. لاحظ الزائرون أن مضيفيهم يحرصون على إبقاء لُثمهم على وجوههم في جميع الأوقات. كان النقيب قد سبق واستفاض شارحاً لجماعته قبل انطلاق الرحلة عن عادات وأعراف الطوارق، لكن مع ذلك تفاجأوا بعد وصولهم بأمور أخرى بدت لهم شديدة الغرابة.

كانوا قد علموا مسبقاً بقدومهم. رحبوا بهم

وأخذوهم الى مجاميع خيام قوامها جلود الخراف والحصران. أنزلوهم في خيام حمر من جلد الماعز معدة للضيوف يطلقون عليها اسم أهاكيت. وفي صباح اليوم التالي، جلس الكابتن مع شيخهم أغ بهنقا تحت مظلة مثبتة بعصي من الدخن (تفالا)، ومعهم ترجمان ورجال آخرون من كلا الطرفين. عرّف الكابتن عن نفسه، كونه تاجراً روسياً يقيم في كازابلانكا، يزوّد السفن القادمة من البرازيل بالعبيد. ثم ذكر له أنه يحتاج الآن عشرين عبداً من الذكور اليافعين، وأنه سيشتري منه المزيد في المستقبل إن وجد لديهماينفعه. حرص أن لا يسأله عن شايع بالتحديد، ذلك قد يثير الريبة، فمن غير الممكن أن يخبره انهم قطعوا كل تلك المسافة من أجل شراء عبد واحد. واشترط أن يختار ما يريده بنفسه من وسط ما توفر عندهم من عبيد.

أخذوهم لمجموعة بيوت طينية، مزرية المظهر معزولة بعض الشيء، يسمونها تغامشيت، حيث يعيش العبيد أو الـ (إيكلان) بلغة الإيموشاغ. جمعوهم في فسحة خارج أكواخهم على شكل صفوف، كانوا بالعشرات، فيهم نساء وأطفال وشيوخ، قد تم تنظيفهم للزبون، كما يبدو، قدر الإمكان. كان سعر العبد الذكر اليافع، السليم المظهر، ستون فرنكا.

بحث رجال الكابتن في الوجوه، اختاروا ثمانية عشر رجلاً، لكن لم يكن شايع ضمنهم، لم يعثروا عليه بعد، سأل الكابتن:

"هل هذا كل ماعندكم؟".

"نعم، هذا كل ما عندنا".

تبادل النقيب وجماعته نظرات حائرة. اقترب أحد الترجمانين إلى النقيب وهمس في أذنه، فهز هذا رأسه موافقاً، التفت الترجمان الى كبيرهم يسأله:

"قد نشتري ايضا عبيداً مارقين وحتى ذوي عاهات، إن راعيتمونا في الثمن".

"حسنا، لدينا بضعة من هؤلاء، وان لاءمكم واحد منهم فخذوه بنصف السعر، اتبعونا".

كانوا محشورين في أحد تلك البيوت الطينية المتوارية في الخلف، ثلاثة رجال مربوطون الى بعضهم بحبال سميكة. اقترب رجلان من جماعة الكابتن اليهم، فاذا شايع هناك، الرجل المسدوح في الوسط، كان عارياً إلا من وزرة قذرة من الليف تستر

عورته، قد نحف إلى درجة كادت معها أضلاعه تنط من صدره، جفّ جلده وتقرن، عليه ندوب وآثار سياط، حزوز عميقة متقرحة حول المعصمين والقدمين من أثر الحبال. غارت عيناه وبرزت عظام وجنتيه وتلبّد شعره. كان غافياً أو مغمى عليه.

تتّبع قبيلة أوارا أسلوباً شديد القساوة مع العبيد المتمردين، اذ لا تكتفي بتعذيبهم وتجويعهم فقط بل يلجأون ايضاً الى اغتصابهم وبشكل جماعي لأجل كسر شوكتهم.

إنفرج جفناه بالكاد. ركز على الرجلين الباركين قربه، فميزهم، جماعته من نرمين. هزّ لهما رأسه مع ابتسامة من عينيه على أنه عرفهما، حبسا دموعهم، كان منظراً شديداً عليهما، التفت أحدهما

ناحية النقيب وفرك أرنبة أنفه، علامة متفق عليها. تنهد النقيب، اقترب منه متظاهراً بفحص البضاعة، وقف أمامه للحظة يتمعن فيه، انتابته مشاعر متضاربة، أكثر من أربع سنوات من البحث والسفر في أثر هذا الكائن المحير، كانت سيرته وتنقلاته شغله اليومي الشاغل طيلة تلك السنين، عرف عنه وعن ماضيه خلالها ما جعله يقف في حضرته مبهوراً، مسلوب اللب، كأنه يقف وجهاً لوجه أمام "كوشيا الذي لا يموت" بطله الخالد، وقد خرج من الحكايات التي طالما أحب سماعها من جدته وهو صبـي. انتبه الكابتن الى نفسه قبل أن يُشك في أمره، التفت الى كبيرهم، مقلباً شفتيه علامة عدم الاكتراث وسأله:

"ما قصتهم؟"

رد كبيرهم مهونا: ".. لا شيء ذا بال، حاولوا الهرب... ولا أظنهم فاعليها مرة أخرى".

همّ الكابتن بالانصراف، وألقى عرضه وهو يخطو خارج الكوخ:

"قد ندفع في الثلاثة ثمن عبد سليم واحد".

لم يجادله كبيرهم، وافق في الحال.

في المساء، وبعد أن فكوا القيود عنه، ضمدوا جروحه، مسحوا له جسمه بالماء، رووه وأطعموه. إنفرد النقيب بشايع، عرّفه بنفسه أولاً، وأخبره أنهم قد جاءوا لإنقاذه بأمر مباشر من القيصر الكساندر الثالث، وأنهم آخذوه معهم إلى سانت بترسبورغ لأجل إكرامه ورد الاعتبار إليه.

لم يبدُ على وجه شايع أي علامة اهتمام، لم يسأل عن التفاصيل. رد بصوت واهن وجازم:

"لن أذهب إلى سانت بترسبورغ".

حاول النقيب أن يغريه بما ينتظره هناك من مال وجاه، لكن دون جدوى، بعدها قال له:

"حسناً، في هذه الحالة، علينا أن نسألك طلباتك فنجعلها لك. وبعدها، أخذناك، إن شئت، الى حيث المكان الذي تود الذهاب اليه".

صمت شايع للحظة، ثم أجاب بوضوح، كأنه يعرف جيداً ما يريد:

"عندي طلب واحد".

"هاته إذن".

"تذبحون عشرة من أشد أولاد الشيخ محمدين أغ بهنقا".

دون أن يرف له جفن، ودون أن يجادله في غرابة طلبه، أجابه في الحال:

"لك ما أردت".

جاءت موافقته سريعة ودون تردد. في الحقيقة، كان، مع نفسه، يتوقع من شخص مثل شايع طلبات أشد تعقيداً، قد تضطره هو وفريقه الى البقاء بضعة أشهر أخرى، أو ربما سنوات، بعيداً عن الوطن. قد انهكهم السفر على مدى أكثر من أربع سنين متواصلة، واستنفدهم الحنين لنسائهم وأولادهم...

مجرد قتل عشرة رجال، لم لا؟ شيء هين، مسألة لا تستغرق الكثير من الوقت في جميع الأحوال.

في اليوم التالي أعدوا قافلتهم للمغادرة، دفعوا للشيخ المبلغ المترتب عليهم كاملاً. بعد ذلك تحدث النقيب إليه، عن صعوبة الطريق وكيف فقد فيه إثنان من خيرة رجاله. تشكّى من عدم كفاءة أدلائه. ثم عرض عليه صفقة مغرية، كان من الصعب على الشيخ مقاومتها:

"إن بعثت معي عشرة من أشد أولادك، يحرسوننا ويدلونا الطريق حتى مدينة تيمياوين، سأعطيك مائة وخمسين فرنكاً".

وافق طبعاً، ورد متحمساً:

"بل سأبعث معكم عشرة من خيرة رجالي".

"لا، نريد عشرة من أولادك، أشدهم، فذلك سيكون أهيَب وآمن لنا أمام القبائل على الطريق".

"إن كان ذلك ما يرضيكم، فلكم ما أردتم".

سخر الشيخ مع نفسه من سذاجة زواره وجهلهم بأعراف القبائل، لم يخبرهم أن رجال الطوارق لن يتعرضوا لقافلة جاءت تتاجر مع واحد منهم.

كان للشيخ ثلاثة وعشرون ولداً من أربع نساء وخمس إماء. اختار منهم عشرة من أشدهم بأساً ليرافقوا القافلة.

غادرت القافلة أكربى. كان من الغباء قتلهم

أثناء الطريق والمنطقة ملغومة بقبائل الطوارق. انتظروا حتى نزولهم في تاكوبا للمبيت، واحة صغيرة جنوبـي تيماوين بحوالي ستة كيلومترات. أطعموهم جيداً وسقوهم عصير القات قبل النوم. عند منتصف الليل، تسلل عشرون رجلاً إلى خيامهم وهم يغطون في نومهم، ربضوا مثاني فوق رأس كل واحد منهم، وعند الاشارة، نحروهم مرة واحدة، ثم دفنوهم في أماكنهم وساووا الرمال من فوق قبورهم دون أن يتركوا أثراً.

غادرت قافلتهم الواحة في الحال، أدركوا تيماوين قبل حلول الفجر، فصاروا آمنين. على الأقل لبضعة أيام قبل أن يفتضح أمرهم. أطلقوا سراح العبيد بعد أن نفحوا كل واحد منهم خمسة فرنكات. سرحوا المجندين من المقاتلين المحليين. بعدها سأل النقيب

شايعاً:

"قد انجزنا لك ما طلبت. فماذا الآن؟".

رد شايع بصوت منكسر، بالكاد يُسمع:

"خذوني الآن الى أهلي.. في الزهدية".

الفصل الخامس عشر
حامضية

(37)

عيشة، عيشة المنفوشه

تزرع مشمش مَ تحوشه

تتعشى بالجفرانة

تاكل حمزة وغنّوشة

تسمع حس الكَرطاية

والبيت خالي حوشه

مرت تسع سنوات على عيشة في الحامضية مع زوجها عبد الله شونذر، 57 سنة، في كوخ طيني منفرد، مبني وسط حقل رمان شاسع يعود لبيت آل الأغا، وهم من الأعيان في الحامضية، كبيرهم هو عبد المجيد غازي الأغا، قائم مقام سابق لقضاء الفلّوجة. يعمل عبد الله حارساً في حقول آل الأغا منذ ثلاثين عاماً، هو رجل مقطوع ليس له أقارب، معلول حالياً، أصيب بالشلل الرعاشي (باركنسون) منذ سنّ الأربعين، قضى معظم حياته أعزب، وهو في الحقيقة غير ميّال للنساء. وحينما اشتد عليه المرض صار شبه

عاجز إزاء أداء مهامه، وينام كثيراً، فقرر، وبتشجيع من كبير آل الأغا، أن يجد له زوجة ترعاه وتساعده في حراسة الحقول. لم ترض أي من عوائل الحامضية تزويجه بواحدة من بناتهم، لكن صادف أن صاحب المُلك، عبد المجيد الأغا، يعرف حمود بن مسند (ابو شايع) وله معه تجارة ومصالح، وحينما سمع هذا الأخير بقصة حارسه اقترح عليه عيشة، مقطوعة مثله. وكانت الزيجة.

لم يمر على عيشة يوم واحد، طيلة السنوات التسع في الحامضية، شعرت فيه بالانتماء لبيتها الجديد ولا لتلك البلدة عموماً. استمرت على صمتها لا تتكلم، كما إن موقع كوخها المنعزل أتاح لها أن تبقى بعيدة عن الناس. اعتادت أن تؤدي واجباتها اليومية، وهي شاقّة

بطبيعة الحال، بصمت ودون تذمر، تصحو فجراً، تعد عجينة الخبز، تشعل التنور، تخبز ثمانين رغيفاً، أربعٌ لبيتها والباقي يذهب الى آل الأغا. يأتي غلامهم ليأخذ الخبز ويوصل إليها ما طلبته في اليوم السابق. بعد الانتهاء من الخبز تحلب البقرة الوحيدة التي يملكونها، تحضّر الفطور لزوجها، طاسة حليب ورغيف خبز حار، تتركه عند فراشه وهو نائم، تطلق البقرة خارج حظيرتها، بعدها تمشي مسافة ساعة الى حقل الخضراوات، تعمل اللازم، حسب الموسم، تسقي او تبذر او تقطف أو تسمّد، تساوي الأرض، تملأ سلة مما نضج، تعود بها الى البيت قبل الظهر، تشعل الحطب أمام الكوخ، تطبخ شيئاً للغداء، يكون زوجها مستيقظاً، تأخذ اليه صينية الغداء عند فراشه تأكل معه لقمتين، تنظف البيت، تجمع الحطب، تغزل الصوف، تجلب

البقرة الى حظيرتها، تنام حتى صلاة العشاء، يبقى خلالها زوجها جالساً أمام البيت، يراقب الحقل حتى منتصف الليل، بعدها تستلم هي الخفارة في الحقل حتى السحَر، تنام ساعة ثم تصحو فجراً لتبدأ نهارها التالي... وهكذا.

تعودت عيشة أن لا تنام ليلاً. أحبت الليل وسكونه أكثر من أي شيء آخر. هناك حوالي ساعتان ما بين نهوضها من رقدة المساء واستلام الحراسة، تحضّر فيها العشاء، وإذا ما تبقى لديها وقت فقد تهزّ فيه شكوة الجبن، أو تخثّر حليباً لليوم التالي، تصلح حائطاً، ترتق ثوباً، تخصف نعلاً، ربما. تغسل الصحون تجمع الحطب وتكسره. وفي كل جمعة تغسل الملابس وتنشرها على الحبال، تحمم زوجها في طست

خلف الكوخ. وبمناسبة تحميم الزوج، لم يكن بين عيشة وعبد الله حياة فراش، كما هي الحال بين الزوج وزوجه. كان قد حاول معها منذ الأيام الأولى للزواج، الا أن جميع محاولاته باءت بالفشل، جاءت بائسة ومحرجة، فتخلى من يومها عن الأمر برمته. أما هي، فالمسألة عندها سيان، بل في الحقيقة، أريح لها مما كان يجب أن يكون. كانت في البداية تخاف منه وتتجنبه قدر المستطاع، كما هي مع جميع الناس، لكن مع مرور الأيام، وجدته حنوناً مسالماً، فصارت تشفق عليه وتعتني به كما لو كان أباها.

تبقى مسألة شايع، وما خلفته في قلبها تلك العلاقة الموؤودة. عرفت عيشة منذ وقت مبكر أنه لن يكون من نصيبها، كانت تعرف جيداً منزلتها بين

الناس، تركت نفسها تحلم طيلة تلك الفترة، وحينما زال الحلم، آمنت بالواقع رغم غشامته، لاذت بالنكران وصوت العقل. لم يتخلف في بالها من تلك الساعات الجميلة بقربه غير ومضات سعيدة فلتت في غفلة من الزمن، حرصت عليها كما هي، في ركن سحيق من وعيها، كما الصور في خزانة من حديد، قد تستخرجها بين حين وحين متى ما هانت في عينيها أسباب الحياة.

في قلب الليل تدخل عالمها الخاص، تبتعد عن الكوخ متوجهة ناحية بقعتها المفضلة، البعيدة عن كل شيء، الى حيث النخلة الزينبية الوحيدة في الحقل، تباشر طقسها اليومي في الحال... تتحفى، تسدل شعرها الأحمر الطويل، تتحرر من جميع ملابسها، وتدور حول جذع النخلة، مغمضة العينين، تدور وتدور

وتدور.. دون توقف، ذلك ملاذها الوحيد الذي ابتكرته لنفسها منذ أول مرة رأت فيها حمير النواعير في الحامضية. حزرت سر الدوران بالفطرة، تلوذ به من نهاراتها الكئيبة المنهكة، وعما فاتها في حياتها. دوران أنجع ألف مرة مما سيتيحه البكاء. تدور حول النخلة لساعات، تهمهم بكلمات غير مفهومة، حتى تتخدر ساقاها، ويفرغ ذهنها، وتتحيد جميع حواسها، فتنقطع عما حولها تماماً لتستحيل إلى مجرد شيء يدب على الأرض، لا يربطه بسياق الحياة غير شهيق وزفير... خفيفة، متوازنة.. أقرب الى الانسلاخ والتحرر. لا حزن، لا سعادة، لا قلق، لا أمل، لا مرارة.. مجرد شيء خفيف، يدب.. ويتنفس..

قبل أن تنتهي سنتها التاسعة في الحامضية،

مات زوجها في فراشه وهو نائم، خنقته الگرطة ثم أكلت أحشاءه. تماماً كما حدث من قبل لأبيها. لم تلبث في البلدة طويلاً بعد أن ترملت، تذكّر الناس أنها منحوسة كما كانت أمها، أنها جالبة الموت والشؤم على بلدتهم. عزوا إليها كل مصيبة أصابتهم منذ أن حلت فيهم. أشاروا على بيت آل الأغا بإرجاعها لأهلها، فنزل هؤلاء عند إلحاحهم وأرجعوها للزهدية بالملابس التي عليها، كما جاءت قبل تسع سنين.

استلمها حجي حمود، أبو شايع، وأكرم إقامتها فيهم هذه المرة، هي، على الأقل، تذكره بشايع الذي لم يَعرف عنه شيئاً منذ خروجه الى إسطنبول للدراسة. أفرد لها بيتاً خالياً من بيوت الحراسة، وحرص أن يواصلها بكل ما تحتاجه.

بقيت عيشة على صمتها وذهولها في كوخها الجديد لشهور، التزمت فراشها، لا تبرح عتبة الباب. استمرت معتزلة عن الناس كعادتها منذ صغرها. إلا أن الناس لم يتركوها لحالها. صادف أن وقعت خلال تلك الفترة حوادث غريبة في الزهدية، أطفال يفزّون من نومهم فزعين، مواش تختفي من حظائرها، ضروع تجف، مياه تشح، أفاع في قدور الطبخ. فخافوا، وصاروا يتذمرون لحجي حمود بشأن وجودها بينهم. قاوم طلباتهم لحين، لكنه هو نفسه بات يقلق منها على حيواناته، فلم ير مندوحة من إجلائها عن الحي.

بنى لها بيتاً من الطين في العرّادة، وهي منطقة غير مسكونة، على سفح تل راس الطوك المحاذي للجفرانة، الأرض المحرمة. سفح التل حينها

لم يكن ضمن الجفرانة. المكان يبعد عن الزهدية مسيرة نصف يوم، تكثر في أرضه عاقولة العنكَد، عشبة يكرهها الرعاة، كونها تتخم مواشيهم دون أن تسمنها. وبذلك بقي كوخها بعيداً عن طريق المارة. حرص حجي حمود أن يرسل واحداً من رعيانه الى الكوخ كل صباح، يملأ زيراً صغير بالماء، نُصب عند باب البيت، ويترك بعض الطعام والحاجات، على ان لا يلتقيها وجهاً لوجه، او ينظر مباشرة في عينيها. شاع بين الناس أن عينيها تُنقص من عمر ناظرها. وصارت الأمهات فيما بعد يخوفن أطفالهن قبل النوم بعيشة المنفوشة (كثّة الشعر)، التي تنام في النهار وتخرج في الليل الى الحقول... تبحث عن الصغار لتأكلهم... وتحتفظ في بيتها بگرطة تشق بطن كل من يقترب الى كوخها.

بعد أيام من حلولها في ذلك البيت حدث شيء عجيب في العرادة، بدأ عاقول العنكَد بالاختفاء من حوالي البيت الوحيد، الذي يؤوي عيشة، ثم من المنطقة بأسرها، ويحل محله نبات آخر غريب على المنطقة، أسماه الأهالي الغرقد الأحمر، وهو شجيرة منخفضة، لعلها من فصيلة الصباريات. أزهارها كرات حمر فاقعة تتفاوت في أحجامها ما بين القبضة ورأس الانسان. الواحدة منها كتلة أشواك حمر غليظة ومتراصة تنبع من المركز نحو جميع الاتجاهات، كل شوكة تنتهي إلى قمة دقيقة صفراء تبدو كما لو كانت نقطة مضيئة. شكل الزهرة بشكل عام يمكننا أن نصفه بالعدواني، أشبه بأسراب قنافذ ضخمة غاضبة متهيئة للهجوم. تتراص تلك الكرات فيما بينها وفوق بعضها البعض بكثافة، واذا بمنطقة راس الطوك تتجلى لعين

المار من بعيد، قطعة حمراء فاقعة كأنها نار متوهجة ترتفع عما حولها، يستقر في قلبها كوخ عيشة الجديد منفرداً وسط ألسنة لهبها دون أن تناله (النار). وفي كل يوم ومع صعود الشمس تنبعث من تلك الزهور روائح غريبة كأنها عبق عشبة جيرانيوم مدخن، تذهب الى مسافات بعيدة، رائحة مُسكرة، إن تنشقتها المواشي تثغو وتخور بنبرة غريبة كما لو كانت تلد او تتألم، وان تنشقها الرعيان استلقوا على ظهورهم يجهشون باكين دونما سبب.

أخبار ما حصل للعرادة منذ حلول عيشة فيها انتشرت بين الأحياء بسرعة، كثرت الحكايات والأخبار حول تلك الظاهرة الغريبة، تم تأويلها بطرق شتى، وربطها بعيشة وما حلّ بها والمنطقة عموماً.

سرعان ما تحول المكان الى قبلة لأصحاب النذور، خاصة الأرامل والعوانس، ومن يبغون خلفاً. يأتون من شتى الأماكن، يفترشون الأرض من حول الكوخ، ويبكون معاً بكاءً صاخباً يدوم لساعات، تحت تأثير شذى الغرقد الأحمر، حتى تتورم حناجرهم ويذهب صوتهم. ثم يغادرون بعدها، خفيفين، وقد تحرروا بعض الشيء من مرارة أيامهم. يتركون طعاماً وماءً وملابس وأغطية وأوعية عند عتبة الكوخ الذي ازدحم بابه، وجدرانه الطينية، بطبعات أكف محناة، وحُجب وجذاذات نذور. الكوخ صار محجاً للناس، يعودونه كملاذ، كأي ضريح، يزورنه للنذر والتبرك، التصريح بأمانيهم، نبذ أحزانهم. دون أن يجرؤ أحد منهم أن يدفع بابه، الموصد على الدوام، لإلقاء نظرة واحدة إلى الداخل. مرت شهور والأمر على تلك

الحال، نسي الناس خلالها أن يسألوا أنفسهم بشأن من يسكن فيه، عيشة، أما زالت فيه أم لا؟ حية أم ميتة؟

أنتصبُ واقفاً والواحد الذي هو أنا

يستحيل إلى مائة مني..

يقولون إني أطوف حواليك

هراء.. أنا أطوف حولي

(رباعيات جلال الدين الرومي)

الفصل السادس عشر
غريسر

(38)

2019

قبل سنتين، وبالتحديد في الثاني عشر من آب عام 2017، التقيت شخصياً ببطلي ومثلي الأعلى منذ أن كنت طالباً في الإمبريال كوليدج إبان الثمانينات، البروفوسور جامو غريسر.. ووووو.. هوووووووو..

حسناً، أظن أن عليّ أولاً أن أبين من يكون غريسر قبل هذه المقدمة الحماسية، لكي لا أبدو كالذي يقهقه على نكتته قبل أن يرويها.

جامو أنتش فابيان غريسر، باحث انثروبولوجي سويسري، مهتم كذلك بعلم الآثار وعلم اللغة المقارن. ربما لم يسمع الكثيرون بهذا الأسم من قبل، وهذا يشمل ايضاً قسماً كبيراً من أهل الاختصاص، آركيولوجيون، انثروبولوجيون وفيلولوجيون. هو، باختصار، باحث فريد من نوعه، وشخصية شيقة جداً بالنسبة للكثيرين ممن عاصروه، مهرطق بنظر البعض، وعالم سابق لعصره للبعض الآخر. لاقت بحوثه وكتبه في ستينيات وسبعينيات القرن الماضي رواجاً منقطع النظير بين أوساط

الطلاب والليبراليين تزامناً مع انبثاق موجة التمرد التي بلغت أوجها باضطرابات مايو 1968 في فرنسا، وظهور مفهوم (الثورة الجنسية) وانتشار حركة الهيبيين في أميركا والدول الغربية.

موجة التحرر تلك، والتي انطلقت منذ نهاية الستينات وامتدت الى السبعينات، تركت، ودون أدنى شك، بصمة واضحة على الثقافة السائدة، وعلى كافة الصعد، سرعان ما امتد تأثيرها إلى أغلب دول العالم. شاعت في تلك السنين حمى إعادة النظر بالأساليب وطرق التفكير السائدة. لكن ورغم أجواء الانفتاح التي أتاحت بروز أسماء جديدة على الساحة، بلغ بعضها مقام النجومية، سواء في مجال الفن أو الفكر أو السياسة، أسماء فرضت نفسها وبقوة على الأوساط

الأكاديمية المحافظة، بيد أن الحرس القديم لم يتسامح، على الإطلاق، مع طروحات الذين (تمادوا) في ضرب (ثوابت) البحث العلمي الأكاديمي، وكان اسم جامو غريسر على رأس قائمتهم. إذ، وكما يبدو، استفزتهم والى أبعد حد أساليبه المبتكرة في البحث، وعدوها في أكثر من مناسبة (غير منهجية) و(غير علمية). ووجدوا أن أغلب مؤلفاته، كما لو كانت خليطاً غير مسؤول من الاختصاصات الثلاثة المذكورة أعلاه، مقحماً في إطار فلسفي او صوفي.

سأحاول في سياق السطور التالية التنويه، وبشكل مختصر ومبسط قدر الإمكان، لأهم ملامح أسلوب غريسر.

ولد غريسر عام 1935 في بلدة توبياز على

نهر الراين، من ضواحي بازل السويسرية. حاصل على عدة شهادات في الآثار والأنثروبولوجيا والفلسفة وعلم اللغة المقارن. يتحدث الفرنسية والانجليزية والالمانية. ومن اللغات القديمة يجيد السومرية. عُرف أثناء دراسته الجامعية بكونه شاباً ألمعياً، مشاكساً لأساتذته. ونبغ مبكراً في مجال البحث والتأليف. ظهرت أولى بوادر أسلوبه المثير للجدل في البحث والاستنتاج في التاسعة عشرة من عمره حينما نشرت له مجلة ميثولوجيا سلسلة مقالات عن شعوب المايا. ومع نهاية سبعينيات القرن الماضي كان قد صدر له أربعة عشر كتاباً، وأربعة وثلاثون دراسة نشرت على صفحات مختلف الدوريات العلمية.

منذ عام 1979 انقطع فجأة عن حياة الكتابة

والنشر والتدريس بل وحتى الظهور في المحافل والنشاطات العلمية، لم يره أحد من حينها في مكان عام. قيل أنه أصيب بالسفلس وشفي منه بعد حين، إلا أنه بقي في حالة اكتئاب مزمن، وقيل انه حاول الانتحار أكثر من مرة. عاش منذ ذلك الحين في بيت صغير في توبياز، مسقط رأسه، معتزلاً الجميع وحتى يومنا هذا. لم يتزوج في حياته قط، ولم يكن له أولاد بطبيعة الحال.

كان غريسر يعتمد في طريقة بحثه على الحفر في جذور اللغة بالدرجة الأولى. الكلمات بالنسبة له ليست مجرد رموز تواصل، بل كيانات قائمة بذاتها تحمل كل منها طاقة (فاعلة) تشكل العالم وتساهم في تحديد مساره.

واجهت طروحات غريسر منذ البداية تجاهلاً وإهمالاً من قبل الاوساط الأكاديمية لفترة طويلة. لكن العالم أعاد اكتشافه من جديد عام 2001 إثر اطروحة دكتوراه قدمها طالب ألماني في جامعة نيس صوفيا أنتيبوليس، اسمه ليوهان أولدنبورغ، كان عنوانها "اثنوغرافيا الاتصال عند غريسر". تلك الأطروحة فتحت الباب مجدداً لصدور سلسلة دراسات وكتب بشأنه توجته، بصيغة ما، نبياً في أوساط المدارس المعاصرة.

في عام 2010 بادر معهد رويال انثروبوليجيكال في برايتون، انجلترا، الى تنظيم ملتقى ثقافي يقام كل سنتين، تحت عنوان "آوت أوف ذا بوكس انثروبولوجي"، يستقبل البحوث والدراسات التي

تتبع أساليب غير تقليدية في البحث، تكريماً لأبرز رواد هذا النهج: جامو غريسر.

عودة إلى الظروف التي مهدت للقائي بغريسر...

كنت قد عدت الى بغداد، من عمان، في بدايات 2011 بعد أن سمعت أن الوضع الأمني استتب نسبياً في العراق، وباشرت العمل في منصبـي السابق قبل السفر، أستاذاً في قسم الانثروبولوجيا، كلية الآداب، جامعة بغداد. لكن، ومع الأسف، لم تستمر حالة الهدوء تلك فترة طويلة، إذ سرعان ما اكتشفت أنني، برجوعي الى بغداد، ارتكبت خطأ فادحاً. راودني حينها انطباع قوي أن التردي هناك قد بلغ، وبما لايقبل الشك، نقطة اللاعودة.

بدأت من حينها أخطط للحصول على عرض عمل من جامعة أميركية او أوربية مرموقة، وشرعت بترجمة أبحاثي وإرسالها إلى الدوريات العلمية الدولية، كذلك دأبت على مراسلة الجامعات التي كنت أرغب العمل فيها. لكن، ولفترة طويلة، لم أتلق عروضاً تستحق السفر. بقيت على تلك الحال بضع سنين أخرى، في الوقت الذي كانت فيه الأوضاع في العراق تزداد سوءاً... ثم جاءت الصدفة لتنقذني.

وأنا مار بمكتب عميد كلية الآداب، هو صديق نوعاً ما، الدكتور صادق الموسوي، لبحث أمور إدارية، خطر في بالي أن أسأله إن كان هناك دعوات من جامعات أجنبية لحضور مؤتمرات أو المشاركة في ملتقيات بحثية. فرك جبهته وقال: "لا أظن ذلك"، ثم

وقبل أن أغادر مكتبه نادى عليّ مستدركاً:

"هناك دعوة من معهد بريطاني في مجال اختصاصك، لكن لا أظنها تنفعك".

"ولماذا لا تنفعني؟".

"ليس لدينا الآن مخصصات لتمويل مثل تلك النشاطات".

في ذلك العام اضطرت الحكومة الى تقليص ميزانيات جميع الوزارات الى الحد الأدنى بسبب انهيار أسعار النفط في الأسواق العالمية.

قلت له: "هل لي بإلقاء نظرة عليها، على الأقل؟".

نهض واستل ظرفاً كبيراً من ملف في أحد الرفوف، فتحته وأخرج منه بطاقة فول سكاب من تلك التي تنفتح الى ثلاثة اجزاء، ناولني إياها، فإذا بها دعوة من معهد رويال انثروبوليجكا، موجهة إلى جامعة بغداد للمشاركة في ملتقى "آوت أوف ذا بوكس انثروبولوجي". ومن التاريخ المسجل عليها عرفت انها قد وصلت الى الكلية منذ أكثر من عشرين يوماً. كدت أن أجن، قلت له:

"لماذا لم يخبرني أحد بذلك من قبل؟".

"كما أبلغتك قبل قليل، لا يوجد لها مخصصات مالية".

قلت باندفاع:

"ماذا لو دفعت أنا مصاريف السفر والإقامة من مالي الخاص؟".

قلب شفتيه وقال:

"أنت حر، لا مانع لدي، بامكاني ترتيب ذلك لك".

ثم، وبعد أن لاحظ حماسي الواضح سألني:

"هل ستذهب كونك مجرد ضيف عن جامعة بغداد، أم ستشارك ببحث أو دراسة؟".

أجبت دون تفكير: "بل لدي بحث جيد أعتقد أنه يصلح لشروط المشاركة".

الملتقى، ومنذ عدة سنين، أصبح حدثاً ثقافياً

عالمياً. تلك الفرصة كانت ممتازة بالنسبة لي، جاءت في وقتها تماماً. من المؤكد سيحضره أعلام وأساتذة لامعون، من كل أنحاء العالم، وفي كل مجالات الأنثروبولوجيا. كان لابد لي من تحضير دراسة مميزة تتماشى وروح الملتقى، أُلفتُ بها الأنظار. لتكون لي، من يدري، تأشيرة للحصول على عقد محترم في جامعة مرموقة.

بالحقيقة لم يكن لدي حينها أي بحث جاهز يناسب شروط المشاركة، كما أخبرت العميد.

ثلاثة أشهر عن موعد السفر، عليّ التصرف بسرعة. البحث في موضوع يكون خارج عن المألوف.. بقيت ليومين أفكر بشيء يصلح أن يصنف كونه "خارج الصندوق". استعرضت في ذهني جميع

ما كتبته من قبل، او فكرت أن أكتب فيه يوماً. لم يكن الوقت في صالحي. كان يجب علي أن اهيئ نفسي في أقل من سبعين يوماً. ثم فجأة استحوذ على بالي اسم هيباش. وكما حدث لي من قبل، منعني تردد اسمه في ذهني من التفكير بأي موضوع آخر. لكن مهلاً، قلت مع نفسي، لماذا لا يكون هيباش هو موضوع البحث. قلّبت الأمر في خاطري، وللأمانة، لم أكن في البداية متحمساً تماماً لتلك الخطوة، ذلك شيء، وحسبما فكرت حينها، لا يصلح أن يكون محوراً لبحث رصين يقود إلى نتائج مجزية. كنت قد بدأت، قبل عشر سنين من ذلك التاريخ، بحثاً بشأنه، لم يكن منهجياً تماماً، ولم أتمه لعدم توفر مصادر كافية، ولا حتى دوافع كافية. مع ذلك كان عندي حدس أن هناك شيئاً ما في شخصية هيباش يمكن أن يصلح لما كنت أبحث عنه.. ما هو ياترى؟

ماهو؟

استخرجت ملف هيباش من صناديق أوراقي القديمة، حيث حفظت كل ما كتبته عنه من قبل. أعدت قراءة الصفحات من جديد لعلي أعثر على سبب أستلهم منه عنواناً لبحثي المنتظر، وإذا بووم، "الگزعة"، صارت أمام عيني في أول صفحة. استللتها من الملف، كانت كلمة ضمن إحدى رسائل صديقي البيضاني، وقد كان في الاسابيع الاخيرة التي سبقت موته مهووساً بالبحث في أصل تلك الكلمة. وإذا فجأة امتلأت بحماس صبياني لأبدأ مشروعي في الحال.

حسنا، گزعة هيباش، لم لا، العلامة الموجودة على جبهته والتي لم تغفلها جميع المصادر التي ذكرته. هي على الأرجح شيء من عالم الرموز، لا بد أن لها

أصولاً دينية موغلة بالقدم، فضلاً عن ذكرها في تراث أكثر من بلاد. راهنتُ مع نفسي أن الامر سيكون مشوقاً وجديداً ولا يخلو من جرأة. قررت ان استمر فيما بدأته قبل حوالي العقد من الزمان، لكن وفق مقتربات مغايرة تماماً هذه المرة. لم تكن لدي فكرة واضحة إلامَ سيقودني بحثي ذاك، ومالذي أريد الوصول اليه بالضبط من خلاله، لكن كان هناك صوت واثق في داخلي يؤكد لي أن ذرات التراب اللامعة التي كانت بين يدي ستقودني حتماً إلى عرق من عروق الذهب.

في غضون نحو خمسة وخمسين يوماً من الجهد المحموم، أكملت البحث. مائتين وستة وأربعين صفحة، وكانت النتيجة مذهلة، لم أتوقع أن أصل الى ربع ما وصلت إليه.

افترضتُ أولاً إن العلامة المميزة الموجودة على جبهة هيباش، والتي يطلق عليها: "الگزعة" هي كلمة تدل على شيء محدد. انطلقت في البداية اتتبع الأصل اللغوي وجذر الكلمة في اللغة العربية. وبالتحديد في معجم لسان العرب والقاموس المحيط. بصراحة، وجدت النتيجة غير مشجعة بالمرة. لكن تلك كانت خطوة لابد منها في البداية. واصلت نهجاً آخر، أجرب فيه طريقة الافتراض والتسقيط. افترضت أولاً أن الكلمة آتية من أصل اجنبـي، فبدأت أبحث عما يشابهها في اللغات المجاورة للعربية، وهذا ما خرجت به: في الفارسية، لم أعثر على أصل مشابه تماماً للكلمة. أما في التركية فعثرت على شيء أكثر قربا، وهو "كازاه" ومعناها "الشخص الحر"، وهو مصطلح شائع في التركية القديمة نجده في كلمات ما زالت

متداولة كـ "قازاغستان" أي البلد الحر، وكلمات كثيرة أخرى لا محل لتعدادها الآن. وهذا شجعني على البحث في أصل هذه الكلمة في اللغات القديمة التي تطورت عنها التركية، سواء من لغات الحضارات التي ازدهرت فيها او التي تلاقحت معها، خاصة المتاخمة لها من ناحية الجنوب، وكان تخميني في محله. وجدت مايشابه اللفظ في أكثر من لغة قديمة، لكن مالفت انتباهي لفظ في الفينيقية مشابه الى حد بعيد، وهو "قازا" او "غزيا" معناه الرجل أو المكان ذو المنعة، او المحمي من قوى عليا، وقد أطلق الفينيقيون على بعض مدنهم التي استوطنوها او انشأوها مرادفات لتلك الكلمة، منها مدينة "غزّة".

لكن بقي أن أعرف من أين أتت الكلمة في

الأصل. الغريب إن الكلمة ذاتها استخدمها الحيثيون بالمعنى ذاته وبشكل واسع وكان ذلك قبل الفينيقيين بمئات السنين. هنا نقلت تركيزي الى الحيثيين، وبالذات عباداتهم، آلهتهم، طقوسم، فالدين في الحضارات القديمة هو، وكما يعرفه الأنثروبولوجيون، خير وسيلة للدخول الى فلسفة تلك المجتمعات وطرق تفكيرها. ومع الحيثيين بدأت خطوط بحثي تتضح أكثر فأكثر، وجدت في ثقافتهم بيئة خصبة لطرح الكثير من التساؤلات المثيرة للمخيلة.

كان غريسر قد خصص كتاباً عن حضارات آسيا الصغرى، صدر عام 1978، ضمّنه فصلاً عن الحيثيين، مع عنوان فرعي: "الحيثيون عبدة الإنسان". هم بنظره، أقوام ركزوا على علوم الباطن والقدرات

الكامنة في البشر، أكثر من أرجاء الماورائيات الى الآلهة كما فعلت أغلب الحضارات التي زامنتهم أو أتت بعدهم.

الحيثيون هم شعب هندوأوروبي، سكنوا آسيا الصغرى -تركيا- وشمال بلاد الشام منذ 3000 ق.م، الفترة نفسها التي سكن جيرانهم السومريون بلاد الرافدين، وقد كتبوا بالمسمارية والهيروغليفية، ويظهر في نقوشهم وأختامهم التأثير البابلي والآشوري. كما اقتبسوا آلهة السومريون والآشوريون عندما احتكوا بهم.

الشيء المهم الآخر الذي جعلني أركز على الحيثيين هو ذكرهم للإله آنكي، السومري، في أدبياتهم وعباداتهم ورقمهم بكثافة تلفت الانتباه. السؤال الذي

سيطرأ على بال القارئ هو: ما علاقة آنكي بموضوع بحثنا؟ الجواب ببساطة: لأن الحيثيين وحدهم من كانوا يلقبون الإله آنكي دون غيره بصاحب الـ "غزأة".. بنغووووو.. وجدت ضالتي، ذلك على الأرجح هو أصل الكلمة التي أبحث فيها: "الغزعة"، وهنا ستكون لي بمثابة كلمة السر، بمعنى انني سأفتح بها مغارة علي بابا، وهناك سأجد شفرات تفتح لي أقفال فلسفات وطرق تفكير أقوام عاشت قبلنا بأكثر من خمسة آلاف عام، كنا نظن على مدى عقود اننا نفهمهم.

لكن قبل تقديم شرح ملخص لمكانة الكلمة وما تدل عليه، تعالوا نعرف أكثر عن هذا الإله المثير للجدل "آنكي" الذي اختص بحمل هذا اللقب، والذي كان أصلاً مثار اهتمام الكثير من الباحثين، وما زال

حتى يومنا هذا.

آنكي، هو إله الماء والحكمة عند السومريين، وأحد أهم الآلهة في الأساطير السومرية. مركز عبادته كان في مدينة اريدو جنوبـي العراق. بُدِئَت عبادته في سومر، ثم انتشرت في جميع أنحاء بلاد الرافدين، وتعدتها إلى بلاد الحيثيين والحوريين. وهو أيضاً إله المياه العذبة والخصوبة، والخَلْق. ويلقب أيضاً بـ "نوديمّود" أي "حامل الشبه"، وهو الإنسان، فما هو، حسب أغلب الباحثين، إلا أصل قديم للمفهوم الديني في الأديان الإبراهيمية على أن الإنسان خُلِقَ على صورة الرب.

ويلفظ إسمه بالبابلية: "إيا" وهذا مشتق من الجذر "أي" يقابله في اللغات السامية "هَيْ" والعربية

"حيّ" وتعني كما هو واضح "الحياة"، ويُصوَر بنبع ماء، وهذا ما يفسّر وصفه بأنه ينبوع المعرفة السرية والسحرية للحياة والخلود.

هنا يجب أن اتوقف قليلاً لأبين شيئاً اعتقد انه مهم جداً، هو انني حينما وصلت الى تلك النقطة من البحث، تنمل جلدي وبدأت ابتسم لنفسي دون وعي، فكلمة "الگزعة" التي ابتدأت بها بحثي، كانت مجرد كلمة غامضة لفتت انتباهي، فإذا بها مصطلح "ناشز"، حسب تصنيفات غريسر، رغم مرور آلاف السنين عليه، و"المصطلح الناشز" كما يعرّفه صاحبنا، هو المصطلح الذي يصاغ في اللاوعي الجمعي لشعب ما، متضمنا مفاتيح أو شفرات لحقائق تغفلها ذاكرة الشعوب، عمداً أو بغير عمد، ولأجل تمييزها عن

غيرها من المصطلحات، يجب أولاً أن يتم نطقها بالشكل الصحيح، واذا ما تم ذلك، تترك مخارج حروفها حين النطق أثراً صوتياً غير منسجم مع الجملة التي توضع فيها، وكأنها تريد أن تستوقفك لتخبرك بشيء ذي بال. هذا التناول للغة يمكننا اعتباره نموذجاً يوضح، لمن لم يقرأ لغريسر من قبل، طريقته في تبويب الكلمات وفق نهج غامض، لا يمكن الاعتماد عليه، حسب منتقديه. وهنا أتذكر مقولة أخرى لغريسر، أثيرة إلى نفسي، لها علاقة بموضوع البحث: "عملية تطور كل لغة تتأثر بالانواع الرئيسية الثلاثة من المفردات: الثابتة والمتغيرة والمندثرة.. والتي هي تجسيد حرفي لمعضلات الخلود والتحول والموت في وعي المجتمعات منذ نشوئها".

من الجدير بالذكر، أن الباحثين المعنيين بالسومريات لم يعرفوا أن "غزأو" هو أحد أهم ألقاب الإله آنكي حتى عام 1961، وذلك بعد العثور على رسم نصفي نادر له على لوح فخاري ضمن أكثر من عشرة آلاف لوح، تمثل أكبر مجموعة آثار حيثية كشف عنها التنقيب في القرن الماضي، وكان ذلك في مدينة "بوغاز كوي" التركية، الواقعة على البحر الأسود. هناك حيث أنشأ الحيثيون عاصمتهم القوية "هاتوشا". وقد كانت الكتابات على أغلب تلك القطع بالمسمارية وبعضها بالهيروغليفية.

الا إن الشيء الملهم في كل ذلك بالنسبة لي، الاكتشاف الذي شلّني فرحاً وجعلني حينها انطنط على الأريكة كالأطفال، حدث حينما رأيت لأول مرة صورة

ذلك الرسم النصفي للإله آنكي، كان ذلك وأنا أتصفح صور جميع لقى بوغاز كوي على الموقع الإلكتروني لمكتبة الكونغرس. كانت صورة أمامية واضحة لرسم الإله انكي، يظهر فيها الرأس والصدر، واذا... يا الهي: رأيت تلك الدمغة على جبهته والتي تشبه صيوان الإذن مقسومة من المنتصف بخط طولي.

الـ "غزأو" أو "غزأة" ومعناها البصيرة، والكلمة تعني حرفياً "الأذن"، وهذه اشارة لعلاقة قديمة بين السمع والفهم، ويرمز لها بشكل بيضوي منتصب يشبه صيوان الأذن، بحجم تمرة كبيرة أو بلوطة، مقسومة بخط طولي الى نصفين، أحدهما غامق، والآخر فاتح، أو بالأحرى فارغ، ويرسم الشكل البيضوي في منتصف الجبهة.

لكن وبما انه، أنا وحدي، أتاحت لي الصدفة أن أقف على القيمة المميزة لـ "الكزعة" في ثقافة أكثر من حضارة، وانتقالها عبر الأجيال حتى عهد قريب من خلال تتبعي لشخصية هيباش سواء في الميثلوجيا او التاريخ، وجدت أنه من الوارد ان أدلي بدلوي لأقول شيئاً مختلفاً بهذا الخصوص. كان يجب أن أضيف إضافة مميزة وخارج الصندوق لأتم بحثاً قد يلفت الأنظار.

وكان ذلك.. تجرأت وأدليت، استخلصت من البحث، وبعد جهد إضافي، نتائج أعرف انها ستكون مثار جدل بين الأكاديميين، مقترحاً على أساسها وضع قراءة مغايرة تماماً لفلسفة وأساطير الحيثيين. افترضت في البداية أنه من غير الممكن فهم طرق تفكير أقوام

معينة ما لم نتوثق أولاً من دلالات كلماتهم حسب زمنها، وعليه شرعت في تصحيح ترجمات الكثير من الأسماء والمصطلحات التي ذُكرت في آثارهم. ابتدأت أولاً بإعادة ترجمة كلمة "غزأة" والتي من المفروض انها "أُذن"، وهي الترجمة المعتمدة المأخوذة عن قاموس مختصر للغة السومرية وضعه عالم السومريات ثيودور أسبن عام 1971، وتلك ترجمة غير دقيقة كما سأبين لاحقاً، وأنا شخصياً لا ألومه في ذلك بعض الشيء، فهو على الأرجح استعان بمرادف الكلمة في الهيروغليفية: "غوزئا" وهذه الأخيرة تعني الأذن. بينما في السومرية فالكلمة تلفظ "غزأة" وهي كلمة مختلفة تماماً عن التي اعتمدها أسبن في قاموسه، فالأخيرة تتكون من مقطعين "غا" ومعناها "ذهن" أو "وعي". و"زئا" ومعناها "جديد" أو "مغاير"، وبذلك

اقترحت أنا تفسيراً جديداً للمعنى الحقيقي لهذا المصطلح، وهو بتقديري سيكون الأقرب للمنطق، معززاً ذلك من خلال قراءة جديدة للأساطير البابلية، ثم إجراء مقارنة سريعة لما يقابلها من الأساطير الفرعونية والزرادشتية والهندوسية، فكانت ترجمتي للمصطلح هي: "الوعي الأشمل"، وهي فكرة معقدة، الى حد ما، في قراءة الوجود عند الحيثيين. كنت مدركاً تماماً أن مثل هذا التأويل سيدفع على الأرجح بقسم من الأكاديميين الى تصنيفه على أنه "over"، كون الأفكار والفلسفات التي شاعت خلال تلك العصور لم تكن بذلك العمق والتعقيد. وهذا يرجعنا إلى ما عناه وليم شميدت بـ "القراءة المتعالية" أو "المنفصلة" عن النص.

وطبعاً لم يفتني، في معرض شرحي لرمز

"الوعي الأشمل" على الجبهة عند الحيثيين، ان أنوه الى مفهوم "العين الثالثة" لدى الحضارات الشرقية، والتي بدورها تقابل "الغزأة" عند الحيثيين، بيد أن الأخيرين، وكما هو واضح، سبقوا جميع الحضارات بهذا المفهوم، وربما هم أول من أسسوا له، أي قراءة العالم والتفاعل معه والتأثير فيه من خلال "رؤية باطنية" أكثر عمقاً مما هو ظاهر، والتي يرمز لها بتلك العلامة.

وأفضل من جسّد تلك الفكرة بعد الحيثيين هم المصريون القدماء، اذ أتوا برمز "عين حورس". اعتقد المصرى القديم أن الإنسان هو صورة مصغرة للكون، وكما قال "تحوت" فى لوح الزمرد: "كما فوق كما تحت".

تبقى مسألة انقسام "القزأة" بخط طولي الى نصفين متساويين، وهذا رمز قد نجد له أيضا ما يقابله في حضارات أخرى ظهرت بعد الحيثيين بمئات وربما آلاف السنين، وخير مثال هو الرمز الدائري المقسوم بخط منحني يشبه الحرف S، في الفلسفات الشرقية، كما الذي نراه اليوم على العلم الكوري، والذي يمثل مبدأ "اليانغ" و"اليين"، قوة كونية إيجابية، وأخرى سلبية متجاوبة. وكلا القوتين تمثلان مفاهيم التوازن والانسجام والحركة المستمرة اللامتناهية للكون.

بيد أن الرمز المقسوم من المنتصف عند الحيثيين هو برأيي أكثر تحديداً، فهو الرحم المحتوي على توأمين غير محددي الجنس، محشورين بصورة متعاكسة، أحدهما على اليمين والآخر على اليسار،

الذي على اليمين يكون غامق اللون ويطلق عليه إسم "هايين باش"، أي "الأصل الفاعل" جفرا-آنو، والآخر والذي يبقى دون لون، أي فارغ، ويدعى "شايا" اي "المتحول" وجرا-آنو. هذا الثنائي يمثل ثنائية الثابت والمتحول، وهي برأيي أكثر عمقاً وتطوراً من الثنائيات الدارجة في باقي الحضارات الشرقية: الخير-الشر، او النور والظلام... وما على شاكلة ذلك.

ثم، ووفق القراءة الجديدة لفلسفة الحيثيين، حاولت أن أصحح الكثير من المصطلحات والمفاهيم وأسماء الآلهة التي ترجمت إلينا في القرن الماضي خطأً. ورجحت أن آنكي لم يكن إلها بمعنى آلهة الحضارات القديمة، بل هو إنسان عاش في فترة ما، هو أقرب لـ "النبـي" أو "الشخص المستنير"، كبوذا

وزرادشت، وإن "جفرانو" الإسم الذي أطلق على الجنين الأيمن لا تعني "الإله المعتوه" كما ترجمت الينا، بل "الشخص المجذوب" بالمعنى الصوفي، ونرى مثل هذا الخلط في الاسرائيليات حيث "النبـي" و"المجنون" يطلقان معظم الأحيان بالمعنى نفسه على قسم من أنبيائهم. وكذلك فان ترجمة اسم الجنين الآخر "وجرا-آنو" الى "الإله العليل" هو خاطئ أيضا، والصواب هو "الجزء الفاني". هذه القراءة الجديدة من الممكن ان تظهر لنا، بالنتيجة، تفسيراً منطقياً لفكرة ثنائية الجنينين المتعاكسين في نصفي "الگـزعة".

تلك الثنائية حسب أسطورة "آلالو" لا تظهر إلا على جباه قلة من البشر، أولئك الذين ارتفعوا بذواتهم فوق الثنائيات، يظهر واحد منهم كل ألف عام،

ويدعون بـ "هايين باشين" أي "الذوات العليا الفاعلة" أو "الذوات العليا الباصرة"، وبمعنى أدق: "ملوك الباطن". وكان آنكي واحداً منهم.

من النتائج الأخرى التي خرجت بها من البحث أن أفكاراً مثل السمو فوق الثنائيات، الوعي الأشمل، والأناس المستنيرين أو الأنبياء، والتي ظهرت وتبلورت في فترة ازدهار الحيثيين، استمرت من بعد ذلك عبر التاريخ وحتى يومنا هذا في شتى بقاع الأرض، لكن متخفية بلبوس الأديان الحاكمة في أغلب الأحيان، ومن تجلياتها الواضحة هو التصوف، او ما يقابله في الأديان الأخرى.

يبقى شيء واحد ومهم لم أتمكن من تغطيته في سياق البحث، وهو سبب ظهور تلك العلامة

"الگـزعة" على جبهة شخص، أو أشخاص، عبر التاريخ، وفي أماكن متعددة، سواء في ميثلوجيا الشعوب أو في تاريخهم. المشكلة أنني انطلقت في بحثي من تلك الفكرة ومهدت لها بتفاصيل غنية وكثيرة، بيد اني لم اتمكن من تبريرها مع كل النتائج المذهلة التي وصلت إليها. مع ذلك قررت ان لا أقلق بهذا الشأن، واسيت نفسي بانني اعتمدت طرقاً غير تقليدية، كما هو مطلوب.

الفصل السابع عشر
طائف

(39)

1887

شايع يطرق الباب عند منتصف الليل. أحد عشر عاماً مرّت. ظهر أمامهم نحيفاً كعود الياس، كالح السحنة، معفر الثياب. تقرنت على جلده ندب، تفاوتت في القِدم، يعلو بعضها البعض. حينما عانقه أبوه أحس،

ولأول مرة منذ سنين، أن طفله، أخيراً، عاد الى حظنه، دمعت عيناه، لم تكن عودةً من سني الغيبة فحسب، بل ومن غياهب جفوة قديمة.

سأله وهو يتحسس ملامح وجهه:

"قد نحفت كثيراً، ولدي، تغيرت سحنتك".

".. نعم.. تغيرت".

ثم بنبرة معاتبة: "أين كنت كل هذه السنين يا ولدي؟".

نظر إليه ساهماً:

"اريد أن أنام الان، أبتِ، قد نتحدث في ذلك لاحقاً".

لم يلح عليه. المهم أنه عاد اليه، وأنه حي يرزق.

نام يومين متتاليين بما كان عليه من أسمال... وبعد أن صحا توجه لضفة الفرات، أخذ حماماً طويلاً هناك، كما كان يفعل وهو صبـي.

تجمع الأقارب في الدار مساء ذلك اليوم، يرحبون بعودته. كان في جعبهم قصص عَقدٍ من الزمان ليرووها له، ومئات الأسئلة. تحدثوا عن عيشة وما جرى لها وكيف رجعت الى الزهدية، ثم أُبعدت الى كوخ قرب واحة الجفرانة، وكيف تحول كوخها الى مزار للناس. لم يظهر على وجه شايع وهو يسمع منهم بشأن ما جرى لعيشة أي انطباع. جلس من بعد ذلك بينهم كالغريب، يستمع أكثر مما يتكلم. ثم تركهم وغادر

الى حجرته، لم يعد يطيق الجلوس طويلاً بين الناس.

أمران جديدان طرَآ على سحنته لم يعهدهما الناس فيه من قبل: اتساع حدقتيه بشكل لافت، أورث عينيه نظرة جريئة، حزينة، راكزة، تنم عن قسوة مترفعة لا تشوبها استكانة العوام. والأمر الثاني، طاقة عدوانية مظلمة تشع من قسماته، تنبعث مع أنفاسه، تجعله يبدو كما لو كان مجبولاً بغضبه، غير معني بإخفائه. لا يعوزه سبب للهجوم.

لم تمر إلا بضعة أيام من بعد عودته الى البيت، حتى طلب شايع من أبيه أن يوفر له مكاناً بعيداً عن الناس، ينقطع به الى نفسه لفترة. لم يجادله أبوه في طلبه، ولم يحاول ثنيه عما أراده.

أفرد له بيتاً منعزلاً، غير مسكون، كان قد شيده على بعد حوالي ساعتي مسير عن الطريق ما بين الزهدية وصدر الجزيرة، يؤمه وصحبه لأجل الراحة والمنادمة في مواسم الربيع ايام القنص. اختار شايع من ذلك البيت حجرة خلفية ليس فيها شباك او كوة، ولا يصلها ضجيج. أغلق دونه الباب، لم يكن معه إلا جردل ماء وجفنة تمر. ويعوده كل يومين غلام من الرعيان يضع له أمام باب البيت ماء وطعام. جلس هناك وحيداً في الظلمة. منح نفسه فترة ليفكر ويبحث بينه وبين حاله عن سبب للبقاء حياً، قبل أن يقدم على إنهاء حياته بيديه في ذلك المكان المعزول.

انقضى الأسبوع الأول، وجد شايع نفسه ضائعاً في ضجيج ذهنه، إشارات لا حصر لها من

الدلالات الفارغة تخنق مسار أية فكرة يريد ملاحقتها، وجد نفسه يدور في دوائر مفرغة، او ينجّر لأماكن لا يقصد الذهاب إليها. أرهقه تكرار المحاولة، أُستنفدت قواه بالتدريج، حتى استحال إلى مجرد حضور خامل. لكن بقيت حواسه يقظة وشديدة الحساسية الى حد مزعج. وكرد فعل يائس لمقاومة تأثير حواسه المتضخم، انطلق شايع يحرك رأسه بدوائر متواصلة ليشتت رهافة استشعاره للتفاصيل التافهة، وفي ذات الوقت يدور بجسمه حول أحد عقبيه ويعد أرقاماً. أراد أن ينقطع عن أي تأثير خارجي يشتت تركيزه. كان الأمر مجهداً للغاية، خاصة وأنه لم ينم ليومين متوالين، لم يأكل خلالها إلا بضع تمرات. أصر على المواصلة مدفوع بعزم من وحي اللحظة، دوران دوران، لم يعرف كم من الوقت مر عليه وهو على هذا الحال.. توارى يأسه

ونزقه مؤقتاً.. ثم، في لحظة ما، لحظة فاصلة، وجد نفسه في منطقة توازن ما، منطقة تتحيد فيها جميع المسميات عن مدلولاتها، مستوى جديد لم يخبره من قبل، حقيقي الى أبعد حد، انه الموت بذاته تجسد أمامه بكامل هيئته... شيء يبهر النظر، قبة سوداء، كحيوان أسطوري عظيم الهيئة، سابت في قاع محيط، مستدير دون تفاصيل أو ملامح. اقترب منه شايع بحذر، مدّ يده وتلمسه برفق، كان له ملمس مخمل رطب، بارد حد الارتجاف، لم يكن سيئاً، وجود آخر ضمن بعد آخر. في خضم ذلك الكشف قرر شايع ان ينتقل راضياً الى البعد الآخر ويكون من ضمنه، وضع قدمه هناك، بدأ وزنه يتلاشى شيئاً فشيئاً، جسده يدور في مكانه لوحده في طواف متواصل دون أن يبذل جهداً لتوجيهه... هل تحرر أخيراً؟

لكن طرأ شيء مفاجئ شتت عليه اللحظة قبل ان تصل الى ذروتها، مرت من أمام ناظريه صورة مدحت باشا بابتسامة ساخرة على وجهه، (ما الذي يحدث!؟) ردد مع نفسه. كيف اقتحمت الصورة خلوته في تلك اللحظة الحاسمة بالذات! لحظة الانتقال... توقف عن الدوران، فتح عينه، كان يلهث ويتصبب عرقاً غزيراً أبلّ ملابسه. شعر أن عليه ان يخرج من مكانه المظلم في الحال. فتح باب البيت، فآلمته عيناه من شدة الضوء، ضربه نسيم عابر، تبخر العرق من فوق جلده، فشعر بانتعاشة خاطفة، كان بأمسّ الحاجة إليها في تلك اللحظة. تنفس عميقاً، عرف حينها أنه لن يتمكن من إنهاء حياته بسلام قبل أن يتخلص تماماً من أثر مدحت باشا فيه. قضيتة معه، وكما هو واضح، لم تنته بعد، كجرح عميق لم يندمل.. تساءل مع نفسه:

أتراه ما زال حياً بسجنه في الطائف؟ هناك طريقة وحيدة لمعرفة الجواب، أن يذهب للجواب بنفسه، كما يقول شيخه السندي، لا أن يخمنه من مكانه. حينما مرت في باله هذه الفكرة، عزم في الحال وخطا من مكانه من أمام البيت، أولى خطوات رحلته إلى مدينة الطائف.

توجه أولا ناحية الغرب إلى معان ليسلك من هناك طريق الحج الشامي الذي يمر بمدن الحجاز والذي سيأخذه مباشرة إلى مدينة الطائف. مسافة الرحلة من الزهدية الى معان ثم الطائف أكثر من ألفين كيلومتر، لم يتوقف طويلاً أثناء الطريق الا للنوم او الأكل أو قضاء الحاجة.

لم يكن قلِقا أو يائساً طيلة أيام الرحلة، تهادن

مع العالم وأبقى نفسه ضمن منطقة محايدة، أتاحت له أن يطوف مؤقتاً خارج حدود إدراكه لتفاهته، منطقة ما، يتوارى فيها الوعي، وتتحيد الحواس. لم يكن الأمر كما لو أنه وعاء افرغ من مائه، بل لم يكن هناك أصلا وعاء ولا ماء. تماهى في حالة نكران تام. انساب ناحية وجهته كقشة في ساقية..

وصل ضواحي الطائف، استمر ماشياً باتجاه المنطقة الجبلية، وبالتحديد الجزء الشمالي الغربـي من جبل العرفاء، مسيرة يوم شمال شرق مركز مدينة الطائف. أدرك القلعة بعد منتصف النهار، مكان حصين يحوطه جدار عال من حجر المرو، فيها برجان للمراقبة، يقف على بوابتها حارس عجوز. اقترب شايع منه وحياه، فرد هذا تحيته وسأله أن كان تائها، فرد

شايع:

"لا يا عبد الله، لست بتائه، أنا درويش، فاعل خير، أسيح في أرض الله، أرشد الناس الى الطريق الحق وأدعو لهم بالرحمة، عسى أن يتوبوا فيُغفر لهم".

"بارك الله فيك مولانا، لكن عليك أن تبتعد عن هذا المكان، انه سجن خاص ممنوع فيه الزيارات".

"عجيب أمركم، ومن أحوج الناس إلى الرحمة أكثر من المساجين وأصحاب الكبائر، دعني أدخل يا عبد الله لأدعو من في داخل هذه القلعة إلى التوبة، قد نذرت حياتي في هذا، وإن منعتني فإنك تمنع رحمة الله عن عباده".

"لا حول ولا قوة الا بالله، ما أنا ياMولانا الا حارس فقير، ليس بوسعي ان أكسر القانون وأدخلك".

"إذن، سأجلس هنا عند الباب الى ما شاء الله، أدعو على الظالمين، حتى يستجيب لي الباري، واعلم يا عبد الله، ان دعائي مستجاب".

كان مدير السجن حينها في قيلولة، رأى في منامه أفاعي كبيرة من جميع الأنواع: أم حوّة، رقطاء، أم شكوة، أم جنيب، حنش.. بالمئات، تزحف نحو محيط القلعة، ثم تتسلق جدرانها.. فز هلعا، تعوّذ من الشيطان الرجيم. نهض وفتح شباكاً يطل على الخارج من علوّ... كل شيء على ما يرام، تنفس الصعداء، وقبل أن يغلق طاقة الشباك، تناهى إلى سمعه صوت شايع يجهر بالدعاء على (الظالمين) و(المنافقين). نادى على أحد

الحراس واستفسر منه عن أمره، فروى له الحارس قصة هذا الدرويش. أطرق قليلاً ثم أمر بدخوله، على أن يتم تفتيشه بدقة، وأن يغادر القلعة قبل صلاة العصر.

كان السجناء يتشمسون في الباحة الداخلية، لم تكن الحراسة مشددة من حولهم، وقف شايع بينهم وأخذ يتلو عليهم آيات ومواعظ عن التوبة وسعة رحمة الله. أثناء ذلك كان يتفرس في الوجوه. من الواضح أن مدحت باشا ليس بينهم. حينما رجعوا الى حجراتهم، سأل شايع أحد الحراس:

"اهذا كل ما عندكم من سجناء؟".

"هناك ايضاً الزنزانات، أولئك غير مسموح

لهم بالخروج الى الباحة".

"خذني إليهم، فأولئك الضالون أحوج الناس الى المغفرة".

أخذه الحارس الى قسم الزنزانات، وهو سرداب تحت الأرض فيه حجرات صغيرة معزولة عن بعضها، في كل منها مرحاض عبارة عن ثقب في الأرض، وفرشة للنوم.

قال الحارس وهو يتقدم شايع وفي يده قنديل: "لدينا نزيلان هنا لا غير".

"ومن يكونان؟".

"ممنوع ان تسأل مثل هذه الأسئلة هنا

يا شيخنا".

"عذراً، فاتني هذا.. خذني إذن أولاً لأكبرهم سناً".

توجه به إلى نهاية دهليز القبو، فتح باباً أولياً يؤدي الى زنزانة في آخر الرواق، فهاجمتهم رائحة بول وأغطية رطبة متعفنة، أتت من داخل الزنزانة. لم تظهر على شايع علامة انزعاج، بينما أغلق الحارس منخريه بأصابعه. التفت إلى شايع:

"أما زلت، مولاناً، تريد الإرشاد هنا في هذا المكان؟".

عيناه مركزة الى الداخل: "نعم، هذا ما جئت لأجله".

"إذن فعجل يرحمك الله، أما أنا فستجدني عند باب القبو بعد أن تنتهي منه".

تقدم شايع ومعه القنديل، شيخ نائم على بساط خفيف حائل اللون، يتوسد نعله ملفوفاً بخرقة، وقد أدار وجهه للحائط، كان الغليون الكهرمان الأزرق الطويل مطروحاً على الأرض. ذلك هو غليون مدحت باشا. رفس شايع الرجل بقوة في خاصرته:

"انهض يا باشا الخرا، اليوم هو آخر أيامك".

تكور الشيخ على نفسه من ألم الرفسة، أصدر انّة مكتومة، وبدأ يسعل بقوة. ثم استدار اليه يتطلع فيه وقد رفع كفه يظلل عينيه من نور القنديل. كان نحيفاً، ابيضّ وجهه شحوباً، عيناه مطفيتان وقد اسوّد ما

حولهما، لحية كثيفة، شعر أشعث، سأل بصوت صدئ:

"من انت؟".

"انا قدرك ياقذارة، انظر لي جيداً، فأنا آخر رجل تراه في حياتك".

تمعن فيه طويلاً ثم ابتسم:

"شايع؟!".

"ها إنك تتذكرني يا خرف".

"يا الهي، أخيراً حضرت...".

"تشاهد على روحك، واحزم أمرك الى حيث جهنم وبئس المصير، هيا؟".

"... على رسلك يا فتى، انظر الي جيداً، فأنا لست من تظنه، انا لست مدحت باشا".

قرب شايع القنديل من وجهه وضيق عينيه، بدأ يشك أن الذي أمامه هو مدحت باشا:

"وكيف عرفت اسمي إن لم تكن هو، أتتلاعب معي؟".

"لا، لا أتلاعب معك، مدحت باشا مات هنا في هذا المكان منذ سنتين، وإن لم تصدق ما أقول فلديك الحرس، اذهب واسألهم".

قرّب القنديل من وجهه أكثر.. نعم، هو ليس الباشا.

"ومن تكون إذن؟".

"أنا سامح باشا، رفيقه في الزنزانة، كنت مساعداً له منذ ان كان واليا على بغداد، ثم صرت من خاصته في إسطنبول، وبعد أن سقط، سقطت معه وسجنت معه في هذه القلعة".

"وكيف عرفتني؟".

"كنت واقفاً على يمينه حينما اجتمع بالمتظاهرين أمام السرايا الحكومية في بغداد، الا تتذكرني؟".

"آآآه، الآن تذكرتك، انت اللواء الذي ضربني بعصاه على ساقي".

"نعم أنا بعينه، كان عليّ أن أفعل ذلك أمام آمري، وها قد دار الزمن لتأتي اليّ وترفسني في خاصرتي".

"تستحق ذلك فانت حثالة مثله".

بقي مبتسماً، كأنه لم يسمع الاهانة:

"لقد توقع الباشا حضورك الى هذا السجن للقائه، انتظرك طويلاً، كان متأكداً من قدومك إليه، وكان لديه الكثير ليقوله لك، لكنه مات قبل أن يلقاك".

"الكثير ليقوله لي!".

"اجلس ياشايع، اجلس، لعلي مجيبك عن كل ما تريد أن تعرفه بشأنه".

فكر شايع قليلاً، ثم جلس أمامه ثانياً ركبتيه تحته. واصل الرجل:

"منذ ان تنبأت له في بغداد، وأنت صبـي، بنهايته وحيداً ذليلاً في سجن الطائف، تظاهر هو بعدم الاكترات، لكن في الحقيقة، صار من يومها يفكر كثيراً بمصيره، وأصبح أكثر حذراً في كل خطوة يخطوها. ثم مرت سنين، وصادفك هناك في المدرسة الحربية في اسطنبول، كنت أنا حاضراً فيها أيضاً، فاستشاط غضباً حين رآك، كان حينها وكما تعرف، أقوى رجل في السلطنة، وكأنما جئت إليه بالخصوص لتؤكد له مصيره الأسود، فطردك في الحال".

"قلت إنه كان يتوقع حضوري، هنا في محبسه! كيف عرف هذا؟".

"نعم، بعد رؤيته لك في إسطنبول، حدس أن مصيره محسوم مهما صعد الدرجات. ثم مرت السنين وحُكم عليه بالسجن في قلعة الطائف، فعرف انك آتيه في سجنه لا محالة، صورتك ارتبطت في ذهنه بصورة قدره، ولا ألومه في ذلك لو كنت مكانه".

"الا انه أرسل خلفي من يلاحقني".

"نعم، بعد ان طردك من بناية المدرسة الحربية، بعث خلفك من يتحرى أمرك، أراد أن يعرف من كان وراءك".

"كان يريد قتلي".

"لا، لو أراد قتلك لقتلك.. حينما قال له عيونه إنك صرت من جماعة الشيخ السندي، تركك وشأنك".

"السؤال الأهم، لماذا بعث رجاله ليرتكبوا تلك المجزرة البشعة؟ ذبحوا الشيخ السندي وجميع دراويش السندية، ثم لاحقوا من لم يكن في التكية في ذلك اليوم ليقتلونهم ايضاً، وكان اسمي على رأس القائمة.. لماذا...؟ تمنيت أن ألقاه حياً لأسأله هذا السؤال، قبل ان أذبحه بيدي هاتين.. لكن ويا للاسف تأخرت كثيراً".

بقي سامح باشا يحملق فيه وقد احتقن وجهه، رفع سبابته وحركها نافياً كل ما يسمعه، فتح فمه ليقول شيء لكن تحشرج صوته وبدء يسعل بشدة:

"لا.. ياولدي لا، الباشا الكبير لم يقتل الشيخ السندي ولا أياً من دراويشه، هذا ليس بأسلوبه، لا ألومك في قولك هذا، فقد بذل رجالات الباب العالي

الكثير ليقنعوا الناس بتلك القصة".

"هل تريد أن تقنعني أن مدحت باشا بريء من تلك المجزرة؟".

"نعم بريء، براءة الذئب من دم ابن يعقوب، ذلك كان أمراً دُبر في ليل، استغلوا خلافه مع الشيخ السندي، لأجل أن يوقعوا به".

"ومن يكون هؤلاء؟".

"ومن يكون غيرهم، الروس طبعاً".

"الروس!".

"نعم الروس، كانوا يخططون للإيقاع به منذ زمن طويل. دبروا المذبحة، وألصقوها به، ساعدهم في

ذلك بعض من رجال القصر، بالتالي انفضّ من حوله أنصاره وأعوانه، فسهل من بعد ذلك إسقاطه. وقد نجحت خطتهم أيما نجاح..".

ظل يبحلق في وجهه، مصدوماً ذاهلاً، شعور قوي في داخله يصادق على كل كلمة سمعها تواً من الرجل، تلك الحقيقة تبرر الكثير من الغموض في كل ما جرى منذ حدوث المذبحة، خاصة وأنه عمل مع الروس وعرف أسلوبهم، بل كان أداة من أدواتهم في تنفيذ خططهم تلك. أحس بالخيبة والعار ردد مع نفسه: "كم كنت غبياً كل تلك المدة...".

واصل سامح باشا:

".. لو كان قد تسنى لك وعرفت مدحت باشا

عن قرب لغيرت رأيك فيه بكل تأكيد، كان رجلاً عادلاً شجاعاً، يحب الناس ويسعى لما هو خير لهم. هل نسيت ما أنجزه في بغداد في ظرف ثلاث سنين، فترة ولايته، وايضاً للسلطنة عموماً بعدما صار صدراً أعظم، مثل أولئك الرجال لا يغتالون الناس غيلة، كل ذنبه أنه حرق المراحل في الإصلاح دون روية، وكان الثمن سمعته وحياته".

شايع ما زال ذاهلاً، نطق بصوت خافت، كأنه يكلم نفسه:

"الباشا لم يذبحهم... بل هم الذين ذبحوهم، وأنا عملت لصالحهم كل تلك السنين، كنت أداة في يدهم..".

"لا تثقل على نفسك يا ولدي، الذي حصل حصل، فكلنا في الآخر أدوات على نحو ما، رضينا أم أبينا".

نهض شايع بتثاقل، ربت على كتف سامح باشا:

"أغادر الآن، وعذراً على ما بدر مني قبل قليل".

"معذور ياولدي.. لكن قبل ان تغادر، أود أن أسألك جميلاً، إن لم يكن في ذلك حرج".

"إسأل يا باشا".

التفت الباشا الى الحائط فوق مكان وسادته،

أزاح صخرة في الجدار، فاذا بثقب غائر بعرض قبضة اليد، مد يده فيه وأخرج لفافة أوراق قديمة.

"تلك أمانة تعود لمدحت باشا، كان يأمل أن يجد طريقة ما لإرسالها إلى زوجته في إسطنبول قبل أن يموت".

"مهلاً، إن كان فيها أسرار.. أو تعليمات، فلا أريد أن أكون طرفاً في ذلك".

ابتسم سامح باشا: "لا، ليس ثمة أسرار، كان الباشا يكتب لزوجته بين الحين والحين، ويحتفظ بما يكتبه في هذه الكوة، عسى ان تجد طريقها إليها يوماً، أغلبها قصائد في حبه لها، وأمور من القلب، لم يتسن له قولها طوال فترة اقترانه بها، لكثرة مشاغله".

كان مدحت باشا قد تزوج من فتاة بغدادية اسمها شهربان حينما كان والياً على بغداد. وكانت هذه، قبل ان يتزوجها، جارية في بيت آل النقيب، العائلة البغداديه المعروفة، والتي خرج منها، فيما بعد، السيد عبد الرحمن النقيب، أول رئيس وزراء عراقي للفترة 1920 - 1922.

فكر شايع قليلاً ثم مد يده ليتناول اللفافة منه:

"لا بأس، سأجد من سيوصلها إليها في إسطنبول".

"جزاك الله ألف خير".

"وانت، أما من شىء أنجزه لك في الخارج؟".

"لا، لقد لاقى أهلي من المتاعب بعد سجني ما يكفيهم، أنا الآن ميت بالنسبة لهم، ولا أريدهم ان يعرفوا أنني ما زلت على قيد الحياة".

صافحه شايع مودعاً، وقبل أن يسحب كفه منه، سأله:

"شايع، ولدي، هل لي أن أسألك سؤالاً شخصيًا؟".

"تفضل".

"أراك مظلماً متكدراً كما لو إنك تحمل على عاتقك كل هموم الأرض".

"ما الذي جعلك تقول هذا فيّ؟".

"أظن أنك نذرت شطراً كبيراً من حياتك للنيل من مدحت باشا، وربما من هم، حسب ظنك، على شاكلته، إيمانا منك أن بإمكانك إصلاح العالم. أليس كذلك؟".

تنهد ولم يجب، واصل الباشا:

"هل تظن أنك عشت حياتك كما ينبغي؟".

أطرق لثانية، لعله حاول أن يقف على علة السؤال:

"لا أدري... أو ربما لم أفهم المغزى تماماً من وراء سؤالك".

"شايع، هل أحببت في حياتك مرة؟".

"... نعم".

"استطيع القول، إن ذاك الحب لم تكتب له النجاة... كسر قلبك".

"وكيف عرفت؟".

"في عينيك مرارة قديمة".

لم يجب.

"أما زالت موجودة؟".

متحسراً: "... أظن ذلك".

"حسنا، نصيحة من مسجون عجوز، أيامه معدودات، عرف قيمة أن يحيا المرء، بعد أن دفن حيا

في قبو... إذهب من ساعتك هذه، الى حيث تعيش فتاتك، ارفس بابها دون أن تستأذن أحداً.. وخذها، هكذا، دون أي اعتبار لما تظنه رادعاً أو مانعاً".

(40)

تزوج شايع بعيشة مباشرة بعد رجوعه من الطائف. ضارباً ذلك جميع الاعتراضات عرض الحائط. تلك الزيجة أغضبت أباه فأنكره وطرده غير مبارك زواجه. ما دفع بشايع إلى أخذ زوجته الجديدة ليسكنا معا داخل الجفرانة، الأرض المحرمة. بنى هناك بيتاً صغيراً يطل على نبع وجران، كاسراً كل محرم

ومتحدياً أعرافاً عمرها مئات السنين. وبذلك قطع أية بادرة للتراضي مع أهله وعشيرته. أمهلوه حينها ثلاثة شهور ليرعوي ويترك الجفرانة فأبى، فقاطعه الجميع بدءاً بأهله وعشيرته ثم تبعهم باقي العشائر، قطيعة تامة يسمونها في عرفهم "گطعة مثالث": لا ينصرونه أو ينتصرون به، لا يزوجونه أو يتزوجون منه، ولا يبيعونه او يبتاعوا منه. على إثر تلك المقاطعة أقسم شايع مع نفسه أن يُنشئ عائلة كبيرة من صلبه تكون عوناً له على غربته وسط قومه. ففعلها وصار له من عيشة تسعة ذكور وبنتان، وحينما بلغ بكرهُ عليّان الرابعة عشرة قرر تزويجه، وطبعاً لم يجد قبيلة ترضى أن تمنحه امرأة بعد تلك القطيعة، وكان شايع قد حضّر لذلك منذ زمن طويل، فقد بدأ مبكراً بتمتين علاقاته مع قوافل الغجر الآتية من الحسكة، وحينما أتى وقت

تزويج بِكرهِ لم يجد طلبه رفضاً منهم، وهكذا تزوج جميع أولاده الذكور فيما بعد من غجر الحسكة بينما بقيت ابنتاه عانسين، لم يجدن من يتزوج منهن. خاصة بعد أن صار أبوهما شايع زعيماً لـ (العرابيد). ظل الناس لوقت طويل لا يشيرون الى تلك البقعة في أحاديثهم الا بواحة الغجر.

بعد مضي حوالي تسعة عشر عاماً من زواجهما ماتت عيشة إثر إصابتها بحمى شديدة لم تمهلها سوى بضعة أيام. حزن شايع على فراقها واعتزل الحياة في الواحة، منقطعاً الى نفسه في حجرة صغيرة على مدى عام كامل. تولى أولاده خلالها العمل في الواحة وإدارة شؤون العمل. بعد انقضاء العام بقليل خرج في فجر يوم من الأيام من معتكفه تحت جنح

الظلام، كان قد قارب الستين من عمره، انطلق دون هدى بالملابس التي كانت عليه، دون أن يخبر أحداً. ولم يعد من حينها. ظن أولاده أنه اختفى دون رجعة.

قبل أن تمضي بضعة شهور على يوم رحيله، بدأ الناس يتكلمون عن ظهور عصابة جديدة يتزعمها شايع بن حمود، قوامها صعاليك ومطاريد وعبيد مارقون وقطاع طرق، كانوا شديدي التنظيم، يعيشون في شعاب بيض الأراول المنيعة، ما بين وادي الجومة ووادي حصروم، في الجزء الجنوبـي لصحراء الجزيرة. عرفوا فيما بعد باسم "العرابيد". فرض شايع أسلوباً غامضاً في كسب ولاء رجاله وبشكل مطلق، شيئاً أشبه بكِراسة عبدة الشيطان، او سطوة ونفوذ شيخ الجبل حسن الصبّاح على جماعته "الحشاشين".

الفصل الثامن عشر
مارماليد

(41)

2017

حطت طائرتي في مطار هيثرو في مساء الثالث من آب، كان عليّ أن أصعد من هناك حافلة الى برايتون. يومان بقيا على بدء نشاطات الملتقى، لم يكن لدي حجز في فندق. كان من المفروض أن يتولى أمر

مبيتي هناك قريب لزميل لي في الجامعة، لكنه اعتذر في الساعات الأخيرة. فضلت النزول في أي موتيل مناسب، او غرفة مع عائلة عبر تطبيق رومستر. لم يكن ليعنيني إن كان المكان، الذي سأحل به، بعيداً بعض الشيء عن مكان الملتقى، ما دام أجره مقدوراً عليه. الملتقى يعقد في قاعة معهد انثروبولجيكا في ايستبورن. أسعار الفنادق في ايستبورن لا تتناسب قطعاً مع ميزانيتي، خاصة أن موسم السياحة في تلك الشهور كان على أوجه على طول الساحل الجنوبـي للبلاد.

قبل تركي لصالة المغادرين في المطار، لمحت رجلاً واقفاً بين المستقبلين بقبعة وبدلة سائق يرفع لوحاً كرتونياً خُط عليه اسمي بالكامل، وكان يلوّح لي بذراعه. اقتربت منه، كنت مقتنعاً تماماً أن ثمة

التباس في الأسماء، بيد انه بادر لمصافحتي وقدم لي نفسه:

"مرحبا سيد ابراهيمي، اسمي مهتار، انا سائق الليموزين الذي سيقلك إلى فندقك".

وهمّ على الفور بسحب حقائبـي. قلت له:

"مهلاً صديقي، من المؤكد أن هناك لبساً".

رد بثقة: "لا أظن ذلك، سير".

ثم أراني صورتي في هاتفه النقال وعليها اسمي ورقم رحلتي. لم اقتنع رغم ذلك، سألته مشككاً:

"وما اسم الفندق الذي من المفروض أن تأخذني إليه، سير؟".

"هلتون متروبول، سير".

يبدو من اسمه انه فندق ستة أو سبعة نجوم، وبكل تأكيد لم يكن لي طاقة على تحمل أجوره، خاصة وأن الملتقى سيدوم لثمانية أيام. خلت للحظة أن في الأمر حيلة او شيئاً من هذا القبيل. وحينما لاحظ السائق ترددي، ابتسم وأخرج بطاقة من جيبه، ناولها إياي وقال:

"أُبلغت أن أعطيك رقم الهاتف هذا لتتصل به إن كان لديك استفسار".

تناولت البطاقة منه، فإذا بها الرقم المباشر للسيدة ليندسي وودفيل، مديرة التنسيق والعلاقات في الملتقى. اطمأننت بعض الشيء. اتصلت بالرقم فوراً،

فردت في الحال. عرّفت بنفسي. رحبت بـي بحرارة، وأضافت:

"مستر ابراهيمي، عذراً، عرفت في وقت متأخر أن ليس لديك حجزٌ في فندق، فتصرفت وحجزت لك في الهلتون، جميع التكاليف بالطبع مدفوعة سلفاً، وإن احتجت لأي شيء إتصل بـي على الفور على هذا الرقم في أي وقت تشاء. أرجو أن تعجبك الإقامة، سأتصل بك غداً على رقم غرفتك لأراجع معك جدول أعمال الملتقى".

طرت فرحاً طبعاً بتلك المبادرة، كل ذلك الاهتمام بشخصي لاشك داعب أكثر من منطقة في صميم نرجسيتي. كنت على وشك أن أسألها، إن كانت تلك المعاملة لي وحدي، أم أنها منافع تطال جميع

المشاركين؟ لكن بالطبع أمسكت لساني في آخر لحظة، وحاولت ان اتصرف كجنتلمان. شكرتها وتمنيت لها مساءً طيباً، و... أراك قريباً.

كنت قد بعثت بنسخة ورقية من بحثي بالبريد السريع إلى عنوان معهد انثروبوليجيكا في برايتون، وكذلك صورتي ومختصر لسيرتي الشخصية، ورقم وتاريخ رحلة وصولي إلى المدينة. وايضاً حمّلت نسخاً من كل ذلك على موقع الملتقى على الانترنت. وقد أُبلغت عبر بريدي الالكتروني قبل وصولي بإثني عشر يوماً انه قد تم ترشيح بحثي ضمن ثمانية بحوث تم اختيارها من بين مائة وثلاثة وستين بحثاً تقدمت للمشاركة، وتمت جدولة تلك البحوث الثمانية لتتم مناقشتها أمام الحضور على مدى ثمانية أيام. المفاجأة

الأكبر، أن بحثي كان الأول في الجدول. هل فرحت حينها؟ نعم. هل تهت بنفسي عجباً؟ ليس تماماً. كنت مستوعباً لحقيقة أن توجيه دعوة خاصة لجامعة عراقية وتقديم ممثلها في يوم الافتتاح، وراؤه شعور غربـي بعقدة الذنب تجاه دول بعينها. لم يضِرني إن كان ذلك حقيقياً، ليكن ما يكون السبب الذي يحركهم للاحتفاء بـي وببحثي.

بعد يومين من وصولي وصلت سيارة ليموزين لتأخذني الى مكان الملتقى وكان في بناية المعهد الواقعة في ايستبورن. دخلت هناك، وجدت مسز وودفيل في استقبالي، حيتني بحرارة. لاحظت ان عدد الحضور ممتاز، أخذتني وعرفتني على مدير الملتقى برفيسور وايلي، وباقي أعضاء اللجنة المنظمة، كنت قد

تراسلت مع بعضهم في الأيام الأخيرة عبر البريد الإلكتروني، الجميع بادلني التحية بحرارة، التقطت معهم صورة جماعية، صادفت هناك ايضاً زملاء من زمن الدراسة بعضهم صاروا أساتذة في جامعات مرموقة.

بعدها صعدت الى المنصة، ألقيت نظرة على الحضور كانت القاعة مكتظة، وفي الصفوف الخلفية هناك من ظل واقفاً لعدم كفاية الكراسي. قدمني مدير الملتقى مستر ادوارد وايلي بكلمات لطيفة واعجبني وصفه موضوع بحثي، في معرض تقديمه لي، بالأصيل والمليء بالمفاجآت.

تكلمت مدة ساعة دون أن يقاطعني أحد وكان الإصغاء ممتازاً، بعد ان انتهيت اشتعلت القاعة

بالتصفيق، شعرت بنفسي حينها كما لو كنت نجماً. ثم فُتح باب الأسئلة والحوار، تفاجأت أن الأسئلة كانت دقيقة وأن المحاورين قد طالعوا البحث باهتمام وكان أغلبهم يشيد بالجهد والطرق غير التقليدية التي اتبعتها في البحث. ولحسن الحظ لم يشر أحد من المناقشين الى الثغرة التي ذكرتها آنفاً.

على العموم كانت الجلسة ناجحة جداً. واستمرت المناقشات الجانبية معي بشأن موضوع البحث من قبل أسماء لها وزنها. وبالتدريج زادت ثقتي بجودة عملي، وتأكدت أن سر الإهتمام الفائق لم يكن وخزة الشعور بالذنب فقط. رتبت لي مسز وودفيل في الأيام اللاحقة سلسلة مقابلات مع القناة الرابعة والغارديان ومجلة مودرن أيجز. ودعيت لأكثر من

حفلة عشاء وملتقيات ثقافية مسائية يطلق عليها "أمسيات احتساء الشاي"، عُرضت علي فيها دعوات لإلقاء محاضرات في معاهد وكليات لم أكن لأحلم حتى بالتفكير فيها. كنت سعيداً الى أبعد حد بكل ما يجري وكأني أعيش أيام مهرجان مليء بالألوان والمفاجآت، تمنيت حينها ان لا ينتهي. بالتأكيد كان ذلك يفوق توقعاتي بكثير، قارنت كل ما كان يجري، وكلي حسرة، بالأجواء الثقافية الفقيرة في بغداد.

في آخر يوم من أيام الملتقى اقترب مني مستر يوجين راثبون عميد معهد انثروبوليجكا، المعهد المضيف. وسألني ان كنت مهتماً بالعمل في المعهد، فأجبته في الحال أن هذا يشرفني، قال لي حسناً، سأبعث لك على ايميلك بعرض عمل في معهدنا فيه جميع

التفاصيل، وأتمنى ان تنضم لفريق تدريسنا قريباً. لايسعني ان أشرح مدى سعادتي. بقيت أمامه عاجزاً عن النطق.

مرت عليّ تلك الأيام الثمانية وكأنها حلم جميل متواصل.

في غمرة كل تلك الفتوحات التي تتابعت عليّ خلال أيام الملتقى، جاءت المفاجأة الأكبر، وهنا تستحضرني المقولة التليدة: إن أقبلتْ باض الحمام على الوتد.. حدث لي شيء كان، حقيقةً، خارج نطاق جميع توقعاتي.. فبعد رجوعي الى فندقي من آخر حفلة عشاء حضرها جميع المشاركين، استوقفني موظف الاستعلامات وناولني رسالة قال إنها مسجلة يجب أن تسلم باليد. أخذتها منه، استغربت بعض الشيء، من

غير الممكن أن تكون لها علاقة بالملتقى، فجميع المخاطبات في نظامهم يتم عبر البريد الالكتروني. كان ظرفاً ليس عليه أية كتابة او عنوان، غير إسمي وعنوان الفندق. لم انتظر طويلاً، فتحته وأنا لم أزل في باحة الاستعلامات، وجدت في داخله كرتا أبيض كتب عليه بخط اليد:

مستر ابراهيمي، اود مقابلتك في كافيه مارماليد غداً الساعة الثالثة بعد الظهر.

جي. غريسر.

صُعقت حينما قرأت الأسم، أعدت قراءته

أكثر من مرة للتأكد.. هل هذا معقول! هل هو جامو غريسر بشحمه ولحمه يريد مقابلتي أنا!؟ أم لعله شخص آخر يحمل الاسم ذاته. رجعت الى موظف الاستعلامات اسأله عن الذي سلمه تلك الرسالة، قال لي لقد جاء بها ساعي البريد وقد وقعت انا على استلامها.

ذهبت الى غرفتي وألف فكرة تزدحم في بالي، مشاعر مختلطة، لغط، رهبة، نسيت أن أغير ملابسي، لم اتصل بأي أحد أخبره بأمر تلك الدعوة خوفاً من أن تكون نكتة من صديق او شيء أشبه بذلك. لم أتمكن من النوم في تلك الليلة، بقيت أتصفح في اللاب توب الشخصي حتى ساعات الصباح الأولى دون تمكني التركيز على شيء محدد فيه.

في اليوم التالي صحوت في الثانية بعد

الظهر، يا إلهي، باق على الموعد ساعة، أخذت حماماً سريعاً، ارتديت على عجل أفضل ما عندي، ثم اتصلت بعربة أوبر لتقلني الى كافيه مارماليد عند تقاطع ادوارد ستريت ووليام ستريت، حوالي عشرون دقيقة سياقة عن فندقي. كنت سأصل الى الكافيه قبل الموعد بدقائق، لكن زحمة الطريق أخرتي بعض الشيء، ما فاقم حالة توتري أكثر مما كانت عليه أصلاً.

دخلت المقهى مسرعاً، أدرت نظري بين الموائد، فلمحته في الحال. رجل ثمانيني، أبيض الشعر، يعتمر بيرية زرقاء. كثيف اللحية بتيشيرت أسود وشورت بني وحذاء رياضي أبيض. إنه هو بالتأكيد، إذن لم يكن في الأمر مزاح.. ضجت في داخلي مئات الأسئلة وأنا اتجه ناحيته. لماذا أنا؟ لماذا طلب مقابلتي؟

كيف استدل على مكاني؟ ما الذي يريده مني؟ كان يجلس مسترخياً أمام طاولة مستديرة في أقصى زاوية من المقهى وأمامه ظرف أصفر كبير.

حاولت أن أتماسك قدر الإمكان لأبدو طبيعياً أمامه، تقدمت اليه، حييته وعرّفت بنفسي. رفع رأسه يتطلع فيّ للحظة، ثم رد دون اكتراث:

"اجلس".

جلست. هو وكما يبدو شحيح الكلام. كان علي أن أتولى كسر جليد الصمت بحديث عام:

"لا أعرف كيف أشكرك مستر غريسر على تفضلك بطلب مقابلتي، يا الهي، لا أصدق نفسي أنني جالس بحضرتك، أنا من أشد المعجبين بك منذ أن كنت

طالباً جامعياً...".

ظل مصغياً، ثم نطق كلمتين: "أيرل غْري".

"عذراً؟".

"شاي، أطلب لنفسك أيرل غري، سيساعدك على الاسترخاء".

ناديت على النادل وطلبت ذلك النوع من الشاي الذي لم أسمع به من قبل.

كان وجهه بريئاً مسترخياً، ظل ابتسامة لا تشي بشيء، بشرته مترفة بالنسبة لعمره، لم تتغضن بعد، عينان حالمتان تنظران إليك ولا تنظران في الوقت ذاته، ليس فيهما سطوة أو تطفل، تعكسان

انسجاماً داخلياً تاماً. رأيت مثل تلك النظرة من قبل في صور كبار الغورو الهنود. كنت أموت لأعرف سبب دعوته لي بالذات ومن أين يعرفني، بيد أنني لم أجرؤ على سؤاله.

"مستر غريسر، أتمنى أن يكون لقائي هذا معك بداية لظهورك من جديد في العلن وفي المحافل العلمية".

"... اسمع، دعوتي لك لشرب شاي في مقهى لا يعني أننا أصدقاء".

أحرجني رده، كنت أسمع أن كثيراً من المتفوقين لا يعيرون اهتماماً لأصول التواصل الاجتماعي..

قلت معتذراً: "آسف، لم أقصد ذلك".

بقي للحظات يتمعن في وجهي يراقب حرجي وتعرق جبهتي، ثم أطلق ضحكة مجلجلة وقال:

"كنت أمزح، بل نحن أصدقاء بكل تأكيد".

لم يسهّل ذلك الاستطراد عليّ شيئاً، شعرت انني بحضرة رجل غريب الأطوار. لكن، ذكّرت نفسي: انه غريسر، وهل كنت لأتوقع من شخص مثله شيئاً غير ذلك؟. قررت أن أجاريه مهما حصل، لن أخرّب على نفسي خصوصية ذلك اللقاء. كنت متأكداً لحظتها أنني سأظل أروي واكتب عن تفاصيله، واستعيد كل ما جرى فيه لحظة بلحظة ما بقيت حياً.

"لقد قرأت بحثك...".

بدأ قلبـي يدق بسرعة، أرهفت جميع حواسي لما سيقول.

"... فيه ثغرات عديدة.. لكن مع ذلك أعجبني".

"شكراً ياسيدي، تلك شهادة كبيرة أعتز بها، لقد أفادني كتابك عن الحيثيين كثيراً، سأكون سعيداً إن تفضلت وأشّرت لي تلك الثغرات".

"على رسلك.. لم آت إلى هنا لأناقشك بالبحث".

بقيت صامتاً، متوقعاً منه أن يعقب جملته الأخيرة بتوضيح يفسر سبب طلب اللقاء بـي في هذا المقهى.

"اسمع، سأريك شيئاً".

رفع بيريته التي كانت تغطي جزءاً كبيراً من جبهته، وإذا.. مستحيل! وسم الغزأة في منتصف جبهته، لم تكن وشماً، بل كأنها آثار حروق قديمة على الجلد.. اتسعت عيناي من وقع المفاجأة واحتشدت في بالي عشرات علامات التعجب والاستفهام.. علقّ هو:

"رسمتها بالكيّ، كما كان الحيثيون يسِمونها على جباههم تقرباً للإله آنكي".

"عفواً، أنا غير مستوعب لما أراه الآن أمامي، ولا أعرف ما أقول..".

"... عندما نريد ان نعرف معنى مصطلح ما.. (سقوط حرّ)، نلجأ عادة الى القواميس، المصادر،

أو نسأل مختصين، ثم نأتي بكلمات كبيرة نصفّها الى بعض.. فإذا به: تعريف رنان يبهر السامع. وهكذا نكون راضين على أنفسنا. لكن ماذا لو جربنا بأنفسنا ان نسقط سقوطاً حراً؟"

صمت لحظة، كمن استغرقته ذكرى أثيرة على نفسه، ثم أكمل:

".. كان ذلك في نهاية عام 1978، بعد انتهائي من ذلك الكتاب الذي ضمنته فصلاً عن الحيثيين، صرت مهووساً من حينها بأساطيرهم، وبالإله آنكي، وبسرّ تلك العلامة على الجبهة، وجدت أن فلسفتهم مثيرة للاهتمام، مختلفة تماماً عن باقي الحضارات، فهي كانت بالنسبة لهم سلوك، أسلوب حياة بديل عما هو مسلم به".

كان يختار جمله بعناية وتأنّ، مع توقفات قصيرة في بعض الأحيان، قررت ان أقاوم أية مداخلة مني لعلها تشتت تركيزه، أصغي فقط:

"كان أسلوب تفكيرهم سابق لأوانه من دون شك، وبالذات فيما يخص التعامل مع فكرة الوعي بالذات والوجود... انت حاولت في عملك أن تقرأهم قراءة صحيحة.. وقد اقتربت كثيراً من ذلك، الا انك لم تمسك بالمقصود تماماً..".

"نعم سيدي، حدست في دخيلتي أن هناك شيئاً ناقصاً".

واصل كلامه كما لو أنه لم يسمع تعليقي:

"لقد توصلوا.. وهنا أقصد خاصتهم، الى

تجربة فريدة من نوعها، كان لهم سبق الريادة فيها على الأرجح، هي أن يعيشوا حالة الموت، عملياً، ليصلوا الى حقيقة الوجود.. فكرة عميقة ومعقدة الى للغاية، وهي ليست بالفلسفة العدمية كما يمكن أن توحيه الجملة للوهلة الأولى، بل هي تجربة جريئة وغنية الى أبعد حد..".

"أظن أنك تتكلم هنا عن تحول آنكي من رجل مستنير الى إله؟".

"نعم، بالضبط".

"لكن، وحسب علمي، تمت الإشارة الى ذلك التحول مرة واحدة في أسطورة (آنكي وننخرساج) وبشكل عرضي، وأنت الآن تتكلم عن التحول وتصفه

بالتجربة الجريئة. كيف لنا ان نحكم عليها، ولم يصلنا من تفاصيلها شيء!؟".

"سؤال جيد، أنا أعرف التفاصيل، وربما هذا هو سبب طلب لقائي بك هنا".

"واو، هذا عظيم، كلي آذان صاغية".

"ما سأقوله الآن مقتبس من أسطورة (آنكي وتشاغيا) والتي هي من ضمن الآثار المكتشفة عام 19 في شمال تركيا، مع أن اللوح الذي كتبت عليه ضاع في ظروف غامضة ولم يستدل عليه حتى يومنا هذا".

"إذن كيف وصلك النص الذي كتب عليه؟".

"أرسل لي صديقي البروفيسور روس

مكنزي، والذي كان ضمن بعثة التنقيب آنذاك، صوراً من اللوح، لأعينه على ترجمتها".

"حسناً، أخبرني بما جاء فيها أرجوك، أكاد أفقد صبري".

"الاسطورة طويلة جداً وكتبت بأسلوب مسهب وملّغز أقرب للشعر، سأحاول الآن أن أختصر وأبسّط قدر الإمكان...".

تنفس بعمق، ثم واصل:

"... قبل ان يصير إلها، كان آنكي في البداية رجلاً عادياً اسمه شَبَد، راعي غنم، أبوه كاهن في معبد الإله أنليل في كوثا، واسمه تارخ. كان شبد ومنذ صباه شخصاً متمرداً على النظام، غير منتمٍ، باله مشغول

بأسئلة كبيرة. وكان يحب فتاة جميلة جداً اسمها نانو. بعد أن شب تزوج حبيبته نانو، بيد أنها أصيبت في ليلة الزفاف، بحمى شديدة أدخلتها في غيبوبة لم تفق منها بعد ذلك. إلتجأ شبد إلى كبير الآلهة "تشماش" يتضرع إليه ويقدم الأضاحي، لكن دونما فائدة، ماتت حبيبته بعد مرور أربعة أيام. حزن كثيراً وبكى حتى ذهب صوته، الا أنه لم يدفنها، بقي جالساً عند سريرها لأيام يناجيها، رافضاً حقيقة موتها. لم يسبق له أن رأى في حياته شخصاً يموت أمامه، ظل يتمعن في حبيبته نانو ممددة على فراش عرسها بثوب زفافها، وجهها لم يزل بضّاً، شعرها ناعم، وجفناها مسدولان بسلام، متوقعاً أنها ستفيق في أية لحظة.

بعد انقضاء اليوم الثالث على وفاتها بدأ لونها

يتغير ورائحة جثتها تنتن، إلا أنه ظل ممعناً في نكرانه. في اليوم الخامس بدأ جسدها يتحلل، شاهد شبد بشرة حبيبته تتفسخ أمام عينيه، فاستفاق عندها من أوهامه واقدم أخيراً على دفنها. بعدها زهد كل شيء ونبذ الحياة وهام على وجهه، ظل يمشي لمدة شهر دون توقف حتى وصل صحراء تامينا، وهي الصحراء الكبرى شرقي الفرات، وجلس عند نخلة زينوبا، تنتصب لوحدها وسط ذلك المكان الموحش، قرب ينبوع صغير. قرر ان يعيش هناك بعيداً عن الناس. يجلس كل يوم تحت تلك النخلة، يتأمل في حقيقته الفانية، وعبثية وجوده، حتى أصابه القنوط وفكر بالانتحار، فمشى شرقاً حتى أدرك ضفة الفرات ورمي نفسه فيه، لم يكن يجيد السباحة، فأنقذه صيادون، بيد انه كان مصراً على تكرار المحاولة.

لكن قبل أن يعيد الكرة، تساءل مع نفسه لماذا لا تأبه الآلهة لموت أحد؟ لماذا جعلت كل الأشياء فانية واختصت لنفسها بالخلود؟. عندها لمعت في ذهنه فكرة غريبة، أن يجد طريقة يهزم بها آدميته الفانية بالاعتماد على نفسه، ليتحول بالتالي إلى إله.

اعتزل طويلاً يفكر بأنجع طريقة لنيل بغيته. ثلاث سنوات من التفكير والتأمل، حتى ابيضّ شعره، توصل بعدها الى طريقة توصله الى ما يريد، وجد السر، والذي يتلخص بالتحرر المطلق من كل ما يربطه بآدميته الفانية.

الطريقة التي وضعها عبارة عن سبع مراحل تحرر، تتتابع حسب الأهمية، لا يتم اجتيازها إلا برياضات شاقة. أولها: التحرر من التبعية للآلهة، ثم

التحرر من فكرة العائلة، ثم التحرر من الحيازة والتملك، ثم التحرر من الحاجة لوجود الآخر، من التعلق بالمكان والحنين إليه، التحرر من المشاعر والغرائز، وأخيراً التحرر من الأنا..

ومع إصراره وصبره وقوة تحمله، اجتاز جميع المراحل بنجاح، فإذا به يتحرر بشكل مطلق، يبلغ نقطة الوصول، الإدراك الأشمل، درجة الألوهية.

"ذلك تحرر من كل ما هو إنساني!".

"بالضبط".

"واصل أرجوك".

"وهنا يجب أن أنوه، من هنا جاء اسم

(آنكي). فـ (آن) معناها السماء، و(كي) معناها الأرض، ومعا: (الأرضي- السماوي) أي أن الإله كان مخلوقاً أرضياً ثم تحول إلى سماوي. وليس التفسير الموجود للإسم والذي يقول سمي كذلك لأن أباه هو (آن) إله السماء، وأمه (كي) إلهة الأرض".

"استنتاج مذهل، حسناً، وهل تنتهي الاسطورة عند ذلك الحد؟".

"لا لم تنته بعد، تتمتها مهمة جداً، فبعد ان يتحول الى إله، يذهب الى قبر حبيبته نانو ليعيدها الى الحياة، ثم يأخذها الى مكان النخلة، والذي سيكون مقاماً دائمياً لكليهما، ويبدأ هناك بتعليمها المراحل السبعة، لتكون بدورها بعدها إلهة ايضاً، ويكون اسمها (شا غيا) أي (العائدة من الموت). وتذكرها بعض الأساطير

كونها إلهة النماء...

.... عاش آنكي وشاغيا بعدها في تلك المنطقة، وبدءا يعلمان الناس كيف يتحولون إلى آلهة، وهذا بالذات ما أغضب جميع آلهة معبد هاتوشا، اشتكوه لكبيرهم الإله تشماش. فلعنه هذا بشدة، كما لم يُلعن أحد من قبل، ثم طلب من كل إله في هاتوشا أن يبتكر بدوره عقاباً جديداً يرميه على العبد المارق الذي تجرأ وصار إلها. وتلك قصة أخرى تفاصيلها ستقرأها انت بنفسك، وستجد فيها الكثير من المفاتيح لمسائل وردت في بحثك وبقيت دون إجابة".

ثم دفع لي الظرف الكبير الأصفر الذي كان ملقى على المنضدة طيلة الوقت. وقال:

"هذه صور للّوح الذي كتبت عليه الأسطورة، وترجمة كاملة لما جاء فيه".

اعتدل بجلسته وقاطع ذراعيه حول صدره، منتظراً استقبال أسئلتي الألف.

"ممكن أن أسأل، كيف؟.. من أين؟.. أقصد.. لماذا انتظرت كل تلك العقود محتفظاً بهذه الوثائق، والآن قررت ان تطلقها؟... ولماذا أنا؟".

".. الشق الثاني من سؤالك، لماذا انت، جوابه هو لأنك الشخص الافضل الذي سيقدر أهمية هذه الوثائق. أما لماذا احتفظت أنا بالوثائق كل تلك السنين... الذي حصل، انني بعد ان ترجمت ما في الاسطورة، شعرت انها ليست مجرد قصة حب بين

إلهين، وخاصة مراحل التحرر السبعة، اجتمعت بصديقي روس وتناقشنا كثيراً في النص بعد ترجمته، وقد استغرقنا فيه واعجبنا به كثيراً، بل وبدأنا نتأثر به. انه بصيغة ما يقدم حلولاً عملية غاية في الدقة لأسئلة وجودية كبيرة، من الممكن تطبيقها رغم صعوبتها... في الآخر اتفقنا ان نطبقها على أنفسنا بحذافيرها... والنتيجة جاءت مذهلة..".

علّقت مازحاً:

"وهل أصبحتم آلهة؟!".

رد بإبتسامة عريضة.. تمهل قليلاً قبل أن يجيب، ثم بثقة:

"بل، هايي باشين".

"ملوك باطن؟!".

نهض هاماً بالمغادرة:

"بالمناسبة، لقد توصلت انت في بحثك الى ترجمة ذكية لهذا المصطلح: (هايي باشين)، لكن فاتك شيء صغير، انها صيغة جمع... ومفردها: (هايي باش) أو (هيباش)"

ثم غادر وتركني غارقاً في ذهولي.

(42)

مثلما نوه غريسر، كُتبت الاسطورة بلغة شعرية متكلفة. فيها الكثير من الاسماء والأماكن والتكرار والاستطرادات الجانبية، مع إن تلك الأمور يمكن أن تُعد مصدر غنى للمختص. آخذين بنظر الاعتبار أن المادة كُتبت قبل نحو خمسة آلاف عام.

في قراءتي الأولى وجدت النص متمنعاً نوعاً ما، كما أغلب النصوص المقدسة القديمة، ما يُصعّب على القارئ العادي ملاحقة شخوصها وما يدور فيها.

وعليه سأحاول هنا أن أبين ما جاء في تتمة اسطورة (آنكي وتشاغيا) بطريقة مبسطة قدر الامكان مع شروحات جانبية وبعض الاقتباسات إن اقتضى الأمر.

قبل أن أبدأ، أود أن أنوه الى بعض الحقائق بشأن الاسطورة، أجدها غاية في الأهمية، أولها أن الأسطورة تُصنف حيثية، مع ان جميع الأساطير التي تناولت الإله آنكي هي سومرية. وأن الآلهة التي ترد فيها هي خليط من الآلهة السومرية والحورية والحيثية.

الحقيقة الثانية هي أن تاريخ كتابتها كان ما بين 280 ق. م الى 2600 ق. م، أي تقريباً في الفترة نفسها التي كتبت فيها ملحمة كلكامش السومرية، والتّناص هنا واضح ما بين الاثنين في أكثر من فكرة، خاصة فيما يخص ثنائية الفناء والخلود، مع اختلاف التناول في كل منهما.

هناك فكرة مهمة أخرى في أسطورة (آنكي وتشاغيا)، يمكن اعتبارها رائدة في مجالها، وهي فكرة معاقبة الآلهة للانسان الذي يخالفها أو يحاول التحرر منها، بإنزاله من مكانة أسمى الى مكانة أدنى، هذه الفكرة تكررت فيما بعد في النصوص الشرقية القديمة أكثر من مرة، كما حدث لآدم وحواء في قصة الخلق عند الاديان الابراهيمية.

تتمة اسطورة آنكي وتشاغيا، عبارة عن

ثمانية وثلاثين سطراً، يتم التركيز في أغلبها على كيفية معاقبة الآلهة لآنكي وزوجته نانو بعد ان تجاوزا طبيعتهما الآدمية وتحولا الى آلهة، ثم صارا يعلّمان الناس ليكونوا بدورهم آلهة. فكرة أراها، في أحد وجوهها، سياسية بامتياز: الصراع الأزلي بين السلطة والمعارضة.

العقوبة مركبة جداً وتُنفذ على مراحل وفيها الكثير من المخيلة بغض النظر عن فظاعتها. قرأتها لأكثر من مرة وتأنيت كثيراً في فك رموزها ومراحلها وطريقة تتابعها. الجزء الأهم هو الذي يتناوب فيه آلهة هاتوشا على إنزال عقوبات غريبة نوعاً ما بآنكي وهو ماثل وسطهم، بعد أن لعنه كبيرهم "تشماش" وطلب من كل واحد منهم أن يساهم بشطر في تلك اللعنة:

في كسليمو، شهر الرعود،

هاجت الريح، جف النهر، واكفهرت السماء

اقسمت آلهة معبد هاتوشا الغاضبة أن لا تجلس على عروشها حتى يعود أهل تامينا الى رشدهم.

وضعوا الضال آنكي وسطهم وتحلقوا حوله.

ضرب "تارهنا"، إله الأعالي، هامة آنكي بدرّته ففلق "قزأته" الى نصفين: هايين باش وشايا.

نفخ "كمارب" إله السماء الثالثة على "هايين باش" فأعاده الى رحم الأرض،

يولد ويعيش ويموت الى آخر الدهر

تارة في المشرق واخرى في المغرب،

هائماً على وجهه، لا يقر في مكان،

يغوي الناس باتّباعه، ويخذل كل من يؤمن به.

نفخ "ألّل" إله المهوى على "شايا" فبثه في أرحام أ صلاب الرجال العقيمين

يولد ويعيش ويموت الى آخر الدهر،

تارة في المشرق وأخرى في المغرب

يُنبذ في اهله أينما حل،

يخوض في الدماء، لا يرتوي منها

لا يقر في مكان.

ثم تستمر الأبيات بالوعيد والتهديد بالعذاب لكل من يريد التمثل بالآلهة. بعدها تتكرر صيغة العقوبات على نانو امرأة آنكي، لكن مع اختلافات ملفتة للنظر، إذ وكما يبدو اتبعت الآلهة هنا نظاماً آخر لعقوبة الأنثى/ الزوجة يختلف الى حد كبير مع ما أتخذ مع الرجل/ البعل. فبعد أن رأينا ان الآلهة يتفننون في عزل وتشتيت نصفي آنكي بين الأمكنة والأزمنة، نرى الأمر مع نانو مغايراً، فهم يُبقون نصفيها معا يعيشان على شكل توأم، ولا يتم تشتيتهما عبر بلدان بعيدة، بل

يُحصر ظهورهما في وادي الفرات فقط:

في كسليمو، شهر الرعود،

هاجت الريح، جف النهر، واكفهرت السماء

أقسمت آلهة هاتوشا الغاضبة أن لا تجلس على عروشها حتى يعود أهل تامينا الى رشدهم.

ضرب" نبساس" اله الشمس هامة "نانو" إمرأة انكي، ففلق قزأتها إلى نصفين

توأمين: "تشاغيا" و"جراكا"

تولدان وتعيشان وتموتان عبر الزمان، في وادي

الفرات.

ملعونتان إلى آخر الدهر.

منحوستان، ينبذهما الناس كما ينبذ المزارعون الجراد.

وتنتهي الأسطورة بالعبارات التالية:

"مامي"، أيتها الحكيمة

أنتِ الرحم الأم

يا صانعة البشر

ما خلقتِ الإنسان إلا ليحمل العبء

ويأخذ عن الآلهة عناء العمل.

الفصل الأخير
مصائر الشخصيات:

ناز خاتون:

دخلت الخاتون في غيبوبة طويلة مع بداية عام 1922، آخر غيبوباتها قبل أن تفارق. كانت قد فقدت معظم وزنها في شهورها الأخيرة بسبب المرض، حتى برزت رؤوس عظامها وتهدل جلدها واظلمّت بشرتها..

أقام لها زوجها عودة الجريان جنازة مهيبة حضرها الآلاف، كان فيهم أعيان وضباط ووزراء وشيوخ عشائر. ودفنت في مدافن الإمام النوري شمالي

راوة. كذلك شيّد، إكراما لذكراها، مسجداً كبيراً في حصيبة حمل اسمها، هو نفسه مسجد المصطفى الذي ما زال قائماً حتى الآن وسط المدينة القديمة. وأيضاً أوقف لروحها بساتين عنب وبرتقال يذهب ريعها صدقة جارية لإطعام وإكساء نحو مائة عائلة فقيرة.

بقي الناس يتذكرونها على أنها المرأة التي هابها الأقوياء، وأحبها المستضعفون. كانت آخر جملة قالتها لنهوة قبل أن تفقد قابليتها على النطق، أنها رأت نفسها في المنام وقد عاد اليها بصرها، وانها رأت فيما رأت، فراشة حمراء حطت على راحة كفها. كان أقصى ما تتمناه الخاتون طوال حياتها أن تعرف كيف يكون الأحمر. لم ترها نهوة بتلك السعادة من قبل وهي تروي لها حلمها.

نعمين:

استمرت نعمين مشرفة على القصر من بعد موت الخاتون. كتبت الخاتون في وصيتها أن يتم تسجيل الجناح الشرقي لسرايا فروان باسم نعمين، كما تركت لها خمسة وعشرين ليرة ذهبية. تغيرت نعمين كثيراً بعد أن ذهبت سيدتها، فقدت روحها الصاخبة المرحة، وصارت أميَل الى الصمت والتدخين وحيدة في حجرتها.

لم تمر تسعة شهور على وفاة الخاتون، حتى حدثت الكارثة الكبرى، تجمعت أكثر من شرذمة من المارقين تحت زعامة عصابة من أبشع عصابات الصعاليك شاع صيتها بين الناس حينذاك باسم (جماعة العوجان)، وهجموا في وضح النهار على قصر فروان

مستغلين انفضاض القبائل من حول زعيم رباح، الشيخ عودة الجريان، بعد أن اتُّهم بالخيانة لعدم استجابته للمشاركة في جيش فيصل بن الحسين، والذي كان حينها ملكاً على سوريا الكبرى، في معركة ميسلون ضد الجيش الفرنسي. كانت حالة الجريان أصلاً وقبل تلك المعركة في وضع لا يحسد عليه منذ انتهاء النفوذ العثماني على العراق وبلاد الشام ومناطق أخرى خلال عام 1918، اذ كان آل الجريان، العشيرة الأثيرة لدى الاستانة في العراق والشام على مدى ثلاثة قرون، ومع زوال الأتراك زالت هيبتهم وبدأ نجمهم بالأفول. ثم جاء تتويج فيصل ملكاً على العراق عام 1921 وكان ذلك بمثابة الضربة القاضية لآل الجريان، فقدوا بعدها ما تبقى لهم من نفوذ بين القبائل، وماتت تجارتهم في ظرف شهور، ما طمّع عشائر أخرى في تلك المناطق في أخذ مكانتهم في العهد الجديد.

صارت بيوتهم وأملاكهم في تلك الأيام عرضة لغزوات وتعديات المارقين وبشكل متكرر، دون أن يلاقوا نجدة من حلفائهم السابقين من القبائل. حتى جاء اليوم الذي استباح فيه (جماعة العوجان) قصر فروان، وقتلوا الكثير ممن كانوا فيه، من ضمنهم الشيخ عودة نفسه وجميع أولاده، كما سبوا واغتصبوا في تلك الواقعة الكثير من النساء والأطفال، ونهبوا كل ما يمكن نهبه من القصر، حتى البلاطات، ثم أشعلوا النيران في جميع أركانه. يقال إن النار ظلت مشتعلة فيه على مدى يومين متواصلين، كان دخان لهيبها يُرى على بعد أميال.

تمكنت نعمين في ذلك اليوم من الهرب من القصر مع من هرب عبر نفق خلفي سري، لا يعرف

بوجوده سوى بضعة من خاصة القصر. آخذة معها جميع مدخراتها، هاجرت بعدها مباشرة الى حلب، مسقط رأسها. لم تكن تعرف أحداً هناك. وفي يوم وصولها سُرقت منها صرة ثيابها وفيها جميع مدخراتها. بعدها عاشت باقي حياتها، في تلك المدينة الشاسعة، مشردة تتسول على أبواب الجوامع.

في صيف عام 1932 عُثر عليها ميتة في خرابة خلف جامع المهمندار. تم دفنها في مدافن الصدقة التابعة للبلدية، مقابل المدرسة الخسروية.

ولدت في حلب، وعاشت آخر عشر سنوات من حياتها في شوارعها، وماتت ودفنت في تربتها، ولم يكن لدى أهل المدينة أية فكرة عمن تكون تلك المرأة.

نهوة (أم الجرادتين):

لم تسمح الخاتون في أيام مرضها لأي أحد أن يكون قربها باستثناء نهوة، كانت هذه تطعمها وتحدثها وتنشد لها الشعر وتطببها وتحممها. كتبت الخاتون لنهوة في وصيتها معاشاً شهرياً يوفر لها من بعدها عيشة كريمة. وسمحت لها بالإقامة في الحجرة التي خصصت لها في القصر الى ما تشاء.

منذ آخر زيارة لها لإبنتيها في الجفرانة صارت نهوة شديدة التوجس، غير مرتاحة البال، تتلفت من حولها على الدوام. تغيرت سحنتها كثيراً في الشهور الأخيرة، حتى إن من يراها يخالها شخصاً آخر.

ثم شهدت الفاجعة، اليوم الذي حاصرت فيه (جماعة العوجان) القصر ثم استباحت كل ما كان بداخله. لم تبرح نهوة مكانها، فيما حاول آخرون وفشلوا. في تلك الساعات كان الفرار من القصر أمراً مستحيلاً. كانت تعرف في دخيلتها أن يومها قد حان. سبق وتجلت لها لعنة الجفرانة في منامها، حين زارت الواحة آخر مرة، بكامل بشاعتها، وعدتها أنها آتية لا محال، كاشفة لها فظاعة التفاصيل، وكل ما ستفعله بالقصر وأهله.

بقيت جالسة على فراشها بحالة إذعان تام، حتى انها لم تر داعياً لأن تقفل باب حجرتها دونها، تناهى إلى سمعها كل شيء، صرخات النساء، استغاثات الأطفال، أصوات النهب والحرق والتكسير.

اختنقت الحجرة بالدخان وانعدمت الرؤية. ظلت في مكانها ساكنة لا تتحرك وعيناها باتجاه الباب، الى أن ظهر قدرها الأسود سافراً أمام عينيها. رُفست الباب بقوة، اقتحم عليها الحجرة رجلان ملثمان، عاجلها احدهما في الحال بلطمة على وجهها اسقطتها أرضاً. اقتربا منها، تبادلا فيما بينهما كلمات وقهقهات، فميّزت نهوة الرجلين من نبرتي صوتيهما، رفعت كفها، حاولت أن توقفهما، أن تخبرهما بشيء، عاجلها الثاني برفسة على بطنها أفقدتها وعيها. بعدها جرّداها من ملابسها واغتصباها بالتناوب من جميع الجهات، ثم أحرقا الحجرة بما فيها قبل أن يغادرا.

حينما زحفت النار فوق بدنها المسدوح، كانت تحس بجحيمها وهي تطقطق على جلدها، دون تمكنها

من تحريك أي عضلة في بدنها، فقدت أعصابها القدرة على إيصال الإستجابة، لم تتمكن حتى من تحريك جفنيها أو إطلاق الصراخ الذي انحبس في جمجمتها. شوتها النار ببطء وتروّ، أحالتها قطعة فحم، غشاها بعدها رماد وغبار وأنقاض، لم يبق منها ما يشير الى أنها كانت هناك..

ذانك الملثمان كانا زوجي ابنتيها: صداح ويعسوب.

صداح ويعسوب:

بعد أيام من زواجهما بالجرادتين، وفك ارتباطهما بـ (جماعة العرابيد)، متعهدين لرئيسهما شايع بن حمود بعدم الرجوع إلى حياة الغزو والنهب،

عادا والتمسا منه أن يحلهما من ذاك العهد، إلا أنهما وجداه صارماً إزاء الأمر، عبس في وجهيهما وحذرهما بشدة من مجرد التفكير بذلك.

لم يسلمّا للأمر الواقع بسهولة. صارا يغيبان عن بيتهما الجديد في الجفرانة، ويذهبان إلى أماكن بعيدة غربـي الفرات باتجاه الأراضي السورية، خارج نفوذ جماعة شايع (العرابيد)، يجندان في الخفاء عناصر مارقة من هنا وهناك، أناساً على شاكلتهم.

في ظرف ستة أشهر تمكنوا من تشكيل عصابة تضم حوالي أربعين نفراً، أطلق الناس عليهم لاحقاً (العوجان)، كانوا يغزون وينهبون ويقتلون دون أي رادع. وبعد أن تفاقم خطرهم على القبائل في تلك المناطق، استنجد الشيوخ والأعيان بشايع، وعدهم هذا

خيراً. كانت (جماعة العرابيد) أقوى وأكثر عدداً وأشد تنظيماً من (العوجان). ثم حدثت مناوشات واصطدامات بين الجماعتين هنا وهناك رغم أن أيا منها لم يصل حد المواجهة الشاملة. لكن بعد أن هجم (العوجان) على قصر فروان، وفعلوا ما فعلوه هناك. قرر شايع أن يحسم الأمر معهم.

جراكة (توأمة شاغية):

حينما رجع صداح ويعسوب من مجزرة قصر فروان إلى بيتهما في الجفرانة، كان قد مضى عليهما أربعة أشهر متواصلة بعيداً عن البيت، جاءا مسرعين على فرسيهما، ثملين، غاضبين، صاخبين.. وقبل أن يصلا البيت، بدأ صداح يزعق بجنون من بعيد:

"شاغية، اخرجي لي يا مگزوعة".

كانتا نائمتين في حجرة واحدة، صحت جراكة أولاً على صوت الضجيج، حدست من نبرة النداء انهما يضمران شراً جسيماً هذه المرة. خرجت إليه على أنها شاغية:

"نعم، ماذا تريد؟".

خاطبها من فوق فرسه:

"أين هو صاحبكِ بيّاع الخروِع والنعال؟ أين هو الكلب، اعرف انه مقيم في الجوار، سأقتله شر قتلة بعد أن أفرغ منك".

أجابت بهدوء:

"ليس هناك من صاحب، من أين لك هذا الكلام؟".

"الناس يتقولون من وراء ظهري، يقولون إنني لست برجل، كل ذلك بسببك يا فاجرة".

"لا ألومهم في ذلك، لم تكن في حياتك يوماً رجلاً".

استشاط من هدوئها وطريقة اجابتها، أُهين أمام أخيه، ترجل عن فرسه وتقدم ناحيتها صارخاً:

"سأريك الآن كيف يكون الرجل، سأنكحك هنا على الأرض ياساقطة كما تُنكح الكلبة".

لم تتراجع أمامه، ظلت هادئة تنظر الى وجهه

دون أن يرف لها جفن.. تسمّر هو في مكانه على بعد خطوات منها، لم يجرؤ على التقدم أكثر. انتابته حالة الشلل كما العادة كلما وقف هو او أخوه قرب واحدة منهما. غضب من نفسه وصار يغلي من الداخل. اخوه يعسوب ما زال على فرسه يتفرج من بعيد. انتابته بدوره موجة الشعور بالعجز والعار وهو يراقب، كان عليه أن يفعل شيئاً، رفع بندقيته وأطلق على جراكة. اصابها في وجهها مباشرة فانفتح في رأسها من الخلف، ثقب واسع. هتف من مكانه الى صداح:

"الآن بإمكانك أن تتمم مع امرأتك ما كنت تريد فعله".

شاغية:

منذ زيارة الهبش الأخيرة للجفرانة ولقائه بشاغية أول مرة، قرر ان يطيل إقامته في الواحة بعض الشيء، لقيت رغبته هذه ترحيباً من الشوايع، احتفوا به. قال له كبيرهم عليّان بن شايع:

"إليك الواحة وما فيها، اختر المكان الذي يناسبك، فيكون منزلاً لك".

كان للهبش خيمة صغيرة يحملها معه في ترحاله أنّى ذهب، هو لا يحب النزول في بيت أحد، الجميع يعرف ذلك. نصب خيمته في مكان منعزل على رابية. لم تغمض له عين تلك الليلة. منذ صباح اليوم التالي سعى ماشياً الى بيوت الواحة، يشير على كل من أشكلت عليه مسألة، ويعين كل من احتاج عونه. حرص على أن لا يلفت الأنظار إزاء لهفته لرؤية شاغية،

ووجد في مساعدتها في تحضير الأصباغ، التي سألت عنها، حجة للطرق على بابها بين حين وحين. كان زوجا الجرادتين حينها غائبين عن البيت كعادتهما.

كل مرة يعودها فيها يعلمها سراً من أسرار تحضير الألوان، فالأحمر من مزج عصارة بقّ اللك مع الحناء، والقرمزي من غصن الفوّة. الأزرق من فسائل النيلة. الأصفر من بتلات القرطم. الأخضر من الدفنة والمثنان. الأرجواني من قشور السنديان ممزوج بصدأ الحديد، البرتقالي من قشور البصل، والبنفسجي من جلد الباذنجان. وبعد كل ذلك علمها كيف تثبّت الألوان على الغزول بحجر الشّب.

كانت شاغية شغوفة لرؤيته كل يوم، تسأله أن يعينها في أمور بعد أمور لأجل أن تكون حواليه، تتنسم

وجوده قربها، تلمسه مصادفة فتزهر تحت جلدها وديان ومروج. وجدت نفسها معقودة به، تتنفس فيه ولأجله. تحررت فيها مشاعر كانت قبل أن تلقاه، تائهة في ثنايا أحشائها، طيوراً ضائعة فقدت حس الإتجاه، لعلها لم تجد ضالتها كل تلك السنين فحطت لترتاح لحين على توأمها جراكة. لكن ما ينتابها بعد الهبش شيء آخر، موجات مسكرة تجتاحها من جميع الجهات، تعيث بها صعوداً ونزولاً. شيئ ما، تعرف فجأة ان وجودك دونه ليس له معنى...

مع كل ذلك الزوغان اللذيذ، كانت شاغية تحاول، قدر الإمكان، تجاهل إشارات حمر تصدر من قاع وعيها، تسحبها الى الأرض بقوة كلما حاولت التحليق عالياً: "أنت لست مُلك نفسك، بل ملك رجل

اسمه صداح".

تمرّ عليها لحظات تصحو فيها الى نفسها، تعود مدحورة الى واقعها الملتبس، وحقيقة الأرض الهشة التي تقف عليها. تضربها حقيقة ان صداح سيعرف آجلاً أم عاجلاً بأمر الوافد الجديد، وتردده على بيته في غيابه. سيأتي قريباً لينتقم لرجولته. لم تكن خائفة منه على نفسها بل على الهبش. قررت ان تستعد لذلك اليوم الذي هو آت لا محال. أعدت له مِروَداً طويلاً، رأسه مدبب، ممسوحاً بسمّ القنطين، وضعته قرب فراشها.

في الليلة التي عاد فيها الأخوان الى البيت بنيّة الانتقام، وخرجت جراكة إلى صداح على أنها شاغية، وبينما كانت تردّ عليه الكلام، صحت شاغية في حجرتها، تسللت من خلف البيت ومعها مِروَدها

المسموم، تخفّت تحت جنح الظلام وذهبت من خلف الأجمات الى حيث يقف يعسوب على فرسه، دون أن ينتبه اليها أحد. بعد أن أطلق هذا النار على أختها، ثم خاطب أخاه بأن يأخذ وطره منها، عاجلته شاغية بطعنة في ظهره خرجت من بطنه، فسقط في الحال من على فرسه، انقضّت عليه بطعنة أخرى في قلبه. صاح قبل أن يلفظ آخر نفس: "قتلتني السافلة".

انتبه صداح من مكانه وكان على مبعدة خمس عشرة خطوة، فقد صوابه، تناول بندقيته وركض باتجاه أخيه، تعثر وسقط مرتين، وصل إليه منقطع الأنفاس. لم تكن شاغية هناك، اختفت تماما. تلفّت من حوله مرتعباً، ملابسه تبقّعت بالعرق. برك على الأرض يتحسس وجه أخيه وقد تجمدت عيناه على ذهول. هز

رأسه بيأس، غير مصدق ما حدث للتو، انهار يبكي بصخب، دموعه اختلطت بسوائل بدأت تنزّ من أنفه. نهض على قدميه وفي عينيه شر سافر، أخذ يطلق في جميع الاتجاهات كالمجنون:

"سأجدك أنّى اختبأتِ، وأقتلكِ قبل أن تمضي الليلة... وأقتل العشيق، ثم أقتل جميع من في هذه الواحة الملعونة".

شايع:

كانت أخبار الأخوين من قطع الطرق وانتهاك البيوت الآمنة والهجمات على القوافل، تحرج شايع وجماعته الى أبعد حد أمام القبائل المتعاهدة معه، فصداح ويعسوب، ما زالا عند الناس محسوبين على

جماعة شايع. صارت المواجهة بين الجماعتين أمراً لا مفر منه، لكن خبرة شايع الطويلة في الاشتباك وحرب العصابات جعلته يتأنى في الخروج إليهم مع جماعته، فالذهاب خارج مناطق نفوذه قد تجعل رجاله عرضة للكمائن. وعليه، فكر طويلاً لأجل وضع خطة محكمة يصطاد بها الأخوين بعيداً عن معقليهما، وحيث لا يكونان وسط رجالهم.

عرف أنهما قادمان إلى بيتهما لإيداع ما غنماه من الهجمة الأخيرة على قصر فروان. فأعد لهما كميناً على مدخل الجفرانة من ناحية الشمال.

الذي حصل هو أنهما حينما قدما الى بيتهما في الجفرانة، اتخذا طريقاً آخر أنقذهما، دون أن يعلما، من الكمين الذي أعد لهما. ثم حصل ما حصل، في البدء

تم قتل جراكة، تناهى صوت الاطلاقة إلى شايع وجماعته الرابضين في الكمين، فشكوّا أن الأمور قد خرجت عن السيطرة. أمر شايع قسما من رجاله بالتوجه الى داخل الجفرانة ليستعلموا عن جلية الأمر، بعدها بقليل سمعوا أصوات إطلاقات أخرى متتابعة، فتأكدوا أن مصدرها هو الأخوان. ترك باقي رجال الكمين أماكنهم ودخلوا الى الواحة من عدة جهات، لأجل أن لا يتيحوا لأحد منفذاً الهروب.

كان صداح يتقدم ناحية أكواخ الشوايع قرب النبع ويطلق النار لا على التعيين، كمن فقد رشده، حينما صار في فسحة من الأرض خالية من الأشجار على مبعدة حوالي مائة خطوة عن الأكواخ. أضيء المكان فجأة بالكامل، تلفت حوله، فإذا بحوالي خمسين

رجلاً من (جماعة العرابيد) يطوقون مكانه، بعضهم يحمل مشاعل وبعضهم مصوب بندقيته صوبه، وقبل أن يفيق من وقع المفاجأة انهمرت عليه الإطلاقات من جميع الجهات، مزقت جسده إرباً، صار يترنح بقوة، سقط على وجهه، جثة حمراء تملؤها الثقوب.

بعد ان هدأ الوضع، وتأكد الجميع من زوال الخطر، خرج الشوايع من بيوتهم، أولاد شايع، كناته، أحفاده، مستبشرين بسلامتهم وبعودة ابيهم اليهم، الا انهم لم يجدوه بين رجاله، اختفى من المكان دون أن يلاحظ ذلك حتى أقرب رجاله.

***

حين وطأت حوافر فرسه أرض الجفرانة،

كان ذلك أول دخول له منذ أن غادرها قبل أكثر من تسع سنين. مرقت في أوصاله رعشة خاطفة حينما لامست وجهه أول نسائم ريحها، انخفض ضغط الدم في شراينه بشكل مفاجئ، تسارعت دقات قلبه، لم يكن حنينا للأهل أو المكان، شيء أبعد من ذلك بكثير.

تسمّرت الفرس على الأرض لا تتزحزح من مكانها. كان ذلك أثناء حصار رجالة للواحة، أي قبل مقتل صداح بوقت قصير. التفت اليه بعض رجاله مستفهمين، أشار بيده إليهم أن يواصلوا المهمة، على أن يلحق بهم بعد حين.

بقي بمفرده، تلفّت حواليه، سكون تام، شعر كما لو كان بمفرده على هذه الأرض. ترجل من على فرسه، ثم توجه شرقاً، ترك لقدميه أن تتبعا حدساً ما

يقوده نحو ذلك الاتجاه.

مشى مسافة داخل الواحة حتى صار بعيداً تماماً عن الجمع، استمر بالمسير، فإذا به أمام رابية اعتلتها خيمة بيضاء صغيرة، ينتصب أمامها رجل طويل لم يتبين شيئاً من ملامحه عن بعد، واقفاً لا يتحرك، يرنو اليه من هناك، كما لو كان متوقعاً لقدومه. اقترب شايع أكثر، صار أمامه، دخل حيزه، الآن صار يراه جيداً.

أزاح شايع لثامه من على وجهه، هو الآن وجهاً لوجه معه. تمعن في وجه الهبش للحظات، صورة طبق الأصل منه، أو بالأحرى من شبابه، ابتسم الهبش اليه، بقيا هكذا دون أن ينطق أحدهما بكلمة.

إنه هو، كيف فاته ذلك، هو الرجل الذي سيعرفه حين يلقاه، تذّكر العبارة التي قالها له شيخه السندي قبل نحو خمسين عاماً، حينما حمّله رسالة لم يعرف حينها فحواها أو اي من كلماتها.

انه هو. لكن أية رسالة سيبلّغها إياه؟ أدرك لحظتها أنه لا توجد رسالة. هو نفسه كان الرسالة التي ستصل الى الهبش، وها قد وصلت اليوم في الوقت المحدد. ماذا بعد ذلك؟.. لا شيء...

قد تم الأمر.

نهاية الهبش وشاغية:

في اليوم التالي عثر أولاد شايع على جثة أبيهم فوق الرابية قرب الخيمة البيضاء. غسّلوه ودفنوه

في مساء ذلك اليوم في المكان نفسه حيث وجدوا جثته. كانت ميتة طبيعية. لم يكن الهبش هناك، اختفى تماماً. كما لم يعثر أحد على شاغية منذ تلك الليلة الدامية. بينما وجدوا جثة اختها جراكة التي قُتلت على عتبة دارها. دفنوها على الرابية أيضا، قرب قبر شايع. ودفنوا جثتي صداح ويعسوب هناك ايضاً. صارت الرابية منذ ذلك اليوم مدفنا للشوايع. وهي ما زالت قائمة هناك حتى وقتنا الحاضر.

لم يظهر أي أثر من بعد ذلك للهبش وشاغية. أما بيت التوأم، الذي بات خالياً من ساكنيه بين ليلة وضحاها، فانهجر من بعدهم وتحول بعد حين الى خربة.

بقيت الجومة وحدها شاخصة في باحة البيت

لوقت طويل، وفيها البساط الأخير الذي أنجزته الجرادتان، غير منزوع من الآلة بعد، البساط الذي عليه هيئة الطير، وقد تجلى كبيراً بهياً بكامل ألوانه وتفاصيله. لم يُر مثله من قبل، صار موضوعاً للأقاويل والتأويلات، وبدأ الناس يأتون من خارج الواحة والبلدات المجاورة للفرجة عليه، حتى وصل خبره الى بعض أئمة الجوامع، فغضبوا وأفتوا بعدم جواز بقائه كونه وثناً يفتن الناس ويغويهم إلى طريق الشرك، كما كان الأمر في عهد الجاهلية.

ودرءاً للمشاكل، آثر كبير الشوايع رفع البساط من الباحة، خبأه في بيته تحت نضد البسط، ولم يتح لأحد من حينها النظر اليه.

نُسي أمر البساط من بعد ذلك لعقود طويلة.

وتنقل بين الورثة، حتى ظهر من جديد في تسعينيات القرن الماضي إبان فترة الحصار الدولي على العراق، حيث الناس يبيعون كل ما يمكن بيعه ليشتروا بثمنه ما تيسر من طعام. شوهد البساط في مزاد الصبّاغ في بغداد، جلبه أحد أحفاد شايع، وبيع بما يعادل سبعين دولاراً. استمر بعدها متنقلاً من يد الى أخرى، الى ان وصل الى عمان وانتهى هناك في حوزة جامع انتيكات نيجيري دفع فيه ستين ألف دولار.

أما بشأن الاختفاء الغامض لشاغية والهبش بعد تلك الليلة، والطريقة المفاجئة التي اختفيا بها والتي جاءت بعد علاقة حب جامح ومحرم في الوقت ذاته، كل ذلك صار مادة خصبة لنسج حكايات من كل نوع، بقيت متداولة شفاهياً لفترة طويلة في تلك المناطق، لكن

اندثر معظمها بعد مرور جيلين عليها.

الذي وصل الى يدي منها ثلاث، جميعها تناولت الأحداث والشخوص نفسها تقريباً، مع اختلاف متفاوت في التفاصيل. أما النهايات فكانت مختلفة من حيث الشكل لكن تلتقي في المضمون نوعاً ما. الحكايات كانت غنية في مخيلتها وتفاصيلها، وقد انصهرت ضمنها تأثيرات إرث مختلط من الأساطير السومرية والتصوف الإسلامي والأعراف البدوية. وبالامكان استخلاص فكرة واحدة مشتركة من الحكايات الثلاث، ملخصها الآتي:

كائنان غير بشريين من زمن سحيق، أحبا بعضهما، سما بهما الحب حتى صارا يعبدان نفسيهما، فأغضب ذلك الإله، مسخهما الى بشر، وأنزلهما

يعيشان على الأرض، ووضع بينهما تعويذة على ان لا يلتقيا الى الأبد. تمر العصور عليهما وينتصر الحب بعد تضحيات جسيمة، ليكسر التعويذة، ويلتقيان في الآخر، يتّحدان ويصعدان من جديد إلى مكانتهما الأولى. الحكاية الأولى تقول: إنهما جنيّ وجنية من عهد بابل، والثانية: مَلكان من السماء السابعة، والثالثة: نجمان سقطا من بنات نعش.

***

في تلك الأيام، كان
هناك حية وعقرب
وضبع

كان هناك أسد وكلب

بري وذئب

كان هناك برق ورعد

كان هناك خوف
ورعب..

ثم ظهرت الآلهة لتُثبت
السكينة في قلوب الناس

صارت شوبور، أرض
المشرق، أرض الحليب
وشرائع العدل

وسومر، أرض
الجنوب، ذات اللسان

الواحد، أرض النخيل

وأوري، أرض الشمال،
التي يجد فيها كل واحد
حاجته

ومارتو، أرض
المغرب، أرض الوفرة
والمراعي

كان العالم أجمع يعيش
في قناعة تامة وامتنان

يزرعون وينجبون
ويصلّون ويضحّون
باسم الإله الأعظم إنليل

.. حتى جاء شخص اسمه شَبَد، الذي كفر بكل تلك النعم، وصار يُسبّح بحمد نفسه الفانية.

تمّت